الأحاديث القدسية

الشيخ متولي الشعراوي

الجزء الأول

تصحيح
سمير رباب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المعدّ

إن الحمد للَّه نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.

من يهده اللَّه فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلٰه إلا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد.. فإن الحديث القدسي هو ما رواه النبي ﷺ عن ربه تبارك وتعالى على غير النسق القرآني ونظمه وإعجازه، ولكنه أشبه في نظمه وأسلوبه بسائر الحديث النبوي.

ويُعدُّ الحديث القدسي في جملة السنة النبوية لكون راويه هو النبي ﷺ، وله صيغ كثيرة يُعرف بها الحديث القدسي، وأشهرها ما كان صريحاً في بيان هذه النسبة مثل قول النبي ﷺ: «**قال اللَّه**...»، أو «**يقول اللَّه**..»، أو «**قال ربكم**..»، أو «**يقول ربكم**»، أو «**أوحى اللَّه**.. **أن**..»، أو ما أشبه ذلك من الصيغ التي تثبت القول للرب تبارك وتعالى عن طريق إسناد فعل القول ـ أو ما يؤدي معناه ـ إسناداً صريحاً إليه.

والحديث القدسي مبثوث في مدوّنات السنة ومصنفاتها المختلفة من صحاح ومسانيد وسنن ومعاجم وجوامع وغيرها، لا يتميز دون سائر أحاديثها في باب مستقل أو موضع محدد.

وهو منقول بطريقة الآحاد كعامة الأحاديث النبوية، ولذا فإنه يخضع لقواعد علم الحديث وعلل الرجال وما يطرأ على الأسانيد والمتون من صحة وحسن وضعف ووضع، بل إنه لإقبال العامة عليه كان مجالاً لاختراع الكذابين واختلاق الوضاعين، مما يستلزم ضرورة النظر في أسانيده وفحص متونه، ليعرف صحيحه من سقيمه.

وليس للحديث القدسي قوة إعجاز خاصة كالقرآن الكريم، ولكنه لجلالة نسبته، ولُطْف موضوعه كان له موقع خاص في السمع، واستقبال متميز في النفس، وأثر ظاهر في الشعور والوجدان.

وهو لا يتعرض لتفصيل الأحكام الفقهية، ولا لبيان الشرائع التعبدية كالحديث النبوي، ولكنه يركّز على بناء النفس الإنسانية وتقويمها وتربيتها على الأغراض الشرعية، والمقاصد الربانية.

فالحديث القدسي يحضّ النفس على الطاعات، ويحذر من المعاصي والمنكرات، ويدعو إلى الخير والفضيلة ومكارم الأخلاق، ويوجه النفس إلى حب اللَّه وطلب رضاه، ويُرغِّب في الجنة ويُخوِّف من النار.

وهو في جملة القول يدور في فلك الوعظ والتوجيه والتربية.

قال ابن حجر الهيتمي في شرح الأربعين النووية في شرح الحديث الرابع والعشرين، وهو حديث أبي ذر الغفاري عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تعالى أنه قال:

«**يا عبادي، إني حرّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم مُحرَّماً فلا تظالموا . .**» الحديث.

قال: «اعلم أن الكلام المضاف إليه سبحانه ثلاثة أقسام:

أولها: وهو أشرفها «القرآن» لتميّزه عن البقية بإعجازه من أوجه كثيرة، وكونه معجزة باقية على ممرّ الدهر، محفوظة من التغيير والتبديل.

ثانيها: كتب الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ قبل تغييرها وتبديلها.

ثالثها: الأحاديث القدسية، وهي ما نُقل إلينا آحاداً عن اللَّه، مع إسناده لها عن ربه، فهي من كلامه تعالى، فتضاف إليه، وهو الأغلب، ونسبتها إليه حينئذٍ نسبة إنشاء، لأنه المتكلم بها أولاً، وقد تضاف إلى النبي ﷺ؛ لأنه المخبر بها عن اللَّه تعالى، بخلاف القرآن فإنه لا يُضاف إلا إليه تعالى».

ويقول فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي:

«اختلاف القرآن الكريم والأحاديث القدسية والأحاديث النبوية أكبر دليل على أن القرآن والأحاديث القدسية ليسا من عند رسول اللَّه ﷺ؛ لأن الشخصية

الأسلوبية لأي إنسان هي شخصية مميزة، ولا يمكن أن ينفعل أحد بأحداث الحياة، فيكتب كل مرة بأسلوب مختلف تماماً عن الأسلوب الآخر، أو يكتب اليوم بأسلوب، وغداً بأسلوب، وبعد غد بأسلوب، ثم يعود بعد ذلك إلى الأسلوب الأول.

إنه إذا قرأ أحدهم القرآن نقول: هذا قرآن، وإن تلا أحدهم حديثاً قدسياً نقول: هذا حديث قدسي.

وإذا قال أحدهم حديثاً نبوياً قلنا: هذا حديث نبوي.

ولكل إنسان منا شخصية أسلوبية واحدة، إذا حاول أن يخرج منها فإنها تغلبه.

والفروق الهائلة في الأساليب بين القرآن والأحاديث القدسية والأحاديث النبوية، أكبر دليل على صدق رسالة محمد ﷺ.

فرسول اللَّه الذي لم يقرأ ولم يكتب، هل يمكن أن تكون له ثلاثة أساليب متميزة؟ تختلف بعضها عن بعض تماماً، فلا توجد عبقرية في الدنيا من يوم أن خلقت إلى يومنا هذا لها ثلاثة أساليب، لكل منها طابع مميز لا يتشابه مع الآخر.

كيف يمكن أن يفرق رسول اللَّه ﷺ وهو يتكلم بين القرآن والحديث القدسي، والحديث النبوي. بحيث يعطي كلاً منها طابعاً وأسلوباً يميزه عن الآخر».

تلك كانت كلمات فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي، أفاضها اللَّه على قلبه وعقله ولسانه، فقد منحه اللَّه سبحانه القدرة على النفاذ فيما وراء الأشياء، بالبحث وراء الألفاظ والمعاني الظاهرية للوصول إلى المفهوم العام والشامل الذي ينظم آيات القرآن في عقد واحد.

وهي القضايا الأساسية التي أنزل الحق سبحانه القرآن من أجلها، وهي:

ـ ألوهية اللَّه الواحد الأحد.

ـ صدق رسالة محمد بن عبد اللَّه ﷺ.

ـ اليوم الآخر.

إنني منذ استمعت لفضيلة الشيخ متولي الشعراوي في السبعينيات، تلك البدايات الأولى لكثيرين ممن تتلمذوا على علمه ونهلوا من إشاراته البديعة، ولفتاته العميقة في فهم القرآن وتفسيره.

منذ هذا الحين وأنا أوقن أن تفسير فضيلته كنز لا ينفد من العلم، بل إنه موسوعة إسلامية تتضمن كل أبواب العلم، فتجد فيه القصص، والفقه، والحكمة، والبلاغة، والبيان والبديع القرآني، والحديث النبوي، والقدسي.

لقد بدأت منذ مدة طويلة في إعداد هذه السلسلة من الأحاديث القدسية من خواطر فضيلة الشيخ، وها هو الجزء الأول يرى النور، عسى أن ينفع اللَّه بها كل مُهْتدٍ في ظلمات ألمَّتْ بالبشرية، وأرجو أن يمنحنا اللَّه القدرة على متابعة الأجزاء، وأن يجعلنا من خدمة العلم الشريف.

أرجو أن يجعل اللَّه هذه السلسلة في ميزان حسناتنا، يوم يقوم الناس لرب العالمين، وتُنشَر الصحف، وتُوزن الأعمال.

إنه نعْم المولى ونعم النصير.

عادل أبو المعاطي
القاهرة في ٢٠ نوفمبر ١٩٩٤

بسم الله الرحمن الرحيم

صلة الرحم

قال رب العزّة في الحديث القدسي:

١ ـ «أنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققْتُ لها اسماً من اسمي، مَنْ يصلها أصله، ومن يقطعها أقطعه فأبُتُّه»[(١)].

الحق سبحانه يريد أن نتذكر دائماً أنه يحنو علينا ويرزقنا، ويفتح لنا أبواب التوبة باباً بعد آخر، فهو الرحمٰن ذو الرحمة الواسعة.

والرحمة والرحمٰن والرحيم.. مشتق منها الرحم الذي هو مكان الجنين في بطن أمه.. هذا المكان الذي يأتيه فيه الرزق.. بلا حول ولا قوة.. ويجد فيه كل ما يحتاج إليه نموّه مُيسَّراً.. رزقاً من اللَّه سبحانه وتعالى.. بلا تعب ولا مقابل.

انظر إلى حُنُوِّ الأم على ابنها وحنانها عليه.. وتجاوزها عن سيئاته وفرحتها بعودته إليها.

فهو سبحانه لا يأخذنا بذنوبنا، ولا يحرمنا من نعمه، ولا يهلكنا بما فعلنا، ولذلك فنحن نبدأ تلاوة القرآن الكريم ببسم اللَّه الرحمٰن الرحيم، لنتذكر دائماً أبواب الرحمة المفتوحة لنا، نرفع أيدينا إلى السماء ونقول: يا رب رحمتك، تجاوز عن ذنوبنا وسيئاتنا.

وبذلك يظل قارئ القرآن متصلاً بأبواب الرحمة، كلما ابتعد عن الرحيم أسرع ليعود إليه، فما دام اللَّه رحماناً رحيماً لا تغلق أبواب الرحمة أبداً.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ١٩١ ـ ١٩٤) والترمذي في سننه (١٩٠٧) وقال: حديث صحيح.
وكذا أخرجه أبو داود في سننه (١٦٩٤) كلهم من حديث عبد الرحمٰن بن عوف.

وحين تبدأ العمل الحلال باسم اللَّه، فأنت تعرف أن الحق معبود، وله أوامر بـ« افعل »، وله نَواهٍ بـ« لا تفعل ».

وإياك أن تستحي إن كنت عاصياً أن تستفتح أعمالك باسم اللَّه، لأن اللَّه لا يحقد على خَلْقه، ولا يتغير على خلقه، ولا ينفض يده من أمور خلقه.

فإن كنت قد عصيت اللَّه في شيء فأقبل على عملك باسم اللَّه؛ لأنه رحمٰن؛ ولأنه رحيم، فهو سبحانه وتعالى حين شرع عقوبة على معصية من المعاصي، فمعنى ذلك أنه أَذِنَ بأن تقع تلك المعصية.

فإن كنت قد عصيت اللَّه، وتخجل من أن تبدأ عملك باسم اللَّه الرحمٰن الرحيم، فتذكّر أن الحق تبارك وتعالى « رحمٰن » و« رحيم »، ونعرف أن الاشتقاق في « رحمٰن » و« رحيم » من الرحم.

والرحم هو مكان الجنين في بطن أمه، وهو منتهى الحنان.

ولذلك جاء هنا في الحديث القدسي حديث اللَّه سبحانه عن صِلَة الرحم، والحق حَنَّان على عباده، وعَطُوف عليهم.

كلنا نعيش برحمات اللَّه، حتى الكافر يعيش على الأرض برحمة اللَّه، ويأخذ أسباب حياته برحمة اللَّه، والنعم والخيرات التي يعيش عليها تأتيه بسبب رحمة اللَّه.

والمؤمن يأخذ نعم الدنيا برحمة اللَّه، ويزيد اللَّه له بالبركة والاطمئنان، والاطمئنان نعمة كبرى، فمن يَعِشْ في هذه الحياة وهو مطمئن إلى غاية أفضل من هذه الحياة، فهذا لون عظيم من الاطمئنان.

يقول الحق سبحانه:

﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٦].

هؤلاء يقول عنهم:

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٧].

فالصلاة من اللَّه عطاء الرحمة والبركة.

والصلاة من الملائكة استغفار.

والصلاة من المؤمنين دعاء.

ويقول الحق سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

إن الدنيا كلها مسخّرة تحت قهر الرحمٰن ومشيئته وتسخيره، وله تمام التصرف في كل الكائنات، وهو الخالق البديع، ولكن ما هي الرحمة؟

الرحمة: ألا تُبتلى بالألم من أول الأمر، أما الشفاء: فهو أن تكون مصاباً بداء ويُبْرئك اللَّه منه، لكن الرحمة هو ألا يأتي الداء أصلاً.

واللَّه سبحانه وتعالى يعلم عن عباده أن أحداً منهم قد لا يبرأ من أن يكون له ذنب، فلو حاسبنا بالمعايير المضبوطة تماماً فلسوف يتعب الإنسان منا.

ولذلك أحب أن أقول ـ دائماً ـ مع إخواني هذا الدعاء:

«**اللهم بالفضل لا بالعدل، وبالإحسان لا بالميزان، وبالجبر لا بالحساب**».

أي: عاملنا بالفضل لا بالعدل، وبإحسانك لا بالميزان، لأن الميزان يُتعبنا.

ولقد علَّمنا رسول اللَّه ﷺ أن دخول الجنة لا يكون بالأعمال وحدها، ولكن بفضل اللَّه ورحمته ومغفرته، فيقول ﷺ: «**لن يدخل أحدكم الجنة بعمله. فقالوا: ولا أنت يا رسول اللَّه؟ قال: ولا أنا حتى يتغمّدني اللَّه برحمته**»(١).

إذن: فالمؤمن يرجو اللَّه، ولا يشترط على اللَّه، إن المؤمن يتجه بعمله خالصاً للَّه، يرجو التقبل والمغفرة والرحمة، وكل ذلك من فضل اللَّه.

والحق سبحانه يقول:

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

والكتابة تدل على التسجيل، ولا أحد يُوجب على اللَّه شيئاً؛ لأنه خالق

(١) حديث متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٦٤) ومسلم في صحيحه (٢٨١٨) من حديث عائشة رضي اللَّه عنها.

الكون، وله في الكون طلاقة المشيئة، فلا أحد يكتب عليه شيئاً ليلزمه به، ولكنه سبحانه هو الذي أوجب على نفسه الرحمة.

ومن ظواهر رحمة اللَّه سبحانه:

﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وتشريع التوبة هو رحمة من اللَّه تعالى بعباده الذين يرتكبون الذنب في حالة الحماقة والطيش، ويُقبلون على التوبة فوراً، هؤلاء يقبل الحق سبحانه توبتهم.

أما الذين لا يندمون على فعل السوء، ولا يُقبلون على التوبة من فَوْر ارتكاب الذنب، وينتظر الإنسان منهم مجيء الموت ليتوب قبله. أي: وهو في حالة الغرغرة ـ وهي تردد الروح في الحلق عند الموت.

هؤلاء لا تُقبل لهم توبة:

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨].

والحق سبحانه وتعالى توّاب ورحيم، وكلمة توّاب صيغة مبالغة، وكلمة رحيم صيغة مبالغة، وهذا لا يعني بالنسبة للَّه أن هناك صفة للَّه تكون مرة ضعيفة ومرة قوية، فكل صفات اللَّه واحدة في الكمال المطلق.

وصيغة المبالغة في الخلق إما أن تنشأ في قوة الحدث الواحد، وإما أن تنشأ من تكرار الحدث الواحد.

إن قولك: «اللَّه توّاب» معناه، أنه عندما يتوب على هذا وذاك وعلى ملايين الملايين من البشر. فالتوبة تتكرر.

وإذا تاب الحق في الكبائر، أليست هذه توبة عظيمة؟

هو توّاب ورحيم؛ لأنه سبحانه وتعالى يتصف بعظمة الحكمة والقدرة على الخلق والإبداع، وهو الذي خلق النفس البشرية، ثم قنّن لها قوانين.

وهو سبحانه حين تاب على العاصي رحم من لم يَعْصِ، إنه القائل:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٦].

ولو قال الحق: إنه توّاب فقط، لأذنب كل واحد منا لكي يكون الوصف معه، وقائم به لا محالة، ولكنه قال أيضاً: ﴿تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٦].

أي: أنه يرحم بعضاً من خلقه فلا يرتكبون أي معصية من البداية، فالرحمة ألا تقع في المعصية.

حسن الظن باللَّه

قال سبحانه في الحديث القدسي:

٢ ـ «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، وإن اقترب إليَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن اقترب إليّ ذراعاً اقتربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»[(١)].

إن الحق سبحانه يريد أن ينبهنا إلى أن المفتاح في يدنا نحن، فإذا بدأنا بالطاعة، فإن عطاء اللَّه بلا حدود، وإذا تقربنا إلى اللَّه تقرب إلينا، وإذا بعدنا عنه نادانا، هذا هو إيمان الفطرة.

فاللَّه سبحانه وتعالى يريد أن نعرف أنه قد وضع في يدنا مفتاح الجنة، ففي يد كل واحد منا مفتاح الطريق الذي يقوده إلى الجنة أو إلى النار، ولذلك إذا وفيت بالعهد أوفى اللَّه، وإذا ذكرت اللَّه ذكرك، وإذا نصرت اللَّه نصرك.

فالحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

وفي آية أخرى:

﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وفي آية ثالثة يقول الحق:

﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

إذن: فبمجرد إيمانك ملّكك اللَّه الزمام، فإن أردت أن يتقرب اللَّه إليك ذراعاً، فتقرب أنت إليه شبراً، فالزمام في يدك. وإن شئت أن يتقرب اللَّه منك

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٠٥، ٧٥٠٥، ٧٥٣٧) وأحمد في مسنده (٢/ ٢٥١، ٣٥٤، ٤٠٥) والترمذي في سننه (٣٦٠٣) من حديث أبي هريرة. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

باعاً، فتقرب أنت ذراعاً، وإن شئت أنت أن يأتي ربك إليك مهرولاً ـ جرياً ـ فأت إليه مشياً، فبمجرد أن يراك اللَّه وأنت تقبل وتتجه إليه، كأنه يقول لك: لا. استرح أنت، أنا الذي آتي إليك.

لقد طلب اللَّه منك أن تحضر بين يديه خمس مرات في اليوم، ولكن هل منعك أن تقف بين يديه في أية لحظة؟ لا. بل ترك الباب مفتوحاً لك تأتيه وقت ما تشاء، فإن اللَّه لا يمل حتى يمل العبد.

وأنت في حياتك العادية ـ وللَّه المثل الأعلى ـ إذا أردت أن تقابل عظيماً من العظماء فإنك تطلب منه تحديد ميعاد، فإما أن يقبل العظيم من البشر لقاء من يطلب الميعاد أو يرفض، فإذا قبل فإنه يحدد الزمان ويحدد المكان، وربما طلب ذلك العظيم معرفة سبب وموضوع المقابلة.

أما اللَّه سبحانه وتعالى ـ وله المثل الأعلى في السماوات والأرض ـ فإنه يترك الباب مفتوحاً أمام عبده المؤمن، ليلقاه العبد في أي شيء، وفي أي وقت، وفي أي مكان، وفي أي زمان:

حَسْبُ نفسي عِزاً بأني عَبْدُ ... يَحْتَفي بِي بلا مَواعِيد رَبُّ
هُوَ في قُدْسِه الأعزِّ ولكِنْ ... أنا أَلْقى مَتى وأين أُحِبُّ

الزمام إذن في يد من؟ إن الزمام في يد العبد المؤمن.

فسبحانه حدد لك خمسة أوقات، ولكن بقية الأوقات كلها في يدك، وتستطيع أن تقف بين يدي اللَّه في أي لحظة.

وهو جل وعلا يوضح لك: استرح أنت وسأمشي لك أنا؛ لأن الجري قد يتعبك، لكني لا يعتريني تعب ولا عِيٌّ ولا عجز.

وكأن الحق سبحانه لا يطلب من العبد إلا أن يملك شعوراً بأنه يريد لقاء ربه.

إذن: فالمسألة كلها في يدك، بإيمانك باللَّه وإقبالك على حب الارتباط به، ولذلك يقول سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ . . .﴾ [المائدة: ٥٤].

فحين يحبون اللَّه يرد سبحانه على تحية الحب بحب زائد، وهم يردون

على تحية الحب منه سبحانه بحب زائد، وهكذا تتوالى زيادات وزيادات، حتى نصل إلى قمة الحب، ولكن الحب عند اللَّه لا نهاية له.

ولنا أن نلحظ أن حب اللَّه قد سبق حبهم في هذا القول الكريم: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾؛ لأن هذه هي صفة الانكشاف للعلم، لقد علم الحق سبحانه أنهم سيتجهون إليه فأحبهم، وعندما جاؤوا فعلوا ما جعلهم محبوبين للَّه.

وساعة تقرأ القرآن تجد أن اللَّه يحب أصنافاً من الخلق، قد أتوا بما يحبه اللَّه من الأفعال والسلوك في الحياة.

فيقول الحق سبحانه:

﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

ويقول: ﴿. . . إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

ويقول: ﴿. . . فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

ويقول: ﴿. . . وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

ويقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ويقول: ﴿. . . إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

هؤلاء جميعاً استحقوا حب اللَّه لهم واستحقوا رحمة اللَّه؛ ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

فالذي يحدد قرب الرحمة منه هو الإنسان نفسه، فإذا أحسن قربت منه رحمة اللَّه، فالزمام في يد الإنسان، فإذا كنت تريد أن تقرب منك رحمة اللَّه فعليك بالإحسان.

هذه هي رغبة الكريم سبحانه في أن يعطي بشرط أن نكون أهلاً للعطاء؛ لأنه يريد أن يعطيك أكثر وأكثر.

واقرأ قول الحق: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

فالشكر هنا موجه من العبد للرب، والزيادة من الرب إلى العبد.

والإنسان حين يضع كل المسائل في ضوء منهج اللَّه، فاللَّه شاكر عليم؛

لأن اللَّه يرضى عن العبد الذي يسير على منهجه، وعندما يرضى الرب عن العبد فهو يعطي له زيادة.

والحق سبحانه يقول:

﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [يونس: ٢٦].

والحسنى: هي الجنة. أما الزيادة فقد قال المفسرون: إنها رؤية المحسن. فحب اللَّه لعباده هو دوام فيوضاته على من يحب. هذا في الدنيا، أما في الآخرة فالحق يلقاه في أحضان نعمه، ويتجلى عليه برؤيته.

والزيادة هنا زيادة تليق بمن زادها سبحانه وتعالى، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء: ٣١].

فأنت عندما تجتنب الكبائر لا يسقط عنك العقاب فقط، بل يدخلك اللَّه مدخلاً كريماً، والمدخل الكريم يتناسب مع من يدخلك في مدخله، فانظر إلى المدخل الكريم من اللَّه وما شكله؟

ورسول اللَّه ﷺ يقول: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول اللَّه تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟. فيقولون: ألم تُبيِّض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتُنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل**»(١).

وبعض العلماء يرى في قول الحق سبحانه:

﴿ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

أن اللَّه قد جعل المغفرة أمراً متعلقاً بالعابد للَّه، فإن شئت أن يغفر اللَّه لك فأكثر من الحسنات حتى يبدل اللَّه سيئاتك إلى حسنات، وإن شئت أن تُعذَّب ـ وهذا أمر لا يشاؤه أحد ـ فلا تصنع الحسنات.

وهذا يعرفنا أن الحق سبحانه وتعالى حين يطلب منا الإيمان به فإنه

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٨١)، وأحمد في مسنده (٤/ ٣٣٢، ٣٣٣) والترمذي في سننه (٢٥٥٢) من حديث صهيب بن سنان الرومي.

يُملّكنا الزمام، وبمجرد إيماننا به فنحن نتلقى منه زمام الاختيار.

وهذا من مظاهر لطف اللَّه سبحانه بعباده، فهو الذي إذا ناديته لبَّاك، وإذا قصدته آواك، وإذا أحببته أدناك، وإذا أطعته كافاك، وإذا أعطيته وأقرضته من فضله وماله الذي منحك عافاك، وإذا أعرضت عنه دعاك، وإذا قربت من اللَّه هداك.

ولكن ما هو الذكر المقصود في هذا الحديث القدسي؟

إن عدم تحديد العلماء المعنى المقصود بالذكر، هو الذي أوجد بينهم خلافاً كبيراً، فالإمام مالك يرى أنك إذا ذبحت ولم تذكر اسم اللَّه سواء أكنت ناسياً أم عامداً، فلا يصح لك أن تأكل من الذبيحة.. ويرى الإمام أبو حنيفة: إذا كنت لم تُسمِّ ناسياً فكل مما ذبحت، لكن إن كنت عامداً فلا تأكل.

أما الإمام الشافعي فيرى: ما دُمْتَ مؤمناً ومُقْبِلاً على الذبح وأنت مؤمن فَكُلْ مما لم تذكر اسم اللَّه عليه ناسياً أو عامداً؛ لأن إيمانك ذكر للَّه.

فهل الذكر أن تقول باللسان؟ أو الذكر أن يمر الشيء بالخاطر؟

إن كنتم تقولون: إن الذكر باللسان. فلنبحث عن معناه في هذا الحديث القدسي: «**أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم**».

إذن: فقد سمى ربنا الخاطر في النفس ذكراً، وبذلك يصبح من حق الإمام الشافعي أن يقول ما قال.

لذلك أقول: يجب أن نحدد معنى الذكر أولاً حتى ننهي الخلاف حول هذه المسألة، فليس من المقبول أن نقيم معركة حول معنى الذكر؛ لأن الذكر وهو خطور الأمر على البال قد يصحبه أن يخطر الأمر على اللسان مع الخطور على البال، وقد يظل خطوراً على البال فقط.

والحق سبحانه يقول:

﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٢].

أي: اذكروا اللَّه في كل شيء: في نعمه، في عطائه، في ستره، في رحمته، في توبته.

فلتذكروا نعم اللَّه عليكم وفضله، فلا تنسوه، فلتعيشوا دائماً في ذكر مَنْ أنعم عليكم، فاللَّه سبحانه وتعالى يريد من عباده الذكر، وهم كلما ذكروه سبحانه وشكروه شكرهم وزادهم.

ورسول اللَّه ﷺ يقول:

« **إن للَّه ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون اللَّه تنادوا: هلمُّوا إلى حاجتكم. فيحفّونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا. قال: فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم: ما يقول عبادي؟** ».

فيقولون: يسبّحونك ويُكبِّرونك ويَحمدونك ويُمجِّدونك. فيقول: هل رأوني؟ فيقولون: لا، واللَّه ما رأوك.

فيقول سبحانه: وكيف لو رأوني؟

قالوا: لو رأوك كانوا أشدَّ لك عبادة، وأشدَّ لك تمجيداً، وأكثر لك تسبيحاً.

فيقول: فما يسألوني؟

قالوا: يسألونك الجنة.

فيقول: وهل رَأَوْها؟

قالوا: لا واللَّه يا رب ما رأوها.

فيقول سبحانه: فكيف لو أنهم رَأَوْهَا؟

يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشدَّ عليها حرصاً، وأشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبة.

يقول تعالى: فمِمَّ يتعوَّذون؟

يقولون: من النار.

فيقول: وهل رَأَوْها؟

يقولون: لا واللَّه ما رأوها.

فيقول: فكيف لو رَأَوْها؟

يقولون: لو رأوها كانوا أشدَّ منها فراراً، وأشدَّ لها مخافة.

يقول: أُشهدكم أَنِّي قد غفرتُ لهم.

فيقول مَلَكٌ من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجته.

فيقول سبحانه: «**هم الجلساء لا يَشْقى بهم جليسهم**»(١).

والحق سبحانه يُعطينا مثالاً من حياتنا على حُسْن ظنِّ العبد به، فالحق سبحانه يهب لمن يشاء إناثاً، ويهب لمن يشاء الذكور، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً، ويجعل من يشاء عقيماً.

وتجد أن الأزواج المفتقدين للإنجاب يعيشون في ضيق؛ لأنهم في حياتهم ساخطون على قدر اللَّه، فيجعل اللَّه حياتهم سخطاً.

فمن وهبه اللَّه الإناث تجده سعيداً، وكذلك عندما يهبه اللَّه الذكور.

وعندما يهب اللَّه لأسرة أبناء من الذكور فقط، فالزوجة تَحِنُّ أن يكون لها ابنة، وإن وهب الحق لأسرة ذرية من الإناث فقط، فالمرأة والرجل يتمنيان الابن، وإن أعطاهما اللَّه الذكور والإناث نجدهما قد وصلا إلى الحالة التي تقرّ بها العيون.

وأخيراً يأتي سبحانه بالقدر الرابع الذي يجريه على بعض خَلْقه، وهو: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى: ٥٠].

لماذا يُسرّ الإنسان بقدر اللَّه حينما يهبه اللَّه الإناث أو الذكور، ويزداد السرور بقدر اللَّه حينما يهبه سبحانه الذكور والإناث؟

ولماذا لا تُسرّ إذن أيها الإنسان بقدر اللَّه حينما يجعلك عقيماً؟ أتعتقد أنك تأخذ القدر الذي تهواه، وترد القدر الذي ليس على هواك؟

إن المواقف الأربعة هي قدر من اللَّه.

ولو نظر الإنسان إلى كل أمر من الأمور الأربعة لرضي بها.

إنه سبحانه يخلق ما يشاء، ويجعل من يشاء عقيماً، إن قالها الإنسان باستقبال مطمئن لقدر اللَّه، فاللَّه قد يقرّ عينه كما أقرّ عيون الآخرين بالإناث أو الذكور، أو بالذكور والإناث معاً.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٠٨) وأحمد في مسنده (٢/ ٢٥٢، ٣٥٩، ٣٨٣) والترمذي في سننه (٣٦٠٠) من حديث أبي هريرة.

ولو أن إنساناً ـ أو زوجين ـ أخذا قدر اللَّه في العقم كما أخذاه في غيره من المواقف السابقة برضاً، وحُسن ظنهما في اللَّه إلا رزقهم اللَّه، لا أقول ببنين وبنات يرهقونهم في الحمل والتربية وغيرها، بل يرزقهم بأناس يخدمونهم، وقد ربَّاهم غيرهم.

أغنى الشركاء

يقول اللَّه في الحديث القدسي:

٣ ـ «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، مَنْ عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشِركه»[(١)].

يقول الحق سبحانه:

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

تلك هي قضية الحق الأساسية، و﴿إِلَٰهُكُمْ﴾ يعني أن المعبود إلٰه واحد.

و﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ قضية ثانية، لأن غفلة الناس هي التي جعلت بعضاً من نفوس الناس تلتفت إلى آلهة أخرى.

والقرآن لا ينفي، ويقول: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إلا حين توجد غفلة تعطي الألوهية لغير اللَّه، أو تعطي الألوهية للَّه ولشركاء معه.

إن القرآن ينفي ذلك ويقول: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وليس هناك شيء غير اللَّه إلا نعمة منه سبحانه أو مُنْعَم عليه.

إن ما دون اللَّه إما نعمة، وإما منعم عليه بالنعمة، وهذه كلها نفح الرحمٰن، ونفح الرحيم، وما دام كل شيء ما عدا اللَّه إما نعمة وإما مُنْعَم عليه، فلا تُوصف النعمة بأنها إلٰه، ولا يُقال في المنعم عليه: إنه إلٰه.

إنك حين تعتقد أن للَّه شركاء تكون قد أتعبت نفسك تعب الأغبياء، وتكون قد ظلمت نفسك ظلماً عظيماً.

واقرأ قول اللَّه:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٩٨٥)، وابن ماجه في سننه (٤٢٠٢) واللفظ لمسلم عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

فعبد مملوك لعشرة أسياد، ويا ليت العشرة الأسياد متفقون، بل هذا يقول له: اذهب، وهذا يقول له: تعال.

فالعبد المملوك لشركاء تعيس؛ لأن الشركاء غير متفقين، إنهم شركاء متشاكسون، فإذا رآه سيد يفعل أمراً لسيد آخر، أمره بالعكس، وبذلك يتبدد جهد هذا العبد ويكثر تعبه.

فكأن اللَّه يريد أن يوضح لنا الفرق بين الخاضع لأمر سيد واحد، وبين الخاضع لسادة كثيرين، بينهم نزاع وشقاق، فالآخر منهما يكون مشتتاً مُوزَّع النفس، كذلك الذين كفروا أشركوا مع اللَّه آلهة أخرى، تصاب ملكاتهم بالاضطراب.

فذلك العبد لا يعرف كيف يوفق بين أوامر كل منهم التي تتضارب، فإن أرضى هذا أغضب ذاك، فهو عبد مُبدَّد الطاقة، موزع الجهد، مقسم الالتفافات.

أما العبد المملوك لواحد، فإنه لا يتلقى أمراً إلا من سيد واحد، ونهياً من السيد نفسه.

فإذا ما كنت كذلك أيها العبد المؤمن تكون قد ارتحت في الوجود، وتوافرت لك طاقتك لأمر واحد ونهي واحد، هنا تصبح سيداً في الكون، فلا تجد في الكون من يأخذ منك عبوديتك للمكوِّن.

تلك هي راحتنا في تنفيذ قول اللَّه سبحانه:

﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾ [النساء: ٣٦].

ويا ليت المشركين حين يشركون يأخذون عون اللَّه، ولا يأخذون عون الشركاء، لكن اللَّه يتخلى عن العبد المشرك؛ لأنه سبحانه يقول في هذا الحديث القدسي:

« **أنا أغنى الشركاء عن الشرك** ».

الحق سبحانه يتخلى عن العبد المشرك، وليت العبد المشرك يأخذ حظه من اللَّه كشريك، وإنما ينعدم عنه حظ اللَّه؛ لأن اللَّه غني أن يُشرك معه أحداً آخر، وهكذا يكون المشرك بلا رصيد إيماني، ويحيا في كدٍّ وتعب.

فأصل القضية الإيمانية أن اللَّه سبحانه وتعالى يريد منكم أن تعترفوا بأنه

الإلٰه الواحد الذي لا شريك له، وحين تعترف بأنه الإلٰه الواحد الذي لا شريك له، فأنت تدخل حصن الأمان.

ولذلك يقول رسول اللَّه ﷺ في الحديث الشريف:

«**أشهد ألا إلٰه إلا اللَّه وأني رسول اللَّه، لا يلقى اللَّه بهما عبد غير شاكٍّ فيهما إلا دخل الجنة**»(١).

والحق سبحانه يقول:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

هذه المسألة ليست لصالحه سبحانه، إنما لصالحكم أنتم، حتى لا تتعدد آلهة البشر في البشر، ويرهق الإنسان، ويشقى من كثرة الخضوع لكل مَنْ كان قوياً عنه، فأعفاك اللَّه من هذا وأوضح لك:

لا، اخضع لواحد فقط يَكْفِكَ كل الخضوع لغيره، واعمل لوجه واحد يَكْفِكَ كل الأوجه، وفي ذلك راحة للمؤمن.

إن الإيمان إذن يُعلِّمنا العزّة والكرامة، وبدلاً من أن تنحني لكل مخلوق اسجد للذي خلق الكون كله بصفات قدرته وكماله.

فلم تنشأ له صفة لم تكن موجودة، هل أنتم زِدْتم له صفة؟

لا، فهو بصفات الكمال أوجدكم، وبصفات الكمال كان قيوماً عليكم، فأنتم لم تضيفوا له شيئاً، فكونك تشهد أن لا إلٰه إلا اللَّه، ما مصلحتها بالنسبة للَّه؟

إن مصلحتها وفائدتها تكون للعبد فحسب.

إذن: فالمسألة في مصلحة العبد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]؛ لأنه لو غفر أن يشرك به لتعدد الشركاء في الأرض، وحين يتعدد الشركاء في الأرض يكون لكل واحد إلٰه، وإذا صار لكل واحد إلٰه تفسد المسألة.

لكن الخضوع لإله واحد نأتمر جميعاً بأوامره، يعزّنا جميعاً، فلا سيادة لأحد، ولا عبودية لأحد عند أحد، فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧) كتاب الإيمان.

هذا لمصلحتنا.

والحق سبحانه وتعالى عندما يقول: لا إلٰه إلا اللَّه وحده لا شريك له. إما أن تكون هذه الكلمة صادقة فننتهي، وإما ألا تكون صادقة ـ والعياذ باللَّه ـ أي أن هناك أحداً آخر معه، وهذا الآخر سمع أن هناك واحداً يقول: لا إلٰه إلا أنا.

أسكتَ أم لم يسمع؟ إن لم يكن قد سمع فيكون إلهاً غافلاً، وإن كان قد سمع فلماذا لم يعارض ويقول: لا. لا إلٰه إلا أنا، ويأتي بمعجزة أشد من معجزة الآخر، ولم يحدث من ذلك شيء.

إذن: فهذه لا تنفع، وتلك لا تنفع. فـ«لا إلٰه إلا اللَّه» حين يطلقها اللَّه ويأتي بها رسول اللَّه ويقول اللَّه: أنا وحدي في الكون، ولا شريك لي، ولم ينازعه في ذلك أحد، فالمسألة صادقة للَّه بالبداهة، ولا جدال.

والحق سبحانه يقول: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١].

أيشركون في عبادة اللَّه من لا يخلقون شيئاً، وهم أنفسهم مخلوقون للَّه، إن من أشركوا باللَّه الأصنام فعلوا ذلك بالوهم وتنازلوا عن العقل، وكان الواجب أن يكونوا عقلاء فلا يتخذون من الأصنام آلهة.

والخلق ـ كما نعلم ـ أول مرتبة من مراتب القدرة، فإذا كانت الأصنام التي اتخذها هؤلاء شركاء لا تخلق شيئاً بإقرارهم هم، فكيف يعبدونها؟

إنها لا تخلق شيئاً بدليل أنها لا تتناسل، بل إذا أراد العابدون أن يزيدوا صنماً صنعه العابدون بأنفسهم.

لذلك كان الشرك ظلماً عظيماً، والظلم ـ كما نعرف ـ هو أخذ الحق من ذي الحق وإعطاؤه لغيره، وقمة الظلم هو إضفاء صفة الألوهية على غير اللَّه، وهو الشرك.

ولذلك يقول الحق:

﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وعلاقة الشرك بالظلم أنك جئت بمن لم يخلق، ومن لم يرزق شريكاً لمن خلق ورزق.. وذلك الذي جعلته إلٰهاً كيف يعبد؟

وظلم الناس يعود على أنفسهم، لأنه لا أحد من خلق اللَّه يستطيع أن يظلم اللَّه سبحانه وتعالى.

وقد يكون الشرك رياء وطلباً للسمعة بين الناس، فقد يجعل بعض الخلق شريكاً للَّه في العبادة، فيجعل صلاته ظاهرية رياء، ومناسكه ظاهرية رياء، وحياته يجعلها لغير واهب الحياة، ويعمل حركاته كلها لغير واهب الحركات.

لذلك عليك أن تتذكر أن اللَّه لا شريك له.

﴿ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٣].

وهذا أمر من اللَّه لرسوله، وكل أمر للرسول هو أمر لكل مؤمن برسالته ﷺ، والأوامر التي صدرت عن الرب هي لصالحك أنت، فسبحانه أهْلٌ لأن يُحب، وكل عبادة له فيها الخير والنفع لنا.

ويُجمل الحق سبحانه هذا في قوله تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١ ـ ١٦٣].

والحق سبحانه يقول في حديثه القدسي:

« **أنا خير شريك، فمن أشرك معي شريكاً فهو لشريكي، يا أيها الناس أخلصوا أعمالكم للَّه عز وجل، فإن اللَّه لا يقبل إلا ما أُخْلصَ له، ولا تقولوا هذا للَّه وللرحم، فإنها للرحم وليس للَّه منها شيء، ولَا تقولوا: هذا للَّه ولوجوهكم، فإنها لوجوهكم، وليس للَّه منها شيء** »[(١)].

فأنت إذا صنعت معروفاً تقصد به وجه اللَّه عز وجل جزاك اللَّه عنه خيراً، ولكن إن عملت معروفاً لتحقق به مصلحة دنيوية خاصة بك أو تأخذ به شهرة فلا جزاء لك عند اللَّه.

ولا بد أن يصنع الإنسان المؤمن كل عمل، وفي باله اللَّه خالقه والمتفضل عليه بالنعم، فإن أطعمت فقيراً فلتطعمه لوجه اللَّه.

وعليك ألا تفعل المروءة من أجل أن يقال عنك: إنك صاحب مروءة، ومن يفعلون الخير عليهم أن يحرصوا على أن يكون اللَّه عز وجل في بالهم، لا أن ينالوا شهرة من هذا الخير، وألا يأتي منهم خبر هذا الخير لا بمقال ولا بحال.

---

(١) سنن الدارقطني (١/ ٥١) عن الضحاك بن قيس الفهري.

وعلى سبيل المثال: تلك اللافتات التي تُوضع على المساجد بأسماء من قاموا بتأسيسها، فمن بُنِي من أجله المسجد وهو اللَّه عليم بكل شيء، ويعلم اسم من أقام البناء، وعليك أن تسميه بأي اسم لا يمت لك بصلة حتى لا تدخل في دائرة «عملت ليقال وقد قيل».

وحتى المقاتل الذي يحارب بين صفوف المؤمنين عليه أن يعقد النية للَّه، لا أن يقاتل من أجل أن يقال: إنه شجاع، لأنه إن فعل، حبط عمله وكان من الخاسرين؛ لأن عمله قد شابه الرياء والسمعة.

ويبيّن الرسول ﷺ جزاء المرائين في حديثه الشريف الذي يقول فيه ﷺ:

«**أول الناس يُقضى لهم يوم القيامة ثلاثة: رجل استشهد فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت ليقال فلان جريء، فقد قيل، ثم أمِر به فسُحِبَ على وجهه حتى ألقي في النار**».

«**ورجل تعلَّم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن فأتي به، فعرّفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال قارئ، فقد قيل، ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى ألقي في النار**».

«**ورجل وسَّع اللَّه عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، فقال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت، ولكن ليقال: إنه جواد فقد قيل، ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه، فأُلقي في النار**»[1].

وعلى ذلك فالإنسان إن لم يضع اللَّه في باله وهو يعمل فسوف يجد اللَّه يحاسبه على أساس أن عمله غير مقبول.

ويقول الحق سبحانه وتعالى في آية ثانية:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ﴾ [إبراهيم: ١٨].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٠٥)، وأحمد في مسنده (٢/ ٣٢٢) والترمذي في سننه (٢٣٨٢) عن أبي هريرة. قال الترمذي: حديث حسن غريب.

ولك أن تتصور ماذا تفعل العاصفة في الرماد؟

إنها لا تُبقي منه شيئاً، والمشرك الذي كان يدخل المسجد ويسقي الناس من عصير العنب غير المخمَّر، ويقوم بعمارة المسجد الحرام قبل تحريم اللَّه لدخول أمثاله إلى هذا المكان.

هذا المشرك لم يكن ليأخذ ثواباً؛ لأنه ارتكب خيانة عظمى بأن أشرك باللَّه، بينما يأخذ المؤمن الثواب؛ لأنه يدخل المسجد ويعمره فهو مؤمن باللَّه، ولا يشرك به شيئاً.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [التوبة: ١٧].

والحق سبحانه يقول:

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨].

تحدثنا هذه الآية الكريمة عن الذي ينفق لكن الغاية غير واضحة عنده، الغاية ضعيفة لأنه ينفق رئاء الناس، إنه يريد بالإنفاق مراءاة الناس.

ولذلك يقول العارفون بفضل اللَّه: اختر مَنْ يُثمِّن عطاءك.

فأنت عندما تعطي شيئاً لإنسان فهو يُثمِّن هذا الشيء بإمكاناته وقدراته، سواء بكلمة ثناء يقولها مثلاً أو بغير ذلك، لكن العطاء للَّه كيف يُثمِّنه سبحانه؟

لا بد أن يكون الثمن غالياً.

إذن: فالعاقل ينظر لمن سيعطي النعمة، ولنا الأسوة في سيدنا عثمان ـ رضي اللَّه عنه ـ عندما علم التجار أن هناك تجارة آتية له، جاء كل التجار ليشتروا منه البضاعة، ثم يبيعوها ليربحوا، وقال لهم: جاءني أكثر من ثمنكم، وفي النهاية قال لهم: أنا بِعْتُها للَّه.

إذن: فقد تاجر سيدنا عثمان مع اللَّه، فرفع من ثمن بضاعته، فالذي يعطي رئاء الناس نقول له: أنت خائب، لأنك ما ثمّنت نعمتك، بل ألقيتها تافهة الثمن.

ماذا سيفعل لك الناس؟

هم قد يحسدونك على نعمتك، ويتمنون أن يأخذوها منك، فلماذا ترائيهم؟

إذن: فهذه صفقة فاشلة خاسرة.

ولذلك قال الحق:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

وما دام سبحانه هو الذي اشترى فلا بد أن الثمن كبير، لأنه يعطي النعيم الذي ليس فيه أغيار، ففي الجنة لا تفوت النعمة مؤمناً، ولا هو يفوتها.

والذي يرائي الناس خاسر، ولا يعرف أصول التجارة، لأنه لم يعرف طعم التجارة مع اللَّه، ولذلك شبَّه عمله في آية أخرى بقوله:

﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ [البقرة: ٢٦٤].

والذي ينفق ماله رئاء الناس هو من تتضح له قضية الإيمان، ولكن لم يثبت الإيمان في قلبه بعد.

فلو كنت تعلم أنك تريد أن تبيع سلعة، وهناك تاجر يعطيك فيها ثمناً أغلى، فلماذا تعطيها للأقل ثمناً؟

إنك إن فعلت فقد خبت وخسرت، فأوضح لك الحق: ما دُمْتَ تريد رئاء الناس، إذن فأنت ليس عندك إيمان بالذي يشتري بأغلى، فتكون في عالم الاقتصاد تاجراً فاشلاً.

ولذلك قلنا: ليحذر كل واحد حين يعطي أن يخاف من العطاء، فالعطاء يستقبله اللَّه بحسن الأجر، ولكن عليه ألا يعطي بضجيج ودعاية تفضح عطاءه.

ولكن الحق سبحانه وتعالى لا يريد أن يُضيق مجال الإعطاء، فقال:

﴿إِن تُبْدُوا ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١].

فإبداء الصدقات لا مانع منه إن كان من يفعل ذلك يريد أن يكون أسوة، المهم أن يخرج الرياء من القلب لحظة إعطاء الصدقة.

فالحق سبحانه يوضح: إياك أن تنفق وفيك رئاء، أما مَنْ يُخرج الصدقة، وفي قلبه رياء، فاللَّه لا يحرم المحتاجين من عطاء مُعْطٍ؛ لأنه سبحانه يؤكد: خذوا منه وهو الخاسر، لأنه لن يأخذ ثواباً، لكن المجتمع ينتفع.

والحق سبحانه يقول:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

إن المنافق يؤدي الصلاة ليستتر بها عن أعين الناس، ولذلك يقوم إليها بتكاسل.

هم يقيمون الصلاة ظاهرياً أمام الناس؛ ليخدعوا المسلمين وليشاهدهم غيرهم وهم يصلون، وفي الصلاة التي يراؤون بها الناس لا يقولون كل المطلوب منهم لتمامها، يقولون فقط المطلوب قوله جهراً، كأن يقرأوا الفاتحة وبعض القرآن، ولكنهم في أثناء الركوع لا يسبّحون باسم اللَّه العظيم، وكذلك في السجود لا يسبّحون باسم اللَّه الأعلى.

ففي داخل كل منافق تياران متعارضان.. تيار يظهر به مع المؤمنين، وآخر مع الكافرين. والتيار الذي مع المؤمنين يجبر المنافق على أن يقوم إلى الصلاة ويذكر اللَّه قليلاً، والتيار الذي مع الكافرين يجعله كسولاً عن ذلك، ولا يذكر اللَّه كثيراً.

ونجد المنافق لا يفعل فعلاً إلا إذا كان مرئياً ومسموعاً من غيره، هذا هو معنى المراءاة، أما الأعمال والأقوال التي لا تُرى من الناس ولا تُسمع فلا يؤديها.

ولا يهزّ المجتمعات، ولا يزلزلها، ولا يهدُّها إلا هذه المراءاة؛ لأن الحق سبحانه يحب أن يؤدي المسلم كل عمل جاعلاً اللَّه في باله، وهو الذي لا تخفى عليه خافية.

ويلفتنا إلى هذه القضية سيدنا محمد ﷺ حيث يقول عن الإحسان:

«**أن تعبد اللَّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[(١)].

وإذا كان الإنسان يخجل من أن يغش واحداً مثله من البشر غشاً ظاهرياً، فما بالنا بالذي يحاول غش اللَّه وهو يعلم أن اللَّه يراه؟ ولماذا يجعل ذلك العبد ربه أهون الناظرين إليه؟

---

(١) حديث متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧٧٧) ومسلم في صحيحه (١٠) كتاب الإيمان من حديث أبي هريرة.

وينقل لنا رسول اللَّه ﷺ حال المرائي للناس فيقول:

«**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول اللَّه؟ قال: الرياء، يقول اللَّه عز وجل يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء؟**».

وقال ﷺ:

«**إن المرائي يُنادَى عليه يوم القيامة: يا فاجر. يا غادر. يا مرائي. ضَلَّ عملك، وحبط أجرك، فخذ أجرك ممن كنت تعمل له**».

إذن: فالمنافق إنما يخدع نفسه، وهو يتظاهر بالصلاة ليراه الناس، ويُزكِّي ليراه الناس، ويحج ليراه الناس، وهو يعمل ما أمر اللَّه به، ولكنه لا يعمل للَّه.

الصلاة المقسومة

يقول الحق سبحانه في الحديث القدسي:

٤ ـ «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل.

فإذا قال العبد: الحمد للَّه رب العالمين. قال اللَّه عز وجل: حمدني عبدي.

فإذا قال: الرحمٰن الرحيم. قال اللَّه عز وجل: أثنى عليَّ عبدي.

فإذا قال: مالك يوم الدين. قال اللَّه: مجّدني عبدي.

فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين. قال اللَّه: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل.

وإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. قال اللَّه عز وجل: «هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»[(١)].

فاتحة الكتاب هي أم الكتاب، لا تصلح الصلاة بدونها، فأنت في كل ركعة تستطيع أن تقرأ آيات من القرآن الكريم، تختلف عن الآيات التي قرأتها في الركعة السابقة، وتختلف عن الآيات التي قرأتها في باقي صلواتك.

ولكن إذا لم تقرأ الفاتحة فسدت الصلاة، ولذلك قال رسول اللَّه ﷺ: **«من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج ـ ثلاثاً ـ غير تمام»**[(٢)].

أي: غير صالحة.

فالفاتحة أم الكتاب التي لا تصلح الصلاة بدونها.

والحق سبحانه لم يقل في الحديث القدسي: قسمت الفاتحة بيني وبين عبدي، ففاتحة الكتاب هي أساس الصلاة، وهي أم الكتاب.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٣٩٥)، وأحمد في مسنده (٢/ ٢٤١، ٢٨٥، ٤٦٠)، وابن ماجه في سننه (٣٧٨٤) وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

(٢) هذا بداية الحديث القدسي الذي معنا، وقد سبق تخريجه.

والصلاة هي إدامة ولاء العبودية للحق تبارك وتعالى، وهي أيضاً استحضار العبد وقفته بين يدي ربه، وحينما يقف العبد بين يدي اللَّه، لا بد أن يزول كل ما في نفسه من كبرياء، ويدخل بدلاً منه الخشوع والخضوع والذلة للَّه، والمتكبر غافل عن رؤية ربه الذي يقف أمامه.

الخشوع يجعل الإنسان يستحضر عظمة الحق سبحانه، ويعرف ضآلة قيمته أمام الحق سبحانه ومدى عجزه أمام خالق هذا الكون، ويعلم أن كل ما عنده يمكن أن يذهب به اللَّه تعالى في لحظة.

ذلك أننا نعيش في عالم الأغيار، ولذلك فلنخضع للذي لا يتغير؛ لأن كل ما يحصل عليه الإنسان هو من اللَّه، وليس من ذاته.

والذي يغترّون بالأسباب نقول لهم: اعبدوا واخشعوا لواهب الأسباب وخالقها؛ لأن الأسباب لا تعمل بذاتها.

ولذلك لا بد أن نفهم أن الإنسان الذي يستعلي بالأسباب سيأتي وقت لا تعطيه الأسباب، فالإنسان إذا بلغ في عينه وأعين الناس مرتبة الكمال اغترّ بنفسه.

نقول له: لا تغترّ بكمالات نفسك، فإن كانت موجودة الآن فستتغير غداً، فالخشوع لا يكون إلا للَّه.

والخاشع هو الطائع للَّه، الممتنع عن الحرام، الصابر على الأقدار، الذي يعلم يقيناً داخل نفسه أن الأمر للَّه وحده، وليس لأي قوة أخرى، فيخشع لمن خلقه وخلق هذا الكون له.

والصلاة تهب المؤمنين الاطمئنان، فالمؤمن يذهب إلى الخالق ليسأله أن يخفف عنه الهمَّ والحزن، وقد كان رسول اللَّه ﷺ أول من يفعل ذلك، فكان إذا ما حزبه أمر قام إلى الصلاة.

وما معنى حزبه أمر؟

أي: إن جاءه شيء أو أمر، وكان فوق طاقته وفوق أسبابه، ولا يستطيع أن يفعل شيئاً تجاهه، وتضيق عليه الأمور.

فلماذا لا يتبع الواحد منا رسول اللَّه ﷺ كأسوة حسنة؛ فإن قابل أمراً

مكروهاً وشاقاً يقول: إن لي رباً أذهب إلى بيته وأصلي فأقف في حضرته، فتُحلّ أصعب وأعقد المشكلات.

إذن: فساعة يأتينا أمر شديد، لا بد أن نتجه إلى اللَّه عز وجل، وأفضل مكان يلتجئ فيه إلى اللَّه تعالى هو بيته.

وبعض من الذين يحترفون الجدل واللجاجة يقول: ماذا سيفعل اللَّه لي، أو لذلك الذي يعاني من شيء فوق طاقته؟ لقد دخل المسجد وخرج كما هو.

ونقول: هذا الظاهر من الأمر، ولكنك لا تعرف ماذا حدث في داخله، أنت تتحدث عن العالم المادي الذي فيه العلاجات المادية، ولكن اللَّه سبحانه وتعالى يعالج داخل النفس دون أن تحس أنت؛ لأن المساجد هي مطالع أنوار اللَّه تعالى، وهي التي يتنزل فيها النور على النور الذي يُصلح الحياة الدنيا ويرتقي بها؛ لأن أنوار اللَّه تدخل القلوب فتجعلها تطمئن، وتدخل النفوس فتجعلها تحس بالرضا والأمن.

نحن في المساجد نعيش في حضرة الحق تبارك وتعالى نتلقى منه التجليات والفيوضات التي تعالج نفوسنا أكثر مما يعالجها أبرع أطباء العالم.

أنت في بيت اللَّه تكون في ضيافة اللَّه، وأنت تعلم أنه إن جاءك أحد في بيتك على غير دعوة فأنت تُكرمه، فإذا كان المجيء على موعد فكرمك يكون كبيراً، فما بالنا بكرم من خلقنا جميعاً؟

إن الحق سبحانه وتعالى يجزيك من فيض كرمه من ساعة أن تنوي زيارته في بيته، فأنت في صلاة منذ أن تبدأ في الوضوء في بيتك استعداداً للصلاة في المسجد؛ لأنه سبحانه وتعالى يريد أن يطيل عليك نعمة أن تكون في حضرته.

فالصلاة إذن خير أراده اللَّه لك حتى لا تأخذك أسباب الحياة، وأراد سبحانه بها أن تفيق إلى نهجه الذي يصلح بالك، ويصلح الدنيا لك وبك فلا تأخذك الأسباب، ولا تشغلك الدنيا فتنسى أن صيانة نفسك بيد اللَّه سبحانه.

إذن: فاللَّه سبحانه وتعالى يريد منا الولاء دائماً، فإذا كنت تعتزّ باللَّه فأنت تديم الولاء له باستمرار الصلاة، وأنت حين تسجد للَّه وتتذلل له، فإنه سبحانه يزيدك عزة، ويكون معك دائماً، ويقيك ذل الدنيا.

إن الإنسان إذا ما أراد أن يقابل عظيماً من العظماء فهو يطلب المقابلة،

وقد يقبل هذا العظيم مبدأ اللقاء وقد لا يقبل، فإن قبل حدد اليوم والساعة والمكان ووقت الزيارة، فإن أردت أن تطيل فهو يقوم واقفاً إعلاناً بأن الزيارة قد انتهت.

ولكن الحق سبحانه وتعالى بمطلق الكرم لا يعامل خلقه هكذا، فبيته مفتوح دائماً حين يدعوك للصلوات الخمس، فهذا أمر ضروري، ولكن بين الصلوات الخمس إن أردت لقاء اللَّه فسبحانه يلقاك في أي وقت، وتدعوه بما تشاء، وتطيل في حضرته كما تريد، ولا يقول لك أحد: إن الزيارة قد انتهت.

يقول الشاعر:

حَسْبُ نَفْسي عِزاً بأنِّي عبدٌ ... يَحْتفي بي بِلا مواعيدَ ربُّ
هُوَ في قُدْسِه الأعزِّ ولكِنْ ... أنا أَلْقى متَى وأينَ أُحِبُّ

* * *

والحق سبحانه يقول في هذا الحديث القدسي: «**ولعبدي ما سأل**».

فاللَّه سبحانه وتعالى في عطائه يحب أن يطلب منه الإنسان، وأن يدعوه ويستعين به، وهذا يوجب الحمد لأنه يقينا الذل في الدنيا، فأنت إن طلبت شيئاً من صاحب نفوذ، فلا بد أن يحدد لك موعداً أو وقت الحديث ومدة المقابلة، وقد يضيق بك فيقف ليُنهي اللقاء.

ولكن اللَّه سبحانه وتعالى بابه مفتوح دائماً، فأنت بين يديه عندما تريد، وترفع يديك إلى السماء وتدعو وقت ما تحب، وتسأل اللَّه ما تشاء، فيعطيك ما تريده إن كان خيراً لك، ويمنع عنك ما تريده إن كان شراً لك.

واللَّه سبحانه وتعالى يطلب منك أن تدعوه وأن تسأله، فيقول:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِي وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

الدعاء بالفطرة يتجه إلى اللَّه، والدعاء هو طلب الشيء، والطلب يقتضي

طالباً، ومطلوباً، ومطلوباً منه، والطالب هو مَنْ يدعو، والمطلوب منه: هو من ندعوه ونسأله، والمطلوب: هو الشيء الذي نتضرع بالدعاء رجاء أن يحدث.

وقد دعا زكريا ربه فقال:

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

هذا كان دعاء زكريا، فهل المراد أن يسمع اللَّه الدعاء؟ أم أن اللَّه يجيب الدعاء؟

إنه يضع كل أمله في اللَّه، وكأنه يقول: إنك يا رب من فور أن تسمعني ستجيبني إلى طلبي بطلاقة قدرتك؛ لأنك يا رب تعلم صدق نيتي في أنني أريد الغلام، لا لشيء من أمور كقُرَّة العين، والذكر، والعز، وغيرها.

إنما أريد الولد ليكون وارثاً لي في حمل منهجك في الأرض.

«حمدني عبدي».

فاللَّه محمود لذاته، ومحمود لصفاته، ومحمود لنعمه، ومحمود لرحمته، ومحمود لمنهجه، ومحمود لقضائه.

اللَّه محمود قبل أن يخلق مَنْ يحمده، ومن رحمة اللَّه سبحانه أنه جعل الشكر له في كلمتين اثنتين هما: الحمد للَّه.

والعجيب أنك حين تشكر بشراً على جميل فعله تظل ساعات وساعات تعد كلمات الشكر والثناء، وتحذف وتضيف وتأخذ رأي الناس، حتى تصل إلى قصيدة أو خطاب مليء بالثناء والشكر.

ولكن اللَّه سبحانه وتعالى جَلَّتْ قدرته وعظمته، نعمه لا تُعَدُّ ولا تُحصَى، علَّمنا أن نشكره في كلمتين اثنتين هما: الحمد للَّه.

ومن رحمة اللَّه سبحانه أنه علَّمنا صيغة الحمد، فلو أنه تركه دون أن يحددها بكلمتين لكان من الصعب على البشر أن يجدوا الصيغة المناسبة ليحمدوا اللَّه على هذا الكمال الإلهي.

فمهما أوتِي الناس من بلاغة وقدرة على التعبير، فهم عاجزون عن أن يصلوا إلى صيغة الحمد التي تليق بجلال المنعم.

فكيف نحمد اللَّه والعقل عاجز أن يدرك قدرته أو يحصي نعمه أو يحيط برحمته؟

والحق تبارك وتعالى شاء عَدْله أن يُسوِّي بين عباده جميعاً في صيغة الحمد له، فيعلمنا في أول كلماته في القرآن الكريم أن نقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ ليعطي الفرصة المتساوية لكل عبيده، بحيث يستوي المتعلم وغير المتعلم في عطاء الحمد، ومَنْ أُوتِي البلاغة، ومَنْ لا يحسن الكلام.

ولذلك فإننا نحمد اللَّه سبحانه وتعالى على أنه علَّمنا كيف نحمده، وليظل العبد دائماً حامداً.. ويظل اللَّه دائماً محموداً.. فاللَّه سبحانه وتعالى قبل أن يخلقنا خلق لنا موجبات الحمد من النعم.

خلق لنا السماوات والأرض، وأوجد لنا الماء والهواء، ووضع في الأرض أقواتها إلى يوم القيامة.

وهذه نعمة يستحق سبحانه الحمد عليها؛ لأنه جَلَّ جلاله جعل النعمة تسبق الوجود الإنساني، فعندما خلق الإنسان كانت النعمة موجودة تستقبله.

بل إن اللَّه عز وجل قبل أن يخلق آدم أبا البشر جميعاً سبقته الجنة التي عاش فيها لا يتعب ولا يشقى، فقد خُلِق فوجد ما يأكله وما يشربه، وما يقيم حياته، وما يتمتع به موجوداً وجاهزاً ومُعداً قبل الخلق.

وحينما نزل آدم وحواء إلى الأرض كانت النعمة قد سبقتهما، فوجدا ما يأكلانه وما يشربانه، وما يقيم حياتهما، ولو أن النعمة لم تسبق الوجود الإنساني، وخُلقت بعده لهلك الإنسان وهو ينتظر مجيء النعمة.

بل إن العطاء الإلٰهي للإنسان يعطيه النعمة بمجرد أن يُخلق في رحم أمه، فيجد رحماً مستعداً لاستقباله، وغذاء يكفيه طول مدة الحمل، فإذا خرج إلى الدنيا يضع اللَّه في صدر أمه لبناً ينزل وقت أن يجوع، ويمتنع وقت أن يشبع.

وينتهي تماماً عندما تتوقف فترة الرضاعة، ويجد أباً وأماً يوفران له مقومات حياته حتى يستطيع أن يعول نفسه.

وكل هذا يحدث قبل أن يصل الإنسان إلى مرحلة التكليف، وقبل أن يستطيع أن ينطق: (الحمد للَّه).

وهكذا نرى أن النعمة تسبق المُنْعَم عليه دائماً، فالإنسان حين يقول: «الحمد للَّه» فلأن موجبات الحمد ـ وهي النعمة ـ موجودة في الكون قبل الوجود الإنساني.

وآيات اللَّه سبحانه وتعالى في كونه تستوجب الحمد، فالحياة التي وهبها اللَّه لنا، والآيات التي أودعها في كونه تدلنا على أن لهذا الكون خالقاً عظيماً، فالكون بشمسه وقمره ونجومه وأرضه وكل ما فيه مما يفوق قدرة الإنسان، ولا يستطيع أحد أن يدعيه لنفسه.

فلا أحد مهما بلغ علمه يستطيع أن يدعي أنه خلق الشمس أو أوجد النجوم، أو وضع الأرض، أو وضع قوانين الكون، أو أعطى الأرض غلافها الجوي، أو خلق نفسه أو خلق غيره.

ونستطيع أن نمضي في ذلك بلا نهاية، فنعم اللَّه لا تُعدُّ ولا تُحصى، وكل واحدة منها تدلُّنا على وجود الحق سبحانه وتعالى، وتعطينا الدليل الإيماني على أن لهذا الكون خالقاً مبدعاً.. وأنه لا أحد يستطيع أن يدَّعي أنه خلق الكون أو خلق ما فيه.. فالقضية محسومة للَّه.

و«الحمد للَّه» لأنه وضع في نفوسنا الإيمان الفطري، ثم أيده بإيمان عقلي بآياته في كونه.

بل إن كل شيء في هذا الكون يقتضي الحمد، ومع ذلك فإن الإنسان يمتدح الوجود وينسى الموجود. وكل شيء في هذا الكون لم يضع الجمال لنفسه، وإنما الذي وضع الجمال فيه هو اللَّه سبحانه وتعالى، فلا نخلط ونمدح المخلوق وننسى الخالق.. بل قل الحمد للَّه الذي أوجد في الكون ما يُذكِّرنا بعظمة الخالق ودقة الخلق.

ومنهج اللَّه سبحانه وتعالى يقتضي منا الحمد؛ لأن اللَّه أنزل منهجه ليرينا طريق الخير، ويبعدنا عن طريق الشر، وبيَّن لنا ماذا يريد الحق منا، وكيف نعبده.. وهذا يستوجب الحمد، وأعطانا الطريق، وشرع لنا أسلوب حياتنا تشريعاً حقاً.

فاللَّه سبحانه وتعالى دائم العطاء لخلقه، والخلق يأخذون دائماً من نعم اللَّه، فكأن العبودية للَّه تعطيك، ولا تأخذ منك، وهذا يستوجب الحمد.

وعندما نقول: «الحمد للَّه» فنحن نعبّر عن انفعالات متعددة، هي في مجموعها تحمل العبودية والحب والثناء والشكر والعرفان، وكثير من الانفعالات التي تملأ النفس عندما تقول: «الحمد للَّه» كلها تحمل الثناء العاجز عن الشكر لكمال اللَّه وعطائه.

هذه الانفعالات تأتي من النفس وتستقر في القلب، ثم تفيض من الجوارح على الكون كله.

فالحمد ليس ألفاظاً تُردَّد باللسان، ولكنها تمر أولاً على العقل ليعي معنى النعم.. ثم بعد ذلك تستقر في القلب فينفعل بها.. وتنتقل إلى الجوارح فأقوم وأصلي للَّه شاكراً ويهتز جسدي كله، وتفيض الدمعة من عيني.. وينتقل هذا الانفعال كله إلى من حولي.

«أثنى عليَّ عبدي».

إذا قال العبد في صلاته: «الرحمٰن الرحيم»، قال سبحانه: «أثنى عليَّ عبدي».

والحق سبحانه يقول:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

ما هي الرحمة؟

الرحمة: هي ألا تُبتلى بالألم من أول الأمر، أما الشفاء: فهو أن تكون مصاباً بداء ويُبرئك اللَّه منه.

والحق سبحانه يقول:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقد قدَّم اللَّه سبحانه وتعالى الشفاء على الرحمة؛ لأن الرحمة تقي الناس من أي شر قادم، ولكن لا بُدَّ من الشفاء أولاً.

وعندما نزل القرآن كانت الأمراض والداءات تملأ المجتمعات، الظلم وأكل حقوق الناس واستعباد الإنسان للإنسان، وغير ذلك من أمراض المجتمع.. فجاء الإسلام أولاً ليشفي هذه الأمراض إذا اتبع منهجه.

ثم بعد ذلك تأتي الرحمة، وتمنع عودة هذه الداءات، فإذا حدثت غفلة عن منهج اللَّه، جاءت الداءات والأمراض، فإذا عُدْتَ إلى صيدلية القرآن تأخذ منها الدواء يتم الشفاء.

والحق سبحانه يُطمئن خلقه فيقول:

﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢].

وهو قول ليُطمئن به الحق عباده حتى لا يظن الناس أن اللَّه يعاقبهم دون حساب؛ لأنه الحليم ذو الفضل وهو القائل:

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨].

ولولا رحمة اللَّه التي سبقت عدله ما بقي للناس نعمة، وما عاش أحد على ظهر الأرض، فاللَّه جل جلاله يقول:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

فذنوب الإنسان في الدنيا كثيرة.. إذا حكم فقد يظلم، وإذا ظن فقد يُسيء، وإذا تحدث فقد يكذب، وإذا شهد فقد يبتعد عن الحق، وإذا تكلم فقد يغتاب.

هذه ذنوب قد نرتكبها بدرجات متفاوتة، ولا يمكن لأحد منا أن ينسب الكمال لنفسه، حتى الذين يبذلون أقصى جهدهم في الطاعة لا يصلون إلى الكمال، فالكمال للَّه وحده.

ورسول اللَّه ﷺ يقول: «**كل ابن آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوّابون**»(١).

والحق سبحانه وتعالى تواب برحمته؛ لأن هناك من يعفو ويظل يمُنُّ عليك بالعفو، حتى أن المعفو عنه يقول: ليتك عاقبتني، ولم تمنّ عليَّ بالعفو كل ساعة.

لكن الحق سبحانه وتعالى تواب رحيم، يتوب على العبد ويرحمه، فيمحو عنه ذنوبه.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ١٩٨) والترمذي في سننه (٢٤٩٩) وابن ماجه في سننه (٤٢٥١) قال الترمذي: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث علي بن مسعدة عن قتادة».

وأنت حين تسقط في معصية تستعيذ برحمة اللَّه من عدله؛ لأن عدل اللَّه لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

لذلك فمن رحمة اللَّه سبحانه أنه شرع لنا التوبة ليرحمنا من شراسة الأذى والمعصية.

ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى ألا تمنعنا المعصية عن أن ندخل إلى كل عمل باسم اللَّه.. فعلَّمنا أن نقول: «بسم اللَّه الرحمٰن الرحيم» لكي نعرف أن الباب مفتوح للاستعانة باللَّه، وأن المعصية لا تمنعنا من الاستعانة في كل عمل باسم اللَّه؛ لأنه رحمٰن رحيم، فيكون اللَّه قد أزال وحشتك من المعصية في الاستعانة به سبحانه وتعالى.

ولكن الرحمٰن الرحيم في الفاتحة مقترنة برب العالمين، الذي أوجدك من عدم، وأمدَّك بنعم لا تُعدُّ ولا تُحْصَى.

أنت تحمده على هذه النعم التي أخذتها برحمة اللَّه سبحانه وتعالى في ربوبيته، ذلك أن الربوبية ليس فيها من القسوة بقدر ما فيها من رحمة.

واللَّه سبحانه وتعالى رب للمؤمن والكافر، فهو الذي استدعاهم جميعاً إلى الوجود؛ ولذلك فإنه يعطيهم من النعم برحمته، وليس بما يستحقون، فالشمس تشرق على المؤمن والكافر، ولا تحجب أشعتها عن الكافر وتعطيها للمؤمن فقط، والمطر ينزل على من يعبدون اللَّه، ومن يعبدون أوثاناً من دون اللَّه، والهواء يتنفسه من قال لا إلٰه إلا اللَّه ومَنْ لم يَقُلْها.

وكل النعم التي هي من عطاء الربوبية للَّه هي في الدنيا لخلقه جميعاً، وهذه رحمة، فاللَّه رب الجميع من أطاعه ومَنْ عصاه، وهذه رحمة، واللَّه قابل للتوبة، وهذه رحمة.

إذن: ففي الفاتحة تأتي: «الرحمٰن الرحيم» بمعنى رحمة اللَّه في ربوبيته لخلقه، فهو يمهل العاصي، ويفتح أبواب التوبة لكل مَنْ يلجأ إليه.

وقد جعل اللَّه رحمته تسبق غضبه، وهذه رحمة تستوجب الشكر والثناء على ربه.

« مجَّدني عبدي » .

فإذا قال العبد: « مالك يوم الدين » قال سبحانه: « مجَّدني عبدي » .

إن « مالك يوم الدين » تستحق منا الحمد وتمجيد اللَّه سبحانه، والثناء عليه ووصفه بكل صفات الكمال.

لو لم يوجد يوم للحساب، لنجا الذي ملأ الدنيا شروراً، دون أن يُجازى على ما فعل، ولكان الذي التزم بالتكليف والعبادة وحرم نفسه من مُتَع دنيوية كثيرة إرضاء للَّه قد شقي في الحياة الدنيا.

ولكن لأن اللَّه تبارك وتعالى هو مالك يوم الدين، أعطى الاتزان للوجود كله، هذه الملكية ليوم الدين هي التي حَمتْ الضعيف والمظلوم، وأبقت الحق في كون اللَّه.

إن الذي منع الدنيا أن تتحول إلى غابة يفتك فيها القوي بالضعيف، والظالم بالمظلوم هو أن هناك آخرة وحساباً، وأن اللَّه سبحانه هو الذي سيحاسب خلقه.

والإنسان المستقيم استقامته تنفع غيره؛ لأنه يخشى اللَّه ويُعطي كل ذي حق حقه، ويعفو ويسامح.

إذن: كل من حوله قد استفاد من خُلقه الكريم، ومن وقوفه مع الحق والعدل.

أما الإنسان العاصي فيشقى به المجتمع؛ لأنه لا أحد يَسْلَم من شرِّه، ولا أحد إلا يصيبه ظلمه، ولذلك فإن « مالك يوم الدين » هي الميزان.

وصف اللَّه تبارك وتعالى نفسه في القرآن الكريم بأنه: « مالك يوم الدين »، ومالك الشيء هو المتصرف فيه وحده، ليس هناك دخل لأي فرد آخر.. أنا أملك عباءتي.. وأملك متاعي.. وأملك منزلي.. وأنا المتصرف في هذا كله أحكم فيه بما أراه.

فمالك يوم الدين.. معناها أن اللَّه سبحانه وتعالى سيُصرِّف أمور العباد في ذلك اليوم بدون أسباب، فهو الذي يملك هذا اليوم وحده، يتصرف فيه كما يشاء.

إن الدين كله بكل طاعاته وكل منهجه قائم على أن هناك حساباً في الآخرة، وأن هناك يوماً نقف فيه جميعاً أمام اللَّه سبحانه وتعالى؛ ليحاسب المخطئ ويثيب الطائع.

هذا هو الحكم في كل تصرفاتنا الإيمان، فلو لم يكن هناك يوم نحاسب فيه.. فلماذا نصلي؟ ولماذا نصوم؟ ولماذا نتصدق؟

إن كل حركة من حركات منهج اللَّه قائمة على أساس ذلك اليوم الذي لن يفلت منه أحد، والذي يجب أن نستعد له.

إن اللَّه سبحانه وتعالى سمَّى هذا اليوم بالنسبة للمؤمنين يوم الفوز العظيم، والذي يجعلنا نتحمل كل ما نكره ونجاهد في سبيل اللَّه لنستشهد، وننفق أموالنا لنعين الفقراء والمساكين.

كل هذا أساسه أن هناك يوماً سنقف فيه بين يدي اللَّه، واللَّه تبارك وتعالى سماه يوم الدين؛ لأنه اليوم الذي سيحاسب فيه كل إنسان على دينه عمل به أم ضيَّعه، فمن آمن واتبع الدين سيكافأ بالخلود في الجنة، ومن أنكر الدين، وأنكر منهج اللَّه سيجازى بالخلود في النار.

ومن عدل اللَّه سبحانه وتعالى أن هناك يوماً للحساب؛ لأن بعض الناس الذين ظلموا وبغوا في الأرض ربما يفلتون من عقاب الدنيا.

هل هؤلاء الذين أفلتوا في الدنيا من العقاب هل يُفلتون من عدل اللَّه؟ أبداً لن يفلتوا، بل إنهم انتقلوا من عقاب محدود إلى عقاب خالد، وأفلتوا من العقاب بقدرة البشر في الدنيا إلى عقاب بقدرة اللَّه تبارك وتعالى في الآخرة.

ولذلك لا بد من وجود يوم يعيد الميزان، فيُعاقب فيه كل من أفسد في الأرض وأفلت من العقاب، بل إن اللَّه سبحانه وتعالى قد يجعل إنساناً يفلت من عقاب الدنيا، فلا تعتقد أن هذا خير له بل إنه شر له؛ لأنه أفلت من عقاب محدود إلى عقاب أبدي.

إذن: فالأمر كله مردود إلى اللَّه، صحيح أنه في هذه الدنيا يخلق اللَّه الأسباب، فالكافر تحكمه الأسباب، وكذلك المؤمن، فإذا ما أخذ الكافر بالأسباب فإنه يأخذ النتيجة، ولكن في الآخرة فالأمر يختلف، فلن يملك أحد أسباباً.

ولذلك يقول الحق سبحانه عن اليوم الآخر:

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

فالظالمون يستطيعون التصرف في الأرض، لكن عندما يكون المرجع إلى اللَّه فاللَّه يقول: أنا ملّكتكم وأنتم عصاة لي في كثير من الأسباب، لكن هناك وقت تزول فيه ملكيتكم للأسباب.

إذن: فالظالم قد يتحكم على الأرض وكذلك الباطل؛ لأن اللَّه أوجد لنا جميعاً إرادات ومرادات اختيارية، لكن في يوم القيامة فلا إرادات إلا إرادة اللَّه.

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

«هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل».

أنت في حضرة اللَّه سبحانه وتعالى الذي غمرك بالنعم، وهذه تراها وتحيط بك لأنه «رب العالمين»، وجعلك تطمئن إلى قضائه لأنه «الرحمٰن الرحيم»، أي أن ربوبيته سبحانه ليست ربوبية جبروت بل هي ربوبية «الرحمٰن الرحيم».

فإذا لم تحمده وتؤمن به بفضل نعمه التي تحسها وتعيش فيها، فاحذر من مخالفة منهجه؛ لأنه «مالك يوم الدين».

حين يستحضر الحق سبحانه وتعالى ذاته بكل هذه الصفات التي فيها فضائل الألوهية ونِعَم الربوبية، والرحمة التي تمحو الذنوب والرهبة من لقائه يوم القيامة تكون قد انتقلت من صفات الغيب إلى محضر الشهود.. استحضرت جلال الألوهية للَّه، وفيوضات رحمته، ونعمه التي لا تُعَدُّ، وقيوميته يوم القيامة.

وهكذا فإننا عندما نقول: «الحمد للَّه» فإننا نستحضر موجبات الحمد، وهي نعم اللَّه ظاهرة وباطنة.

وحين نقول: «رب العالمين» نستحضر نعم الربوبية في خلقه وإخضاع كونه.

وحين نستحضر «الرحمٰن الرحيم» فإننا نستحضر الرحمة والمغفرة ومقابلة الإساءة بالإحسان وفتح باب التوبة.

وحين نستحضر «مالك يوم الدين» نستحضر يوم الحساب، وكيف أن اللَّه تبارك وتعالى سيجازيك على أعمالك.

فإذا استحضرنا هذا كله نقول: «إياك نعبد»، أي: أننا نعبد اللَّه وحده.

إذن: عرفنا المطلوب منها، وهو العبادة.

فاللَّه سبحانه وتعالى خلقنا لنعبده، ولكن علة الخلق ليست؛ لأن هذه العبادة ستزيد شيئاً في مُلْكه، وإنما عبادتنا تعود علينا نحن بالخير في الدنيا والآخرة، فالمأمور بالعبادة هو الذي سينتفع بها.

ورب العزّة سبحانه يقول في حديثه القدسي:

«**يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في مُلْكي شيئاً. . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً**»[(١)].

فعبادتك له لن تنفعه سبحانه بشيء ولن يزيد في ملكه شيئاً، ومعصيتك وعدم عبادتك له لن تضره بشيء ولن تنقص من مُلْكه شيئاً، فسبحانه لا يلحقه ضرر بذنبك، وإنما الذنب يلحقك أنت.

واللَّه سبحانه وتعالى خلقنا في الحياة لنعبده. . مصداقاً لقوله تبارك وتعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

إذن: فعِلَّة الخالق هي العبادة، ولقد تم الخلق لتتحقق العبادة وتصبح واقعاً.

والعبادة هي إطاعة العابد لأمر المعبود، وهكذا يجب أن نفطن إلى أن العبادة لا تقتصر على إقامة الأركان التعبدية في الدين من شهادة أن لا إلٰه إلا

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٧٧) والبيهقي في سننه الكبرى (٦/ ٩٣) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

اللَّه وأن محمداً رسول اللَّه، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً.

إن هذه هي أركان الإسلام، ولا يستقيم أن ينفصل الإنسان المسلم عن ربه بين أوقات الأركان التعبدية.

إن الأركان التعبدية لازمة؛ لأنها تشحن الطاقة الإيمانية للنفس حتى تقبل على العمل الخاص بعمارة الدنيا، ويجب أن نفطن إلى أن العبادة في الدنيا هي كل حركة تؤدي إلى إسعاد الناس وعمارة الكون.

ويجب أن نعرف أن الأركان التعبدية هي تقسيم اصطلاحي وضعه العلماء في الفقه كباب العبادات وباب المعاملات.

لكن علينا أن نعرف أن كل شيء يأمر به اللَّه اسمه «عبادة».

إذن: فالعبادة منها ما يصل العبد بالمعبود ليأخذ الشحنة الإيمانية من خالقه، خالق الكون، ومنها ما يتصل بعمارة الكون.

ولذلك قلنا: إنك حينما تتقبل من اللَّه أمراً بعبادة ما، فأنت تتلقاه وأنت موصول بأسباب اللَّه بحثاً عن الرزق وغير ذلك من أمور الحياة.

فالعبادة منهج يشمل الحياة كلها.. في بيتك، وفي عملك، وفي السعي في الأرض؟

ولو أراد اللَّه سبحانه وتعالى من عباده الصلاة والتسبيح فقط لما خلقهم مختارين، بل خلقهم مقهورين لعبادته ككل ما خلق ما عدا الإنس والجن، فهو سبحانه يريد من الإنس والجن عبادة المحبوبية.. ولذلك خلقنا ولنا اختيار في أن نأتيه أو لا نأتيه.. في أن نطيعه أو نعصيه.. في أن نؤمن به أو لا نؤمن.

فإذا كنت تحب اللَّه فأنت تأتيه عن اختيار، تتنازل عما يغضبه حباً فيه، وتفعل ما يطلبه حباً فيه، وليس قهراً، فإذا تخليت عن اختيارك الى مرادات اللَّه في منهجه تكون قد حققت عبادة المحبوبية للَّه تبارك وتعالى، وتكون قد أصبحت من عباد اللَّه وليس من عبيد اللَّه، فكلنا عبيد للَّه سبحانه وتعالى، والعبيد متساوون فيما يُقهرون عليه، ولكن العباد الذين يتنازلون عن منطقة الاختيار لمراد اللَّه في التكاليف.

ولذلك فإن اللَّه جل جلاله يُفرق في القرآن الكريم بين العباد والعبيد.

يقول تعالى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣ ـ ٦٥].

وهكذا نرى أن اللَّه سبحانه وتعالى أعطى أوصاف المؤمنين وسمّاهم عباداً، ولكن عندما يتحدث عن البشر جميعاً يقول عبيد.. مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢].

واللَّه سبحانه وتعالى قد أعطى الإنسان اختياره في الحياة الدنيا في العبودية، فلم يقهره في شيء، ولا يلزم غير المؤمن به بأي تكليف.

اللَّه ينتظرك عند المريض

يقول رب العزّة سبحانه في الحديث القدسي:

٥ ـ «يا ابن آدم مرضت فلم تَعُدْني قال: يا رب وكيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تَعُدْه. أما علمت أنك لو عُدَّتَه لوجدتني عنده»[١].

إن الصحة هي من أثمن النعم، أما المرض فإنه أقسى ما يمكن أن يصاب به الإنسان، لأن الصحة هي التي تجعل الإنسان يتمتع بنعم الحياة، أما المرض فيحرمه هذه النعمة.

ولذلك فعندما يمرض الإنسان يعوّضه اللَّه بأنه بدلاً من أن يكون في معيّة النعمة، يكون في معيّة المنعم، وهو اللَّه سبحانه.

فلو فقد المؤمن نعمة العافية فلا ييأس، فإن اللَّه تعالى يريده أن يعيش مع المنعم، لا مع النعمة التي فقدت منه.

والمرض ضر وشدة تنزل بالإنسان، ولكنه يجعله أحسن ما يكون ذكراً للَّه وتسبيحاً له.

ولذلك لو قدر المريض نعمة اللَّه عليه في مرضه وشدته، لا أقول: إنه يحب أن يستطيل مدة المرض والشدة، بل عليه فقط ألا يضجر، وأن يلجأ إلى ربه ويدعوه.

وقد علَّمنا رسول اللَّه ﷺ ذلك حينما قال: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي.. إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهّمني أم إلى عدو ملَّكته أمري.**

إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٦٩) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

تُنْزِلَ بي غضبك أو يحل عليَّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

إن الإنسان عندما يمرض تسلب منه العافية فلا يستطيع أن يسير أو أن يتحرك، بل يرقد في فراشه ليتألم.

ويوضح الحق سبحانه أنه إن سلب منه العافية، فهو سبحانه عنده، ولذلك إياك أن تفزع إذا تركتك النعمة ما دام المنعم معك، والمريض المؤمن يستشعر أن اللَّه معه.

وحين يكون المسلم في معيّة اللَّه، فإن مقاييس المادة والبشريات لا تجيء أبداً.

ومثال هذا ما كان من أمر رسول اللَّه ﷺ وأبي بكر ـ رضي اللَّه عنه ـ في الغار، وقد جاء الكفار عند باب الغار فرآهم أبو بكر ـ رضي اللَّه عنه ـ فقال: يا رسول اللَّه لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا.

هذا كلام منطقي مع النظرة المادية، فلو انحنى أحد هؤلاء الكفار ونظر من باب الغار لرأى رسول اللَّه ﷺ وأبا بكر.

ولكن رسول اللَّه ﷺ أراد أن يطمئن أبا بكر وينفي عنه ما جاء في باله من خوف أن يراهما الكفار، فقال: ما ظنك باثنين اللَّه ثالثهما.

وما دام اللَّه ثالثهما تكون المعيّة موجودة، وإذا كنت في معيّة من لا تدركه الأبصار، أتدركك الأبصار؟

طبعاً لا تدركك أبصار الأعداء والخصوم.. اللهم اجعلنا في معيّتك دائماً. وهناك فرق بين أن يكون الإنسان مع النعمة وأن يكون مع المنعم، الماديون يحبون النعمة.

أما غير الماديين فيحبون المنعم ويعيشون في معيّته.

ولذلك عندما خاطب الحق سبحانه المسلمين قال: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

بينما خطابه سبحانه لبني إسرائيل: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

والحق سبحانه يقول في الحديث القدسي:

« **أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معي إله، فمن اتقى أن يجعل معي إلهاً كان أهلاً أن أغفر له** ».

فاللَّه سبحانه وتعالى واجب العبادة، ولو لم يخلق الجنة والنار، ولذلك فإن المؤمنين هم أهل الابتلاء من اللَّه، لماذا؟ لأن الابتلاء منه نعمة.

واللَّه سبحانه يباهي بعباده ملائكته، ويقول إنهم يعبدونني لذاتي، فتقول الملائكة: بل يعبدونك لنعمتك عليهم، فيقول سبحانه لهم: سأقبضها عنهم ولا يزالون يحبونني.

ومن عبادي من أحب دعاءهم، فأنا أبتليهم حتى يقولوا يا رب. لأن أصواتهم يحبها اللَّه سبحانه وتعالى.

ولذلك إذا ابتلى اللَّه عبداً في صحته مثلاً، وسلب منه نعمة العافية، ترى الجاهل هو الذي ينظر إلى هذا نظرة عدم الرضا.

وأما المتعمق فلا ييأس، فإن اللَّه تعالى يريده أن يعيش مع المنعم، وأنه طوال فترة مرضه يكون في معيّة اللَّه.

والحق سبحانه يطلب منك أن تواجه الحياة وأنت في معيّة اللَّه دائماً، فأنت لو واجهت المشكلات في معية من تثق في قوته فإنك تواجه الأمور بشجاعة، فما بالك إذا كنت في معية اللَّه، وكل شيء في الوجود خاضع للَّه، أيجرؤ شيء أن يقف أمامك وأنت مع اللَّه؟

إن الأحداث لا تملأ الخلق بالفزع والهلع إلا ساعة الانفلات من حضانة ربهم، وأما من يعيش في حضانة ربه فإنه لا يجرؤ عليه الشيطان، فهو لا يدخل مع اللَّه سبحانه وتعالى في معركة، وإنما يدخل مع خلق اللَّه سبحانه الذين ينسون اللَّه ويخرجون من معيّته.

والحق سبحانه يقول:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وما دام اللَّه سبحانه مع الصابرين فلا بد أن نعشق الصبر، وكيف لا نعشق ما يجعل اللَّه معنا؟

يقول بعض الصالحين:

اللهم إني أستحي أن أسألك الشفاء، والعافية، حتى لا يكون ذلك زهداً في معيّتي لك.

إذن لا بد أن نعشق الصبر لأنه يجعلنا دائماً في معيّة اللَّه، فلا نيأس مهما لقينا في حركة الحياة من مشقة.

من إذن يجرؤ على الزهد في معيّة اللَّه؟ عندما يعرف المريض أنه في مرضه الذي يتأوّه منه هو في معيّة اللَّه لاستحى أن يقول: آه.

ولكننا لا نطلب من المريض ألا يقول: آه. ولكن نطلب منه أن يتوجه إلى اللَّه ويقول: «**ولكن عافيتك أوسع لي**».

ومعيّة اللَّه سبحانه للمريض تقر في نفسه أنه لا كاشف للضر إلا اللَّه، فالمريض لا يشفى بمجرد الذهاب إلى الطبيب، لكن الطبيب يعالج بالمهارة الموهوبة له من اللَّه، والذي يشفي هو اللَّه.

يقول الحق سبحانه:

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

لأن الحق سبحانه وتعالى قد خلق الداء، وخلق الدواء، وجعل الأطباء مجرد جسور من الداء إلى الدواء، ثم إلى الشفاء.

واللَّه يوجد الأسباب ليُسرَّ ويُفْرح بها عباده، فيجعل المواهب كأسباب، وإلا فالأمر في الحقيقة بيده سبحانه وتعالى.

قال رسول اللَّه ﷺ: «**تداووا عباد اللَّه، فإن اللَّه تعالى لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد: الهرم**»[1].

ونحن نرى أن الطبيب المتميز يعلن دائماً أن الشفاء جاء معه، لا به، ويعترف أن اللَّه أكرمه بأن جعل الشفاء يأتي على ميعاد من علاجه.

إذن فالحق سبحانه هو كاشف الضر، وهو القدير على أن يمنحك ويمسَّك بالخير، وقدرته لا حدود لها.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٢٧٨)، وأبو داود في سننه (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨) وابن ماجه (٣٤٣٦) من حديث أسامة بن شريك.

والحق سبحانه يقول:

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

وقد ينسب الإنسان كشف الضر لغير اللَّه فينسب انكشاف الضر إلى مهارة الطبيب الذي لجأ إليه، ناسياً أن مهارة الطبيب هي من نعم اللَّه، أو ينسب أسباب خروجه من كربه إلى ما آتاه اللَّه من علم أو مال، ناسياً أن اللَّه هو واهب كل شيء، كما فعل قارون الذي ظن أن ماله قد جاءه من تعبه وكدِّه وعلمه ومهارته، ناسياً أن الحق هو مسبب كل الأسباب ضراً أو نفعاً، فسبحانه هو الذي يسبب الضر كما يسبب النفع.

ويلفت الضر الإنسان إلى نعم الحق سبحانه وتعالى في هذه الدنيا، وإذا ما رضي الإنسان وصبر فإن اللَّه يرفع عنه الضر، لأن الضر لا يستمر على الإنسان إلا إذا قابله بالسخط وعدم الرضا بقدر اللَّه، ولا يرفع الحق قضاء في الخلق إلا أن يرضى خلق اللَّه بما أنزل اللَّه، والذي لا يقبل المصائب هو من تستمر معه المصائب، أما الذي يريد أن يرفع اللَّه عنه القضاء فليقبل القضاء.

فنحن البشر نطيل على أنفسنا أمد القضاء بعدم قبولنا له، لكن لو سقط على الإنسان أمر بدون أن يكون له سبب فيه واستقبله الإنسان من مُجريه وهو ربه بمقام الرضا، فإن الحق سبحانه وتعالى يرفع عنه القضاء.

فإذا رأيت إنساناً طال عليه أمد القضاء فاعلم أنه فاقد الرضا.

إن الحق سبحانه يعطينا نماذج على مثل هذا الأمر، فها هو ذا سيدنا إبراهيم عليه السلام يتلقى الأمر بذبح ابنه الوحيد، ويأتيه هذا الأمر بشكل قد يراه غير المؤمن بقضاء اللَّه شديد القسوة، فقد كان على إبراهيم أن يذبح ابنه بنفسه، وهذا ارتقاء في الابتلاء.

ولم يلتمس إبراهيم خليل الرحمٰن عذراً ليهرب من ابتلاء اللَّه له، ولم يقل إنها مجرد رؤيا وليست وحياً، ولكنها حق.

وقد جاءه الأمر بأهون تكليف، وهو الرؤيا، وبأشق تكليف وهو ذبح الابن، ونرى عظمة النبوة في استقبال أوامر الحق.

ويلهمه الحق سبحانه أن يشرك ابنه إسماعيل في استقبال الثواب بالرضا بالقضاء.

يقول الحق سبحانه:

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

لقد بلغ إسماعيل عمر السَّعْي في مطالب الحياة مع أبيه حين جاء الأمر في المنام لإبراهيم بأن يذبح ابنه، وامتلأ قلب إسماعيل بالرضا بقضاء اللَّه، ولم ينشغل بالحقد على أبيه، ولم يقاوم، ولم يدخل في معركة، بل قال:

﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ﴾ [الصافات: ١٠٢].

لقد أخذ الاثنان أمر اللَّه بقبول ورضا؛ لذلك يقول الحق عنهما معاً:

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ * وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ * وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٣ ـ ١٠٧].

لقد اشترك الاثنان في قبول قضاء اللَّه، وأسلم كل منهما للأمر، أسلم إبراهيم كفاعل، وأسلم إسماعيل كمنفعل، وعلم اللَّه صدقهما في استقبال أمر اللَّه.

وهنا نادى الحق إبراهيم عليه السلام: لقد استجبت أنت وإسماعيل للقضاء، وحسبكما هذا الامتثال، ولذلك يجيء إليك وإلى ابنك اللطف، وذلك برفع البلاء، وجاء الفداء بذبح عظيم القدر؛ لأنه ذبح جاء بأمر اللَّه.

ولم يكتف الحق سبحانه بذلك، ولكن بشَّر إبراهيم بميلاد ابن آخر:

﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢].

لقد رفع اللَّه عن إبراهيم القدر، وأعطاه الخير وهو ولد آخر، هو إسحاق، فاللَّه زيادة على افتداء إسماعيل بذبح عظيم، يسوق المولى سبحانه البشرى بمزيد من العطاء.

وهو سبحانه لم يرزقه بولد ثان فقط، بل بولد يكون نبياً وصالحاً.

وتأتي زيادة أخرى في العطاء الرباني لسيدنا إبراهيم عليه السلام، فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٢].

هكذا يتجلى عطاء المولى سبحانه وتعالى لسيدنا إبراهيم عليه السلام، فلا يعطيه الولد الذي يحفظ ذكره فقط، بل يعطيه الولد الذي يحفظ أمانة الدعوة أيضاً، وكل ذلك نافلة من اللَّه، أي عطاء كريم زائد، وفضل كبير لأبي الأنبياء إبراهيم.

فالرضا بقضاء اللَّه يجعل العبد في معيّة اللَّه وفي كنفه، ومن هذا القضاء المرض، أيضيق أي مريض عندما يعرف أن الصحة كانت نعمة من اللَّه وفارقته، ولكن المرض جعله مع المنعم، وهو اللَّه سبحانه وتعالى؟

لا، بل إن ذلك يخفف عنه وطأة المرض، ويجعله يشعر أن الأنُس باللَّه يخفف عنه الآلام، لكن للأسف تجد الإنسان غير منطقي مع نفسه، فالعالم خُلق من أجل الإنسان، والإنسان خلق ليعبد اللَّه.

ولكنك تجده لا يلتفت لما خُلق من أجله، بل يلتفت للأشياء التي خُلقت له، وقد كان من المنطقي أن ينشغل بما خُلق من أجله.

فتجد من يظن أن الطبيب هو الذي يشفي، وينسى أن اللَّه وحده هو الشافي، أما الطبيب فهو معالج فقط، ولذلك تجد أننا قد نأخذ إنساناً لطبيب فيموت بين يدي الطبيب.

فقد يعطي الطبيب دواء للمريض، فيموت بسببه هذا المريض، وجاء سيدنا إبراهيم عليه السلام بالقصر في الشفاء للَّه، حتى لا يظن أحد أن الشفاء في يد أخرى غير يد اللَّه سبحانه.

والصحة نعمة من نعم اللَّه يسبغها سبحانه على عباده، والنعمة حين يشاء الحق سبحانه أن تصيب الإنسان، ثم تنزع منه، هنا يصاب الإنسان بالقلق أو الحزن أو الهلع أو اليأس.

واليأس: هو قطع الأمل من حدوث شيء، والمؤمن لا ييأس أبداً، ولا يقطع الأمل من رحمة اللَّه.

يقول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧].

اليأس ـ إذن ـ هو أن تقطع الأمل من أمر مراد لك، ولا تملك الوسائل لتحقيقه.

والذي ييأس هو الذي ليس له إلٰه يركن إليه؛ لأن اللَّه تعالى هو الركن الرشيد الشديد، فالمؤمن إن فقد شيئاً يقول: إن اللَّه سيعوّضني خيراً منه.

أما الذي لا إيمان له بإله فهو يقول: إن هذه الصدفة قد لا تتكرر مرة أخرى.

والإنسان لا ييأس إلا عند عدم يقينه بمصدر يرد عليه ما يريده، ولكن حين يؤمن بمصدر يرد عليه ما يريده فلا تجده يائساً قانطاً.

والمؤمن يعلم أن النعمة لها واهب، إن جاءت شكر اللَّه عليها، وإن سُلبت منه فهو يعلم أن الحق سبحانه قد سلبها لحكمة.

وهذا شأن المؤمن، وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له**»[(١)].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٩٩٩) من حديث صهيب الرومي.

نعيم الجنة لا حدود له

يقول رب العزّة سبحانه في الحديث القدسي:

٦ ـ «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[(١)].

يقول الحق سبحانه:

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

فالحق سبحانه يبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات بجنات تجري من تحتها الأنهار.. والجنات جمع جنة، وهي جمع لأنها كثيرة ومتنوعة، وهناك درجات في كل جنة أكثر من الدنيا.

اقرأ قوله تبارك وتعالى:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

فالجنات نفسها متنوعة، فهناك جنات الفردوس، وجنات عدن، وجنات نعيم، وهناك دار الخلد، ودار السلام، وجنة المأوى، وهناك علّيّون الذي هو أعلى وأفضل الجنات.

وأعلى ما فيها التمتع برؤية الحق تبارك وتعالى، وهو نعيم يعلو كثيراً عن أي نعيم في الطعام والشراب في الدنيا.

والطعام والشراب بالنسبة لأهل الجنة لا يكون عن جوع أو ظمأ، وإنما عن مجرد الرغبة والتمتع، واللَّه جل جلاله في هذه الآية يعد بأمر غيبي،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد في مسنده (٢/ ٤٦٦) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٦٢) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

ولذلك فإنه لكي يقرب المعنى إلى ذهن البشر، لا بد من استخدام ألفاظ مشهودة وموجودة، أي عن واقع نشهده.

والحق سبحانه يقول:

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧].

إذن: ما هو موجود في الجنة لا تعلمه نفس في الدنيا، ولا يوجد لفظ في اللغة يعبر عنه، ولا ملكة من ملكات المعرفة كالسمع والنظر قد رأته.

ولذلك استخدم الحق تبارك وتعالى الألفاظ التي تتناسب مع عقولنا وإدراكنا.

والحق هنا يقول عن أهل الجنة أنهم:

﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ ﴾ [البقرة: ٢٥].

فيعتقدون أن هناك تشابهاً بين ثمر الدنيا وثمر الجنة، ولكن الثمر في الجنة ليس كثمر الدنيا، لا في طعمه ولا في رائحته.

وإنما يرى أهل الجنة ثمرها ويتحدثون ويقولون: ربما تكون هذه الثمرة هي ثمرة المانجو أو التين الذي أكلناه في الدنيا، ولكنها تختلف تماماً في الحقيقة، قد يكون الشكل متشابهاً، ولكن الطعم وكل شيء مختلف.

في الدنيا كل طعام له فضلات يخرجها الإنسان، ولكن في الآخرة لا يوجد لطعام فضلات، بل إن الإنسان يأكل كما يشاء دون أن يحتاج إلى إخراج فضلات، وذلك لاختلاف ثمار الدنيا عن الآخرة في التكوين.

إذن: ففي الجنة الأنهار مختلفة والثمار مختلفة، والجنة يكون الرزق فيها من اللَّه سبحانه وتعالى الذي يقول للشيء: «كن فيكون» ولا أحد يقوم بعمل.

فالحق سبحانه يعطينا صورة عن شيء هو الآن غيب عنا، وسيصير بإذن اللَّه وبمشيئته مشهداً، ونحن نعرف أن الجنة بها كل ما تتمناه النفس.

ونحن نعلم أن الكائنات الوجودية يعرفها الإنسان بما يناسب إدراكه، فقال رب العزّة سبحانه في الحديث القدسي:

«**ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت**».

والعين حين ترى تكون محدودة، لكن السمع دائرته أوسع من الرؤية، لأنه سيسمع ممن رأى، إنه سمع فوق ما رأى.

إذن: فدائرة الإدراكات تأتي أولاً: بأن يرى الإنسان، ثم بأن يسمع، وهو يسمع بأكثر مما يرى.

ثم يقول: «**ولا خطر على قلب بشر**».

أي: أن ما في الجنة أكبر من التخيلات، إذن: فكم صفة هنا للجنة؟

الأولى: قوله: «ما لا عين رأت»، والعين مهما رأت فدائرتها محدودة.

والثانية: قوله: «ولا أذن سمعت»، والأذن إن سمعت فدائرتها أوسع قليلاً.

والثالثة: قوله: «ولا خطر على قلب بشر». وهذا أوسع من التخيلات.

فإذا كنت يا حق سبحانك ستعطينا في الجنة «ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

فبأي الألفاظ يا ربي تؤدي لنا هذه الأشياء، وألفاظ اللغة إنما وضعت لمعانٍ معروفة، وما دمت ستأتي بشيء لم تره عين، ولم تسمعه أذن، ولا يخطر على قلب بشر، فأي الألفاظ ستؤدي هذه المعاني؟

لقد أوضح ﷺ أنه لا توجد ألفاظ؛ لأن المعنى يُعرف أولاً، ثم يوضع له اللفظ، فكل لفظ وُضِع في اللغة معروف أن له معنى.

لكن ما دامت الجنة هذه لم ترها عين، ولم تسمعها أذن، ولم تخطر على قلب بشر، فلا توجد كلمات تعبر عنها.

لذلك لم يقل: إن الجنة هكذا، بل قال: «مثل الجنة»، أما الجنة نفسها فليس في لغتنا ألفاظ تؤدي هذه المعاني.

وحيث إن هذه المعاني لا رأتها عين، ولا سمعتها أذن، ولا خطرت على قلب بشر، لذلك فليس في لغة البشر ما يعطينا صورة عن الجنة.

وأوضح الحق سبحانه: سأختار أمراً هو أحسن ما عندكم، وأعطيكم به مثلاً.

قال سبحانه:

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [محمد: ١٥].

ونحن نرى الأنهار، والحق يطمئننا هنا بأن أنهار الجنة ستختلف فهو سبحانه سينزع منها الصفة التي قد تعكر نهريتها، فقد تقف مياه النهر وتصبح آسنة متغيرة، فيقول: «أنهار من ماء غير آسن».

إذن: فهو يعطي اسماً موجوداً وهو النهر، وكلنا نعرفه، لكنه يوضح: أنا سأنزع منه الأكدار التي تراها في النهر الحادث في الحياة الدنيا.

وأيضاً: فأنهار الدنيا تسير وتجري في شق بين شاطئين، لكن أنهار الجنة سترى الماء فيها وليس لها شطوط تحجز الماء لأنها محجوزة بالقدرة.

وستجد أيضاً أنهاراً من لبن لم يتغير طعمه، فالعربي كائن يأخذ اللبن من الإبل، ويخزنه في القرب، وبعد ذلك ترحل الإبل بعيداً إلى المراعي وإلى حيث تسافر، وعندما كان الأعرابي يحتاج إلى اللبن فلم يكن أمامه غير اللبن المخزون في القرب، ويجده متغير الطعم لكنه لا يجد غيره.

لذلك يوضح الحق: سأعطيكم أنهاراً من لبن في الجنة لم يتغير طعمه.

ثم يقول: «وأنهار من خمر» وهم يعرفون الخمر، ولنفهم أنها ليست كخمر الدنيا، لأنه يقول: «مثل» ولم يقل الحقيقة فقال: «أنهار من خمر» لكنها خمر «لذة للشاربين».

وخمر الدنيا لا يشربها الناس بلذة، بدليل أنك عندما ترى من يشرب كأس خمر، فهو يسكبه في فمه مرة واحدة، ليس كما تشرب أنت كوباً من مانجو وتتلذذ به، إنه يأخذه دفعة واحدة ليقلل سرعة مروره على مذاقاته لأنه لاذع ومحمض، وتغتال العقول وتفسدها، لكن خمر الآخرة لا اغتيال فيها للعقول.

إذن: فحين يعطيني الحق مثلاً للجنة، فهو ينفي عن المثل الشوائب، ولذلك نجد الأمثال تتنوع في هذا المجال، فالعربي عندما كان يمشي في الهاجرة، ويجد شجرة «نبق» ويقال لها «سدر» كان يعتبرها واحة يستريح

عندها، ويجد عليها النبق الجميل، فهو يمد يده ليأكل منها، لكنه قد يجد شوكاً فيتفادى الشوك.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

كان العرب يأخذون العسل من الجبال، فالنحل يصنع خلاياه داخل شقوق الجبال، وعندما كانوا يخرجون العسل من الجبال يجدون فيه رملاً وحصى، فأوضح الحق سبحانه: ما يعكر عليك العسل هنا في الدنيا أنا أصفيه لك هناك، ومع أنه مثل لكنه يصفيه أيضاً، ولماذا مثَّل؟ لأنه ما دام نعيم الجنة «لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»، فتكون لغة البشر كلها لا تؤدي ما فيها، لكنه سبحانه يعطينا صورة مقرّبة.

ويضرب اللَّه المثل بالصورة المقرّبة للأشياء التي تتعالى عن الفهم ليقربها من العقل.

ومثال ذلك: عندما أراد سبحانه أن يعطينا صورة لتنوير اللَّه الكون، وليس لنور اللَّه الذاتي، بل لتنوير اللَّه للكون، فيقول:

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ﴾ [النور: ٣٥].

فالحق سبحانه يضرب مثلاً لنوره، هذا النور الذي يضيء الدنيا والآخرة، فيضيء القلوب المؤمنة.

إنه يريد أن يضرب لنا مثلاً لهذا النور بشيء مادي محسّ.

فالحق سبحانه يضرب مثلاً للمعنويات ليتعرف إليها الناس، فهو يقدم لها بأمر مادي يتفق عليه الكل، ليقرب الأمر المعنوي أو الغيبي إلى أذهان الناس؛ لأن المعنويات والغيبيات يصعب إدراكها على العباد.

فلذلك فهو سبحانه وتعالى يقرب هذا الأمر ويبيّنه بأن يضرب لنا مثلاً من الأمور المادية المحسَّة، حتى تقترب الصورة من الأذهان، لأننا جميعاً نرى الماديات.

وبهذا يلحق سبحانه الأمر المعنوي، وهو غير معلوم لنا بالأمر المادي الذي نعرفه، فتقترب الصورة من أذهاننا وتتضح لنا.

وهكذا شاء الحق سبحانه وتعالى أن يلحق المجهول بالنسبة للناس بالمعلوم عندهم.

والنور الحسي المادي نعمة عامة خلقها اللَّه سبحانه وتعالى بقانون الربوبية الذي يعطي النعم لجميع خلقه في الدنيا، سواء من آمنوا أم لم يؤمنوا؟

وأكبر ما فيه نور الشمس الذي يستفيد منه كل الخلق، المؤمن والعاصي، والكافر والمشرك، والمسخر من حيوان أو نبات أو جماد.

فإذا غابت الشمس نجد كل واحد منا يستعين بنور يعطيه الضوء في حيّز محدود وعلى قدر إمكاناته، فواحد يوقد شمعة، وواحد يأتي بمصباح «جاز» صغير، وواحد يستخدم الكهرباء فيأتي بمصباح «نيون»، وواحد يأتي بالعديد من مصابيح الكهرباء ليملأ المكان بالنور، كل على قدر إمكاناته.

فإذا طلعت شمس اللَّه، فهل يُبقي أحد على مصباحه مضاء؟

إن الجميع يطفئون مصابيحهم؛ لأن شمس اللَّه قد سطعت تنير للجميع، ذلك هو النور الحسي.

وفي المعنويات نور أيضاً، فالنور المعنوي يهديك إلى القيم حتى لا ترتطم بالمعنويات السافلة التي قد تقابلك في مسيرة الحياة.

إذن: فكل ما يهدي إلى طريق اللَّه يسمى نوراً.

يقول الحق سبحانه:

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

إنه نور المنهج الذي ينير لنا المعنويات، وينير لنا القيم، فلا يحقد أحدنا على الآخر، ولا يحسد أحدنا الآخر، ولا يرتشي أحد، ويرعى كل منا حقوق غيره.

ويقرب لنا الحق سبحانه وتعالى الأمر في مثل مادي عن معنى نور اللَّه، فيقول سبحانه:

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥].

أي: أن نوره سبحانه وتعالى يملأ السماوات والأرض، وأنه يحيط بكل جوانب الحياة على الأرض، فلا يترك جانباً منها مظلماً، فنور اللَّه سبحانه في السماوات والأرض نور شامل لا يدع مكاناً مظلماً ولا مكاناً يختفي فيه شيء بسبب الظلام.

تماماً كمثل تلك الدائرة الصغيرة التي يشع منها نور المصباح، فلا تجد فيها ملليمتراً واحداً من الظلام.

ولذلك ينبهنا الحق سبحانه إلى هذه النقطة، ويوضح لنا أنه يعطينا معنى تقريبياً، حتى نستطيع أن نفهمه، فيقول سبحانه وتعالى:

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [محمد: ١٥].

أي: أنها ليست هي، ولكنه مثل فقط، يُقرِّب المعنى إلى ذهنك، خذ صورة من المجتمع الذي تعيش فيه، أنت تحتاج إلى مسكن لتسكن وتستريح فيه من عناء الحياة. وهناك من عنده مسكن من حجرة واحدة، فإذا ترقى يكون المسكن من حجرة وصالة أو حجرتين وصالة.

ثم بعد ذلك يزداد الرقي، فيبحث عن شقة واسعة، فإذا ارتقى كان له مسكن خاص «فيلا»، فإذا ارتقى جعل حول مسكنه حديقة، وهكذا يزداد الرقي.

إذن: فالمسألة لم تَعُدْ مكاناً تأوي إليه فقط، بل ترتقي في الإيواء كلما ارتقيت في الحياة، فتتحقق لك المتعة في الإيواء.

ولهذا يقول الحق سبحانه:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ [التوبة: ٧٢].

أي: هناك جنات وهناك مساكن؛ لأن الإنسان يحب في بعض الأوقات أن يجلس بمفرده وحوله المتعة التي تخصه، وفي أحيان أخرى يحب أن يجلس مع الناس في مكان جميل، مثلما يحدث في الأعياد والمناسبات، عندما نخرج إلى الحدائق والبساتين، ونجلس معاً.

فكأن الجنات هي للرفاهية الزائدة، عندما تحب أن تجتمع مع الناس، أتمتع بها أنا وأنت وغيرنا، أما المساكن فهي للخصوصية، فيكون لكل واحد مكان خاص يجلس فيه ويتمتع بما حوله.

إذن: فالجنات صورة من البساتين، ولكنها ليست مصنوعة بالأسباب، بل هي من صناعة المسبب جل وعلا.

ونحن حينما نذهب إلى بيت إنسان ثري. قد نجد أن للبيت حديقة:

يشرف عليها بستاني متمكن من عمله، ويقوم بتنسيق الزهور والأشجار بشكل يناسب ثراء المالك.

ويكون إعجابنا في هذه الحالة بالحديقة إعجاباً كبيراً بحيث نجلس فيها، ونكره أن نغادرها.

فإذا كان هذا هو ما يحدث بقدرات البشر، فكيف بهذه الحدائق التي صنعت بقدرة اللَّه سبحانه وتعالى؟ وكيف يكون جمالها وحلاوتها والمتعة فيها؟

إن الذي وعدنا بهذه الجنات هو الحق سبحانه وتعالى، وهو قادر على أن ينفذ ما وعدنا به، من جنات فيها من الكماليات والرفاهية مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وجعل سبحانه هذه الجنات واسعة شاسعة، فيها زروع وأزهار وأشكال، تسرّ العين بجمالها، وتمتع اللمس بنعومتها، وتملأ الأنوف برائحتها الزكية.

ومن ميزات جمالها أن الأنهار تجري من خلالها، ولكنها لا تجري من فوقها بل تجري من تحتها، ومنابعها من مكان آخر، أو تحتها ومنابعها ذاتية. أي: ينبع من نفس المكان، وكأن كل نهر ينبع من تحت جنة خاصة به.

وإذا أردت أن تعرف جمال هذه الأنهار، فهو جمال قد صنعه الحق سبحانه وتعالى.

وإذا كنا في حياتنا نرى أن لكل نهر شاطئين، فإن أنهار الجنة تجري من غير شواطئ، وإنما يمسكها الذي أمسك السماء أن تقع على الأرض، ثم تجد الأنهار قد تشترك في المجرى، نهر اللبن، ونهر العسل، ونهر الماء، ونهر الخمر.

وكلها تجري في مجرى واحد، ولكنها لا تختلط ببعضها البعض، فكل منها منفصل، لأن الحق سبحانه وتعالى هو الصانع، وتبارك من صنع.

ويعطينا سبحانه وتعالى بعد كل ذلك، ميزة الخلود في هذه الجنات فيقول: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [التوبة: ٧٢].

ونحن نعلم أن المتعة في الدنيا قد توجد للإنسان، ولكنها لا توجد خالدة أبداً، فقد تزول عنك النعمة وتذهب المتعة، كأن تصاب بكارثة مالية،

أو تخسر خسارة كبيرة في تجارتك، أو غير ذلك، وقد تزول أنت عن النعمة بالموت.

ولكنك في جنات الآخرة تستمتع بقدر ما فيها من كمال وجمال، ويزيدك اللَّه فيها بأن يعطيك الخلود، فلا تفارق النعمة ولا تفارقك؛ لأنه ليس هناك أغيار، وليس هناك موت.

وكل إنسان في الدنيا يتمتع على قدر قدراته، وتصورات الخلق لأنواع النعيم تختلف باختلاف بيئاتها، ومقاماتها، فقد تكون من الفلاحين، وكل متعتك أن تجلس على مصطبة أمام بيتك، وقد يكون عند إنسان آخر بيت فيه صالون كبير، والثالث له بيت فيه عدة صالونات.

فكل واحد على قدر إمكاناته في الدنيا، ولكننا في الآخرة نتمتع كلنا على قدر قدرات الحق سبحانه وتعالى، ويكون متاعنا بقدرة لا تفوقها قدرة، ويكون الجزاء بقدر ما فعلت من خير في الدنيا، واتبعت منهج اللَّه.

إذن: فأنت الذي تحدد المساحة التي لك في الجنة، وتحدد المسكن وأنواع النعيم بقدر عملك.

ثم: ما الذي يهددك في نعيم الدنيا؟

الذي يهدد الناس في الدنيا أحد شيئين:

ـ إما أن تزول عنهم النعمة فيفتقروا.

ـ وإما أن يزولوا هم عن النعمة بالموت.

ولكن نعمة الآخرة ليس فيها هذا التهديد، إنها النعمة الخالدة، وأهل الجنة فيها خالدون؛ ولذلك يقال: يا أهل الجنة، خلود بلا موت، ونعيم بلا بؤس.

قال رسول اللَّه ﷺ: «**ينادي مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبداً**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٣٧) وأحمد في مسنده (٢/ ٣١٩) (٣/ ٣٨، ٩٥) والترمذي في سننه (٣٢٤٦).

ولقد زاد الحق تبارك وتعالى في وصف الخلود فقال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٠].

والخلود بقاء طويل جداً، والأبدية لا تنتهي.

إذن: فالخلود في جنات عدن خلود دائم، وهي جنات يعلو فيها التنعيم لدرجة من علوها لا يحب الإنسان أن يتركها أبداً، لأنها أعلى مراتب الجنة، ولا يوجد أحسن منها.

والإنسان حينما يكون بمكان فإنه لا ينتقل منه إلا إذا زهد ما فيه، فلو كان ما في جنات عدن مما يُزْهَد فيه بعد فترة ما وصفها اللَّه بهذا الوصف.

ولكي يصل الإنسان إلى النعيم لا بد من موجد لهذا النعيم، وهو اللَّه سبحانه وتعالى، وما يتمتع الإنسان به وهو الجنة، والمنعم عليهم بالنعمة، وهم المؤمنون والمؤمنات.

فمن أطاع اللَّه طمعاً في الحصول على نعيم اللَّه في الآخرة، يأخذ هذا النعيم، والذي أطاع اللَّه لذات اللَّه؛ ولأنه سبحانه وتعالى يستحق أن يعبد لذاته ويطاع، يكون في الآخرة مع التعظيم والتكريم والمحبة واللقاء بالمنعم سبحانه.

إذن: فكل إنسان لما عمل له، فإذا زادت عبادتك عما فرض اللَّه عليك، وأحببت أن تكون دائماً في لقاء مع اللَّه، بأن تقوم الليل وتتهجّد، وتقرأ القرآن وتصلي والناس نيام، وتتقن العمل الذي ترتقي به حياتك وحياة غيرك، وتفعل ذلك محبة في اللَّه الذي يستحق التعظيم، فأنت تستحق المنزلة الأعلى، وهي أن تكون في معيّة اللَّه.

يقول سبحانه:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

والحق سبحانه وتعالى يتجلى على أهل الجنة فترات، ويتجلى على أهل محبوبية ذاته دائماً.

وعندما يتجلى الحق سبحانه على أهل الجنة يقول:

« **يا أهل الجنة. فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك. فيقول:**

هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك.

فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟

فيقولون: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟

فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»[1].

وقد قال الحق سبحانه:

﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [يونس: ٢٦].

والحسنى هي الجنة، أما الزيادة فقد قال المفسرون: إنها رؤية المحسن.

فمن أحسن يلقاه الحق سبحانه في أحضان نعمه ويتجلى عليه برؤيته.

والحسنى: هي عطاء زائد في الحسنات، فهناك «كادر» للجزاء بالحسنات، يبدأ بعشرة أمثال الحسنة، ويصل إلى سبعمائة ضعف، وهذا «الكادر» لا يحدد فضل اللَّه تعالى، بل الحق سبحانه يزيد من فضله مَنْ يشاء.

ولذلك يجب ألا نفرق بين عدل اللَّه سبحانه في أن الشيء يساوي الشيء وفضل اللَّه تعالى في أن يجزي على الشيء الحسن بأضعاف أضعاف ما نتصور.

وقال قوم من العارفين باللَّه: إن الزيادة المقصودة هي في العشرة الأمثال والسبعمائة ضعف، والفضل هو ما فوق ذلك.

وهكذا تتعدد مراتب الجزاء: فهناك العشرة الأمثال، والسبعمائة ضعف، والحسنى والزيادة عن الحسنى.

«أعددت».

يقول الحق سبحانه في قرآنه:

﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٦٥٤٩)، ومسلم في صحيحه (٢٨٢٩) عن أبي سعيد الخدري.

وهكذا نرى أن هذه الجنة قد أعدت للمتقين، ومعنى «أعدت»: أي: هُيّئت وصنعت وانتهت المسألة.

يؤكد ذلك رسول اللَّه ﷺ فيقول:

«**عُرِضَتْ عليَّ الجنة، ولو شئت أن آتيكم بقطاف منها لفعلت**».

فعندما يقول الحق سبحانه «أعدت»، فمعناها: أنه أمر قد انتهى الحق من إعداده، وأعد سبحانه الجنة كلها بكلمة «كن» أي: أنها مسألة مفروغ منها.

وما دامت مسألة مفروغاً منها، إذن: فالمصير إليها أو إلى مقابلها مفروغ منه.

لقد أوضح المولى سبحانه بما لا يدع مجالاً للظن أو الشك أنه قد أعد جنة للمؤمنين، وأعد ناراً للكافرين.

وحكى لنا الحق سبحانه وتعالى عن هذه الحياة بما فيها من ثواب ومن عقاب، بما يقنعنا أن فيها نعيماً مثل الذي نعرفه، فإذا كان هذا النعيم روحياً، ونحن لا نعرف النعيم الروحي، ولا نعلم شيئاً عنه، فكيف يُغرينا اللَّه عز وجل بشيء لا نعلمه؟

فسبحانه حين يحدثنا عن الجنة إنما يحدثنا عن أشياء من جنس ما نعرف، وليس من جنس ما لا نعرف.

أما أن يقال: إن نعيم الجنة هو النعيم الروحي أو نعيم الخواطر أو ما نسميه آمال النفس، كأن يتخيل إنسان جائع أنه أكل كمية كبيرة من اللحم أو السمك، فتسعد روحه بذلك من غير واقع يحدث، فكل هذا غير حقيقي.

هم يقولون هذا الكلام، لأنهم إذا ما تصوروا نعيم الجنة كالخواطر فسوف يكون عذاب النار مقابلاً أيضاً لنعيم الجنة، أي: سيكون عذاب الخواطر، وفي هذا تصوّر لعذاب سهل، لأنهم يخافون عذاب النار فيريدونه عذاباً روحياً.

ولكن الإحساس بالنعيم والعذاب لا بد أن يكون له واقع يشبهه في الدنيا، وإلا ما وُجد في أنفسنا ما يجعلنا نرغب في نعيم الجنة ونخاف من عذاب النار.

لذلك فإن نعيم الجنة حق، وعذاب النار حق.

وهنا يبرز سؤال هو: لأي عمل هم صالحون؟

والإجابة تقتضي قليلاً من التأمل، إننا نقول في حياتنا: إن فلاناً رجل صالح، ومقابله «رجل طالح»، والإنسان صالح للخلافة، فقد جعل اللَّه آدم وذريته خلفاء في الأرض، والرجل الصالح يرى الشيء الصالح في ذاته، فيترك هذا الشيء على ما هو عليه أو يزيده صلاحاً.

أما الرجل الطالح أو المفسد فهو يأتي إلى الشيء الصالح فيفسده ولا يفعل صلاحاً.

إن الرجل ـ على سبيل المثال ـ قد يجد بئراً يأخذ منه الناس الماء، فإن لم يكن من أهل العزم فإنه يتركه على حاله، وإن كان طالحاً فقد يردم البئر بالتراب.

أما إن كان الرجل من أهل الصلاح والعزم فهو يحاول أن يبدع في خدمة الناس التي تستقي من البئر فيفكر ليبني خزاناً عالياً ويسحب الماء من البئر بآلة رافعة، ويُخرج من الخزان أنابيب ويمدها إلى البيوت، فيأخذ الناس المياه وهم في المنازل.

إن هذا الرجل قد استخدم فكره في زيادة صلاح البئر.

إذن: فكلمة «رجل صالح» تعني أنه صالح لأن يكون خليفة في الأرض، وصالح لاستعمار الأرض، أي: أن يجعلها عامرة، فيترك الصالح في ذاته، أو يزيده صلاحاً ويحاول أن يصلح أي أمر غير صالح.

الرجل الصالح عندما يعمل فهو يحاول أن يجعل عمله عن عمق علم، فلا يُقْدِم على العمل الذي يعطي سطحية نفع، ثم يسبب الضرر من بعد ذلك.

فالحق سبحانه هو الذي استخلف الإنسان في الكون ليعمر هذا الكون.

يقول تعالى: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

وعمارة الكون تنشأ بالتفكير في الارتقاء والصالح في الكون، فالصالح نتركه صالحاً، وإن استطعنا أن نزيد في صلاحه فلنفعل.

فالإسلام هو كل حركة في الحياة تناسب خلافة الإنسان في الأرض، فكل حركة تؤدي إلى عمارة الأرض فهي من العبادة، فلا تأخذ العبادة على أنها صوم وصلاة فقط؛ لأن الصوم والصلاة وغيرهما هي الأركان التي ستقوم عليها حركة الحياة التي سَيُبْنى عليها الإسلام.

فلو جعلت الإسلام هو هذه الأركان فقط جعلت الإسلام أساساً بدون مبنى، فهذه هي الأركان التي يُبنى عليها الإسلام.

إذن: فالإسلام هو كل ما يناسب خلافة الإنسان في الأرض لنقيم الأركان والبنيان معاً، ونكون قد أدينا مسؤولية الإيمان.

أولياء اللَّه

قال اللَّه تعالى في الحديث القدسي:

٧ ـ «مَنْ عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورِجْله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»(١).

يقول الحق سبحانه:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

جاءت هذه الآية بعد كلام الحق سبحانه عن نفسه بأنه عالم الغيب، وأنه لا يخفى عليه شيء، فقال:

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

فالحق سبحانه يخبرنا أن كل شيء مهما صَغُر واختفى فهو معلوم محسوب، فكل أمورك يا محمد وأمور الخلق، والمخلوقات كلها معلومة للَّه تعالى، ومكتوبة في كتاب مبين واضح.

فالحق سبحانه يعلم أزلاً كل أعمالنا، ولكنه يسجل لنا بالواقع تلك الأعمال والنيات، لنعلم عن أنفسنا ماذا نفعل، لتنقطع حجة من أساء إذا وقع به العقاب.

ولكن الحق سبحانه يريد أن يُعْلمنا أنه قد يفيض على بعض خلقه

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة. وأخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٢٥٦) من حديث عائشة.

فيوضات الإمداد على قدر رياضات المرتاضين، فهَبْ أن اللَّه قد امتنَّ عليك بنفحة، فإياك أن تقول: إنها من عندك، بل هي من عند عالم الغيب سبحانه الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وعلى ذلك فلا يقال: إن فلاناً قد عَلِم غيباً لأنه وَليٌّ للَّه، بل لنقُلْ: «**إن فلاناً مُعلَّم غيب**»؛ لأن الغيب هو ما غاب عن الناس، وما يغيب عنك ولا يغيب عن غيرك فهو ليس غيباً مطلقاً، فهو غيب بالنسبة لك وحدك.

ومثال ذلك: الرجل الذي سُرق منه شيء، هو لا يعرف أين يوجد الشيء الذي سُرِق منه، ولكن اللص يعرف، وكذلك من ساعد اللص وأخفاه وأخفى له المسروقات، كل هؤلاء يعلمون، وأيضاً الجن الذين كانوا في نفس مكان السرقة يعلمون، وهذا ليس غيباً مطلقاً.

وأيضاً أسرار الكون التي كانت غيباً موقوتاً، مثل جاذبية الأرض، والسالب والموجب في الكهرباء، وتلقيح الرياح للسحاب لينزل الماء، كل ذلك كان غيباً في زمن ما، ثم شاء الحق سبحانه فحدد لكل أمر منها ميعاد كشف، فصارت أموراً مشهودة.

إذن: ففي الكون غيب قد يصير مشهداً، إما بمقدمات يتابعها خلق اللَّه بالبحث، وإما أن تأتي صدفة في أثناء أي بحث عن شيء آخر.

فقد تجد باحثاً يعمل من أجل كشف معين، فيصادف كشفاً آخر؛ لأن اللَّه تعالى قد أذن لذلك الكشف الذي كان غيباً أن يُولد، وإن لم يبحث عنه أهل الأرض.

وأغلب أسرار الكون تم اكتشافها صدفة، لنفهم أن عطاء اللَّه بميلادها ـ دون مقدمات من الخلق ـ أكثر مما وصل إليه بالعطاء من مقدمات الخلق.

ولذلك تجد التعبير الأدائي في القرآن عن لوْني الغيب، تعبيراً دقيقاً، لنفهم أن هناك غيباً عن الخلق جميعاً، وليست له مقدمات، ولا يشاء اللَّه سبحانه له ميلاداً، واستأثر اللَّه بعلمه، فلا يعلمه إلا هو سبحانه.

وهذا الغيب قال الحق سبحانه فيه:

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

أي: أنه سبحانه لم يُعْط مفتاح الغيب لأحد، بل هو عند اللَّه وحده، فالحق سبحانه يعلم مطلق العلم.

أما الغيب الذي يكشفه اللَّه سبحانه لهم فيقول سبحانه:

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقد نسب المشيئة له سبحانه، وهذا هو غيب الابتكارات.

فقول اللَّه: ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ هو إذن منه سبحانه بأنه سيتفضل على خلقه بأن يشاء لهم أن يعلموا شيئاً من معلومه، فقد كان هذا المعلوم خفياً عنهم ومستوراً في أسرار الكون، ثم يأذن اللَّه للسر أن ينكشف.

فكل شيء اكتشفه العقل البشري كان مطموراً في علم الغيب، وكان سراً من أسرار اللَّه، وبعد ذلك أذن اللَّه للسر أن ينكشف فعرفناه بمشيئته سبحانه.

ويقول تعالى:

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

فاللَّه هو عالم الغيب فلا يطلع أحداً من خلقه على غيبه إلا من ارتضاه واصطفاه من البشر، فالحق سبحانه يفيض من غيبه الذاتي على بعض خلقه.

وقد أعطى اللَّه سبحانه رسوله ﷺ بعضاً من الهبات، وهو ليس للحصر، فالرسول أسوة وقدوة لغيره، فمن يعمل بعمل الرسول ﷺ ويقتدي به، يهبه اللَّه تعالى هبة يراها الناس، فيعرفون أن من يتبع الرسول ﷺ كقدوة يعطيه اللَّه سبحانه الهبات النورانية.

ولكن هذه الهبة ليست وظيفة، وليست دكاناً للغيب، بل هي من عطاءات اللَّه.

والحق سبحانه عندما يُظهِر غيبه لأحد رسله الذين يختارهم ليعلموا بعضاً من غيبه، فإنه يحميه ويعصمه ويحفظه بالملائكة لتحول بينه وبين وساوس الشياطين وتخليطهم حتى يُبلِّغ ما أوحي به إليه خالصاً من تخليط الجن وعبثهم.

وأولياء اللَّه هم من يفيض اللَّه عليهم من غيبه الذاتي بفيوضات وعطاءات وهبات نورانية.

وعندما نتأمل قول الحق سبحانه:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

نجد أن كلمة «ولي» من وليه، يليه، أي: قريب منه، وهو أول مَفْزع يفزع إليه إن جاءه أمر يحتاج فيه إلى معاونة من غيره، وإن احتاج إلى نصرة فهو ينصره، وخيره يفيض على مَنْ والاه.

فمن يقرب عالماً يأخذ بعضاً من العلم، ومن يقرب قوياً يأخذ بعضاً من القوة، ومن يقرب غنياً، إن احتاج، فالغني يعطيه ولو قَرْضاً.

إذن: فالوليّ هو القريب الناصر المعين الموالي. وتطلق الولي مرة للَّه سبحانه، فقال: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ [الشورى: ٩].

لأنه سبحانه القريب من كل خَلْقه، عكس الخلق الذين يقتربون من بعضهم أو يتباعدون حسب إمكاناتهم، أما اللَّه سبحانه وتعالى فهو الولي المطلق، فقربه من خلق لا يبعده عن خلق، ولا يشغله شيء عن شيء، فهو الولي الحق.

وهو سبحانه يقول:

﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ [الكهف: ٤٤].

فمن يحتاج إلى الولاية الحقة فليلجأ إلى اللَّه، وهو سبحانه يفيض على الأوفياء لمنهجه من الولاية، فهو سبحانه يقرب من عباده المؤمنين، والمؤمنون يقربون من اللَّه تعالى، فالولاية المطلقة للَّه، وإن قيِّدت بشيء مضاف ومضاف إليه، فهي مرة تكون من المؤمنين للَّه، ومرة تكون من اللَّه للمؤمنين.

والحق سبحانه لا تحكمه قوانين؛ فبطلاقة قدرته سبحانه إذا رأى في إنسان ما خصلة من خير، فيكرمه أولاً، فيصير هذا العبد طائعاً من بعد ذلك.

وتسمع مَنْ يقول: إن فلاناً قد خُطف من المعصية، أي: أنه كان عاصياً، ثم أحب اللَّه تعالى خصلة خير فيه، فهداه.

ومثال ذلك: الرجل الذي سقى كلباً، بل احتال ليسقيه بأن ملأ خفّه بالماء من البئر ليروي ظمأ الكلب، فغفر اللَّه سبحانه وتعالى له سيئاته.

هذا الرجل لم يكن ليروي الكلب نفاقاً للكلب، ولكن لأن الرجل شعر بالعطف على كائن ذي كبد رطبة.

فمن يتبع المنهج يأخذ النور، فإذا علم اللَّه سبحانه عمله بمنهجه فهو سبحانه يقربه قرباً أكثر، فيعطيه هبة اصطفائية يراها الذين حوله، وقد يقتدون به.

والحق سبحانه يقول في حديث قدسي آخر:

«**يابن آدم أنا لك محب، فبحقي عليك كن لي محباً**».

ويقول اللَّه سبحانه:

«**أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم**»(١).

إن الحق سبحانه يضع مسؤولية القرب من اللَّه في يد الخلق، ويسلم المؤمن مفتاح القرب من اللَّه، فمن يكن من أصحاب الخلق الملتزمين بالمنهج يقربه اللَّه منه أكثر فأكثر.

إذن: فمن الناس من يصل بطاعة اللَّه إلى كرامة اللَّه، ويدق على باب الحق، فينفتح له الباب، ومن الناس مَنْ يصل بكرامة اللَّه أولاً إلى طاعة اللَّه ثانياً.

وللَّه المثل الأعلى: أنت كواحد من البشر قد يدق بابك إنسان يحتاج إلى لقمة أو صدقة فتعطيه، وهناك إنسان آخر تحب أنت أن تعطيه، وعندما تعطيه يطيعك من منطلق الإحسان إليه، فما بالنا بعطاء الحق لعباده؟

إذن: فمنهم من يصل بكرامة اللَّه إلى طاعة اللَّه، ومنهم من يصل بطاعة اللَّه إلى كرامة اللَّه، وحين يصل الإنسان إلى القرب من اللَّه، ويقرب اللَّه من العبد، هنا يكون العبد في معية اللَّه، وتفيض عليه هذه المعية كثيراً.

فإذا أفاض اللَّه سبحانه على بعض خَلْقه هبات من الكرامات فعلى العباد الذين اختصهم الحق سبحانه بذلك أن يُحسنوا الأدب مع اللَّه، وألا يتبجح واحد منهم متفاخراً بعطاء اللَّه سبحانه له.

فالمباهاة: بالكرامات تضيعها، ويسلبها الحق سبحانه من الذي يتبجَّح

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٠٥، ٧٥٠٥، ٧٥٣٧) وأحمد في مسنده (٢/ ٢٥١، ٣٥٤، ٤٠٥) والترمذي في سننه (٣٦٠٣) من حديث أبي هريرة. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

بها ويتفاخر ويتباهى، فمن تظاهر بالكرامة ليس له كرامة.

إذن: فالحق سبحانه يريد أن يكون العبد دائماً في معيته، وهو سبحانه الذي بدأ وبيَّن بالآية الواضحة أنه سبحانه وليّ المؤمنين، ولذلك سيخرجهم من الظلمات إلى النور، فقال:

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

فأول ولاية من اللّه للمؤمنين أنه سبحانه يخرجهم من الظلمات إلى النور، والظلمة المعنوية أقوى من الظلمة الحسية، وكذلك النور المعنوي أقوى من النور الحسي، فعالم القيم أقوى من عالم الحس؛ لأن الجبر في عالم الحس يمكن أن يحدث، أما في عالم القيم فهو أمر شاق.

ويبيّن الحق سبحانه لنا شروط الولاية، فيقول:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٣].

والإيمان هو الأمر الاعتقادي الأول الذي يُبنى عليه كل عمل، ويقتضي تنفيذ منهج اللّه.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٣].

وقمة الغيب هي الإيمان باللّه سبحانه وتعالى، والإيمان بملائكته وكتبه، ورسله والإيمان باليوم الآخر، كل هذه أمور غيبية، وحينما يخبرنا اللّه تبارك وتعالى عن ملائكته ونحن لا نراهم، وما دام اللّه قد أخبرنا بهم فنحن نؤمن بوجودهم، وما دام اللّه قد أخبرنا باليوم الآخر فنحن نؤمن به، لأن الذي أخبرنا به هو اللّه جل جلاله، الذي آمنت أنه الإله الحق سبحانه.

وإقامة الصلاة هي الصفة الغالبة في وصف الذين يؤمنون باللّه؛ لأن الصلاة هي الصلة المتجددة بإعلان الولاء للّه خمس مرات في كل يوم.

والنبي ﷺ قال: «**بُنِي الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا اللّه، وأن محمداً رسول اللّه، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت**»(١).

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٨) ومسلم في صحيحه (١٦) من حديث ابن عمر رضي اللّه عنهما.

وهذه الأركان الخمسة هي الدعائم والأسس التي تقام عليها عمارة الإسلام، وأي بيت لا يقوم بالأسس وحدها، ولكن هناك أشياء أخرى كثيرة وعشرات الفضائل، والمطلوبات غير الأسس.

وإذا ما راجع كل واحد منا علاقته بأسس الإسلام فلسوف يجد أنه يشهد أن لا إلٰه إلا اللَّه وأن محمداً رسول اللَّه مرة واحدة في العمر.

ومن بعد ذلك يقيم الصلاة، ثم يؤتي الزكاة، لكن إن كان فقيراً فهو مُعْفىً من أداء الزكاة، وحتى الذي يؤدي الزكاة فهو يؤديها في وقت واحد في السنة.

ومن بعد ذلك يصوم رمضان، لكن المريض أو المسافر، أو الذي له عذر فهو يفطر ويقضي الصوم، ويفدي عن الصيام المريض الذي لا يُرْجَى شفاؤه، والعجوز الذي تصيبه بالصوم مشقة شديدة.

ومن يحج البيت يفعل ذلك مرة واحدة في العمر إن استطاع إلى ذلك سبيلاً، هذه هي أركان الإسلام، وفيها إعفاءات كثيرة للمسلم، اللهم إلا الصلاة فهي أساس يتكرر.

ولذلك يقول ﷺ: «**رأس الأمر كله الإسلام وعموده الصلاة**»(١).

وما دامت الولاية للَّه الحق، فلا بد أن نستديم في ولائنا له سبحانه وتعالى، واستدامة الولاء لا تكون إلا بالصلاة.

والحق سبحانه يريدنا أن نكون موصولين به سبحانه، وهذه الصلة تتم بالصلاة فرضاً خمس مرات في اليوم، وترك سبحانه الباب مفتوحاً لتطوعك، فلا تترك ساعة تستطيع أن تكون فيها بين يدي اللَّه إلا فعلت.

والحق سبحانه يقول في وصف أوليائه:

﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣].

والتقوى هي اتقاء صفات الجلال في اللَّه تعالى، وأيضاً اتقاء النار، وزاد رسول اللَّه ﷺ في صفات من تصدر عنه التقوى؛ لأنها مراحل، فقال ﷺ يصف أولياء اللَّه المتقين:

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٢٣١) والترمذي في سننه (٢٦١٦) عن معاذ بن جبل.

« **إن من عباد اللَّه لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من اللَّه تعالى** » .

قالوا: يا رسول اللَّه تخبرنا: من هم؟

قال: « **هم قوم تحابوا بروح اللَّه على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فواللَّه إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس** »(١) .

ثم قرأ ﷺ هذه الآية:

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس: ٦٢] .

وقد سُئِل عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ عن المتقين فقال:

« **الواحد منهم يزيدك النظر إليه قرباً من اللَّه** » .

وكأنه ـ رضي اللَّه عنه ـ يشرح لنا قول الحق سبحانه:

﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الفتح: ٢٩] .

فساعة ترى المتقي للَّه تُسَرُّ وتفرح به، ولا تعرف مصدر هذا السرور إلا حين يقال لك: إنه ملتزم بتقوى اللَّه.

وهذا السرور يُلْفِتك إلى أن تقلده؛ لأن رؤياه تُذكِّرك بالخشوع، والخضوع والسكينة ورقة السَّمْت وانبساط الأسارير.

والواحد من هؤلاء ينظر إلى الكون ولا يجد في هذا الكون أي خلل، بل يرى كل شيء في موضعه تماماً، ولا يرى أي قبح في الوجود، وحتى حين يصادف القبح فهو يقول: إن هذا القبح يبيّن لنا الحسن، ولولا وجود الباطل ومتاعبه لما عشق الناس الحق، وهكذا يصير الباطل من جنود الحق.

إن وجود الشر يدفع الناس إلى الخير، ولذلك يقال: كنْ جميلاً في دينك تر الوجود جميلاً؛ لأنك حين ترى الأشياء وتقبل قدر اللَّه فيها، هنا يفيض اللَّه عليك بهبات من الفيض الأعلى، وكلما تقربت إلى اللَّه زاد اقتراب اللَّه سبحانه منك، ويفيض عليك من الحكمة وأسرار الخلق.

ومثال ذلك: العبد الصالح الذي آتاه اللَّه من عنده رحمة، وعلَّمه من

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٣٥٢٧) من حديث عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه.

لدنه علماً، هذا العبد يعلّم موسى عليه السلام، فحين قارن بين خَرْق العبد الصالح لسفينة سليمة، ولم يكن يعلم أن هناك حاكماً ظالماً يأخذ كل سفينة غَصْباً، ولِذلك ناقش موسى العبد الصالح. وتساءل: كيف تخرق سفينة سليمة؟

وهنا بيَّن له العبد الصالح أن الملك الظالم حين يجد السفينة مخروقة فلن يأخذها، وهي سفينة يملكها مساكين.

وذلك هو قوله تعالى:

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩].

وحين قتل العبد الصالح غلاماً، كان هذا الفعل في نظر سيدنا موسى جريمة، ولم يعلم سيدنا موسى ما علمه العبد الصالح أن هذا الولد سوف يسيء إلى أهله، وأمر اللَّه العبد الصالح بقتله قبل البلوغ حتى لا يفتن أهله، وسوف يدخل هذا الولد الجنة، ويصير من دعاميص الجنة.

وذلك هو قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨٠، ٨١].

وأيضاً حين دخل سيدنا موسى عليه السلام مع العبد الصالح إلى قرية واستطعما أهلها فرفضوا أن يطعموهما، وطلب الطعام هو أصدق ألوان السؤال، فأبى أهل القرية أن يطعموهما، وهذا دليل الخسة واللؤم، فأقام العبد الصالح الجدار الآيل للسقوط في تلك القرية.

ولم يكن سيدنا موسى عليه السلام قد علم ما علمه العبد الصالح من أن رجلاً صالحاً قد مات وترك لأولاده كنزاً تحت هذا الجدار، وبناه بناية موقوتة بزمن بلوغ الأبناء لسن الرشد، فيقع الجدار ليجد الأبناء ما ترك لهم والدهم من كنز، ولا يجرؤ أهل القرية اللئام على السطو عليه.

وذلك قوله تعالى:

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ﴾ [الكهف: ٨٢].

إذن: هذه هبات من فيض الحق سبحانه على عباده الصالحين، وهو سبحانه وتعالى يجعل مثل هؤلاء العباد كالصواري المنصوبة التي تهدي الناس، أو كالفنار الذي يهدي السفن في الظلمة.

إذن: فهؤلاء الأولياء يتلقون من فيوضات اللَّه عليهم بواسطة الملائكة، ويتميزون عن غيرهم؛ لأن الواحد منهم قد يفرض على نفسه نوافل فوق الفروض؛ لأن الفرض هو أقل القليل في التكاليف.

وقد يرى الواحد منهم أن القيام بالفروض لا يتناسب مع حبه للَّه تعالى، فيزيد من جنسها على ما فرض اللَّه، ويصلي ـ بدلاً من خمسة فروض ـ عشرة أخرى نوافل، أو يصوم مع رمضان شهراً أو اثنين، أو يصوم يَوْمي الاثنين والخميس من كل أسبوع.

وهذا دليل على أنه وجد أن الفروض قليلة بالنسبة لدرجة حبه للَّه تعالى، وأن اللَّه يستحق أكثر من ذلك، وهذا معناه أن مثل هذا العبد قد دخل في مقام الود مع اللَّه تعالى.

وهنا يفيض اللَّه سبحانه وتعالى عليه بما يشاء، وينال من رضوان اللَّه ما جاء في هذا الحديث القدسي:

« **فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورِجْله التي يمشي بها** ».

وهكذا تختلف المقاييس بين عبد يحب اللَّه تعالى ويؤدي فوق ما عليه، وعبد آخر يقوم بالتكاليف وحدها.

وعندما يزيد الإنسان على ما كلفه اللَّه أن يصلي الخمس المطلوبة ثم يجعلها عشراً، ويصوم شهر رمضان ثم يصوم يومي الاثنين والخميس، أو كذا من الشهور، ويزكي حسب ما قرر الشرع باثنين ونصف في المائة، وقد يزيد الزكاة إلى عشرة في المائة، ويحج ثم يزيد الحج مرتين.

إذن: فالمسألة أن تزيد على ما افترض اللَّه، فيكون قد أدخلك اللَّه في مقام الإحسان؛ لأنك حين جرّبت أداء الفرائض ذُقْتَ حلاوتها، وعلمت مما أفاضه اللَّه عليك من معين التقوى ومن رصيد قوله:

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

علمت أن اللَّه يستحق أكثر مما كلفك به.

ولذلك فبعض الصالحين في أحد سبحاته يقول: «**اللهم إني أخشى ألا تثيبني على الطاعة لأنني أصبحت أشتهيها**».

أي: صارت شهوة نفس، فهو خائف أن يفقد حلاوة التكليف والمشقة فيقول: يا رب إني أصبحت أحبها، ومفروض منا أننا نمنع شهوات أنفسنا لكنها أصبحت شهوة، فماذا أفعل؟

إذن: فهذا الرجل قد دخل في مقام الإحسان، واطمأنت نفسه ورضيت، وأصبح هواه تبعاً لما أمر به اللَّه ورضيه.

ولذلك يجب أن نلحظ أن الحق سبحانه حينما تكلم عن المتقين قال:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ [الذاريات: ١٥، ١٦].

لماذا هم محسنون يا رب؟

يقول الحق سبحانه:

﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧].

وهل كلفنا اللَّه ألا نهجع إلا قليلاً من الليل؟ إن الإنسان يصلي العشاء من أول الليل وينام حتى الفجر، هذا هو التكليف، لكن أن تحلو للمؤمن العبادة، ويزداد الإيمان في القلب والجوارح، ويأنس العبد بالقرب من اللَّه، فالحق لا يرد مثل هذا العبد، بل إنه يستقبله ويدخله في مقام الإحسان.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٦ ـ ١٨].

وربنا لم يكلفهم بذلك، إنما كلفهم فقط بخمسة فروض، ونعرف قصة الأعرابي الذي قال للرسول ﷺ: هل عليَّ غيرها؟ قال له: لا، إلا أن تطوَّع، وذكر له رسول اللَّه ﷺ الزكاة، فقال: هل عليَّ غيرها؟ قال: لا، إلا أن تطوَّع. قال: فأدبر الرجل وهو يقول: واللَّه لا أزيد على هذا ولا أنقص منه. فقال رسول اللَّه ﷺ: «**أفلح إن صدق**»[(١)].

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٤٦) ومسلم في صحيحه (١١) من حديث طلحة بن عبيد اللَّه.

وبذلك دخل هذا الأعرابي في نطاق المفلحين، أما الذي يزيد على هذا فيدخله اللَّه في نطاق المحسنين.

والحق سبحانه يقول:

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

أي: يجعل الأمور التي يظن بعض من الناس أنها متعبة، فإنه بإقباله عليها وعشقه لها يجدها مريحة، ويقبل عليها بشوق وخشوع.

والزيادة على ما فرضه اللَّه، ومن جنس ما فرض يكون لها ملحظان:

الأول: أن العبد يشهد لربه بالرحمة، لأنه كُلِّف دون ما يستحق.

الثاني: أن عمل الطاعة قد خفف على المؤمن فاستراح بها.

إذن: فالمطوِّع هو الذي يزيد على ما فرض اللَّه عليه من جنس ما فرض اللَّه، وهؤلاء هم المحسنون.

وهذه الزيادة هي النافلة، أي: زيادة عن الفريضة الواجبة، وفي هذا المعنى يقول ربنا عز وجل:

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩].

لذلك نقول: إن النفل هو العبادة الزائدة، وشرطها أن تكون من جنس ما فُرض عليك؛ لأن الإنسان لا يعبد ربه حسب هواه الشخصي، بل يعبد العبد ربه بأي لون من ألوان العبادة التي شرعها اللَّه.

وإذا أراد زيادة فيها فلتكن من جنس ما فرض اللَّه، حتى لا يبتدع العبد عبادات ليست مشروعة.

ثم يقول رب العزّة في هذا الحديث القدسي:

«**وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**».

يقول الحق سبحانه في قرآنه:

﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

الدعاء إنما يكون من عاجز، يدعو قادراً على إنجاز وتحقيق ما عجز عنه، أو يعينه عليه، وعندما تشعر أنك عاجز فأنت ترتكن إلى من له مطلق القدرة؛ لأن قدرتك محدودة.

إذن: فإن كنت ممن يطغى أو يتكبر فاعرف مكانتك ومنزلتك جيداً وتراجع عن ذلك؛ لأنك عرض زائل.

والدعاء: هو تضرع وذلة وخشوع وإقرار منك بأنك عاجز، وتطلب من ربك المدد والعون، واستحضار عجزك وقدرة ربك تمثل لك استدامة اليقين الإيماني.

وإياك أن تدعو وفي بالك أن تقضي حاجتك بالدعاء، عليك بالدعاء فقط لقصد إظهار الضراعة والذلة والخشوع، ولأنك لو لم تدع فستسير أمورك كما قدر لها.

فاجعل حظك من الدعاء هو الخشوع والتذلل والضراعة له سبحانه، لا إجابتك إلى ما تدعو إليه، إنك تدعو لتطلب الخير، فدع الحق بقيوميته وعلمه يحقق لك الخير.

واجعل دعاءك دعاء مستوراً مختبئاً، خفية بينك وبين ربك، فلا تجهر بالدعاء، فالدعاء إلى اللَّه خفية يبتعد بك عن الرياء، وهو أستر لك في مطلوباتك من ربك.

ادعني في سرّك لأنني سميع عليم، أعلم كل ما ظهر منك وما بطن، ادع بالخضوع والخشوع والتذلل، لتنكسر فيك شهوة الكبرياء، وشهوة الغطرسة، وشهوة الجبروت.

وينبّهنا الحق سبحانه وتعالى أن ندعوه بالأسماء الحسنى في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

لأنه يريد من خلقه دائماً أن يذكروه، لأنه هو الرب الذي خلق من عَدَم، وأمدَّ من عُدْم، وصان الخلق بقيوميته، وحين تأتي لك حاجة وجب عليك أن تذكر أسماء اللَّه الحسنى وتنادي اللَّه بها.

واللَّه سبحانه في عطائه يحب أن يطلب منه الإنسان، وأن يدعوه وأن يستعين به، وهذا يوجب الحمد؛ لأنه يقينا الذل في الدنيا، فأنت إن طلبت شيئاً من صاحب نفوذ، فلا بد أن يحدد لك موعداً أو وقت الحديث ومدة المقابلة، وقد يضيق بك فيقف لينهي اللقاء.

ولكن الحق سبحانه بابه مفتوح دائماً، فأنت بين يديه عندما تريد، وترفع

يديك إلى السماء، وتدعو وقت ما تحب، وتسأل اللَّه ما تشاء فيعطيك ما تريده إن كان خيراً لك، ويمنع عنك ما تريده إن كان شراً لك.

واللَّه سبحانه وتعالى يطلب منك أن تدعوه وأن تسأله فيقول:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

فاللَّه سبحانه يعرف ما في نفسك، ولذلك فإنه يعطيك دون أن تسأل.

يقول رب العزّة سبحانه في الحديث القدسي:

«**من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين**».

فاللَّه سبحانه عطاؤه لا ينفد، وخزائنه لا تفرغ، فكلما سألته جل جلاله كان لديه المزيد، ومهما سألته فإنه لا شيء عزيز على اللَّه سبحانه وتعالى، إذا أراد أن يحققه لك.

أهل التقوى وأهل المغفرة

قال اللَّه عز وجل في حديثه القدسي:

٨ ـ «أَنَا أَهْلٌ أَنْ أُتَّقى فمَنْ اتَّقَاني فَلَمْ يجعَلْ مَعِي إلهاً فأَنا أَهْلٌ أَنْ أَغْفِرَ لَهُ».

يقول الحق سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[1] [النساء: ١].

ومعنى قوله سبحانه: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ أي: اجعلوا بينكم وبينه وقاية، وأول التقوى أن تؤمن به إلهاً، وتؤمن أنه إلٰه بعقلك.

إنه سبحانه يعرض القضية للناس فيقول: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾، ولم يقل: اتقوا اللَّه، لأن اللَّه مفهومه العبادة، فالإله معبود له أوامر وله نواهٍ.

والحق سبحانه لم يصل بالناس لهذه بعد، إنما هم لا يزالون في مرتبة الربوبية، والرب هو المتولي تربية الشيء خلقاً من عدم وإمداداً من عدم، لكن أليس من حق المتولي خلق الشيء، وتربيته أن يجعل له قانون صيانة؟ إن من حقه سبحانه أن يضع للمخلوق قانون صيانته، ونحن نرى أن كل مخترع أو صانع يضع لاختراعه أو للشيء الذي صنعه قانون صيانة.

أيخلق الحق سبحانه البشر من عدم، وبعد ذلك يتركهم ليتصرفوا كما يشاؤون؟ أم يقول لهم: اعملوا كذا وكذا، ولا تعملوا كذا وكذا، لكي تؤدوا مهمتكم في الحياة؟

إن رب العزّة سبحانه يضع دستور الدعوة للإيمان فيقول:

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ١٤٢، ٢٤٣) وابن ماجه في سننه (٤٢٩٩) والترمذي في سننه (٣٣٢٨) وقال: هذا حديث غريب، وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٩٦٩)، ومداره على سهيل بن أبي حزم القطيعي ضعيف ليس بالقوي، وقد حسّن الألباني الحديث لغيره.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

إذن: فالمطلوب منهم أن يتقوا، ومعنى يتقوا أن يقيموا الوقاية لأنفسهم بأن ينفذوا أوامر هذا الرب الإلٰه الذي خلقهم، فأراد سبحانه أن يجذبنا إليه ويأخذنا إلى جنابه بالشيء الذي نؤمن به جميعاً ـ وهو أنه سبحانه خلقنا ـ إلى الشيء الذي يريده، وهو أن نتلقى من اللَّه ما يقينا من صفات جلاله.

لقد قدم سبحانه الدليل أولاً على أنه إلٰه قادر، وأنه خلق من عدم وأمدكم وسخر العالم لخدمتكم، وقدم دليل البث[1] في الكون المنشور الذي يوضح أنه إلٰه، فلا بد أن تتلقوا تعليماته، ويكون معبوداً منكم، أي مطاعاً، والطاعة تتطلب منهجاً: افعل ولا تفعل.

ولذلك يختم الحق سبحانه الآية بقوله:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

لأن كلمة اتقوا تعني: اجعل بينك وبين غضب ربك وقاية بإنفاذ أوامر الطاعة، واجتناب ما نهى اللَّه عنه.

والرقيب من رقب إذا نظر ويقال: «مرقب»، ونجد مثل هذا المرقب في المنطقة التي تحتاج إلى حراسة، حيث يوجد كشك مبني فوق السور ليجلس فيه الحارس كي يراقب، ومكان الحراسة يكون أعلى دائماً من المنطقة المحروسة.

وكلمة «رقيب» تعني ناظراً عن قصد أن ينظر، ويقولون: فلان يراقب فلاناً أي: ينظره، صحيح أن هناك من يراه ذاهباً وآتياً من غير قصد منهم أن يروه، لكن إن كان مُرَاقَباً، فمعنى ذلك أن هناك مَنْ يرصده.

وسبحانه يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

فليس اللَّه بصيراً فقط، ولكنه رقيب أيضاً، وللَّه المثل الأعلى.

---

(١) البث: النشر. يقول تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ﴾ [الشورى: ٢٩]. أي: نشر فيها كل ما يدب على الأرض.

ولعظم تقوى اللَّه قال الحق سبحانه في موضع آخر من القرآن:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيّٗا حَمِيدٗا﴾ [النساء: ١٣١].

يبيّن الحق سبحانه: لقد وصينا الذين أنزلنا إليهم المنهج من قبلكم، ووصيناكم أنتم أهل الأمة الخاتمة أن التزموا المنهج بالأوامر والنواهي، لتجعلوا اختياراتكم خاضعة لمرادات اللَّه منكم حتى تكونوا منسجمين كالكون الذي تعيشون فيه، ويصبح كل شيء يسير منتظماً في حياتكم.

والحق سبحانه لم يقل هذه القضية للمسلمين فقط، لكنها قضية كونية عامة جاء بها كل رسول.

ولم يقل: شرعنا للذين أوتوا الكتاب من قبلكم، ولم يقل: فرضنا، إنما قال: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا﴾ [النساء: ١٣١].

وكلمة وصية تشعر المتلقي لها بحب الموصِي للموصَى.

وتقوى اللَّه تعني أن نفعل أوامر اللَّه وأن نتجنب نواهيه، لنحكم حركة اختياراتنا بمنهج ربنا، فإن حكمنا حركة اختياراتنا بمنهج اللَّه صرنا مع الكون كأننا مسخرون لقضايا المصلحة والخير.

فمعنى التقوى هو أن تتقي معضلات الحياة ومشكلاتها، بأن تلتزم منهج اللَّه، وساعة ترى منهج اللَّه وتطبقه فأنت اتقيت المشكلات.

أما من يُعرض عن تقوى اللَّه سبحانه، فإن الحق يقول عن مصيره:

﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

أي: أن حياته تمتلئ بالهموم والمشاكل؛ لأنه يخالف منهج اللَّه، فالذي يجعل الحياة مليئة بالمشاكل هو أننا نأخذ بالقوانين التي نسنّها لأنفسنا ونعمل بها، ولكن إذا أخذنا تقنين اللَّه لنا فمعنى ذلك أننا نتقي المشاكل.

وإذا لم تنشأ المشاكل مع المخالفات لقال الناس: خالفنا منهج اللَّه وفلحنا، لذلك كان لا بد أن توجد المشاكل لتنبهنا أن منهج اللَّه يجب أن يسيطر.

وحين يتمسك الناس بمنهج اللَّه، فلن تأتي لهم المشاكل بإذن اللَّه، فالذي يتعب العالم هو الحركة المتعاندة، والحق سبحانه وتعالى أنزل لنا المنهج القويم ليجعل حركة حياتنا متساندة، فإن اتبعنا المنهج صرنا نأخذ الأوامر من إلٰه واحد، وصار كل منا مكلفاً بالتعاون مع غيره.

وهذا لن يحدث إلا إذا استجبنا لما يدعونا اللَّه إليه تشريعاً والرسول بلاغاً وبهذا تتساند الحياة، وتصبح حياة لها طعم، وينطبق عليها قول الحق تبارك وتعالى:

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

أي: يعيشون حياة طيبة لا حقد فيها، ولا استغلال، ولا ضغن، ولا حسد، ولا سيطرة، ولا جبروت، فيصبح الناس جميعاً في أمان.

فالحياة الطيبة في الدنيا وعدم الضلال والشقاء متحققان لمن اتبع منهج اللَّه تعالى.

فلا يقل أحد: إن الدين ثمرته في الآخرة، بل قولوا: ليست مهمة الدين هي الآخرة فحسب، بل مهمة الدين هي الدنيا أيضاً، والآخرة إنما هي ثواب على النجاح في هذه المهمة؛ لأن اللَّه إنما يجازي في الآخرة من أحسن العمل في الدنيا.

وعلى هذا، فالعقاب على عدم اتباع المنهج الإلٰهي لا يتأخر إلى يوم القيامة، ولكن الحياة في الدنيا تكون مرهقة، والمعيشة ضنكاً.

إذن: إياكم أن تفهموا أن المنهج الديني للَّه غايته الآخرة فقط، لا بل إن اتباع المنهج الديني للَّه جزاؤه في الآخرة، وأما ثمرته ففي الدنيا، فمن يوفق في هذه الدنيا وحركته متساندة مع غيره، يعطي له اللَّه الجزاء في الحياة المستريحة في الدنيا بالإضافة إلى جزاء الآخرة.

وهكذا نفهم أن موضوع الدين هو الدنيا، أما الآخرة فهي جزاء على هذا الاختبار الدنيوي.

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

أي: أن اللَّه يعطيكم منهجاً من إلٰه واحد، لا يعود بالخير عليه ولا على المبلغ عنه وهو الرسول، وإنما يعود بالخير عليكم أنتم، فالخير يأتي من أمر إلٰه واحد، فلا يجعل كل منا إلٰهه هواه حتى لا تتعدد الأهواء.

والحق سبحانه حينما دعانا إلى الحياة الطيبة سمى المعيشة في منهجه حياة، لأنها حياة سعيدة، وتسلم إلى حياة خالدة؛ لأن الذي قيَّد حركته بمنهج اللَّه يأخذ اطمئناناً في الدنيا ونعيماً مقيماً لا يزول ولا ينتهي في الآخرة.

ومثال هذا في دنيانا: الطالب الذي لا يذهب إلى المدرسة ولا يذاكر، ولكن يقضي وقته في اللعب واللهو، وهو قد أعطى نفسه ما تريد، ولكنه أخذ متعة محدودة، ثم بعد ذلك يعيش في شقاء بقية عمره.

أما الذي قيَّد حركته بالمذاكرة، فقد منع شهوات نفسه في اللعب واللهو، وتكون الثمرة أنه يحقق لنفسه مستقبلاً مريحاً ومرموقاً بقية عمره.

إذن: فكل من الطالب الذي يجتهد وذلك الذي يلهو ويلعب، كل منهما أخذ لوناً من المتعة، ولكن أحدهما أخذ متعة قصيرة جداً، ثم أصبح من صعاليك الحياة، أما الثاني فقد قيَّد نفسه سنوات معدودة ليتمتع بمستقبل ناجح.

كذلك أنت في الدنيا، إن قيَّدت نفسك بالتكاليف «افعل» و«لا تفعل»، فظاهر الأمر أنك قيَّدت حريتك، وإن فعلت ذلك برضا فاللَّه يعطيك راحة واطمئناناً ومتعة في النفس.

ولذلك نجد الصلاة، وهي التي يؤديها المسلم خمس مرات في اليوم على الأقل، هذه الصلاة في ظاهرها أنها تأخذ بعضاً من الوقت كل يوم، ولكنها تعطي راحة نفسية، كما أنها تعطي اقتناعاً يفوق التصور إن خشع فيها الإنسان وأداها بحقها.

وكان ﷺ يقول: «**يا بلال أرحنا بالصلاة**»[1]، كما قال ﷺ ضمن حديث

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٣٦٤) وأبو داود في سننه (٤٩٨٥) عن رجل من أسلم، قاله أحمد واللفظ له.

رواه أنس بن مالك ـ رضي اللَّه عنه ـ: «**وجُعِلَتْ قُرة عيني في الصلاة**»(١).

لأن التكليف ينتقل من المتعة إلى الراحة، ويتمتع الإنسان فيها بتجليات ربه وفيوضاته فترتاح نفسه وتهدأ.

وانظر إلى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢١].

تجد البشارة هنا آتية من رب خالق، والرب هو المالك والمدبر الذي يرتب لك أمورك، وهو سبحانه مأمون عليك.

والرحمة والرضوان من صفات اللَّه، وهي صفات ذات له سبحانه، ومتعلقات العبد فيها أنه سبحانه يهبها لمن يشاء.

ثم يترقى الحق سبحانه مع عباده في النعيم، فيقول: ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢١].

فقد بشَّرهم اللَّه سبحانه أولاً بالرحمة، ثم بنعمة دائمة في الحياة، فمن عبد اللَّه ليدخل الجنة أعطاها له فكان مع النعمة، ومن عبده سبحانه ـ لأنه يستحق أن يُعبد ـ فيكون مع المنعم، فيرتقي في الجنة ليرى وجه اللَّه في كل وقت، وأما الآخرون فيرونه لمحات.

ولذلك يكون الجزاء في الآخرة على قدر العمق الإيماني للعبد، لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال أحد الصالحين: «**إني لا أشرك بك أحداً حتى الجنة لأن الجنة أحد**».

والحق سبحانه يذكر لنا ثواب من يتقونه، فيقول عز وجل:

﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ١٥].

---

(١) حديث أنس أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥)، والنسائي في سننه (٧/ ٦١) والحاكم في مستدركه (٢/ ١٦٠) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وتمام الحديث: «حبب إليَّ من الدنيا النساء والطيب...».

وقد جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

عندما نمعن النظر في الشهوات التي تقدمت من نساء وبنين وقناطير مقنطرة من ذهب وفضة وخيل مُسوَّمة وأنعام وحرث، ألا يكون من المناسب فيها أن يتقي الإنسان ربه في مجالها؟

إن التقوى للَّه في هذه الأشياء واجبة، ولذلك قلنا من قبل قضية نرد بها على الذين يريدون أن يجعلوا الحياة زهداً وانحساراً عن الحركة، وأن يُوقفوا الحياة على العبادة في أمور الصلاة والصوم، وأن نترك كل شيء.

لهؤلاء نقول: إن حركتك في الحياة تعينك على التقوى؛ لأننا عرفنا أن معنى التقوى هو أن يجعل الإنسان بينه وبين النار حجاباً، أو أن تجعل بينك وبين غضب ربك وقاية، فإذا ما أخذت نعم اللَّه لتصرفها في ضوء منهج اللَّه، فهذا هو حسن استخدام النعم.

وقد أوضحت من قبل أن التقوى حين تأتي مرة في قول الحق: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وتأتي مرة أخرى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، فهما ملتقيان، فاتقاء النار حتى لا يصاب الإنسان بأذى، وعندما يتقي الإنسان اللَّه فهو يتقي غضب اللَّه، لأن غضب اللَّه يورد العذاب، والعذاب من جنود النار.

إذن: فالذين يتقون اللَّه لا يظنون أنهم زهدوا في هذه الحياة لذات الزهد فيها، ولكن للطمع فيما هو أعلى منها، إنه الطمع في النعيم الأخروي الدائم.

فإياكم أن تُغضبوا ربكم في أي عمل من هذه الأعمال، وكن أيها المسلم في هذه التقوى على يقين من أنك ملاقي اللَّه، ولا تشك في هذا اللقاء أبداً، وما دمت ستتقي اللَّه وتكون على يقين أنك تلاقيه لم يَبْقَ لك إلا أن تُبشَّر بالجنة.

والحق سبحانه يقول:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة: ٩٦].

إنكم لستم بقادرين على تحمُّل عذاب النار، فالحق له صفات جمال، وهي التي تأتي بما ييسر وينفع كالبسط، والمغفرة والرحمة، وله سبحانه وتعالى صفات القهر مثل: الجبار وشديد العقاب، وغيرها من صفات الجلال.

وكل صفة من صفات الحق لها مطلوب، فعندما يذنب الإنسان فالتجلي في صفات اللَّه يكون لصفات الجلال، ومن جنود صفات الجلال النار.

فإياكم أن تظنوا أنكم انفلتم من اللَّه، فمساحة الحرية الممنوحة لكل إنسان تقع في المسافة بين قوسين: قوس الميلاد، وقوس الموت، فلا أحد يتحكم في ميلاده أو وفاته.

إياك إذن أيها الإنسان أن تقع أسير الغرور؛ لأنك مختار فيما بين القوسين، ومحكوم بقهرين، قهر أنه قد خلقك بدءاً، وقهر أنك ستعود إليه سبحانه وتعالى نهاية.

والحق عز وجل يقول هنا في الحديث القدسي:

«**فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهاً فأنا أهل أن أغفر له**».

وتلك هي قضية الحق الأساسية، فاللَّه سبحانه متفرد بالوحدانية، لا إلٰه غيره، فأصل القضية الإيمانية أن اللَّه سبحانه وتعالى يريد منكم أن تعترفوا بأنه الإلٰه الواحد الذي لا شريك له، وحين تعترف بأنه الإلٰه الواحد الذي لا شريك له، فأنت تدخل حصن الأمان.

ولذلك يقول رسول اللَّه ﷺ في الحديث الشريف:

«**أشهد أن لا إلٰه إلا اللَّه وأني رسول اللَّه لا يلقى اللَّه بهما عبدٌ غير شاك فيهما إلا دخل الجنة**»[(١)].

وقد قال رسول اللَّه ﷺ لأبي ذر: **ما من عبد قال لا إلٰه إلا اللَّه ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة**، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: **وإن زنى وإن سرق**، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: **وإن زنى وإن سرق «ثلاثاً»**، ثم قال في الرابعة: «**على رغم أنف أبي ذر**»[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧) الإيمان من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

(٢) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٥٨٢٧) ومسلم في صحيحه (٩٤) الإيمان، من حديث أبي ذر رضي اللَّه عنه.

لقد كان أبو ذر غيوراً على حدود اللَّه، فهل ساعة قال رسول اللَّه ﷺ: «**على رغم أنف أبي ذر**»، هل هذه أحزنت أبا ذر؟ لا، لم تحزنه، ولذلك عندما كان يحكيها ويقولها: من قال لا إله إلا اللَّه دخل الجنة وإن رغم أنف أبي ذر وهو مسرور، لماذا؟

لأنها فتحت باب رحمة الحق، لأنه إذا لم يكن هذا فما الفارق بين من اعتقدها وقالها وبين من لم يقلها؟ لا بد أن يكون لها تمييز، وكل جريمة موجودة في الإسلام، والحق سبحانه قد جرَّمها، فهذا يعني أنها قد تحدث.

يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨].

وهذا يعني أنه من الجائز أن يسرق المؤمن، وكذلك قد يزني في غفلة من الغفلات، وفي أسس الاستغفار يأتي البيان الواضح: من الصلاة للصلاة كفارة ما بينهما، الجمعة للجمعة كفارة، الحج كفارة، الصوم كفارة.

عن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن ما لم تُغْشَ الكبائر**»[(١)].

أي: أن ربنا قد جعل أبواباً متعددة للمغفرة وللرحمة، وهو سبحانه يقول:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

وهذه المسألة ليست لصالحه، إنما لصالحكم أنتم، حتى لا تتعدد آلهة البشر في البشر، ويرهق الإنسان، ويشقى من كثرة الخضوع لكل من كان قوياً عنه، فأعفاك اللَّه من هذا.

وأوضح لك: لا، اخضع لواحد فقط يكفك كل الخضوع لغيره، واعمل لوجه واحد يكفك كل الأوجه، وفي ذلك راحة للمؤمن.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٣٣) الطهارة، والترمذي في سننه (٢١٤) وكذا ابن ماجه (١٠٨٦) من حديث أبي هريرة. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

إن الإيمان إذن يُعلِّمنا العزّة والكرامة، وبدلاً من أن تنحني لكل مخلوق اسجد للذي خلق الكون كله بصفات قدرته وكماله، فلم تنشأ له صفة لم تكن موجودة.

هل أنتم زدتم له صفة؟

لا، فهو بصفات الكمال أوجدكم، وبصفات الكمال كان قيُّوماً عليكم، فأنتم لم تضيفوا له شيئاً، فكونك تشهد أن لا إلٰه إلا اللَّه، ما منفعتها بالنسبة للَّه؟

إن منفعتها تكون للعبد فحسب.

والحق سبحانه لا يغفر أن يُشْرك به؛ لأنه لو غفر أن يُشرك به لتعدد الشركاء في الأرض، وحين تتعدد الشركاء في الأرض يكون لكل واحد إلٰه، وإذا صار لكل واحد إلٰه تفسد المسألة، لكن الخضوع لإله واحد نأتمر جميعاً بأوامره يعزنا جميعاً.

لا سيادة لأحد، ولا عبودية لأحد عند أحد، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]. لمصلحتنا.

عن ابن عباس ـ رضي اللَّه عنهما ـ قال: أتى وحشيٌّ ـ وهو قاتل حمزة عم النبي ﷺ في غزوة أحد ـ على النبي ﷺ فقال: يا محمد أتيتك مستجيراً فأجرني حتى أسمع كلام اللَّه، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**قد كنت أحب أن أراك على غير جوار، فأما إذ أتيتني مستجيراً فأنت في جواري حتى تسمع كلام اللَّه**». قال: فإني أشركت باللَّه وقتلت النفس التي حرم اللَّه وزنيت، هل يقبل اللَّه مني توبة؟

فصمت رسول اللَّه ﷺ حتى نزلت:

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا * إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠].

فتلاها عليه فقال: أرى شرطاً فعلّي لا أعمل صالحاً، أنا في جوارك حتى أسمع كلام اللَّه فنزلت:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

فدعا به فتلا عليه، فقال: فلعلِّي ممن لا يشاء، أنا في جوارك حتى أسمع كلام اللَّه فنزلت:

﴿۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

فقال: نعم، الآن لا أرى شرطاً، فأسلم[(١)].

إذن: فالمسألة كلها تلطف من الخالق بخلقه واعتبار عمليات الغفلة عمليات طارئة على البشر، وما دام الحق يقنّن تقنينات فمن الجائز أنها تحدث، لكن إذا حدثت معصية من واحد ثم استغفر عنها، إياك أن تأتي بسيرتها عنده مرة أخرى، وتُذكِّره بها.

إياك أن تفعل هذا، فهو قد استغفر من يملك المغفرة، فلا تجعله مذنباً عندك، لأن الذي يملكها انتهت عنده المسألة.

لماذا؟ لكيلا يذل الناس بمعصية فعلت، بل العكس، إن أصحاب المعاصي الذين أسرفوا على أنفسهم يكونون في نظر بعض الناس هينين مُحقَّرين.

ولذلك نقول: إن الواحد منهم كلما لذعته التوبة وندم على ما فعل كتبت له حسنة، فعلى رغم أنه ذاق المعصية لكنه مع ذلك تاب عنها، وهذا هو السبب في أن اللَّه يبدل سيئاتهم حسنات.

وعندما نعلم أن ربنا يبدل سيئاتهم حسنات فليس لنا أن نحتقر المسرفين على أنفسهم، بل علينا أن نفرح بأنهم تابوا، ولا نجعل لهم أثراً رجعياً في الزلة والمعصية.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٤٨٠)، وأورده السيوطي في أسباب النزول (ص١٤٨) وعزاه للطبراني عن ابن عباس بسند فيه ضعف وليس فيه ذكر دخول ومشي في جوار النبي. ولعلها رواية أخرى.

أما الشرك باللَّه واتخاذ إلٰه آخر معه سبحانه فهو قمة الخيانة العظمى، وهو قمة الظلم، وهو ظلم خائب للنفس، والذي يشرك باللَّه لا يأخذ إلا الخسار.

فالظلم حينما يحقق للظالم نفعاً فهو ظلم هيِّن، ولكن الظلم العظيم هو أن يشرك إنسان باللَّه ولا يأخذ إلا العقاب الصارم.

فالتقاء الإنسان بربه مشروط أولاً بعقيدة القمة، وهي أن تشهد أن لا إلٰه إلا اللَّه، وأن تشهد أن محمداً رسول اللَّه، ومعناها: لا معبود بحق إلا اللَّه، أو لا أمر لأحد في خلق اللَّه إلا اللَّه، ولا فعل لأحد من خلق اللَّه إلا من اللَّه، ولا استمداد لأحد قدرة، وعلماً وحكمة وقبضاً وبسطاً إلا من اللَّه، تلك هي دائرة الإيمان العقدية.

فقمة العقيدة التي يحكم فيها القرآن هي: لا إلٰه إلا اللَّه، ومن يفعل عكس ذلك فهو الظالم.

فأعلى درجات الظلم حين يظلم أحد حق الإلٰه الأعلى في أن يكون إلهاً واحداً، وأن ينقل ذلك لغيره، تلك هي قمة الظلم.

ويا ليت غير اللَّه كان صاحب دعوة بينه وبين اللَّه تعالى، لا، فليس ذلك المنقول له الألوهية بصاحب دعوة، بل تطوع الظالم من نفسه بذلك، واتخذ من دون اللَّه شريكاً للَّه، وفي هذا تطوع بالظلم غير مُدَّع.

وهَبْ أن اللَّه تعالى قال: لا إلٰه إلا أنا، فإما أن القضية صحيحة، وإما أنها غير ذلك، فإن افترض أحد ـ معاذ اللَّه ـ عدم صحتها، فالإله الثاني كان يجب أن يعلن عن نفسه، ولا يترك غيره يسمع له ويعلن عنه، وإلا كان إلٰهاً أصمَّ غافلاً، ولكن أحداً لم يعلن ألوهيته غير اللَّه سبحانه، لذلك تثبت الألوهية الواحدة للإلٰه الحق سبحانه تعالى.

وقد بيَّن لنا الحق سبحانه: لا إلٰه إلا أنا، أنا الخالق، أنا الرازق، ولم يصدر عن أحد آخر دعوى بأنه صاحب تلك الأعمال.

إذن: فقد صَحَّتْ الدعوى في أنه لا إلٰه إلا اللَّه.

واللَّه سيظل هو القوي القادر العزيز، لن ينقص إيمانك أو عدم إيمانك من مُلْكه شيئاً.

فإيمانك بقضية الإيمان الأولى يجعلك تتقي اللَّه سبحانه، وتجعل بينك وبين عذاب اللَّه وعقابه وقاية.

واعلم أن التقوى لا تنشأ من الأفعال المحسة المدركة فقط، بل تنشأ أيضاً في الأحوال الدخيلة المضمرة، فالحقد والحسد، والمكر، كل هذه صفات سيئة، فإياكم أن تقولوا إن التقوى للمدركات فقط، بل للمحسَّات أيضاً، وعمل القلوب له دخل في تقوى اللَّه.

والحق سبحانه يقول:

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

الجنة حرام على قاتل نفسه

قال رب العزّة سبحانه وتعالى في الحديث القدسي:

٩ ـ «بَادَرني عَبْدِي بنفْسِهِ، حَرَّمْتُ عليهِ الجنَّةَ»[(١)].

يقول الحق سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ [النساء: ٢٩].

إن اللَّه تبارك وتعالى لم يرغمك على الإيمان، ولم يكرهك على الدخول تحت نطاق التكليف، فأنت باختيارك للإيمان ألزمت نفسك بالدخول إلى هذا التكليف باختيارك وطواعيتك.

وما دُمْتَ قد دخلت على الإيمان باختيارك وطواعيتك فاجعل إيمانك باللَّه حيثية كل حكم يحكم به اللَّه عليك من: افعل كذا ولا تفعل كذا، ولا تقل: لماذا أفعل كذا يا رب، ولماذا لا أفعل كذا يا رب؟

فالذي آمنت به إلهاً حكيم قادر مأمون على أن يأمرك وينهاك، ولذلك يجيء الحق دائماً قبل آيات التكليف بقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

فهو سبحانه لم يكلف مطلق الناس، وإنما كلف من آمن به، إذن، فهو سبحانه حين يكلف من آمن به لا يكون قد اشتط وجار عليه؛ لأنه آمن به بمحض اختياره.

فأصل التدين والإيمان باللَّه ألا يكرهك أحد عليه، بل ادخل إلى الإيمان

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٣٦٤، ٣٤٦٣) من حديث جندب بن عبد اللَّه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم رجل به جرح فجزع فأخذ سكيناً فَحزَّ بها يده، فما رقأ الدم حتى مات، قال اللَّه تعالى: . . .» الحديث. وأخرج نحوه من حديث جندب أحمد في مسنده (٤/ ٣١٢) ومسلم في صحيحه (١١٣).

باللَّه باختيارك، لكن إذا دخلت إلى الإيمان باللَّه فالتزم بالسماع من اللَّه في «افعل» و«لا تفعل».

فحين يقول الحق سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فهو يعطينا حيثيات التكليف، أي: علة الحكم، فعلة الحكم أنك آمنت باللَّه إلهاً حكيماً قادراً، وما دمت قد آمنت باللَّه إلهاً حكيماً قادراً فسلِّم زمام الأوامر والنواهي له سبحانه، فإن وقفتَ في أمر بشيء أو نهي عن شيء فراجع إيمانك باللَّه.

إذن: فقول الحق سبحانه: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

أي: أنك حر في أن تدخل في الإيمان باللَّه أو لا تدخل، لكن إذا ما دخلت فإياك أن تكسر حكماً من أحكام اللَّه الذي آمنت به، وإن كسرت حكماً من أحكام اللَّه تدخل معنا في إشكال، ارتكاب السيئات أو الذنوب.

ومن هذه السيئات أو الذنوب أن يقتل الإنسان نفسه، ولا يقتل إنسان نفسه إلا إذا وجد نفسه في ظرف لا يستطيع في حدود أسبابه أن يخرج منه.

ومثل هذا الإنسان نقول له: أنت نظرت لنفسك كإنسان معزول عن خالق أعلى، لكن المؤمن لا يعزل نفسه عن خالقه، فساعة يأتيه ظرف فوق أسبابه ولا يقوى عليه، فعليه أن يفكر: وهل أنا في الكون وحدي؟ لا، إن لي رباً، وما دام لي رب فأنا لا أقدر، وهو سبحانه يقدر.

وهنا يطرد الإنسان فكرة الانتحار؛ لأن المنتحر هو إنسان تضيق أسبابه عن مواجهة ظروفه، فيقتل نفسه.

فائدة الإيمان هنا أنه ساعة يأتي ظرف عليك وتنتهي أسبابك تقول: إن اللَّه لن يخذلني وهو يرزقني من حيث لا أحتسب، ويفتح لي أبواباً ليست في بالي.

ونضرب هنا مثلاً كي نقرب المعنى، فَهَبْ أن إنساناً يسير في الطريق ومعه «جنيه واحد» في جيبه، ثم ضاع الجنيه، وليس في بيته إلا هو، لذلك

يحزن جداً على ذلك الجنيه، لكن من يضيع منه «جنيه» وعنده في البيت خمسة جنيهات، فالمصيبة تكون خفيفة.

كذلك مَنْ فقد أسبابه فعليه أن يخفف الأمر على نفسه فلا ييأس، فَلِم يقتل نفسه؟

واليأس: هو قطع الأمل من حدوث شيء، حيث لا يملك الإنسان الفعل، ولو كان يقدر عليه لما يئس، والمؤمن لا ييأس أبداً، لأن اللَّه سبحانه هو القائل: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

اليأس ـ إذن ـ هو أن تقطع الأمل من أمر مراد لك، ولا تملك الوسائل لتحقيقه.

والذي ييأس هو الذي ليس له إلٰه يركن إليه؛ لأن اللَّه تعالى هو الركن الرشيد الشديد، فالمؤمن إن فقد شيئاً يقول: «**إن اللَّه سيعوّضني خيراً منه**».

أما الذي لا إيمان له بإلٰه فهو يقول: إن هذه الصدفة قد لا تتكرر مرة أخرى.

والإنسان لا ييأس إلا عند عدم يقينه بمصدر يرد عليه ما يريده، ولكن حين يؤمن بمصدر يرد عليه ما يريده فلا تجده يائساً قانطاً[1].

أما المؤمن فهو يعلم أن النعمة لها واهب، إن جاءت شكر اللَّه عليها، وإن سلبت منه فهو يعلم أن الحق سبحانه قد سلبها لحكمة.

ولذلك فواهب الحياة هو الذي يأخذها، ومن ينتحر لا يدخل الجنة؛ لأنه لم يتذكر أن له إلهاً.

والحق سبحانه يقول هنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ [النساء: ٢٩].

أي: ولا يقتل كل واحد منكم نفسه؛ لأنك لا تقتل نفسك.

إلا إذا ضاقت أسبابك عن مواجهة ما تعانيه، وهذا يدل على أنك عزلت

---

(١) القنوط: اليأس الشديد.

نفسك عن ربك، ولو ظللت على الإيمان بأن لك خالقاً لانفرجت عنك الكروب.

إن الإيمان يعطيك صلابة استقبال الصعاب والابتلاءات التي يتعرض لها في حياته.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

ونحن نعرف أن مجرد الابتلاء ليس شراً، ولكن الشر هو أن تسقط في الابتلاء، فكل ابتلاء هو اختبار وامتحان.

والحق سبحانه قد ذكر لنا قمة الابتلاءات، وهي أن يفقد الإنسان حياته في الدنيا بالاستشهاد في سبيل اللَّه، فقمة الابتلاء ـ في حدود إدراكنا ـ هي فَقْد الحياة.

وأراد اللَّه تعالى أن يعطي المؤمنين مناعة فيما دون فقد الحياة، أراد أن يعطيهم مناعة من الخوف والجوع ونقص الأموال، والأنفس والثمرات.

وكل هذه أشياء يحبها الإنسان.

وأول تلك الابتلاءات هو الخوف، والخوف هو انزعاج النفس وعدم اطمئنانها من توقع شيء ضار، فالنفس لها ملكات متعددة، وعندما يصيبها الخوف فهي تعاني من عدم الانسجام.

والخوف خَوَرٌ[1] لا ضرورة له؛ لأنك إذا كنت تريد أن تُؤمِّن نفسك من أمر يخيفك، فأنت تحتاج إلى أن تجتهد بأسبابك لتعوق هذا الذي يخيفك.

أما إن استسلمت للانزعاج، فلن تستطيع مواجهة الأمر المخيف بكل ملكاتك، لأنك ستواجهه ببعض من الملكات الخائرة المضطربة، بينما أنت تحتاج إلى استقرار الملكات النفسية ساعة الخوف، حتى تستطيع أن تمد نفسك بما يؤمنك من هذا الخوف.

أما إن زاد انزعاجك عن الحد، فأنت بذلك تكون قد أعنت مصدر

---

(١) الخور: الضعف الشديد.

الخوف على نفسك؛ لأنك لن تواجه الأمر بجميع قواك، ولا بجميع تفكيرك.

إذن: فالذي يخاف من الخوف، نقول له: أنت مُعين لمصدر الخوف على نفسك، وخوفك وانزعاجك لن يمنعا الخوف.

ولذلك لا بد لك من أن تنشغل بما يمنع الأمر المخوف.

ودع الأمر المخوف إلى أن يقع، فلا تعشْ في فزعه قبل أن يأتيك، فآفة الناس أنهم يعيشون في المصائب قبل وقوعها، وهم بذلك يطيلون على أنفسهم أمد المصائب.

إن المصيبة قد تأتي ـ مثلاً بعد شهر ـ فلماذا تطيل من عمر المصيبة بالتوجس منها والرهبة من مواجهتها؟

إنك لو تركتها إلى أن تقع، تكون قد قصرت مسافتها، ولك أن تعرف أن الحق سبحانه وتعالى ساعة تأتي المصيبة فهو برحمته يُنزل معها اللطف، فكأنك إن عشت في المصيبة قبل أن تقع، فأنت تعيش في المصيبة وحدها معزولة عن اللطف المصاحب لها.

لكن لو ظللت صابراً محتسباً قادراً على مواجهة أي أمر صعب، فأنت لن تعيش في المصيبة بدون اللطف.

أما الجوع فهو شهوة غالبة إلى الطعام، وهو ضروري لاستبقاء الحياة، ومن رحمة الحق سبحانه وتعالى بالإنسان أن ضمن له في ذاته غذاء يدخره من وقت رخائه لينفعه وقت شدته، فابتلاء الجوع هو أن تصبر على الضروري من الطعام الذي يقيم لك الحياة، وأنت تأكله كوقود لحركة الحياة، ولا تأكله التذاذاً، وحين يقتات الإنسان ليضمن لنفسه وقود الحياة فأي طعام يكفيه.

ولذلك شرع اللَّه الصوم لنصبر على أذى الجوع؛ لأن المؤمنين قد تضطرهم معركة ما لأن يعيشوا فيها ساعات طويلة دون طعام، فإن لم يكونوا مُدرَّبين على تحمُّل قسط من الجوع فسيخورون ويتعبون.

إذن: فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يُعدَّ المؤمن إعداداً كافياً كاملاً، فالمؤمن يواجه الخوف فيستعد، ويواجه الجوع فيأخذ من قوت الحياة بقدر الضروري.

والحق سبحانه وتعالى حين يعدنا هذا الإعداد، فإذا نجحنا فيه تكون لنا

البشرى، لأننا صبرنا على كل هذه المنغّصات: صبر على الخوف، وصبر على الجوع، وصبر على نقص الأموال، وصبر على نقص الأنفس، وصبر على نقص الثمرات.

إذن: فالمهم أن ينجح المؤمن في كل هذه الابتلاءات، حتى يواجه الحياة صلباً، ويواجه الحياة قوياً، ويعلم أن الحياة معبر، ولا يشغله المعْبَر عن الغاية.

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

والمصيبة هي الأمر الذي ينال الإنسان منه المشقة والألم، وهي مأخوذة من إصابة الهدف، والمؤمن يستقبل المصيبة واثقاً أنها على قدر إيلامها يكون الثواب عليها.

وأيُّ أمر يصيب الإنسان، إما أن يكون له دخل فيه، وعند ذلك لا يصح أن يجزع لأنه هو الذي جاء بالأمر المؤلم لنفسه، وإما أن تكون مصيبة لا دخل له بها، وحدثت له من غيره مثلاً، وعند ذلك عليه أن يبحث عن سببها: أعدلاً أم ظلماً؟

إن كانت عدلاً فهي قد جبرت الذنب، وإن كانت ظلماً فسوف يقتص اللَّه له ممن ظلمه، وعلى هذا فالمؤمن في كلتا الحالتين رابح.

إذن: فالمؤمن يستقبل كل مصيبة متوقعاً أن يأتي له منها خير، فالمؤمن يعلم بإيمانه أن كل ما يصيبه من اللَّه هو الخير، وأن هناك أحداثاً تتم للتأديب والتهذيب والتربية، لنسير على المنهج الصحيح فلا نخرج عنه، فما كتبه اللَّه هو لصالح المؤمنين به، إما أدباً وإما ثواباً وإما ارتقاء في الحياة، ولذلك فهو خير.

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

وما دام الحق سبحانه وتعالى هو الذي يتولى أمور المؤمنين، وهو ناصرهم، فالمولى الأعلى لا يسيء إلى من والاه، ثم يأتي الإيضاح كاملاً في

قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، لأن اللَّه الذي آمنت به هو إلٰه قادر حكيم، فإذا جرت عليك أمور فابحثها، إن كانت من فعل نفسك، هنا عليك أن تلوم نفسك، أما إن كانت من مجريات اللَّه عليك، فلا بد أن تفهم أنها تحدث لحكمة.

وبهذا المفهوم نعرف أنه إن أصابنا شيء نكرهه، فليس معنى ذلك أن اللَّه تخلى عنا، ولكنه يريد أن يؤدبنا أو يلفتنا لأمر ما، فإنه لو لم يؤدبنا أو يلفتنا لكان قد تخلى عنا حقاً.

والحق سبحانه وتعالى حين يخطئ المؤمن تجده سبحانه يلفته إلى خطئه، وفي هذه الحالة يعرف المؤمن أن اللَّه لم يتركه، لذلك لا يقولن أحد: إن اللَّه تخلى عنا، فهذا ضعف في الإيمان، وبالتالي فإنه ضعف في التوكل.

ولكن قل: إن اللَّه حين يؤدبك فهو لا يتخلى عنك، فساعة تأتي المصيبة اعلم أنه لا يزال مولاك، وما دام مولاك يحاسبك على أي خطأ ويُصوِّبه لك، فثِقْ به سبحانه وتوكل عليه.

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨].

فالإنسان لو اتخذ ولياً من البشر فهذا البشر عُرْضة للموت، فتحس أيها الإنسان أنك وحيد في هذا الكون، ولكنك عندما تتوكل على اللَّه فهو حيّ لا يموت أبداً، فإذا أردت فعلاً أن تتوكل، فتوكل على من هو موجود دائماً، قوي دائماً.

فالحق سبحانه يبعث الطمأنينة الإيمانية في نفوس المؤمنين، فيوضح لهم: إن كنتم تريدون بالآباء والأبناء والعشيرة والأقربين والمال قوة، فاعلموا أن قوة المؤمن من ربه.

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

فإياك أن تنظر إلى ولي آخر غير اللَّه؛ لأن ولاية البشر عُرْضة للتغير

والتبدل، فالغني فيها قد يصبح فقيراً، والسليم قد يصبح مريضاً، والقوي قد يصير ضعيفاً، ولكن الولاية الدائمة إنما تكون من قادر قاهر لا يتغير.

إذا كان اللَّه وليك فهو القادر دائماً، والقاهر دائماً، والغالب دائماً، والموجود دائماً، والناصر دائماً.

ولكن إذا كانت الولاية من إنسان لإنسان، فالأغيار في الدنيا تجعل الصديق ينقلب عدواً، والمعين يصبح ضعيفاً لا يملك شيئاً، والموجود يصبح لا وجود له بالموت.

إذن: فلا بد أن تجعل ولايتك مع اللَّه سبحانه وتعالى؛ لأنه هو الدائم الباقي.

ولهذا يُعلِّم المولى عز وجل عبده المؤمن أن يكون دائماً يقظاً، فَطِناً، لبيباً، فيقول سبحانه وتعالى:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨].

أي: لا تتوكل على مَنْ قد تصبح غداً فتجده ميتاً، ولكن توكل على الحي الموجود دائماً، العزيز الذي لا يُقهر، القوي الذي لا يُغلب.

فمن فوائد الإيمان تحمُّل الشدائد ثقة في أن لك رصيداً بإيمانك باللَّه عز وجل، فيصبح الانتحار قنوطاً من قدر اللَّه عليك، وهو يأس من رحمة اللَّه.

والحق سبحانه يقول:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

والاطمئنان يجيء من إشراقات وحنان صفات الجمال، فإن كان الإنسان يراعي حق اللَّه في كل عمل قدر الاستطاعة، فلا بد أن يطمئن قلبه لحظة ذكر اللَّه، لأنه اتبع منهج اللَّه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

فإننا نجد القلوب مضطربة قلقة بغير ذكر اللَّه، ولكن عندما يذكر الإنسان أن له رباً يطمئن قلبه إلى أنه لا يواجه الأحداث وحده، ولا يواجهها بقوته، ولكنه يواجه الحياة والأحداث بقوة ربه ومدده فيطمئن قلبه.

ولقد قال رسول اللَّه ﷺ:

«**عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له**»(١).

وقد قال رسول اللَّه ﷺ:

«**مَنْ تردَّى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالداً فيها أبداً، ومن تحسّى سماً فقتل نفسه فسمُّه في يده يتحسّاه في نار جهنم خالداً فيها أبداً، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في نار جهنم خالداً فيها أبداً**»(٢).

فمن قتل نفسه بأية وسيلة كانت، فقد قتل نفساً حرم اللَّه قتلها إلا بالحق.

إذن فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

أي: ولا يقتل واحد منكم نفسه بأن ينتحر، هذه واحدة، ولا يقتل واحد منكم نفسه بأن يلقي بها إلى التهلكة، أو لا يقتل واحد منكم نفسه بأن يقتل غيره فيقتل قصاصاً.

أو: لا تقتلوا أنفسكم يعني: لا يقتل أحدكم منكم نفس غيره؛ لأنكم وحدة إيمانية وليس واحد بعينه هو المأمور، بل الكل مأمور، فلا يقتل واحد منكم نفس غيره.

يقول تعالى:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢].

وهذه هي الوحدة الإيمانية، فمن يعتدي على نفس واحدة بريئة، فهو

---

(١) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٩٩) وأحمد في مسنده (٤/ ٣٣٢) والدارمي في سننه (٢/ ٣١٨) وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ١٥٤) من حديث صهيب الرومي.

(٢) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٥٧٧٨) ومسلم في صحيحه (١٠٩).

كمن يعتدي على كل الناس، والذي يسعف إنساناً في مهلكة كأنه أنقذ الناس جميعاً.

فإن قتل إنسان إنساناً آخر ووقف المجتمع الإيماني موقف العاجز، فهذا إفساد في الأرض، ولذلك يجب أن يقابل المجتمع مثل هذا الفعل لا على أساس أنه قتل نفساً واحدة، بل كأنه قتل الناس جميعاً ما لم يكن قتل النفس لقصاص أو إفساد في الأرض.

الرياء محبط للعمل

قال رب العزّة في الحديث القدسي:

١٠ ـ عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «إنَّ أوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ القِيامةِ عليه رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِي بِهِ فَعرَّفَهُ نِعَمَهُ فعرفها، قالَ: فما عمِلْتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استُشهِدْتُ. قال: كذبتَ، ولكنكَ قاتلتَ لأنْ يُقَال جَرِيء فقد قيل، ثم أُمِرَ به فَسُحِبَ على وجهه حتى أُلقِي في النار.

ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القُرْآن فأُتِيَ به فعرَّفه نِعَمه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تعلمتُ العِلمَ وعلَّمتُه وقرأتُ فيك القُرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العِلمَ ليقال: عالم، وقرأتَ القرآن ليقال: هو قارِئ فقد قيل، ثم أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه، حتى أُلقِي في النار.

ورجل وسَّع اللَّه عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فَأُتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقتُ فيها لك. قال: كذبت، ولكنك فعلتَ ليُقالَ: هو جواد فقد قيل. ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه ثم أُلقِيَ في النار»[(١)].

بعض البشر توجد عنده صفات الأريحية والإنسانية، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويصنع الخير، ويقدم الصدقات، ويقيم مؤسسات رعاية للمحتاجين والعاجزين، سواء كانت صحية أو اقتصادية.

لكنه يفعل ذلك من زاوية نفسه الإنسانية، لا من زاوية منهج اللَّه، فيكون كل ما فعله حابطاً، ولا يُعترَف له بشيء، لأنه لم يفعل ذلك في إطار الإيمان باللَّه.

ولذلك فلا تظن أنَّ الذي يصنع الخير دون إيمان باللَّه له أجر عند اللَّه،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٠٥) وأحمد في مسنده (٢/ ٣٢٢) والنسائي في سننه (٦/ ٢٣، ٢٤) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

فاللَّه سبحانه يجازي مَن كان على الإيمان به، وأن يكون اللَّه في بال العبد ساعة يصنع الخير.

من صنع خيراً من أجل الشهامة والإنسانية والجاه والمركز والسمعة فإنه ينال جزاءه ممن عمل له، وما دام قد صنع ذلك من أجل أن يُقال عنه ذلك فقد قيل.

إنه ينال جزاء عمله من قول الناس، لكن اللَّه يجازي في الآخرة مَنْ كان اللَّه في باله ساعة أن عمل.

فمن فعل عملاً من أعمال الخير وليس في باله الذي يعطي الثواب وهو اللَّه، بل كان في باله الخلق حبط عمله.

يقول الحق سبحانه عن الكافرين:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٢٢].

ومعنى «حبطت» أي: لا ثمرة مرجوة من العمل، إن كل عمل يعمله العاقل لا بد أن يكون لهدف يقصده.

فأيُّ عمل لا يكون له مقصد يكون كضربة المجنون، ليس لها هدف.

إن العاقل قبل أن يفعل أي عمل ينبغي أن يعرف الغاية منه، وما الذي يحققه من النفع؟ وهل هذا النفع الذي سوف يحققه هو خير النفع وأدومه، أو هو أقل من ذلك؟

وعلى ضوء هذه المقاييس يحدد العاقل عمله، وحينما يقول الحق سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٢٢].

فهو سبحانه يريد أن يخبرنا أنّ إنساناً قد يفعل عملاً هو في ظاهره خير، فإياك أن تغترّ أيها المؤمن بأنه عمل خيراً، لماذا؟ لأن عمل الخير لا يحسب للإنسان إلا بنية إيمانه بمن يجازي.

فالإنسان إن عمل عملاً قد تصلح به دنياه فهو عمل حسن، فلماذا يكون عمل هؤلاء الكافرين حابطاً في الدنيا وفي الآخرة؟ إنه حابط بموازين الإيمان ويكون العمل حابطاً لأنه لم يصدر من مؤمن، لأن ذلك الإنسان قد عمل العمل ثقة بنتيجة العمل، لا ثقة بالآمر الأعلى.

إن الإنسان المؤمن حين يقوم بالعمل يقوم به ثقة في الآمر الأعلى.

وبعض من الناس في عصرنا يأخذون على الإسلام أنه لا يجازي الجزاء الحسن للكفرة الذين قاموا بأعمال مفيدة للبشرية.

يقول الواحد منهم: هل يعقل أحد أنَّ باستير الذي اكتشف الميكروبات، والعالم الآخر الذي اكتشف الأشعة، وكل هؤلاء العلماء يذهبون إلى النار.

ولهؤلاء نقول: نعم. إن الحق بعدالته أراد ذلك، ولنتقاضى نحن وأنتم إلى أعراف الناس، إن الذي يطلب أجراً على عمل يطلبه ممن؟ إنه يطلب الأجر ممن عمل له.

فهل كان اللَّه في بال هؤلاء العلماء وهم يفعلون هذه الأعمال؟

إنَّ بالهم كان مشغولاً بالإنسانية، وقد أعطتهم الإنسانية التخليد، وغير ذلك من مكاسب الدنيا.

إذن: فإذا كان الجزاء من اللَّه، فلنا أن نسأل.

هل كان اللَّه في بال هؤلاء العلماء حينما أنتجوا مخترعاتهم؟

لم يكن في بالهم اللَّه، والذي يطلب أجراً فهو يطلبه ممن عمل له، ولم يُضع اللَّه ثمرة عملهم، بل دَرَّتْ عليهم أعمالهم الذكر والجاه والرفعة، ولم يُضع اللَّه أجر مَنْ أحسن عملاً.

يقول الحق سبحانه:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

فاللَّه سبحانه وتعالى لن يضيع أجر أعمالهم الحسنة، بل أعطى لهم أجورهم في الدنيا، لكن حرث الآخرة ليس لهم.

إنهم في ظاهر الأمر يبدو لهم أنهم عملوا أعمالاً حسنة، ولكنها في الواقع أعمال باطلة وفاسدة، وقد يوجد مَنْ عمل عملاً حسناً نافعاً للناس، ولكن ليس في باله أنه يفعل ذلك إرضاء للَّه، بل للشهرة لينتشر ذكره ويذيع صِيته، ويثني الناس عليه، أو للجاه والمركز والنفوذ.

ولذلك حين سُئل رسول اللَّه ﷺ: مَنْ الشهيد؟ قال: «**من قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا فهو في سبيل اللَّه**»(١).

لأن الرجل قد يقاتل حمية، أو ليعرف الناس مثلاً أنه شجاع، فقتال الرجل دائماً بحسب نيّته، فالقتال مرة يكون في سبيل اللَّه، ومرة يكون في سبيل النفس، ومرة يكون في سبيل الشيطان.

فالإنسان قد يجاهد حمية أو دفاعاً عن جنسيته أو أي انتماء آخر، وكل هذه الانتماءات في عرف الدين لا قيمة لها إلا إذا نبعت من الانتماء إلى منهج اللَّه، لتكون كلمة اللَّه هي العليا.

والحق سبحانه يقول:

﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٥٣].

قد يطرأ سؤال على خاطر المؤمن: ألا يصدر من هؤلاء الأقوام فعل خير؟ وألا يأتي إليهم أدنى خير؟ ونحن نعلم أنّ الحق سبحانه يجزي دائماً على أدنى خير.

فنقول: شرط تقبُّل اللَّه لأي عمل إنما يأتي بعد الإيمان باللَّه، أما أن تعمل وليس في بالك اللَّه فخذ أجرك ممن كان في بالك وأنت تعمل.

لذلك ضرب اللَّه مثلاً بأعمال الذين كفروا في قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

فمن فعل شيئاً وليس في باله اللَّه، فسيفاجأ يوم القيامة بأن اللَّه تبارك وتعالى الذي لم يكن في باله موجود، وأنه جل جلاله هو الذي سيحاسبه.

فصاحب الالتزام بالمنهج يطمئن إلى لقاء ربه ويطمئن إلى جزائه، أما الذي لا يؤمن بالآخرة فإنه يأخذ من اللَّه الحياة فيفنيها فيما لا ينفع، ثم بعد ذلك لا يجد شيئاً إلا الحساب والنار.

وقد صوَّر الحق سبحانه موقفهم التصوير الرائع في هذه الآية.

إنه سراب ناتج عن تخيل الماء في الصحراء، يتوهمه السائر العطشان في

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (١٢٣) وكذا مسلم (١٩٠٤).

الصحراء نتيجة انعكاسات الضوء، فيظل السائر متجهاً إلى وهم الماء، إنه يصنع الأمل لنفسه، فإذا جاءه لم يجده شيئاً، ويفاجأ بوجود اللَّه، فيندم ويتلقى العذاب.

وكذلك لن يقبل منه ملء الأرض ذهباً لو أنفقه في أي خير في الدنيا، وبعد ذلك لن يقبل اللَّه منه ملء الأرض ذهباً لو افتدى به نفسه في الآخرة، إن كان سيجد ملء الأرض ذهباً، وعلى فرض أنه قد وجد ملء الأرض ذهباً، فهل يجد من يقبل ذلك منه؟

لا، إنه في الحقيقة لن يجد الذهب، لأنه في الآخرة لم يعد يملك شيئاً.

فمن فعل وليس في باله اللَّه، بل كان في باله المجد وتخليد الذكر، فقد أعطتهم الإنسانية ما يريدون، فخلدت ذكراهم وأقامت لهم التماثيل، ومنحتهم الأوسمة، ووضعت فيهم المؤلفات لتمدحهم.

هم قد عملوا للناس فأعطاهم الناس.

أنت إذا صنعت معروفاً تقصد به وجه اللَّه عز وجل جزاك اللَّه عنه خيراً، ولكن إن عملت معروفاً لتحقق به مصلحة دنيوية خاصة بك أو تأخذ به شهرة فلا جزاء لك عند اللَّه.

ولا بد أن يصنع الإنسان المؤمن كل عمل وفي باله اللَّه خالقه والمتفضل عليه بالنعم، فإذا أطعمت فقيراً فلتطعمه لوجه اللَّه، وعليك ألا تفعل المروءة من أجل أن يقال عنك: إنك صاحب مروءة.

ومن يفعلون الخير عليهم أن يحرصوا على أن يكون اللَّه عز وجل في بالهم، لا أن ينالوا شهرة من هذا الخير، وألا يأتي منهم هذا الخير لا بمقال ولا بحال.

وعلى سبيل المثال تلك اللافتات التي توضع على المساجد بأسماء من قاموا بتأسيسها، واللَّه عليم بكل شيء، يعلم اسم من أقام البناء.

وعليك إذا بنيت مسجداً أن تسميه بأي اسم لا يمت لك بصلة حتى لا تدخل في دائرة «عملت ليقال وقد قيل».

وحتى المقاتل الذي يحارب بين صفوف المؤمنين عليه أن يعقد النية

للَّه، لا أن يقاتل من أجل أن يقال إنه شجاع، لأنه إن فعل حبط عمله وكان من الخاسرين، لأن عمله قد شابه الرياء والسمعة.

ولا يهز المجتمعات ولا يزلزلها ويهدُّها إلا هذه المراءاة، لأن الحق سبحانه يحب أن يؤدي المسلم كل عمل جاعلاً اللَّه في باله، وهو الذي لا تخفى عليه خافية.

ولذلك تجد الرسول ﷺ ينقل لنا حال المرائي للناس فيقول: «**إنّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول اللَّه؟ قال: الرياء**».

يقول اللَّه عز وجل يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء؟

وقال ﷺ: «**إن المرائي يُنَادَى عليه يوم القيامة: يا فاجر يا غادر، يا مرائي. ضَلَّ عملك وحبط أجرك، فخذ أجرك ممن كنت تعمل له**».

فالمرائي إنما يخدع نفسه، فهو يتظاهر بالصلاة ليراه الناس، ويُزكِّي ليراه الناس، ويحج ليراه الناس، هو يعمل ما أمر اللَّه به، لكنه لا يعمل للَّه.

والحق سبحانه يقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

فالذي يتصدق ويُتبع صدقته بالمنِّ والأذى إنما يُبطل صدقته، وخسارته تكون خسارتين:

الخسارة الأولى: أنه أنقص ماله بالفعل، لأن اللَّه لن يعوّض عليه، لأنه أتبع الصدقة بما يبطلها من المن والأذى.

والخسارة الأخرى: هي الحرمان من الثواب، فالذي ينفق ليقول الناس عنه إنه ينفق، عليه أن يعرف أن الحق يوضح لنا: أنه يعطي الأجر على قاعدة أن الذي يدفع الأجر هو مَنْ عملتَ له العمل.

إن الإنسان على محدودية قدرته يعطي الأجر لمن عمل له عملاً، والذي

يعمل من أجل أن يقول الناس: إنه عمل فليأخذ أجره من القدرة المحدودة للبشر، فالذي يفعل الحسنة أو الصدقة ليقال عنه: إنه فعل، فإنه يأتي يوم القيامة ولا يجد أجراً له.

وإياك أن تقول: أنا أنفقت ولم يوسع اللَّه رزقي، لأن اللَّه قد يبتليك ويمتحنك، فلا تفعل الصدقة من أجل توسيع الرزق، فعطاء اللَّه ليس في الدنيا فقط، ولكن اللَّه يريد ألا يعطيك في الفانية، وأبقى لك العطاء في الباقية وهي الآخرة، وهو خير وأبقى.

والحق سبحانه يقول عن هؤلاء الذين ينفقون مثلاً رئاء الناس:

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨].

إنه يريد بالإنفاق مراءاة الناس.

ولذلك يقول العارفون بفضل اللَّه: اختر من يُثَمِّن عطاءك، فأنت عندما تعطي شيئاً لإنسان فهو يُثمِّن هذا الشيء بإمكاناته وقدراته، سواء بكلمة ثناء يقولها مثلاً أو بغير ذلك، لكن العطاء للَّه كيف يُثمِّنه سبحانه؟

لا بد أن يكون الثمن غالياً.

إذن: فالعاقل ينظر لمن سيعطي النعمة، ولنا الأسوة في سيدنا عثمان ـ رضي اللَّه عنه ـ عندما علم التجار أن هناك تجارة آتية له، جاء كل التجار ليشتروا منه البضاعة ثم يبيعوها ليربحوا، وقال لهم: جاءني مَنْ يعطيني أكثر من ثمنكم. وفي النهاية قال لهم: أنا بعتها للَّه.

إذن: فقد تاجر سيدنا عثمان مع اللَّه، فرفع من ثمن بضاعته.

فالذي يعطي رئاء الناس نقول له: أنت خائب، لأنك ما ثمَّنت نعمتك، بل ألقيتها تافهة الثمن، ماذا سيفعل لك الناس؟ هم قد يحسدونك على نعمتك ويتمنون أن يأخذوها منك، فلماذا ترائيهم؟

إذن: فهذه صفقة فاشلة خاسرة، ولذلك قال الحق:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

وما دام سبحانه هو الذي اشترى فلا بد أن الثمن كبير، لأنه يعطي النعيم الذي ليس فيه أغيار، ففي الجنة لا تفوت النعمة مؤمناً، ولا هو يفوتها، فالذي يرائي الناس خاسر، ولا يعرف أصول التجارة، لأنه لم يعرف طعم التجارة مع اللَّه.

ولذلك شبه عمله في آية أخرى بقوله:

﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ [البقرة: ٢٦٤].

والصفوان هو المروة، وجمعه مرو، وهي حجارة بيض برّاقة، والمروة ناعمة وليست خشنة، لكن بها بعض الثنايا يدخل فيها التراب، ولأن المروة ناعمة جداً، فقليل من الماء ولو كان رذاذاً يذهب بالتراب.

والذي ينفق ماله رئاء الناس هو من تتضح له قضية الإيمان، ولكن لم يثبت الإيمان في قلبه بعد.

فلو كنت تعلم أنك تريد أن تبيع سلعة، وهناك تاجر يعطيك فيها ثمناً أغلى، فلماذا تعطيها للأقل ثمناً؟

إنك إن فعلت فقد خِبْتَ وخسرت، فأوضح لك الحق: ما دمت تريد رئاء الناس إذن فأنت ليس عندك إيمان بالذي يشتري بأغلى، فتكون في عالم الاقتصاد تاجراً فاشلاً.

ولذلك قلنا: ليحذر كل واحد حين يعطي أن يخاف من العطاء، فالعطاء يستقبله اللَّه بحسن الأجر، ولكن عليه ألا يعطي بضجيج ودعاية تفضح عطاءه.

ولذلك قال النبي ﷺ ضمن السبعة الذين يظلهم اللَّه في ظله يوم لا ظل إلا ظله:

«**رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»[(١)].

إن العبد الصالح حين يعطي فهو يعلم أن يده هي العليا، ويده خير من اليد السفلى، فليستر على الناس المحتاجين سفلية أيديهم، ولا يجعلها واضحة.

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٦٦٠) ومسلم في صحيحه (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

ولكن الحق سبحانه وتعالى لا يريد أن يضيق مجال الإعطاء فقال:

﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٧١].

فإبداء الصدقات لا مانع منه إن كان من يفعل ذلك يريد أن يكون أسوة، المهم أن يخرج الرياء من القلب لحظة إعطاء الصدقة، فالحق يوضح: إياك أن تنفق وفيك رئاء، أما من يخرج الصدقة وفي قلبه رياء، فاللَّه لا يحرم المحتاجين من عطاء مُعْطٍ، لأنه سبحانه يؤكد: خذوا منه وهو الخاسر، لأنه لن يأخذ ثواباً، لكن المجتمع ينتفع.

إن الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس هم من الذين لا يؤمنون باللَّه؛ لأنه سبحانه هو المعطي، وهو يحب أن يضع المسلم عطاءه في يده، ولا يؤمنون باللَّه ولا باليوم الآخر، فلو كانوا يؤمنون باليوم الآخر لرأوا الجزاء الباقي.

فأنت إذا كنت تحب نعمتك فخذ النعمة وحاول أن تجعلها مثمرة، أي كثيرة الثمار.

أما الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة اللَّه. فيقرب اللَّه لهم مثلاً، فيقول سبحانه:

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

إن ابتغاء مرضاة اللَّه في الإنفاق تعني خروج الرياء من دائرة الإنفاق فيكون خالصاً لوجهه سبحانه، وأما التثبيت من أنفسهم فهو لأنفسهم أيضاً، فكأن النفس الإيمانية تتصادم مع النفس الشهوانية، فعندما تطلب النفس الإيمانية أي شيء فإن النفس الشهوانية تحاول أن تمنعها، وتتغلب النفس الإيمانية على النفس الشهوانية وتنتصر للَّه.

والمراد بـ ﴿ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ هو أن يتثبت المؤمن على أن يحب نفسه حُباً أعمق لا حباً أحمق.

إذن: فعملية الإنفاق يجب أن تكون أولاً إنفاقاً في سبيل اللَّه، وتكون بتثبيت النفس بأن وهب المؤمن أولاً دمه، وثبَّت نفسه ثانياً بأن وهبه المال.

وهكذا يتأكد التثبيت، فيكون كما تصوره الآية الكريمة:

﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

والجنة كما عرفنا تُطلق في اللغة على المكان الذي يوجد به زرع كثيف أخضر لدرجة أنه يستر مَنْ يدخله، ومنها «جن» أي «ستر». ومن يدخل هذه الجنة يكون مستوراً.

إن الحق سبحانه يريد أن يضرب لنا المثل الذي يوضح الصنف الثاني من المنفقين في سبيل اللَّه ابتغاء مرضاته وتثبيتاً من أنفسهم الإيمانية ضد النفس الشهوانية، فيكون الواحد منهم كمن دخل جنة كثيفة الزرع، وهذه الجنة توجد بربوة عالية.

وعندما تكون الجنة بربوة عالية فمعنى ذلك أنها محاطة بأمكنة وطيئة ومنخفضة عنها، فماذا يفعل المطر بهذه الجنة التي توجد على ربوة؟

إن الحق يخبرنا أن مَنْ ينفق ماله ابتغاء مرضاة اللَّه وتثبيتاً من أنفسهم كمثل هذه الجنة التي تُرْوَى بأسلوب رباني، فإن نزل عليها وابل من المطر أخذت منه حاجتها وانصرف باقي المطر عنها.

﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

والطل وهو المطر والرذاذ الخفيف يكفيها لتؤتي ضعفين من نتاجها، وإذا كان الضِّعف هو ما يساوي الشيء مرتين، فالضعفان يساويان الشيء أربع مرات.

والحق سبحانه يقول عن القتال في سبيل اللَّه:

﴿ ۞ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٧٤].

فالقتال إنما جاء ليسيطر منهج اللَّه سبحانه، وحينما يقول تعالى: ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فهذا يدلنا على أن هناك قتالاً في غير سبيل اللَّه، كأن يقاتل الرجل حمية، أو ليعلم مكانه من الشجاعة، فقتال الرجل دائماً حسب نيته.

ولذلك تساءل بعض الناس: مَن الشهيد؟ فقيل: هو من قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا فيكون شهيداً.

إذن: فالقتال مرة يكون في سبيل اللَّه، ومرة يكون في سبيل النفس، ومرة يكون في سبيل الشيطان.

والحق سبحانه يؤكد على أن القتال يجب أن يكون في سبيل اللَّه، لأنه سبحانه يريد أن يضع حداً لجبروت البشر، فلا بد أن تكون نية القتال في سبيل اللَّه، لا أن يكون القتال بنية الاستعلاء والجبروت والطغيان، فلا قتال من أجل الجاه أو المال أو لضمان سوق اقتصادي، وإنما القتال لإعلاء كلمة اللَّه، ونصرة دين اللَّه، هذا هو غرض القتال في الإسلام.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾

[البقرة: ١٩٠].

والحق ينهى عن الاعتداء، أي لا يقاتل مسلم من لم يقاتله، ولا يعتدي، ففي قتال النساء والصبيان والعجزة اعتداء، وهو سبحانه لا يحب المعتدين.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

[التوبة: ١١١].

وما دام اللَّه قد اشترى من المؤمن نفسه فيجب على المؤمن ألا تهمه نفسه، فيدخل المعركة بالصفقة الإيمانية، فإذا أهمته نفسه يبدأ القلق والبلبلة والاضطراب وتوهم الأشياء.

وما دام سبحانه هو الذي اشتراه فلا بد أن الثمن كبير، فالمؤمن هنا يعطي الدنيا ليأخذ الآخرة التي تتمثل في الجنة والجزاء ومنزلة الشهداء.

تلك هي الصفقة التي يعقدها الحق مع المؤمنين، وهو سبحانه يريد أن يعطينا ما نتعرف به على الصفقات المربحة، فكل منا في حياته

يجب أن يعقد صفقة مربحة بأن يعطي شيئاً، ويأخذ شيئاً أكبر منه.

ولذلك يقول سبحانه في آية أخرى:

﴿ يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر: ٢٩].

إذن: فالحق يُنمِّي فينا قيمة الصفقة الإيمانية، ويعلم أن كل إنسان يحب الخير لنفسه، فلا يظنن أحد أن الدين جاء ليسلبه الحرية أو ليستذله، فالدين إنما جاء ليربب للمؤمن النفعية وينميها له.

وكلمة (اشترى) تدل على أن هناك صفقة، عملية بيع وشراء، وإذا كان هذا مِلكاً للَّه، فاللَّه هو المشتري واللَّه هو البائع.

وما الثمن؟

يأتي التحديد من الحق سبحانه: ﴿ بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [التوبة: ١١١].

هذا هو الثمن الذي لا يفنى ولايبلى، ونعيمك فيها على قدر إمكانيات اللَّه التي لا نهاية لها، أما نعيمك في حياتك فهو على قدر إمكانياتك أنت في أسباب اللَّه، وهكذا يكون الثمن غالياً.

والثمن هو الجنة، وهو وعد بشيء يأتي من بعد، ولكنه وعد ممن يملك إنفاذه، فالوعد الحق هو ممن يملك ويقدر، وحيّ لا يموت.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ [التوبة: ١١١].

والمؤمن يستقبل هذا بأنه سوف يحدث حتماً، وما دام الحق قد أعطى الوعد فلن يوجد من هو أوفى منه، فالعهد الحقيقي إنما يؤخذ من اللَّه، فلا أحد أوفى من اللَّه بالعهد. وما دام الوعد بالجنة فالجنة لا يملكها إلا هو سبحانه، ووعده حق.

وحين يقول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم ﴾ [التوبة: ١١١].

فقد يفهم أحد أن النفس سوف تضيع، وأن الأموال سوف تنفق، وهذا يُقبض النفس، فهذا فيه الموت وخسارة للمال، وكان من الطبيعي أن يشحب وجه الإنسان ويفزع ويخاف.

ولكن ساعة يقول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ﴾ [التوبة: ١١١]، تجد بشرة المؤمن تطفح بالسرور والبشر، ويحدث له تهلل وإشراق، مع أنه هنا سيأخذ نفسه، ولكن المؤمن يعرف أنه سبحانه سيأخذ نفسه ليعطيه الحياة الخالدة.

إذن: قضايا الإيمان كلها هكذا لا يجب أن تصيبنا بالخوف، بل علينا أن نستقبلها بالاستبشار، فليظهر أثر ذلك على بشرتكم إشراقاً وسروراً وانبساطاً.

ولذلك فقضية الإيمان باللَّه واليوم الآخر هي مطلوب الحق سبحانه من أن يكون العمل خالصاً للَّه ابتغاء مرضاته لا ابتغاء السمعة والصيت بين الناس، ولا رياء ونفاقاً.

فالرياء محبط للعمل وماحق للثواب، ودليل على ضعف إيمان صاحبه، وحين يرجع إلى ربه لن يجد له شيئاً من ثواب الآخرة، لأنه أخذ ما أراده في الدنيا من المجد والصيت والذكر بين الناس، فليس له في الآخرة من نصيب.

الحسنة والسيئة

١١ ـ قال رب العزّة سبحانه في الحديث القدسي:

«إذَا هَمَّ عَبْدي بحسنَةٍ فاكْتُبوهَا لَهُ حَسَنة، فإنْ عَمِلها فاكْتبوهَا لَهُ بعشْر أمثَالِها.

وإذَا هَمَّ بسيئة فَلا تكتبُوها، فإنْ عَملِها فاكتبُوها بمثلها، فإنْ لم يعملْ بها فاكتبُوهَا لَهُ حَسَنةً»[(١)].

هذا هو مطلق الرحمة والفضل، فالحق سبحانه يجزي الحسنة بعشرة أمثالها، ويضاعف ذلك إلى سبعمائة ضعف؛ لأن كل فعل تلازمه طاقة من الإخلاص في نفاذه، فكأن الحق قد وضع نظاماً بأن الحسنة بعشرة أمثالها، ثم بالنية المخلصة تبلغ الأضعاف إلى ما شاء اللَّه.

والحق سبحانه يقول:

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

ويقول في آية أخرى:

﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقد وضع الحق هذا النظام؛ لأنه جلَّ وعلا يريد للحسنة أن تُفعل، وينتفع الغير بها، فإن كان فاعلها حريصاً على الأجر الزائد فهو يقدمها بنية مخلصة، فنية معطي الحسنة هي التي يمكنها أن تضاعفها إلى سبعمائة أو أزيد.

والحق سبحانه وتعالى يعطي مثلاً لذلك في قوله تعالى:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٥٠١) وكذا مسلم (١٢٨) الإيمان، والترمذي في سننه (٣٠٧٣) وقال: حديث حسن صحيح، وهو من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

فإذا كانت الأرض وهي مخلوقة للَّه تعطيها أنت حبة فتعطيك سبعمائة، فماذا يعطي خالق الأرض؟

إن عطاءه غير محدود ولا ينفد.

فالحق سبحانه يلفتنا أن ننظر جيداً إلى بعض خلقه وهي الأرض، الأرض التي نضع فيها البذرة الواحدة ـ أي الحبة الواحدة ـ فإنها تعطي سبع سنابل، في كل سنبلة مائة حبة.

فلو نظر الإنسان أول الأمر إلى أن ما يضعه في الأرض حين يحرث ويزرع يقلل من مخازنه لما زرع ولما غرس، ولكنه عندما نظر لما تعطيه الأرض من سبعمائة ضعف أقبل على البذر، وأقبل على الحرث غير هيَّاب؛ لأنها ستعوضه أضعاف أضعاف ما أعطى.

إذن: فهو سبحانه قادر أن يضاعف لمن يشاء بغير حساب، فإرادة الخالق تعطي كما تريد.

فإذا كنا نحن ـ كبشر ـ عندما نوظف واحداً نقول: أنت تدخل السلم الوظيفي، وتبدأ السلم الوظيفي من أول درجاته، ثم تترقى درجة بعد درجة، ثم يأتي رئيس الدولة ليعينك في درجة أعلى من ذلك بكثير، فما بالنا بحساب الرب الأعلى؟

إنه يعطي بعملية حسابية فيها زيادة فضل.

إذن: لا بد أن يطمئن المؤمن إلى أن حركة حياته لها ثواب وأجر عند اللَّه تبارك وتعالى، فإذا صلى فله أجر، وإذا زكّى فله أجر، وإذا تصدق فله أجر، وإذا صام فله أجر، وإذا حج فله أجر.

كل ما يفعله من منهج اللَّه له أجر، وليس أجراً بقدر العمل، بل أضعاف العمل.

وهكذا نعرف أن كل حركة في منهج اللَّه ليس فقط لها أجر عند اللَّه سبحانه وتعالى، ولكنه أجر مضاعف أضعافاً مضاعفة، وهو أجر ليس بقدرات البشر، ولكنه بقدرة اللَّه سبحانه.

ولذلك فهو ليس مُضاعفاً فقط في عدد المرات، ولكنه مضاعف في القدرة أيضاً، فكأن كل إنسان غير مؤمن لا أجر له في الآخرة، وإذا أعطي في

الدنيا يُعطى عطاء المثل، ولكن المؤمن وحده له عطاء الآخرة أضعافاً مضاعفة، وهو عطاء ليس زائلاً كعطاء الدنيا، ولكنه باقٍ وخالد.

والحق سبحانه يقول:

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١١٠].

فالخير الذي تفعله لن تدخره عندك أو عند من قد ينكره ويقول: لا شيء لك عندي، ولكن اللَّه سيدخره لك، فانظر إلى الاطمئنان والعمل في يد اللَّه الأمينة، وفي مشيئته التي لا يغفل عنها شيء، وفي قدرته التي تضاعف أضعافاً مضاعفة، وتجده في الوقت الذي تكون في أحوج اللحظات إليه، وهو وقت الحساب.

ثم يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١١٠].

أي: لا تعتقد أن هناك شيئاً يخفى على اللَّه، أو أن أحداً يستطيع أن يخدع اللَّه، فاللَّه سبحانه وتعالى بصير بكل شيء، ليس بالظاهر منك فقط، ولكن بما تخفيه في نفسك ولا تطلع عليه أحداً من خلق اللَّه، إنه سبحانه يعلم كل شيء.

ويقول سبحانه:

﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].

والمقصود بقوله سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: بالغوا في أداء الحسنات، والحسنة كما نعلم بعشرة أمثالها، فما هي الزيادة؟

نقول: هي عطاء زائد في الحسنات، فالجزاء بالحسنات يبدأ بعشرة أمثال الحسنة، ويصل إلى سبعمائة ضعف، أما السيئة فبواحدة، كما يقول الحديث القدسي الذي نحن بصدده.

وهذا ليس تحديداً لفضل اللَّه تعالى، بل الحق سبحانه يزيد من فضله مَنْ يشاء.

ولذلك يجب ألا نفرق بين عدل اللَّه سبحانه في أن الشيء يساوي

الشيء، وفضل اللَّه تعالى في أنه سبحانه يجزي على الشيء الحسن بأضعاف أضعاف ما نتصور.

والحق سبحانه يقول:

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨].

وقال قوم من العارفين باللَّه:

إن الزيادة المقصودة هي في العشرة الأمثال والسبعمائة ضعف، والفضل هو ما فوق ذلك.

وهكذا تتعدد مراتب الجزاء: فهناك العشرة الأمثال، والسبعمائة ضعف، والحسنى، والزيادة عن الحسنى.

وقد قال رسول اللَّه ﷺ في ذلك:

«**إذا دخل أهل الجنة الجنة قال: يقول اللَّه تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تُبيِّض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتُنجِّنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أُعْطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل**»[1].

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

أي: أنه سبحانه ذو الفضل الهائل، فالفضل الحقيقي هو الذي من عند اللَّه؛ لذلك فإن اللَّه سبحانه وتعالى هو ذو الفضل العظيم؛ لأنه غير محتاج إلى أحد من خلقه؛ لأنه سبحانه كان قبل أن يوجد شيء، وسيكون بعد ألا يوجد شيء.

وحين يوصف الفضل بأنه عظيم، فمعنى ذلك أن هناك فضلاً أقل من عظيم، كما أن هناك فضلاً يعلوه تميزاً، ونعلم أن التفاضل موجود عند البشر.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٨١) وأحمد في مسنده (٤/ ٣٣٢) والترمذي في سننه (٢٥٥٢) من حديث صهيب الرومي رضي اللَّه عنه.

هذا يتفضل على هذا بطعام، أو يتفضل عليه بملبس، أو يتفضل عليه بشراب، أو يتفضل عليه بمسكن.

أي: أن هناك أنواعاً متعددة من الفضل، لكنها لا توصف بالعظمة؛ لأن الفضل العظيم يكون من اللَّه تعالى فقط؛ لأنه سيؤول إليه كل فضل ممن دونه.

إذن: كل فضل هو من اللَّه، ومآله مردود إلى اللَّه عز وجل، وهذا هو الفضل العظيم.

وأيضاً نجد أن الذي يتفضل على واحد لا بد أنه يبغي من وراء هذا الفضل شيئاً، مثل تحقيق كمال الذات، أو ابتغاء الحمد والثناء، أو راحة النفس.

ونرى أناساً يؤدون الفضل لغيرهم ليقللوا من آلامهم؛ لا لأنهم يطبقون منهج اللَّه؛ بل يرغبون في مجرد راحة النفس، مثل الكفار الذين يصنعون أشياء تفيد الناس، فهم يفعلونها وليس في بالهم اللَّه، بل في بالهم راحة النفس وانسجامها.

إذن: فالذي يتفضل إنما يريد شيئاً، إما كمال مال أو ثناء وإطراء، وراحة نفس من مناظر الإيلام التي يراها، وهذا دليل على أنه يعاني من نقص ما ويريد أن يكمله، فإذا كان اللَّه عز وجل هو صاحب الفضل أللَّه نقص في كمال؟ لا.

إذن: فهذا هو الفضل العظيم ويمنحه لعباده تفضلاً منه، دون رغبة في كمال أو ثناء، وأيضاً فكل فضل من دون اللَّه يتضمن المنّ، لكن فضل اللَّه تعالى ليس فيه منّ، وليس فيه ذلة لأحد.

وقد يستنكف إنسان أن يأخذ شيئاً من إنسان آخر، لكن من الذي يستنكف[1] على فضل اللَّه؟

---

(١) الاستنكاف: الاستكبار والأنفة، يقول الحق سبحانه: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢].

فهم لن يفرحوا بعملهم مثل فرحهم بفضل اللَّه وكرمه عليهم، لأنه أعطاهم في الآخرة نعماً لم يكونوا يحلمون بها، وهي تفوق عملهم بكثير.

ورسول اللَّه ﷺ يقول:

«**لن يدخل أحدكم الجنة بعمله. قالوا: ولا أنت يا رسول اللَّه؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمّدني اللَّه برحمته**»(١).

فإذا تساءلت: كيف يتم هذا؟ وكيف أنه لا أحد يدخل الجنة بعمله؟

نقول: نعم؛ لأن عمل الدنيا كله لا يساوي نعمة من نعم اللَّه على خلقه، فأنت تذكرت العمل ولم تتذكر الفضل، وكل من يدخل الجنة بفضل اللَّه سبحانه وتعالى، حتى الشهداء الذين أعطوْا حياتهم، وهي كل ما يملكون في هذه الدنيا، يقول الحق سبحانه وتعالى عنهم:

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

فإذا كان هؤلاء الشهداء وهم في أعلى مراتب الجنة قد دخلوا الجنة بفضل اللَّه، فما بالك بمن هم أقل منهم أجراً، واللَّه سبحانه وتعالى له فضل على عباده جميعاً.

يقول الحق سبحانه:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

واللَّه سبحانه وتعالى يعلم عن عباده أن أحداً منهم قد لا يبرأ من أن يكون له ذنب، فلو حاسبنا بالمعايير المضبوطة تماماً فلسوف يتعب الإنسان منا.

---

(١) حديث متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٦٣) ومسلم في صحيحه (٢٨١٦) عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه. والتغمد هو إدخاله في رحمة اللَّه، وغمره بها، كما يدخل الفارس سيفه في غمده فلا يظهر منه شيء.

ولذلك أحب أن أقول دائماً مع إخواني هذا الدعاء: «**اللهم بالفضل لا بالعدل، وبالإحسان لا بالميزان، وبالجبر**[١] **لا بالحساب**».

أي: عاملنا بالفضل لا بالعدل، وبإحسانك لا بالميزان؛ لأن الميزان يتعبنا.

إذن: المسألة كلها بالفضل من اللَّه، ولكن فضل اللَّه شرطه العمل الصالح، فأنت تعمل العمل الصالح، ويعطيك ربنا أضعافه، وبطبيعة الحال فعملك لن ينفع جلاله أو جماله، أو كماله، أو يزيده صفة، أو يزيده مُلْكاً، لكنه يعطيك على ما عملته لنفعك ولنفع بني جنسك.

والحق سبحانه يقول هنا في الحديث القدسي:

«**إذا هَمَّ عبدي بحسنة... إذا هَمَّ بسيئة**».

ما معنى الهَمِّ هنا؟

إن الهمّ هو تحريك الخاطر نحو عملية ما، وهذا الخاطر يصير في مرحلة ثانية قصداً وعزماً، إذن: فالذي حدث هو مجرد همّ بفعل الحسنة أو بفعل السيئة.

فالهَمُّ هو حديث النفس، فإذا ما خرج إلى النزوع فذلك هو القصد.

ونحن نعلم أن كل شعور في الإنسان له ثلاث مراحل:

مرحلة أن يدرك، ومرحلة أن يجد في نفسه، ومرحلة أن ينزع، أي يحول الأمر إلى سلوك.

ونضرب المثل بالوردة، وأنت تسير ترى وردة في بستان، وبمجرد رؤيتك لها فهذا إدراك، فإذا أعجبتك الوردة وعشقتها وأحببتها فهذا اسمه وجدان، وإذا اتجهت لتقطفها فهذه عملية نزوعية.

فهذه ثلاث مراحل: إدراك، فوجدان، فنزوع.

---

(١) جبر الكسر: أصلحه فهو جابر. والجبار: من أسماء اللَّه الحسنى، وهو إما مشتق من الجبر بمعنى القهر، فاللَّه تعالى قهار على العصاة والمتمردين، وإما مشتق من الجبر، بمعنى إصلاح الكسر، وإصلاح الأمور، فاللَّه تعالى جابر عثرات الكرام ومصلح أمور العباد.

متى يتدخل الشرع؟

يتدخل الشرع في عملية النزوع دائماً. يقول لك: أنت نظرت إلى الوردة ولم نعترض على ذلك، أحببتها وأعجبتك فلم نقل لك شيئاً، لكن ساعة جئت لتمد يدك لتأخذها قلنا لك: لا، الوردة ليست لك.

إذن: فأنت حر في أن تدرك، وحر في أن تجد في نفسك، إنما ساعة تنزع نقول لك: لا، هي ليست لك.

إذن: فالتشريع يتدخل في منطقة النزوع، إلا في أمر المرأة، فالتشريع يتدخل من أول الإدراك؛ لأن الذي خلقنا علم أننا إن أدركنا جمالاً نظرنا له، وستولد عندنا مواجيد[١] بالنسبة للأشياء التي نراها ونشتهيها.

وساعة يوجد إدراك واشتهاء، لا يمكن أن ينفصل هذا عن النزوع؛ لأنك ـ كرجل ـ مُركَّب تركيباً كيمائياً بحيث إذا أدركت جمالاً ثم حدث لك وجدان واشتهاء، فالاشتهاء لا يهدأ إلا بنزوع، فبيَّن لك الشرع: أنا رحمتك من أول الأمر، وتدخلت من أول المسألة.

وكل شيء أتدخل فيه عند النزوع إلا المرأة، فقد تدخلت فيها من أول الإدراك؛ لذلك أمر الحق سبحانه الرجل أن يغض البصر، وكذلك أمر المرأة.

لماذا؟ لأنك إن أدركت فستجد، وإن وجدت فستحاول أن تنزع، ونزوعك سيكون عربدة في أعراض الناس، وإن لم تنزع فسيبقى عندك كبت؛ لذلك حسم الحق سبحانه المسألة من أولها، وقال:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ[٢] لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ

(١) المواجيد: المشاعر القلبية والوجدانية التي توجد في القلب.

(٢) قال الإمام ابن تيمية في تفسيره سورة النور (ص١٠٢) طبعة دار الوعي ـ حلب: «الغض من البصر وحفظ الفرج يتضمن البعد عن نجاسة الذنوب، ويتضمن الأعمال الصالحة التي يزكو بها الإنسان وهو أزكى، والزكاة تتضمن الطهارة، فإن فيها معنى ترك السيئات، ومعنى فعل الحسنات، ولهذا تفسر تارة بالطهارة، وتارة بالزيادة والنماء، ومعناها يتضمن الأمرين».

بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

وحين يأمرك الحق سبحانه بغضِّ بصرك عن محارم جارك فهو يحمي محارمك أن ينظر إليها غيرك.

فمن رحمة ربنا بخلقه أنه منع الإدراك من أوله في هذه المسألة حرصاً على سلامتنا وراحتنا، وسلامة المجتمع وطهارته، ومن هنا أمرنا بغضِّ البصر، وأمر المؤمنات بالحشمة.

والغضُّ: هو خفض البصر بعيداً عن محارم اللَّه، كما أمرنا بحفظ الفروج، وهذا أطهر للمؤمن وأفضل؛ لأن الإنسان لا يملك أن يفصل النزوع عن الوجدان، ولا الوجدان عن الإدراك، وإن كان هذا ممكناً في الأمور الأخرى فإنه غير ممكن في هذه المسألة.

فالحق سبحانه اختصر لنا الطريق، وأمرنا بغضِّ البصر من البداية حتى لا نقع في هذه المشكلة، ونمنع حدوثها، وحتى نحمي أعراض الناس ونرحم نفوس الشباب من أن تكتم وتكبت وتمرض وتتألم.

بعض المتحللين يدَّعُون أن النظرة لا تحدث شيئاً، وأن كل واحد في حاله.

ونحن نقول لهم: هذا كلام اللَّه الذي خلقنا، ويعلم دخائل نفوسنا وطبيعتنا البشرية، وهو الذي أمرنا بذلك، بأن نغض أبصارنا حتى لا نجد؛ لأننا إن وجدنا فسننزع، فإن أطعنا النزوع أفسدنا الأعراض، وإن عففنا وكتمنا أفسدنا نفوسنا كبتاً وحسرة وألماً وحقداً على من يملكها.

ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً[1] وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢].

لم يقل: لا تزنوا. ولكن أمرنا بعدم الاقتراب منه، والاقتراب يكون بالنظر وبالمخالطة والمعاشرة والحديث بحجة أن هذا ابن خالتها، وهذا

(١) الفاحشة: الفِعْلة القبيحة. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً . . . ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وجمع الفاحشة فواحش. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ . . . ﴾ [الأنعام: ١٥١]، أي: الأمور القبيحة المنكرة.

ابن عمتها، وهذا ابن عمها، وهذا تربى معها، وهذا زميلها.

وهذا كله فساد في فساد؛ لأنه طالما يحل له أن يتزوجها فلا عذر لاختلاطه بها، وعليه أن يبتعد ما دام ليس مَحْرماً لها، وكفى المجتمعات مشاكل ومتاعب.

ومعنى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ . . .﴾ [الإسراء: ٣٢].

أي: لا تأتوا إلى دوافعه من رؤية واختلاط وغيره.

فالزنا يجعل العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة استمتاع فقط، والعلاقة الأَوْلَى التي أرادها اللَّه حينما أوجد حواء لآدم هي أن تكون المرأة سكناً، وليست أداة استمتاع فقط.

والاستمتاع إنما جاء لحفظ النوع وأطلقه في النفس البشرية، لأن آثار هذا الاستمتاع تبعتها طويلة من تربية للأطفال الذين تطول طفولتهم ويحتاجون لرعاية، ولو لم يربطها بهذا الاستمتاع لزهد كثير من الناس في الأولاد.

والحق سبحانه يخبر عن الملائكة الذين يكتبون الحسنات ويكتبون السيئات فيقول تعالى:

﴿مَّا يَلْفِظُ(١) مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ(٢)﴾ [ق: ١٨].

وحين ننظر إلى البشر نجدهم يتفاوتون، ويرتفع بعض منهم على بعض في صفات وقدرات، وكلما تقدم الزمن عرف الإنسان سراً من أسرار اللَّه يترقى به.

وقديماً عندما صنعوا جهاز التسجيل كان حجمه كبيراً، ثم تقدم العلم حتى صغر حجم المسجل، إذن: كلما تقدمت الصنعة صغرت الآلة، لدرجة أنهم صنعوا مسجلاً في حجم الساعة، ثم صنعوا آخر في حجم «فص الخاتم»، وصنعوا مسجلاً يشبه الحبوب، وينثرونها في أي مكان

(١) لفظ الكلمة: قالها. ولفظ النواة: رماها. ومعنى لفظ القول أن كل كلمة يتكلمها الإنسان تُسجَّل عليه بواسطة ملك عتيد.

(٢) عتيد: حاضر مهيأ مستعد لإثبات هذا القول في كتاب الحسنات والسيئات.

عندما يريدون التقاط أسرار جماعة أو أسرار مجلس.

إذن: كلما قويتْ قدرة الصانع دقَّتْ الصنعة، فإذا نسبتها للَّه، فأين دقة الذي صنعته أنت بجانب صنعة اللَّه؟

فإذا كان واحد من البشر قد استطاع أن يأتي بمسجلات غير مرئية مع أن قدرته محدودة، وحكمته في الصنعة محدودة.

فإذا قال ربك: إن هناك ملائكة لن تراهم، وسيحصون عليك أعمالك، وهم غَيْبٌ فقُلْ: على العين والرأس.

وسبحانه القائل:

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا(١) كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠، ١١].

والحافظون والحفظة هم الملائكة الذين يحفظون ويُحْصون أعمالكم ويسجلونها، وهم الكرام الكاتبون، وكتابة الرسل من الملائكة لأعمالنا هي بالأمر من اللَّه.

(١) كرام: جمع كريم، ووصف الملائكة بأنهم كرام، وذلك في قوله تعالى: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٥، ١٦]، وفي وصف عباد الرحمٰن قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِاللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، أي: شرفاء يترفّعون عن اللغو.

خمس صلوات

١٢ ـ عن عبَادةَ بن الصَّامتِ قال: سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «أتاني جبريلُ عليه السلامُ مِنْ عِنْد اللَّه تبارك وتعالى فقال: يَا مُحمّدُ إنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يقولُ لك: إنِّي قَدْ فرضْتُ على أُمتِك خَمْسَ صَلَوَاتٍ، مَنْ وَفَّاهُنَّ على وُضوئِهنَّ ومَواقِيتهنّ وسُجُودِهنّ، فإنّ له عندك بهنَّ عَهْداً أنْ أُدخِلَه بهنَّ الجنةَ، ومَنْ لقيني قَدْ أنقصَ من ذلِكَ شيئاً فليسَ له عندك عَهْد، إنْ شِئْتُ عذَّبْتُه، وإنْ شِئتُ رَحِمتُه»[1].

الصلاة هي إدامة ولاء العبودية للحق تبارك وتعالى، فهي رزق عبودي يحررك من كل خوف، وفضلها لا حدود له، لأن فارضها هو الخالق المربي، فكيف يبخل الإنسان على نفسه أن يكون موصولاً بربه.

فالصلاة هي استحضار العبد وقفته بين يدي ربه، وحينما يقف العبد بين يدي اللَّه لا بد أن يزول كل ما في نفسه من كبرياء، ويدخل بدلاً منه الخشوع والخضوع والذلة للَّه، فالمتكبر غافل عن رؤية ربه الذي يقف أمامه.

والخشوع يجعل الإنسان يستحضر عظمة الحق سبحانه وتعالى، ويعرف ضآلة قيمته أمام الحق سبحانه وتعالى ومدى عجزه أمام خالق هذا الكون، ويعلم أن كل ما عنده يمكن أن يذهب به اللَّه تعالى في لحظة، ذلك أننا نعيش في عالم الأغيار.

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (حديث ٥٧٣) وفيه زمعة بن صالح عن الزهري. قال النسائي: «ليس بالقوي، كثير الغلط عن الزهري». وقد أخرج ابن ماجه في سننه (١٤٠١) وأحمد في مسنده (٥/ ٣١٧، ٣٢٢) وأبو داود السجستاني في سننه (٤٢٥) من حديث عبادة بن الصامت أيضاً أن رسول اللَّه ﷺ قال: «خمس صلوات افترضهن اللَّه تعالى: من أحسن وضوءهن وصلاهن لوقتهن وأتم ركوعهن وخشوعهن كان له على اللَّه عهد أن يغفر له، ومن لم يفعل فليس له على اللَّه عهد، إن شاء غفر له وإن شاء عذبه».

ولذلك فلنخضع للذي لا يتغير، لأن كل ما يحصل عليه الإنسان هو من اللَّه وليس من ذاته.

والذين يغترّون بوجود الأسباب نقول لهم: اعبدوا واخشعوا لواهب الأسباب وخالقها، لأن الأسباب لا تعمل بذاتها.

ولذلك لا بد أن نفهم أن الإنسان الذي يستعلي بالأسباب سيأتي وقت لا تعطيه الأسباب، فالإنسان إذا بلغ في عينه وأعين الناس مرتبة الكمال اغترّ بنفسه، نقول له: لا تغترّ بكمالات نفسك، فإن كانت موجودة الآن فستتغير غداً، فالخشوع لا يكون إلا للَّه.

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[1] [البقرة: ٤٥].

من هم الخاشعون؟

الخاشع هو الطائع للَّه، الممتنع عن المحرمات، الصابر على الأقدار، الذي يعلم يقيناً داخل نفسه أن الأمر للَّه وحده، وليس لأي قوة أخرى، فيخشع لمن خلقه وخلق هذا الكون له.

ولذلك يأمر اللَّه المؤمنين أن يثبتوا ويتمسكوا بالإيمان، وأن يقبلوا على التكليف.

والتكاليف التي جاء بها الإسلام منها تكليفات لا تتطلب إلا وقتاً من الزمن وقليلاً من الفعل كشهادة أن لا إله إلا اللَّه وأن محمداً رسول اللَّه، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً.

إن شهادة لا إله إلا اللَّه تقال مرة في العمر، والزكاة والصوم مرة كل عام، والحج للمستطيع مرة في العمر، ولكن هناك من العبادات ما يتكرر كل يوم ليعطي المؤمن شحنة اليقين والإيمان، ويأخذه من دنياه باللَّه أكبر خمس مرات في اليوم.

---

(١) الخشوع: السكون والخضوع والهدوء والاستكانة. قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ...﴾ [طه: ١٠٨]. أي: خفتت وهدأت كناية عن شدة الرهبة والخوف يوم القيامة، وقال تعالى: ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ...﴾ [الأحزاب: ٣٥]، أي: الخاضعين والمستكينين للَّه حباً وإيماناً من الرجال والنساء.

وهذه هي العبادة التي لا تسقط أبداً، سواء كان الإنسان سليماً أو مريضاً، فالمؤمن يستطيع أن يصلي واقفاً، وأن يصلي جالساً، وأن يصلي راقداً[١].

لذلك كانت هذه أول عبادة تذكر في قوله تعالى:

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ . . . ﴾ [البقرة: ١١٠].

أي: والتفتوا إلى نداءات ربكم للصلاة، وعندما يرتفع صوت المؤذن بقوله: «اللَّه أكبر» فهذه دعوة للإقبال على اللَّه، إقبال في ساعة معلومة، لتقفوا أمامه سبحانه وتعالى، وتكونوا في حضرته ليعطيكم اللَّه المدد.

ولذلك كان رسول اللَّه ﷺ إذا حزبه أمر صلى[٢].

ومعنى «حزبه أمر» أي: ضاقت به أسبابه، فلم يجد مخرجاً ولا طريقاً إلا أن يلجأ إلى اللَّه، إذا حدث هذا يتوضأ الإنسان ويصلي ركعتين غير الفريضة، ثم يدعو ما يشاء فيفرج اللَّه كربه.

فإقامة الصلاة هي التكليف المقرر لإعلان الولاء الإيماني للَّه كل يوم خمس مرات، نترك كل ما في الدنيا ونتجه إلى اللَّه بالصلاة، إنها عماد الدين وأساسه.

طلبها اللَّه في اليوم خمس مرات، وحتَّم الجماعة فيها في يوم الجمعة في الأسبوع، لماذا؟ حتى يرانا كل العبيد للَّه عبيداً للَّه، فلا يعبد واحد ربنا سراً، وبعد ذلك لا يرى أحد منا أحداً، فكلنا نسجد للَّه، ولا بد من إعلان الولاء للَّه، فيوم تُترك الصلاة ينعدم إعلان الولاء له سبحانه.

ومن العجيب أن الصلاة فرضها اللَّه عليك بأن تذهب له خمس مرات في اليوم، هذا بالأمر والتكليف، وإن لم تذهب تأثم، إنه ما أغلق الباب، اذهب له في أي وقت تجده في استقبالك، في أي مكان تقف وتقول: اللَّه أكبر، تكون في حضرة ربنا.

---

(١) عن عمران بن حصين رضي اللَّه عنه قال: كانت بي بواسير، فسألت النبي ﷺ عن الصلاة فقال: «صَلِّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب». أخرجه البخاري في صحيحه (١١١٧)، وأحمد في مسنده (٤/ ٤٢٦)، وابن ماجه في سننه (١٢٢٣).

(٢) عن حذيفة قال: «كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلى»، أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٣٨٨)، وأبو داود في سننه (١٣١٩).

فَمَنْ له السيادة في الدنيا حين تطلب لقاءه تقدم طلباً حتى تلقاه، ويحدد لك الميعاد، وبعد ذلك يسألك أحد رجاله: ستتكلم في ماذا؟ وقد يقف المسؤول أو السيد في الدنيا، ويُنهي المحادثة.

لكن ربنا سبحانه ليس كذلك، أنت تذهب له في أي وقت، وفي أي زمن، وتطيل كما تحب، ولن ينهي المقابلة إلا إذا أنهيتها أنت.

ولذلك يقولون:

حَسْبُ نفسي عِزّاً بأنّي عَبْدٌ ... يَحْتَفي[1] بي بِلَا مواعيدَ ربُّ
هُو في قُدْسِه الأعزِّ ولكنْ ... أنَا ألْقَى متى وأين أحِبُّ

صحيح هو يأمرني أن ألقاه خمس مرات في اليوم، لكن الباب مفتوح للقائه في أي وقت، فهبْ أن صنعة تُعرض على صانعها خمس مرات كل يوم، أيوجد فيها عطب؟

لا. وأنت تُعْرَض على خالقك وصانعك كل يوم خمس مرات.

ورسول اللَّه ﷺ يُوصِي أمته بأن يقيموا الصلوات الخمس في مواقيتها، ولذلك يقول النبي ﷺ عندما سأله عبد اللَّه بن مسعود رضي اللَّه عنه قائلاً: أي الأعمال أفضل؟ قال: «**الصلاة على وقتها**»[2].

إنك لا تضمن من عمرك أن تعيش إلى آخر الوقت، فعندما يُؤذَّن لصلاة الظهر ولم تُصلِّه، قد تقول: إن وقته ممتد، ولكن هل تضمن أنك ستعيش إلى أن ينتهي وقت الظهر؟

والحق سبحانه يقول:

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

كأن المؤمن مُطَالب بألا يُسوِّف ويؤخِّر الصلاة عن وقتها، وأن يذكر اللَّه قائماً وقاعداً وعلى جنبه، وذلك لتكون الصلاة دائماً في بؤرة شعور الإنسان.

إن المؤمن مطالب بأن يصلي الصلاة على وقتها، وصحيح أن الإنسان

---

(١) حفى به حفاوة فهو حَفيّ، أي: بالغ في إكرامه وإلطافه والعناية بأمره. (مختار الصحاح).
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٤١٨، ٤٤٢، ٤٤٤) ومسلم في صحيحه (٨٥) كتاب الإيمان من حديث ابن مسعود.

إذا عاش حتى يصلي الظهر قبيل العصر فإنها تسقط عنه، ولكن ماذا يحدث لو مات العبد وقد فات عليه وقت يسعها؟

إذن: فقد أثم العبد، ومَنْ يضمن حياته حتى يؤدي الصلاة مُؤجَّلة عن موعد أدائها؟

وقد يقول قائل: أحياناً أسمع أذان الصلاة وأكون في عمل لا أستطيع أن أتركه، فقد أكون في إجراء جراحة، أو راكباً طائرة.

ونقول: أسألك باللَّه إذا كنت في هذا العمل الذي تتخيل أنك غير قادر على تَرْكه وأردت أن تقضي حاجتك، فماذا تصنع؟

إنك تذهب لقضاء حاجتك، فلماذا استقطعت جزءاً من وقتك من أجل أن تقضي حاجتك، وقد تجد قوماً كافرين يسهلون لك سؤالك عن دورة المياه لتقضي حاجتك.

وساعة يراك هؤلاء وأنت تصلي فأنت ترى على وجههم سمة الاستبشار، لأن فيهم العبودية الفطرية للَّه، وتجد منهم من يسهل ذلك ويحضر لك ملاءة لتصلي فوقها، ويقف في ارتعاش سببه العبودية الفطرية للَّه، فلا تقل أبداً: إن الوقت لا يتسع للصلاة؛ لأن اللَّه لا يكلف أبداً عبده شيئاً ليس في سعته، والحق سبحانه كلَّف العبد بالصلاة ومعها الوقت الذي يسعها.

وللَّه المثل الأعلى، فنحن نرى رئيس العمال في موقع ما يوزع العمل على عماله بما يسع وقت كل منهم، فما بالنا بالرب الخالق؟

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ . . .﴾[1] [الطلاق: ٣].

ولذلك نجد الصلاة وهي التي يؤديها المسلم خمس مرات في اليوم على الأقل، هذه الصلاة في ظاهرها أنها تأخذ بعضاً من الوقت كل يوم، ولكنها تعطي راحة نفسية، كما أنها تعطي اقتناعاً يفوق التصور إن خشع فيها الإنسان وأدَّاها بحقها.

---

(١) احتسب الأمر: ظنَّه وقدَّره.

وكان ﷺ يقول: «**يا بلال أرحنا بالصلاة**»[١].

كما قال ﷺ: «**وجُعِلَتْ قُرَّة عيني في الصلاة**»[٢].

لأن التكليف ينتقل من المتعة إلى الراحة، ويتمتع الإنسان فيها بتجليات ربه وفيوضاته فترتاح نفسه وتهدأ.

إن عظمة الصلاة توضحها كيفية تشريعها، لأن تشريعات أركان الإسلام كانت بالوحي، أما تشريع الصلاة فقد جاء وحده بالمباشرة ولم يقل اللَّه لجبريل:

«**قل للنبي التكليف بالصلاة**» بل استدعى اللَّه النبي ﷺ إليه، وكلّفه بالصلاة.

فحين يريد الإنسان أن يقدم أمراً لمرؤوسيه ـ وللَّه المثل الأعلى ـ فالموضوع قد يأخذ دوره في الأوراق اليومية التي تنزل منه إليهم.

أما إذا كان الموضوع مهماً فهو يتصل بالقائد التنفيذي للمرؤوسين، ويوضح مدى أهمية الموضوع.

أما إذا كان الموضوع غاية في الأهمية، فالرئيس يستدعي القائد التنفيذي للمرؤوسين، ويبلغه أهمية الموضوع.

إذن: فكيفية إنزال التكليف تكون على قدر أهمية الموضوعات، فما بالنا ـ إذن ـ بركن استدعى اللَّه فيه محمداً إلى السماء لتكليفه بها؟

وقد رأينا أن بعض التكليفات تجيء إلى رسول اللَّه بالإلهام أن يفعله، وبعضها جاء بالوحي من جبريل أن يفعله.

أما الصلاة فقد فرضها اللَّه عندما استدعى محمداً إلى السماء إلى الرفيق الأعلى[٣]، وفرض اللَّه عليه الصلاة بالمباشرة.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٣٦٤)، وأبو داود في سننه (٤٩٨٥) عن رجل من أسلم، قاله أحمد واللفظ له.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ١٢٨) والنسائي في سننه (٧/ ٦١) والحاكم في مستدركه (٢/ ١٦٠) وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٣) كان هذا عندما أسري برسول اللَّه ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، قال ﷺ: «ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام، ففرض اللَّه على أمتي =

وعلى أمة محمد ﷺ أن تؤدي هذا الفرض خمس مرات في اليوم، ولا تسقط أبداً، ولذلك جعلها الحق فارقة بين المسلم والكافر.

إن المسلم ساعة أذان الصلاة يقوم إلى الصلاة، وهي استدعاء من الخالق لمن خلقه ليحضر في حضرته كل يوم خمس مرات، وأنت حر بعد ذلك ألا تبرح لقاء ربك، ولا يمل اللَّه حتى يملَّ العبد.

والحق سبحانه يقول:

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ[1]﴾ [البقرة: ٢٣٨].

معنى حافظوا ـ عندنا ـ يقتضي أن نفهم أن عندنا «حفظاً» يقابل النسيان، و«حفظاً» يقابله التضييع، والاثنان يلتقيان، فالذي حفظ شيئاً ونسيه فإنه قد ضيَّعه، والذي حفظ مالاً ثم بدّده، يكون قد ضيَّعه أيضاً.

إذن: كلها معانٍ تلتقي في فقد الشيء، فالحفظ معناه أن تضمن بقاء شيء كان عندك، فإذا ما حفظت آية في القرآن فلا بد أن تحفظها في نفسك، ولو أنعم اللَّه عليك بمال فلا بد أن تحافظ عليه.

فقول الحق سبحانه:

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ . . .﴾ [البقرة: ٢٣٨].

معناه: ألا تضيعوها. ويحتمل أيضاً معنى آخر، هو أنكم قد ذقتم حلاوة الصلاة في القرب من معية ربكم، وذلك أجدر وأَوْلَى أن تتمسكوا بها أكثر، وذلك القول يسري على الصلوات الخمس التي نعرفها.

ويريد الحق سبحانه أن نقوم لكل صلاة ونحن قانتون، وأصل القنوت في اللغة هو المداومة على الشيء، وقد حضَّ وحثَّ القرآن الكريم على ديمومة طاعة اللَّه، ولزوم الخشوع والخضوع.

= خمسين صلاة. قال: فرجعت بذلك حتى أمر بموسى فقال موسى عليه السلام: ماذا فرض ربك على أمتك؟ قلت: فرض عليهم خمسين صلاة. قال لي موسى عليه السلام: فراجع ربك». وأخذ موسى يراجع رسول اللَّه ﷺ حتى كانت خمساً في الفريضة، وهي خمسون في الأجر. حديث الإسراء أخرجه مسلم في صحيحه (١٦٣) كتاب الإيمان من حديث أبي ذر رضي اللَّه عنه.

(١) قنت في صلاته: خشع واطمأن. وقنت: دعا، وأطال الدعاء. وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦]، أي: خاضعون معترفون بألوهيته مطيعون.

والسجود هو علامة ودليل الخشوع والخضوع للحق سبحانه، وهو كما يقول الحق سبحانه عن أصحاب محمد ﷺ:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ(١) فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ . . .﴾ [الفتح: ٢٩].

وهؤلاء هم المتقون الذين قال عنهم عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه: «**الواحد منهم يزيدك النظر إليه قرباً من اللَّه**».

فأنت ساعة ترى المتقي للَّه تُسَرّ وتفرح به، ولا تعرف مصدر هذا السرور إلا حين يُقال لك: إنه ملتزم بتقوى اللَّه.

هذا السرور يلفتك إلى أن تقلده؛ لأن رؤياه تُذكِّرك بالخشوع والخضوع والسكينة ورقة السَّمْت وانبساط الأسارير.

(١) السُّومة (بالضم): العلامة. والسيمة والسيما والسيماء والسيمياء (بكسر السين فيهن): العلامة. وقوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم . . .﴾ [الفتح: ٢٩]، أي: علامة إيمانهم نور في وجوههم.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

١٣ ـ يقول الحق سبحانه في الحديث القدسي:

«مُروا بالمعْروفِ وانْهَوْا عَن المنكَرِ، من قَبْل أنْ تَدْعُونِي فَلا أُجِيبكُمْ، وتَسْألونِي فَلَا أُعطِيكم، وتَسْتنْصِرُونِي فَلَا أنْصرُكُم»[(١)].

قال عز وجل في قرآنه الكريم:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

إن الآية تأمر بأن تكون كل جماعة المسلمين أمة تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، أي أن هذه الآية تطالب كل أمة المسلمين بذلك، فلا تختص جماعة منها فقط بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمنْ يعرف حكماً من الأحكام عليه أن يأمر به.

والحق سبحانه يقول:

﴿وَٱلْعَصْرِ[(٢)] * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣].

فالسورة الكريمة توضح العقيدة ومطلوبها، وهو الإيمان والعمل الصالح، وبعد ذلك قال الحق: (وتواصوا) ولم يقل: «ووصوا».

ما معنى «تواصوا»؟

معناه: أن يعرف كل مؤمن أنه من الأغيار، وكذلك أخوه المؤمن، وقد

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ١٥٩) وابن حبان (١٨٤١ ـ موارد الظمآن) من حديث عائشة زوج النبي قالت: دخل عليَّ رسول اللَّه فعرفت في وجهه أن قد حفزه شيء فتوضأ ثم خرج فلم يكلم أحداً فدنوت من الحجرات فسمعته يقول: «يأيها الناس إن اللَّه عز وجل يقول: مروا بالمعروف» الحديث.

(٢) العصر: الدهر أو أي زمن. أو: هو وقت العصر المعروف.

يضعف أحدهما أمام معصية فيصنعها، لكن الآخر غير ضعيف أمام تلك المعصية.

لذلك يكون على غير الضعيف توصية الضعيف، وعلى الضعيف أيضاً ضرورة الانتباه حتى يتواصى مع غيره، فالإسلام لم يجعل جماعة يوصون غيرهم، وجماعة أخرى تتلقى الوصاية.

يجب أن نفهم أن كلنا موصٍ حينما نجد من يضعف أمام معصية، وكلنا مُوصىً حين يكون ضعيفاً أمام المعصية، فالتواصي يقتضي التفاعل بين جانبين، فمرة تكون مُوصياً، ومرة تكون موصىً، وكذلك التواصي بالصبر.

فالتوصية أمر متبادل بين الجميع، فساعة يوجد إنسان في لحظة ضعف أمام المنهج توجد لحظة قوة عند غيره فيوصيه.

وهكذا ترى أنه لا يوجد أناس مخصوصون ليوصوا، وآخرون مهمتهم تلقِّي التوصية، إنما الأمر متبادل بينهم، وهذا هو التكافل الإيماني، فالإنسان قد يضعف في مسألة من المسائل فيأتي أخ مؤمن يقول له: ابتعد عن هذا الضعف.

إن هذه المسألة تحدث بالتناوب لمقاومة لحظات الأغيار في النفس البشرية، لأن لحظات الأغيار لا تجعل الإنسان يثبت على حال، فإذا ما رأينا إنساناً قد ضعف أمام التزام ما فعلينا أن نتواصى بالحق ونتواصى بالصبر، وأنت أيضاً حين تضعف ستجد من أخوتك الإيمانية مَنْ يوصيك.

وهذا يتناوب الناس جميعاً، فأنت في فترة ضعفي رقيب عليَّ فتوصيني، وأنا في فترة ضعفك رقيب عليك، فأوصيك.

وهذا هو معنى قوله تعالى:

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ . . . ﴾ [التوبة: ٧١].

فالمؤمن عقيدته مبنية على الاقتناع وعلى الخير، فإن وُجِد في مؤمن شر، فوليُّه من المؤمنين يبعده عن الشر ويعيده إلى طريق الخير، ذلك لأن النفس البشرية لها أغيار متعددة، ولا يسلك كل مؤمن السلوك الملتزم تمام الالتزام بمنهج اللَّه في كل شيء، بل هناك خصلة ضعف في كل نفس بشرية.

فإن وُجِد في المؤمن ضعف فأولياؤه من المؤمنين يُبيِّنون له نقطة ضعفه ويُبصِّرونه وينصحون له، ويُرد في نقطة ضعفه، والمؤمن أيضاً ينبّه غيره ويُبصِّره.

وهكذا نجد أنه في المجتمع المؤمن، كل واحد يرد الآخر في نقطة ضعفه، وكل منهم ينصح الآخر ويعظه، ليكتمل إيمان الجميع، ومن يقصر في شيء يجد القريب منه، وهو يسد الثغرة الطارئة في سلوكه.

وقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١].

لم يبين الحق سبحانه لنا مَنْ المولَى ومَنْ الموالي، فكل مؤمن هو ولي وهو مُوالٍ، لأن الولاية مأخوذة من «يليه» أي صار قريباً، وضدها عاداه، أي بَعُدَ عنه وتركه.

إذن: فالموالاة ضدها العداوة، وفائدة القرب أن يكون الولي نصير أخيه المؤمن في الأمر الذي هو ضعيف فيه.

فإذا كنت ضعيفاً في أمر ما فأخي المؤمن ينصرني فيه، وما دام أخي المؤمن ينصرني في أمر ما، فإن صار هو ضعيفاً في شيء أنصره أنا فيه، فنتفاعل ونتكامل، ويصبح كل منا ولياً ومُوَالى.

والولاية تكون أيضاً في الحق، فقد أميل إلى الباطل في نقطة فيقول لي أخي المؤمن: اعدل. وقد يميل هو إلى الباطل فأقول له: اعدل.

وهكذا يتكامل الإيمان.

وما دام الحق سبحانه وتعالى قد قال: ﴿ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١].

ولم يُعيِّن البعض، فكل واحد صالح لأن يكون ناصراً ومنصوراً.

لذلك قال الحق سبحانه عن أمة محمد ﷺ:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

أي: أنكم يا أمة محمد أفضل أمة أُخْرِجَتْ للناس لا حسباً ولا نسباً،

ولكن اتباعاً لمنهج «افعل» و«لا تفعل»، تأمرون بالطاعات، وتنهوْن عن كل ما نهى عنه الدين، وبذلك تكونون قد طبقتم المنهج الدال على صدق إيمانكم باللَّه إيماناً صحيحاً صادقاً.

إذن: فالأمة التي تتبع منهج الإسلام، وهو منهج الاعتدال، هي الأمة المهتدية التي تسير إلى العمل الصالح الصحيح وتعمل به وتُطبِّقه، لأنه المنهج الذي ينسخ ما قبله ويصححه.

واللَّه سبحانه وضع في أمة محمد ﷺ مناعة من الحق والخير ضد الباطل والشر، فإذا فسدت المناعة في فرد يُعدِّله غيره ممن ينهَوْنَ عن المنكر ويأمرون بالمعروف.

ولذلك يصف ربنا في سورة العصر كل الناس بأنهم في خُسْر، أي: خاسرون إلا الذين آمنوا، لكن هل آمنوا وسكتوا؟

لا، وإنما قال سبحانه:

﴿وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣].

فالمناعة ليست في الذات؛ لأن الذات غفلت، ولكن المناعة في المجتمع إذا أحد اعوجَّ أو انحرف يعدله.

لكن إذا فسدت المناعة في الذات، وأصبحت النفس أمَّارة بالسوء، وفسدت المناعة في المجتمع فلم يَعُدْ هناك منْ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كما حدث في بني إسرائيل.

قال تعالى:

﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ(١) عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩].

وهذا يجعلنا في حالة انتباه وفراسة إيمانية ويقظة، وأن يلتفت كل منا

---

(١) تناهوا عن المنكر: نهى بعضهم بعضاً. وقال تعالى: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ . . .﴾ [المائدة: ٧٩]، أي: كان بنو إسرائيل لا ينهى بعضهم بعضاً عن منكر فعلوه فاستحقوا اللعنة.

إلى نفسه ويرقبها ويراقبها، وإلى أي اتجاه تسير، فلا يترك الإنسان نفسه تتجه إلى أي مكان موبوء أو فعل غير مستقيم.

وكذلك ينتبه الإنسان إلى أصدقائه وأخلائه حتى نتناهى عن أي منكر، فلا نقع أبداً في دائرة هذا الحكم، فكأننا جميعاً علينا أن نحيا في يقظة إيمانية، وأن نقول: لا. لكل بادرة ولأي حركة من حركات المنكر.

قال رسول اللَّه ﷺ:

«**مَنْ رأى منكم منكراً فلْيُغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»(١).

انظر إلى غير المتدينين، تجدهم ساكنين في بعض الأمور، ولا يتحركون عنها ولا يجاوزونها، فالواحد منهم لا يصلي ولا يزكي، ولا يقول كلمة معروف.

وهو في ذلك يحتاج إلى قوة تحرك سكونه عن طاعة اللَّه.

ونجد أيضاً من غير المتدينين من يشرب الخمر أو يزني أو يسرق أو يرتشي، وهو هنا يحتاج إلى قوة لتصدّه عن مثل هذه الحركة.

ولذلك نقول: إن الإنسان في أفعاله الاختيارية يحتاج إلى أمرين:

الأول: إن كان ساكناً عن فعل الخير نأت له بقوة تحركه إلى هذا الخير.

الثاني: وإن كان متحركاً إلى الشر نأت له بقوة توقفه عنه.

وهذا هو ما يقدمه المنهج الإيماني في «افعل» و«لا تفعل»، فمَنْ يتراخى عن الصلاة ويسكن عنها نقول له: صَلِّ، ومن يذهب للقمار ويتحرك إليه لا يمكن أن يقف إلا إذا جاءت له قوة توقفه عن ذلك وتمنعه.

إذن: فالقوة الشرعية تكون في المنهج بـ «افعل» ليحرك الساكن، و«لا تفعل» ليقف المتحرك شريطة أن يكون كل من السكون والحركة في ضوء المنهج.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤٩) الإيمان، وأحمد في مسنده (٣/ ٢٠، ٤٩، ٥٢)، والترمذي في سننه (٢١٧٢) من حديث أبي سعيد الخدري، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وقد نقل رسول اللَّه ﷺ المسألة من الأمر وهو قول، والنهي وهو قول أيضاً إلى أن نباشرها فعلاً.

فإن لم يستطع الإنسان منا تغيير المنكر بلسانه أو بيده فلينكره بقلبه، ونجد القرآن قد جاء بها أمراً ونهياً، والرسول جاء بها فعلاً.

إذن: فالتذكير مرة يكون بالأمر بالمعروف وبالنهي عن المنكر، ومرة يكون بالفعل.

أما الأمر باللسان فيعني أن الإنسان إن كان عنده حُسْن تأدّ واستعداد للعظة ومعرفة أدب النصح، فله أن يُقبل على عظة الناس.

وليس كل إنسان صالحاً لأن ينصح، لأن المنصوح يخالف المنهج، والناصح يقف أمامه حتى لا يخالف المنهج، إنه يُخرِجه عما أَلِفَ وأحب، لذلك يجب أن يتلطف الناصح في النصح.

لذلك لا بد أن نجعل النصح خفيفاً، ولا نجمع على المنصوح بين أن نخرجه عما ألف وما يكره من الأساليب.

ولذلك نقول: إن النصح ثقيل، لأنك حين تنصح إنساناً، فمعنى ذلك أنك افترضت أنك أفضل سلوكاً منه، وأنه أقل منك في ذلك.

وهذا هو أول مطبٍّ، وينظر لك المنصوح على أنك تفهم أحسن منه.

ولهذا قالوا في الأثر: النصح ثقيل، فلا ترسله جبلاً، ولا تجعله جدلاً.

وقيل أيضاً: الحقائق مُرّة، فاستعيروا لها خِفَّة البيان.

هكذا يكون التذكير، وإن لم تستطع أن تمنع بالفعل فامنع بالقول، لأن التغيير باليد يحتاج إلى سلطة المغيِّر على المغيَّر، كأن يكون أباه أو أمه، والأب والأم يقومان برعاية الابن وتلبية احتياجاته طعاماً ومشرباً ومسكناً ومصروفاً، وكل منهما هو المتولي لمصالح الابن.

أما إذا كان الناصح ليس له هذه الصلة بالمنصوح، فعليه أن يتلطف له أولاً بما يحب، فحين يطلب منك أمراً تقوم بإجابته إلى طلبه، وتنبّهه بعد ذلك إلى ما تريد أن تنصحه، إنك قد قدمت له شيئاً من المعروف فيتحمل منك النصح.

« **فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان** » .

ولكن كيف يكون التغيير بالقلب؟

أي: أن يكون تصرف الإنسان المؤمن هو المقاطعة لمن يخرج على منهج اللَّه، فإن قاطع كل المؤمنين أيَّ خارج على منهج اللَّه. فلا بد أنه سيرتدع.

على المؤمن ألا يقابل منحرفاً أو منحرفة بترحيب أو تعظيم.

فالتغيير بالقلب أن يكون التصرف السلوكي الظاهري مطابقاً لما في القلب، فيحسّ فاعل المنكر أنه مُسْتهجن من غيره.

وقد يستسهل الناس أمور الشر أولاً إذا ما صادفهم مَنْ ينافقهم بمجاملات في غير محلها، لكن لو استشعر فاعل المنكر أنه مُقَاطَع من جماعة المسلمين، وإن لم تضربه على يده فلا بد أن يرتدع.

ومن هنا كانت خيرية أمة محمد ﷺ، وقد جعل اللَّه فيها الخير إلى يوم القيامة، ففي هذه الأمة المسلم عنده مناعة ذاتية تبعده عن المعصية، وحتى لو تغلبت عليه شهوة من شهواته ووقع في المعصية تجده سرعان ما يرجع إلى اللَّه بالتوبة والندم.

والإنسان الذي تضعف عنده هذه المقاومة ويزداد فساده، لا يتركه المجتمع بل سرعان ما يأخذ على يده ويعيده إلى صوابه.

ولذلك يقول رسول اللَّه ﷺ:

« **الخير فيَّ وفي أمتي إلى يوم القيامة** »[1] .

فالخير كله في الرسول ﷺ حَصْراً، وفي أمته من بعده نثراً، هذه الأمة فيها كثير من الناس الذين أخذوا صفة أو جزءاً من صفات الرسول ﷺ.

ولكن لا يوجد إنسان يجمع صفات الكمال التي كان عليها الرسول، ولكن هذا يأخذ جزءاً من تقواه، وهذا من حلمه، وهذا من كرمه، وهذا من عفوه، وهذا من سماحته، وهذا من صبره.

* * *

(١) أورده السيوطي في الدرر المنتثرة (ص٢٢٣) وقال: قال الحافظ ابن حجر العسقلاني: « لا أعرفه »، وقال ابن حجر الهيتمي في الفتاوى الحديثية (ص١٨٤): « لم يرد بهذا اللفظ، وإنما يدل على معناه الخبر المشهور: « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ».

والحق سبحانه يضع في يدنا مفتاح الجنة، ففي يد كل واحد منا مفتاح الطريق الذي يقوده إلى الجنة أو إلى النار، فإذا وفَّيْتَ بالعهد أوفى اللَّه، وإذا ذكرت اللَّه ذكرك، وإذا نصرت اللَّه نصرك.

يقول الحق سبحانه:

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ . . . ﴾ [البقرة: ٤٠].

وفي آية أخرى:

﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وفي آية ثالثة:

﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ . . . ﴾ [محمد: ٧].

فالنصر منا للَّه بأن نطبق دينه، وهذا مراد اللَّه، وهذا يتطلب أن يعرف كل منهم المنهج، ونحن نعرف مقومات النصرة للَّه، إنه الإيمان، وما الإيمان؟

إنه اطمئنان القلب إلى قضية ما، هذا هو الإيمان في عمومه، فلو لم أكن مؤمناً بأن الطريق الذي أسير فيه موصل إلى غاية مطلوبة لي لما سِرْت فيه.

فما دُمْت آمنت بأنه «لا إلٰه إلا هو» فليكُنْ اعتمادك عليه وحده، واعلم أنك إن اعتمدت عليه وحده إلهاً، فأنت قد اعتمدت على عزيز لا يغلب على أمره.

وفي هذا يقول ﷺ:

«إذا سألتَ فاسأل اللَّه، وإذا استعنتَ فاستعِنْ باللَّه، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللَّه لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللَّه عليك، رُفِعت الأقلام وجَفَّتْ الصحف»[(١)].

فلا يستطيع أحد أن يدخل مع اللَّه في جدال، إنما يدخل خلق اللَّه مع خلق اللَّه في خلاف أو نضال، لكن لا أحد يجرؤ على الدخول في نضال مع اللَّه، لأنه عزيز لا يُغلب.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٢٩٣)، والترمذي في سننه (٢٥١٦) وقال: حسن صحيح. والحديث عن ابن عباس.

والحق سبحانه يقول:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ[1] قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢].

فهم لا يتوكلون على غيره، بل قصروا توكلهم على اللَّه سبحانه وتعالى، والتوكل: أن تؤمن بأن لك وكيلاً يقوم لك بمهام أمورك.

واعلم أن اتخاذ اللَّه كوليٍّ هو أمر ضروري، لأن الإنسان تطرأ عليه أحداث تؤكد له أنه ضعيف وله أغيار، وساعة ضعف الإنسان لا بد أن يأوي إلى مَنْ هو أشدُّ منه قوة ولا يتغير.

إن الولي ـ وهو اللَّه ـ قوته لا يمكن أن تصير ضعفاً، وغِنَاه لا يمكن أن ينقلب فقراً، وعلمه لا يمكن أن يؤول إلى جهل، إنه مُغيِّر ولا يتغير، ولذلك فمن نعمة اللَّه على خلقه أنه جعل من نفسه ولياً لهم، فهو صاحب الأغيار.

(١) وجل يوجل: فزع وخاف. قال تعالى: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ...﴾ [الحجر: ٥٣]، أي: لا تفزع ولا تخاف، وهو وجل أي خائف.

الصبر عند الصدمة الأولى

١٤ ـ يقول الحق سبحانه وتعالى في الحديث القدسي:

«ابْنَ آدم. إنْ صَبرْتَ واحْتَسبْتَ عندَ الصَّدْمةِ الأولَى لَمْ أرْضَ ثَواباً دُونَ الجنةِ»[(١)].

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً[(٢)] وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

كلمة «نبلو» أي: نختبر، فالابتلاء هو الاختبار، والابتلاء ليس مذموماً في ذاته، ولكن المذموم هو غاية الابتلاء أو نتيجته، فإن نجح فيه الإنسان وصبر فهو محمود، وإن رسب وفشل فهو مذموم.

فالبلاء هو الاختبار بأية صورة من الصور، فالطالب الذي استذكر دروسه يكون الامتحان بالنسبة له بلاءً حسناً، ومن لم يستذكر يكون الامتحان بالنسبة له بلاءً سيئاً.

إذن: فالابتلاء غير مذموم على إطلاقه، ولا ممدوح على إطلاقه، ولكن نتيجة الإنسان فيه: هل ينجح أم لا؟

والحق سبحانه ليس في حاجة إلى أن يعلم ليختبر، ولكنه يختبرنا ليكون ذلك حجة علينا، فهو يعلم ما سيحدث منا حتى قبل أن يخلقنا، ولكنه يريد أن يقيم علينا الحجة.

وكلمة «نبلوكم» المخاطب فيها كل الخلائق:

الغني والفقير، والصحيح والمريض، والحاكم والمحكوم، والذكر والأنثى، والإنس والجن.. وهكذا.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (١٥٩٧) من حديث أبي أمامة رضي اللَّه عنه، قال البوصيري في الزوائد: «إسناده صحيح ورجاله ثقات».

(٢) فتن الذهب: أذابه ليختبر معدنه ودرجة نقائه ليميز الجيد من الرديء، فالفتنة: الاختبار بالنار، واستعيرت لكل اختبار شديد أو تعذيب بقصد صرف المؤمن عن دينه.

إذن: كلنا فتنة لبعضنا البعض، فالغني والفقير مثلاً كلاهما فتنة للآخر، فالغني إذا لم يساعد الفقير ويعطف عليه سيرسب في اختبار اللَّه له بسبب هذا الفقير.

وكذلك الفقير، إذا رأى ما عند الغني من نعم اللَّه عليه فلا يجب أن يحسده أو يحقد عليه، ولكن يجب عليه أن يقول: ما شاء اللَّه كان.

والصحيح ابتلاء للمريض، فهل هذا المريض الملقى على فراشه يئنّ من الألم حينما يرى إنساناً سليماً صحيحاً، تتغير نفسه، ويسخط على قدر اللَّه الذي جعله في هذه الحالة، ويحقد على الإنسان الذي عنده صحة؟ أم أنه يصبر على ابتلاء اللَّه ويرضى بقضائه، ويدعو لنفسه بالشفاء ولغيره بعدم المرض.

وكذلك الصحيح، يكون المريض له فتنة، لأنه هل استخدم صحته في خدمة المريض والتخفيف عنه، وشعر بأن صحته نعمة عظيمة من اللَّه وشكره عليها، أم أنه لم يفعل؟

واعلم أن الخير بلاء، كما أن الشر بلاء، وحين تستخدم الخير في خدمة منهج اللَّه تعالى ولا تطغى به، وحين تصبر على الشر ولا تتمرد على قدر اللَّه، فهذا كله اختبار من اللَّه عز وجل.

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ[1] فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: ١٥].

وهذا هو الابتلاء بالخير.

ثم يقول تعالى:

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ[2] عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٦].

وهذا هو الابتلاء بالشر.

---

(١) نعَّمه: جعله في سعة من العيش وفي ترف ورفاهية. قال تعالى: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: ١٥]، افتخار بالنعم كأنه مستحق لها بذاته.

(٢) قدر اللَّه الرزق: جعله ضيقاً على قدر الحاجة لا يزيد، ومنه قوله: ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ [الفجر: ١٦]، أي: ضيَّقه وجعله على قدر الحاجات الضرورية لا يزيد عليها.

وموضع الابتلاء هنا أن هناك أناساً كثيرين عندما يعطيهم اللَّه نعمة يقولون: «ربنا أكرمنا»، وعندما يسلبهم النعمة يقولون: «ربنا أهاننا».

وكلاهما مخطئ، مخطئ مَنْ اعتبر النعمة إكراماً من اللَّه، ومخطئ أيضاً من اعتبر سلب النعمة إهانة من اللَّه.

إن النعمة لا تكون إكراماً من اللَّه، إلا إذا وفَّقك اللَّه في حسن التصرف في هذه النعمة، ولا يكون سلب النعمَة إهانة إلا إذا لم يوفقك اللَّه في أداء حق النعمة، وحق النعمة في كل حال يكون بشكر المنعم، وعدم الانشغال بها عمَّنْ رزقك إياها.

إذن: فالذي نظر إلى المال، وظن أن الغنى إكرام، ونظر إلى الفقر والتضييق وظن أنه إهانة، هذا الإنسان لا يفطن إلى الحقيقة.

والحقيقة يقولها الحق سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ [الفجر: ١٧].

أي: أن هذا الظن غير صادق، فلا المال دليل الكرامة، ولا الفقر دليل الإهانة.

فالابتلاء قد يكون في الأموال، وقد يكون في الأنفس.

فمتى يكون المال دليل كرامة؟

يكون المال دليل كرامة إن جاءك وكنت مُوفَّقاً في أن تؤدي مطلوب المال عندك للمحتاج إليه، وإنْ لم تُؤدِّ حق اللَّه فالمال مذلة لك وإهانة.

فقد أكون غنياً لا أعطي الحق، فالفقر في هذه الحالة أفضل، ولذلك قال سبحانه للاثنين ﴿كَلَّا﴾ [الفجر: ١٧].

وذلك يعني: لا إعطاء المال دليل الكرامة، ولا الفقر دليل الإهانة.

والحق سبحانه يقول في آية أخرى:

﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

فللَّه سبحانه مطلق الحرية في الاختبار، فهو سبحانه يختبر بالنعمة ليعلم واقعاً منك؛ لأنه سبحانه عالم به، من قبل أن تعمل، وسبحانه وتعالى يختبر بالنعمة ليرى، أتغرُّنا الأسباب في الدنيا عن المسبِّب الأعلى الذي وهبها.

فالواجب أن نشكر النعمة ونؤديها في مَظَانِّ الخير لها، فإن كان العبد سيؤديها بالشكر فقد نجح، وإن أداها على عكس ذلك فهو يرسب في الاختبار.

إذن: فهناك الابتلاء بالنعم، وهناك الابتلاء بالنقم، والابتلاء بالنقم ليرى الحق: هل يصبر العبد أو لا يصبر، أي: ليراه ويعلمه واقعاً حاصلاً، وإلا فقد علمه اللَّه أزلاً[1].

فمجرد الابتلاء ليس شراً، ولكن الشر هو أن تسقط في الابتلاء، والمهم أن ينجح المؤمن في كل ابتلاء يُبتلى به، حتى يواجه الحياة صلباً، ويواجه الحياة قوياً، ويعلم أن الحياة مَعْبر، ولا يشغله المعبر عن الغاية.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

والمصيبة هي الأمر الذي ينال الإنسان منه المشقة والألم، وهي مأخوذة من إصابة الهدف، والمؤمن يستقبل المصيبة واثقاً أنها على قَدْر إيلامها يكون الثواب عليها.

ولذلك عندما فرح الكفار بما يصيب المسلمين في بعض المعارك، أنزل اللَّه ذلك القول الحق للمؤمنين:

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا . . .﴾ [التوبة: ٥١].

أي: قولوا أيها المؤمنون: إنه لن يحدث لنا إلا ما كتبه اللَّه لنا.

وعندما نتأمل قول الحق سبحانه: ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا . . .﴾ [التوبة: ٥١].

أي: أن المسألة ستكون لحسابنا، وسنأخذ عليها حُسْن الثواب من اللَّه، ولم يقل الحق: كتب اللَّه علينا، لأنها لو كانت كذلك لكان معناها أنها جزاء وعقاب من اللَّه.

وأيُّ أمر يصيب الإنسان، إمَّا أن يكون له دخل فيه، وعند ذلك لا يصح

---

(١) الأزل: القدم.

أن يجزع[١] لأنه هو الذي جاء بالأمر المؤلم لنفسه، وإمَّا أن تكون مصيبة لا دخل له بها، وحدثت له من غيره مثلاً.

وعند ذلك عليه أن يبحث عن سببها: أعدلاً أم ظلماً؟

إن كانت عدلاً فهي قد جبرت الذنب، وإن كانت ظلماً فسوف يقتص اللَّه له ممن ظلمه، وعلى هذا فالمؤمن في كلتا الحالتين رابح.

إذن: فالمؤمن يستقبل كل مصيبة متوقعاً أن يأتي له منها خير، وعلى كل مؤمن أن يُقيِّم نفسه تقييماً حقيقياً: هل لي على اللَّه حق؟

أنا مملوك للَّه وليس لي حق عنده، فما يُجريه عليَّ فهو يُجريه في مُلكه هو. ومَنْ لا يعجبه ذلك فليتأبَّ على أي مصيبة، ويقول لها: «لا تصيبيني»، ولن تستطيع دَرْء أي مصيبة.

وما دُمْنا لا نستطيع أن نمنع وقوع المصائب والأحداث، فلنتقبلها ـ كمؤمنين ـ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد بنسبتنا إليه أن يُعِزَّنا ويكرمنا.

إنه يدعونا أن نقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

إننا بهذا القول ننسب ملكيتنا إلى اللَّه ونقبل ما حدث لنا، ولا بد لنا هنا أن نأتي بمثال ـ وللَّه المثل الأعلى ـ هل رأيت إنساناً يفسد مُلكه؟ أبداً.

إن صاحب الملْك يعمل كل ما يؤدي إلى الصلاح في ملكه، وإن رأى الناس في ظاهر الأمر أنه فساد، فما بالنا باللَّه سبحانه وتعالى ونحن مِلْك له، وهو سبحانه لا يُعرِّض ملكه أبداً للضرر، وإنما يقيمه على الحكمة والصلاح.

فقوله سبحانه: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

أي: نحن مملوكون للَّه، ونحن راجعون إليه، وحتى إن كان في مصائب الدنيا ظلم لنا وقع علينا من إنسان، فسوف نأخذ ثواب ما ظُلِمْنا فيه عند الرجوع إلى اللَّه.

---

(١) الجزع: ضد الصبر. وقد جزع من الشيء، وأجزعه غيره.

إذن: فنحن للَّه ابتداء بالملكية، ونحن للَّه نهاية في المرجع، وهو سبحانه ملك القوسين، الابتداء والانتهاء.

ولذلك علَّمنا رسول اللَّه عند أي مصيبة تصيب الإنسان أن يسترجع، أي أن يقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

وزادنا أيضاً أن نقول: «**اللهم أجُرني في مصيبتي، واخلُفْ لي خيراً منها**»(١).

إنك إذا ما قلتها عند أي مصيبة تصيبك فلا بد أن تجد فيما يأتي بعدها خيراً منها، وحتى إن نسي الإنسان أن يقول ذلك عند وقوع المصيبة ثم تذكرها وقالها فله جزاؤه، كأنه قالها ساعة المصيبة.

فكل ما كتبه اللَّه فهو لصالح المؤمنين به، إما أدباً وإما ثواباً، وإما ارتقاء في الحياة، ولذلك فهو خير.

ومن هنا كانت الآية الكريمة: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾.

وما كتب اللَّه للمؤمن إنما هو في صالحهم.

والمؤمن يعلم أن كل مصيبة في الدنيا إنما يجزيه اللَّه عليها حُسْن الجزاء، ويستقبل هذا المؤمن قضاء اللَّه تعالى بنفس راضية، لأن ما يصيبه قد كتبه اللَّه عليه، وسوف يوافيه بما هو خير منه.

وهناك بعض من المؤمنين قد يطلبون زيادة الابتلاء.

---

(١) عن أم سلمة قالت: قال أبو سلمة، قال رسول اللَّه ﷺ: «إذا أصاب أحدكم مصيبة فليقل: إنا للَّه وإنا إليه راجعون، عندك احتسبت مصيبتي وأجرني فيها وأبدلني ما هو خير منها. فلما احتضر أبو سلمة قال: اللهم اخلفني في أهلي بخير، فلما قبض قلت: إنا للَّه وإنا إليه راجعون، اللهم عندك أحتسب مصيبتي فأجرني فيها. قالت: وأردت أن أقول: وأبدلني خيراً منها، فقلت: ومن خير من أبي سلمة؟ فما زلت حتى قلتها، فلما انقضت عدتها خطبها أبو بكر فردَّته، ثم خطبها عمر فردَّته، فبعث إليها رسول اللَّه فقالت: مرحباً برسول اللَّه ﷺ وبرسوله، أخبر رسول اللَّه ﷺ أنِّي امرأة غَيْرى، وأني مُصْبية (أي: عندها صبيان)، وإنه ليس أحد من أوليائي شاهداً، فبعث إليها رسول اللَّه ﷺ: أما قولك: إني مصبية فإن اللَّه سيكفيك صبيانك، وأما قولك: إني غَيْرى فسأدعو اللَّه أن يذهب غيرتك، وأما الأولياء فليس أحد منهم شاهد ولا غائب إلا سيرضاني»، أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٣١٣).

إذن: فالمؤمن كل أمره خير، وإياك أن تنظر إلى من أصابته الحياة بأية مصيبة على أنه مصاب حقاً؛ لأن المصاب حقاً هو مَنْ حُرِم من الثواب.

ونحن نجد في القرآن[١] قصة العبد الصالح الذي قتل غلاماً كان أبواه مؤمنين، فخشي العبد الصالح أن يرهقهما طغياناً[٢] وكفراً، فهذا الولد كان فتنة، ولعله كان سيدفع أبويه إلى كل محرم. ويأتي لهما بالشقاء.

إذن: فالمؤمن الحق هو الذي يستحضر ثواب المصيبة لحظة وقوعها.

ومنا من قرأ قصة المؤمن الصالح الذي سار في الطريق من المدينة إلى دمشق، فأصيبت رِجْله بجرح وتلوّث هذا الجرح، وامتلأ بالصديد مما يقال عنه في اصطلاح الطب «غرغرينة».

وقرر الأطباء أن تُقطع رِجْله، وحاولوا أن يعطوه مُرقِّداً، أي: مادة تخدّره، وتغيب به عن الوعي، ليتحمل ألم بَتْر الساق، فرفض العبد الصالح وقال: إني لا أحب أن أغفل عن ربي طرفة عين.

ومثل هذا العبد يعطيه اللَّه سبحانه وتعالى طاقة على تحمُّل الألم؛ لأنه يستحضر دائماً وجوده في معية اللَّه، ومُفَاضٌ عليه من قدرة اللَّه وقوته سبحانه.

وحينما قطع الأطباء رِجْله، وأرادوا أن يُكفِّنوها وأن يدفنوها، طلب أن يراها قبل أن يفعلوا ذلك، وأمسكها ليقول: اللهم إن كنتُ قد ابتليت في عضو فإني قد عُوفِيتُ في أعضاء.

---

(١) وذلك يحكيه القرآن في قوله تعالى عن موسى عليه السلام وقصته مع العبد الصالح ـ الذي يقال إنه الخضر عليه السلام ـ: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا * ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا * قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا * فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا * أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا * وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٧٤ ـ ٨١].

(٢) الطغيان: الظلم وتجاوز الحد في العصيان، وأصله من طغيان الماء، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]، أي: زاد وتجاوز الحد فأغرق البلاد.

إذن: فصاحب المصيبة حين يستحضر الجزاء عليها إنما يحيا في متعة؛ ولذلك لا تتعجب حين يحمد أناس خالقهم على المصائب؛ لأن الحمد يكون على النعمة، والمصيبة قد تأتي للإنسان بنعمة أوسع مما أفقدته.

فكل مؤمن يعيش في منهج اللَّه سبحانه وتعالى فهو يستحضر في كل أمر مؤلم وفي كل أمر متعب، أن له جزاءً على ما ناله من التعب، ثواباً عظيماً خالداً من اللَّه سبحانه وتعالى.

فالمصائب تأتي للمؤمن لإفادته، ولكنها لا تأتي للمنافق لإفادته، فالمؤمن حين يُصاب إما أن يُكفِّر اللَّه به عنه ذنباً، وإما أن يرفعه درجة.

ورسول اللَّه ﷺ يقول: «**ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها، إلا رفعه اللَّه بها درجة، أو حَطَّ عنه بها خطيئة**»(١).

لكن المصائب حين تصيب المنافق فهي مَغْرم فقط، لأن المنافق لا يرجو الآخرة؛ ولذلك يُقال: إن المصاب ليس مَنْ أصيب فيما يحب، ولكن المصاب هو مَنْ حُرِم الثواب.

فإن استقبل المؤمن المصيبة بالرضا، وعلم أن الذي أجراها عليه حكيم، ولا يجري عليه إلا ما يعلم الخير وإن لم يعلمه، فهو ينال الثواب على الصبر والأجر على الرضا، وهكذا يخرج من دائرة الألم العنيف، أما غير المؤمن فهو يتمرد على القدر، وبعدم إيمانه يُحْرم من الثواب.

ولذلك يقول الحق سبحانه يوجه المؤمنين إلى ما يجب أن يفعلوه عندما تواجههم مصائب الدنيا وصعابها:

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا(٢) وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ(٣) ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٧٢) وأحمد في مسنده (٦/ ٤٢) والترمذي في سننه (٩٦٥) وصححه. وهو من حديث عائشة رضي اللَّه عنها.

(٢) المولى: المالك والسيد والمنْعِم المعين الناصر، والوليّ الموالي بالمحبة، ومثله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٠]، ومثله: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا...﴾ [البقرة: ٢٨٦]. أي: أنت سيدنا وناصرنا ووليُّنا.

(٣) توكل على اللَّه: استسلم إليه وفوَّض إليه أمره واعتمد عليه.

فالحديث هنا عمَّا يصيب الإنسان أو ما يحدث له، فإن حدث للإنسان شيء يأتي منه خير، يكون بالنسبة له حسنة، وإن أتى منه شر يكون من وجهة نظره سيئة.

إذن: فالإصابة هي التقاء هدف بغاية، إذا تحقق الهدف وجاء بخير فهو حسنة، وإن جاء بشرٍّ فهو سيئة.

والمصائب نوعان: مصيبة للنفس فيها غريم، ومصيبة ليس فيها غريم، فإن اعتدى عليَّ واحد بالضرب مثلاً يصبح غريمي، وتتولد في قلبي حفيظة(١) وغضب وضغينة(٢) عليه، وغيظ منه، وأرغب في أن أردَّ عليه وأثأر لنفسي منه، ولكن إن مرضت مثلاً، فمن هو غريمي في المرض؟ لا أحد.

فهذا من المصائب التي ليس للإنسان فيها غريم، فهي لا تحتاج إلى جهد كبير من النفس، وإنما تحتاج إلى صبر فقط، إذ لا حيلة للإنسان فيها.

ونجد الحق سبحانه يقول في هذا اللون من المصائب:

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ (٣) ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

ونحن نعلم بإيماننا أن كل ما يصيبنا من اللَّه هو الخير، وأن هناك أحداثاً تتم للتأديب والتهذيب والتربية، لنسير على المنهج الصحيح فلا نخرج عنه، فالإنسان لا يُربِّي إلا من يحب، أما من لا يحب فهو لا يهتم بتربيته، فما بالنا بحب الخالق لنا؟

---

(١) الحفيظة: الغضب. والمحفظات: الأمور التي تُحفظ الرجل أي تغضبه إذا وُتِر في حميمه أو في جيرانه.

(٢) الضِّغن: الحقد والعداوة والبغضاء. ضغن عليه: حقد عليه وأضمر له العداوة. والضغن: شدة الحقد، وجمعه أضغان.

(٣) العزم: عقد نية القلب على أمر أنت فاعله والاجتهاد في الأخذ بأسبابه لفعله أو إتمامه. وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، أي: من الأمور الجادّة الرشيدة التي لا يجوز التردد فيها أو من الأمور العظيمة التي يفعلها أصحاب العزم القوي. وقال تعالى في شأن آدم عليه السلام: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، أي: صبراً وإرادة قوية وقوة على تنفيذ العهد الذي عهد اللَّه به إليه، وهو عدم الأكل من الشجرة.

وفي حديث رسول اللَّه ﷺ:

«**إن اللَّه إذا أحب قوماً ابتلاهم**»[١].

والحق سبحانه يقول:

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

أي: وكفى جزاءً عن الصبر أن تكون محبوباً للَّه، فنحن قد نحب اللَّه لنعمه التي أنعمها علينا، ولكن المسألة ليست في أن تحب اللَّه أنت، وإنما في أن تصير بتطبيق منهجه فيك محبوباً للَّه.

إذن: فلو أن الناس فطنوا إلى قول اللَّه: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ لقالوا: كفى بالجزاء عن الصبر أن نكون محبوبين للَّه، حين أصابهم ما أصابهم.

صحيح أن الإصابة لم تصنع فيهم وهناً[٢] أو ضعفاً أو استكانة، وهذا معناه أن فيهم مسكة اليقين باللَّه، ومسكة[٣] اليقين باللَّه تجعلهم أهلاً لإمداد اللَّه، فليس لك إلا أن تصبر على ما أنت فيه لتعرف مدد اللَّه لك.

ومدد اللَّه لك لا يتجلى بحق إلا وقت الضعف؛ لأنك وقت قوتك قد تعمل مثل الذين قيل فيهم:

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ[٤] نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩].

---

(١) عن محمود بن لبيد أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن اللَّه عز وجل إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن صبر فله الصبر، ومن جزع فله الجزع»، أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٤٢٧ ـ ٤٢٩) وأخرجه ابن ماجه في سننه (٤٠٣١) والترمذي في سننه (٢٣٩٦) من حديث أنس بن مالك أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن اللَّه إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط».

(٢) وهن: ضَعُف. قال تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى...﴾ [مريم: ٤]، أي: ضعف كناية عن العجز وكبر السن وإظهار الشكوى من الضعف للاسترحام. وقال تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ...﴾ [لقمان: ٤]، أي: ضَعْفاً على ضَعْف، فالضعف يتزايد كلما ثقل الحمل.

(٣) رجل ذو مُسْكة ومُسك أي: رأي وعقل يرجع إليه، وفلان لا مُسْكَة له، أي لا عقل له. ويقال: ما بفلان مسكة أي ما به قوة ولا عقل. ويقال: فيه مُسْكة من خير، أي: بقية (لسان العرب ـ مادة: مسك).

(٤) خوَّله كذا: مَلّكه إيَّاه مُتفضِّلاً عليه بغير عوض، قال تعالى: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ...﴾ [الأنعام: ٩٤].

لأن الذي يعيش دون منهج يدعو اللَّه إن أصابه الضرّ، فإذا ما أنجاه اللَّه ادعى أن النجاة إنما كانت بأسباب امتلكها هو، وإذا ما أعطاه اللَّه نعمة من النعم زاد في الادعاء، وزعم أن هذه النعمة مصدرها علم من عنده، ولا ينسب ذلك إلى الموجد الحقيقي وهو اللَّه تعالى، إنه نسي أن كل نعمة هي مجرد اختبار من اللَّه.

هؤلاء الصابرون على ابتلاءات اللَّه لهم قال عنهم الحق سبحانه وتعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ[1] مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾[البقرة: ١٥٧].

كلنا نعيش برحمات اللَّه، حتى الكافر يعيش على الأرض برحمة اللَّه، ويأخذ أسباب حياته برحمة اللَّه، والنعم والخيرات التي يعيش عليها تأتيه بسبب رحمة اللَّه، والمؤمن يأخذ نعم الدنيا برحمة اللَّه، ويزيد اللَّه له بالبركة والاطمئنان.

والاطمئنان نعمة كبرى، فمن يَعِشْ في هذه الحياة وهو مطمئن إلى غاية أفضل من هذه الحياة، فهذا لون عظيم من الاطمئنان.

فالصلاة من اللَّه عطاء الرحمة والبركة

(١) الصلاة تأتي بمعنى الدعاء والرحمة والتكريم والتعظيم، ويقول العلماء: الصلاة من اللَّه رحمة وإحسان ومغفرة ونعمة وقبول. والصلاة من الملائكة: استغفار.

غفرتُ لَهُ ولَا أُبَالي

١٥ ـ يقول الحق سبحانه في الحديث القدسي:

«مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ أَنِّي ذُو قُدْرَةٍ عَلَى مَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ غَفَرْتُ لَهُ وَلَا أُبَالِي، مَا لَمْ يُشْرِكْ بِي شَيْئاً»(١).

الحق سبحانه وتعالى غفور رحيم قبل أن يُوجد مغفور له أو مرحوم، فاللَّه ليس من أهل الأغيار، والصفات ثابتة له سبحانه؛ لأن الزمن في الأحداث يتغيّر بالنسبة للأغيار فقط.

وعلى سبيل المثال: نجد الواحد من البشر صحيحاً في زمن، ومريضاً في زمن آخر.

ولذلك لا يخرج الزمن المستقبل عن الزمن الماضي إلا في أصحاب الأغيار، وكذلك لا يخرج الزمن المستقبل عن الزمن الحاضر إلا في أصحاب الأغيار.

وما دام اللَّه هو الذي يُغيِّر ولا يتغيّر فلن يغيّره زمن ما، بل كان في الأزل غفوراً رحيماً، ولا يزال أيضاً غفوراً رحيماً.

والحق سبحانه يقول في آيات كثيرة من قرآنه:

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

ليس معنى ذلك أن مغفرة اللَّه ورحمته قد مضى زمانها وانقضى وقتها، ولكن لِنقُلْ:

كان اللَّه غفوراً رحيماً، ولا يزال غفوراً رحيماً، فسبحانه وتعالى غفور ورحيم قبل أن يوجد من يغفر له ويرحمه، ومن باب أَوْلَى يكون غفوراً رحيماً بعد أن يوجد من يستحق المغفرة والرحمة.

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٤/ ٢٦٢) من حديث ابن عباس وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه». قال الذهبي: حفص بن عمر العدني واهٍ.

وسبحانه وتعالى مُنزَّه عن أن تعتريه الأحداث فيتغير، لأن الزمن مخلوق من اللَّه، فلا تَقُلْ متى أو أين؛ لأنهما به وُجِدا.

والحق سبحانه يأتي بالماضي، لأنه متحقق الوقوع، ليثبت حدوث أمر لم يحدث بعد، ذلك لأن اللَّه إذا قال عن شيء: إنه سيحدث فلا بد أن يحدث.

والحق سبحانه يقول عن ذاته العليّة:

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

أعلمنا الحق سبحانه أنه تعالى غفار، وكلمة «غفار» هذه حَمَتْ المجتمعات من شرارها؛ لأن الشرير إذا ارتكب جريمة ثم حكم بأن اللَّه لن يغفر له يتمادى في إجرامه ويفقد صوابه.

لكن حينما يفتح اللَّه له باب التوبة من الممكن أن يتوب ويرجع عن طريق الإجرام، وبذلك يرحم المجتمع من شراسة أصحاب السوء.

والحق سبحانه سمَّى نفسه «الغفار» ليدل على كثرة مغفرته، ولكن المهم أنك حين تقع في الذنوب وتتوب إلى اللَّه لا يكون في نيتك العودة إلى الذنب مرة أخرى.

إنك لا تملك أن تعيش حتى تستغفر وتتوب مرة أخرى، فقد تموت وقت ارتكاب الذنب، كما أن التائب من الذنب وهو يُصِرُّ عليه كالمستهزئ بربه.

ولننتبه إلى قول الحق سبحانه:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً[1] أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فالاستغفار ليس أن تردف[2] الذنب بقولك: أستغفر اللَّه. لا، إن على

---

(١) كل خصلة قبيحة هي فاحشة سواء كانت فعلاً أو قولاً، ورجل فاحش: ذو فحش، وهو كل ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي. قال ابن الأثير: وكثيراً ما ترد الفاحشة بمعنى الزنا. (لسان العرب ـ مادة فحش).

(٢) الرِّدف: ما تبع الشيء. وكل شيء تبع شيئاً، فهو ردفه. وإذا تتابع شيء خلف شيء فهو الترادف. وترادف الشيء: تبع بعضه بعضاً. (لسان العرب ـ مادة: ردف).

الإنسان أن يردف الذنب بقوله: أستغفر اللَّه، وأن لا يُصِرّ على فعل الذنب.

وليس معنى هذا أن لا يقع الذنب منك مرة أخرى، إن الذنب قد يقع منك، ولكن ساعة أن تستغفر تصرّ على عدم العودة.

إن الذنب قد يقع، ولكن بشرط أن لا يكون بنية مسبقة، وتقول لنفسك: سأرتكب الذنب، وأستغفر لنفسي بعد ذلك.

إنك بهذا تكون كالمستهزئ بربك، فضلاً على أنك قد تصنع الذنب ولا يمهلك اللَّه لتستغفر.

وغِفَاريته سبحانه مشروطة بالتوبة والإيمان والعمل الصالح والاهتداء إلى الحق، ولكن الذي يتوب ويؤمن ويعمل العمل الصالح، هل يحتاج إلى هداية فوق ذلك؟

نقول: إن المقصود من الهداية هنا أن يستمر على هذا الطريق، وكلما اهتدى زاده اللَّه هدىً.

قال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

أي: أن كل مَنْ يتخذ طريق الهداية يعينه اللَّه عليه، ويزيده تقوى وحباً في الدين، وهذه هي دلالة المعونة، وهي لا تحق إلا لمن آمن باللَّه واتبع منهجه، وأقبل على هداية الدلالة وعمل بها.

فالحق سبحانه يعطيهم حلاوة الهداية وهي التقوى، كأن الحق سبحانه يقول للعبد المؤمن: ما دُمْت قد أقبلت عليَّ بالإيمان فَلَك حلاوة الإيمان.

والحق سبحانه يقول:

﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩].

فصفة المغفرة وصفة الرحمة، كُلٌّ في مُطْلقها تكون للَّه وحده، وهي توبة للجاني، ورحمة للمجني عليه.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩].

يوضح لنا أنه سبحانه له طلاقة القدرة في أن يغفر وأن يرحم، فإياك أن

تقول: إن فلاناً لا يستحق المغفرة والرحمة، لأنه سبحانه مالك السماء والأرض، وهو الذي أعطى البشر ما يستحقون بالحق الذي أوجبه على نفسه، وله طلاقة القدرة في الكون.

ولذلك يقول الحق سبحانه من بعد ذلك:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ٤٠].

وهذا استفهام مُوجَّه للخلق، ليديروا الجواب على هذا، فلا يجدوا جواباً إلا أن يقولوا: «لله ملك السماوات والأرض».

وهذا أسلوب لإثبات الحجة والإقرار من العباد، لا إخباراً من الحق.

وقد يقول إنسان: إن هناك أجزاءً من الأرض مِلْكاً للبشر، ونقول: صحيح أن في الأرض أجزاء هي مِلْك للبشر، ولكن هناك فرق بين أن يملك إنسان ما لا يقدر على الاحتفاظ به، كمِلْك البيت والأرض.

والحق تعالى يقول:

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ٤٠].

والقارئ بإمعان للقرآن يجد فيه عبارات تجمع بين أمرين: أحدهما يتقدم، والآخر يتأخر. ويأتي الأمر في أحيان أخرى بالعكس، ولكن هذا القول هو الوحيد في القرآن الذي يأتي على هذا النسق، فكل ما جاء في القرآن يكون الغفران مُقدَّماً على العذاب.

فالحق سبحانه يقول في الحديث القدسي:

«**إن رحمتي سبقت غضبي**»(١).

فلماذا جاء العذاب في هذه الآية مُقدّماً على الغفران:

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٤٠].

هل السبب هو التفنن في الأساليب؟

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٣١٩٤) ومسلم في صحيحه (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لما خلق اللَّه الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي».

لا؛ لأن جمهرة الآيات تأتي بالغفران أولاً، ثم بالوعيد بالعذاب لمن يشاء سبحانه، ولننظر إلى السياق.

جاء الحديث أولاً عن السارق والسارقة، وبعد ذلك عمَّنْ تاب، فالسرقة إذن تقتضي العذاب، والتوبة تقتضي المغفرة.

إذن: فالترتيب هنا منطقي.

ويقول الحق سبحانه:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ[1] إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

هذه من أَرْجى الآيات في كتاب اللَّه؛ ولذلك فحينما سُئل رسول اللَّه ﷺ: ما موجبات الإيمان؟ أي: ما الذي يعطينا الإيمان؟

فقال ﷺ: «**من قال لا إله إلا اللَّه دخل الجنة**»[2].

وعن عثمان رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

«**مَنْ مات وهو يعلم أنه لا إله إلا اللَّه دخل الجنة**»[3].

وإن مَنْ يشرك باللَّه فهو يرتكب الخيانة العقدية العظمى، وقد أخذنا هذا المصطلح من القوانين الوضعية، وإن كانت القوانين الوضعية ليس غرضها أن تؤكد قضايا دينية، لكن غفلتهم تجعلنا نلتقط منها أنها تؤكد القضايا الدينية أيضاً.

هَبْ أن جماعة قاموا بحركة، وبعد ذلك استغل واحد منهم الحركة في نفع خاص له، وواحد آخر استغل الحركة في أن تكون له لا للآخر، أي

(١) افتراء: اختلقه. والفرية: الكذب. افترى الكذب يفتريه: اختلقه. (لسان العرب ـ مادة: فرى).

(٢) عن أبي موسى الأشعري أن رسول اللَّه ﷺ قال: «أبشروا وبشروا الناس، من قال لا إله إلا اللَّه صادقاً بها دخل الجنة، فخرجوا يبشرون الناس فلقيهم عمر فبشّروه فردّهم فقال رسول اللَّه ﷺ: مَنْ ردّكم؟ قالوا: عمر. قال: لم رددتهم يا عمر؟ قال: إذاً يتكل الناس يا رسول اللَّه». أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٤١١).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٦٥، ٦٩) ومسلم في صحيحه (٢٦) وأبو نعيم في الحلية (٧/ ١٧٤).

ينقلب عليه، فالأول القائم على النظام يسميها خيانة عظمى.

أما من لا يقاوم بغرض خلع الحاكم، ولكنه يظلم الناس، فقد يعاقبه الحاكم على ما حدث منه، وليس على الخيانة العظمى.

إذن: ففي قانون البشر أيضاً خيانة عظمى، وفيه انحراف وهو الذي لا يتعرض للسيادة، لكن أي حركة تتعرض للسيادة يكون فيها قطع رقاب، وكل أمر آخر إنما يؤخذ بدرجة من العقوبة تناسب ذنبه.

فالحق سبحانه وتعالى يوضح: أصل القضية الإيمانية أن اللَّه سبحانه وتعالى يريد منكم أن تعترفوا بأنه الإله الواحد الذي لا شريك له، وحين تعترف بأنه الإلٰه الواحد الذي لا شريك له، فأنت تدخل حصن الأمان.

ولذلك يقول رسول اللَّه ﷺ في الحديث الشريف:

«**اشهد أن لا إلٰه إلا اللَّه، وأنِّي رسول اللَّه، لا يلقى اللَّه بهما عبد غير شَاكٍّ فيهما إلا دخل الجنة**»(١).

وأبو ذر عندما قال للنبي ﷺ في محاورة بينهما حول هذه الآية، قال له: «**ما من عبد قال لا إلٰه إلا اللَّه، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة**. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: **وإن زنى وإن سرق**. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: **وإن زنى وإن سرق (ثلاثاً)**. ثم قال في الرابعة: **على رغم أنف أبي ذر**»(٢).

لقد كان أبو ذر غيوراً على حدود اللَّه، فهل ساعة قال رسول اللَّه: على رغم أنف أبي ذر. هل هذه أحزنت أبا ذر؟

لا، لم تحزنه، ولذلك عندما كان يحكيها ويقولها: من قال لا إلٰه إلا اللَّه دخل الجنة، وإن رغم أنف أبي ذر، وهو مسرور، لماذا؟

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧) عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

(٢) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٥٨٢٧) ومسلم في صحيحه (٩٤) من حديث أبي ذر رضي اللَّه عنه. ومعنى قوله: «على رغم أنف أبي ذر» مأخوذ من الرَّغام وهو التراب، أي على كراهة منه. وإنما قال له ﷺ ذلك لاستبعاده العفو عن الزاني السارق المنتهك للحرمة، واستعظامه ذلك، وتصور أبي ذر بصورة الكاره الممانع، وإن لم يكن ممانعاً، وكان ذلك من أبي ذر لشدة نفرته من معصية اللَّه تعالى وأهلها.

لأنها فتحت باب رحمة الحق؛ لأنه إذا لم يكن هذا، فما الفارق بين من اعتقدها وقالها، وبين مَنْ لم يَقُلْها؟

فلا بد أن يكون لها تمييز، وكل جريمة موجودة في الإسلام ـ والحق سبحانه قد جرَّمها ـ فهذا يعني أنها قد تحدث.

فمثال ذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا . . . ﴾ [المائدة: ٣٨].

وهذا يعني أنه من الجائز أن يسرق المؤمن، وكذلك قد يزني في غفلة من الغفلات.

والحق سبحانه يضع أسس الاستغفار، من:

الصلاة للصلاة كفارة ما بينهما، الجمعة للجمعة كفارة، الحج كفارة، الصوم كفارة.

عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال:

«**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة كفارة**[(١)] **لما بينهن، ما لم تُغْشَ الكبائر**»[(٢)].

أي: أن ربنا قد جعل أبواباً متعددة للمغفرة والرحمة، وهو سبحانه يقول:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ٤٨].

وهذه المسألة ليست لصالحه، إنما لصالحكم أنتم، حتى لا تتعدد آلهة البشر في البشر، ويرهق الإنسان، ويشقى من كثرة الخضوع لكل مَنْ كان قوياً عنه، فأعفاك اللَّه من هذا وأوضح لك: لا، اخضع لواحد فقط يكفِكَ كل الخضوع لغيره، واعمل لوجه واحد يَكْفِك كل الأوجه، وفي ذلك راحة للمؤمن[(٣)].

---

(١) سمِّيت الكفارات كفارات لأنها تُكفِّر الذنوب أي: تمحوها وتسترها مثل: كفارة الأيمان. وكفارة الظهار، والقتل الخطأ، والكفارة عبارة عن الفعلة والخصلة التي من شأنها أن تكفر الخطيئة. (لسان العرب ـ مادة: كفر).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٢٢٩، ٢٥٩) ومسلم في صحيحه (٢٣٣) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

(٣) ولذلك أعطانا اللَّه سبحانه مثلاً، فقال سبحانه: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٢٩]. =

فالمسألة في مصلحة العبد، واللَّه سبحانه لو غفر أن يُشرَك به لتعدد الشركاء في الأرض، وحين تتعدد الشركاء في الأرض يكون لكل واحد إلٰه، وإذا صار لكل واحد إلٰه تفسد المسألة، لكن الخضوع لإلٰه واحد نأتمر جميعاً بأوامره يُعزِّنا جميعاً، فلا سيادة لأحد، ولا عبودية لأحد عند أحد.

فقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ . . .﴾ [النساء: ٤٨].

هذا لمصلحتنا.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ . . .﴾ [النساء: ٤٨].

روى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: أتى وحشيٌّ، وهو قاتل سيدنا حمزة في غزوة أحد، أتى على النبي ﷺ فقال: يا محمد أتيتك مستجيراً، فأجرني حتى أسمع كلام اللَّه، فقال رسول اللَّه ﷺ:

«**قد كنت أحب أن أراك على غير جوار، فأما إذ أتيتني مستجيراً فأنت في جواري حتى تسمع كلام اللَّه**».

قال: فإني أشركت باللَّه، وقتلت النفس التي حرم اللَّه، وزنيت، هل يقبل اللَّه مني توبة؟

فصمت رسول اللَّه ﷺ حتى نزلت:

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا * يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا * إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠].

فتلاها عليه، فقال: أرى شرطاً فلعلِّي لا أعمل صالحاً، أنا في جوارك حتى أسمع كلام اللَّه. فنزلت:

= (رجلاً فيه شركاء) أي: عبداً مملوكاً لعدد من الشركاء.
(متشاكسون) أي: متشاجرون متنازعون دائماً لشراسة طباعهم.
(ورجلاً سلماً لرجل) أي: خالصاً لرجل واحد، لا ينازعه فيه أحد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

فدعا به فتلا عليه، قال: فلعلِّي ممن لا يشاء، أنا في جوارك حتى أسمع كلام اللَّه، فنزلت:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟(١) عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟(٢) مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

فقال: نعم، الآن لا أرى شرطاً، فأسلم.

إذن: فالمسألة كلها تلطُّف من الخالق بخلقه، واعتبار عمليات الغفلة عمليات طارئة على البشر، وما دام الحق يقنّن تقنينات فمن الجائز أنها تحدث، لكن إذا حدثت معصية من واحد ثم استغفر عنها، إياك أن تأتي بسيرتها عنده مرة أخرى وتُذكِّره بها.

فلو أن واحداً شهد زوراً(٣)، أو ارتكب ذنباً، ثم استغفر اللَّه منه وتاب، إياك أن تقول له: يا شاهد الزور، لأنه استغفر من يملك المغفرة، فلا تجعله مذنباً عندك؛ لأن الذي يملكها انتهت عنده المسألة.

لماذا؟ لكي لا يذل الناس بمعصية فُعِلَتْ، بل العكس، إن أصحاب المعاصي الذين أسرفوا على أنفسهم يكونون في نظر بعض الناس هَيِّنين مُحقَّرين.

ولذلك نقول: إن الواحد منهم كلما لذعته التوبة، وندم على ما فعل كُتِبت له حسنة، فعلى رغم أنه ذاق المعصية لكنه مع ذلك تاب عنها.

---

(١) أسرف: جاوز القصد والاعتدال فهو سرف، ويكون في المال وفي غيره: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، أي: معتدلاً في إنفاق المال. وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]، أي: جاوزوا القصد والاعتدال في أمور كثيرة فأكثروا الذنوب على أنفسهم. (القاموس القويم ١/ ٣١١).

(٢) قنط يقنط: انقطع أمله في الخير أو يئس منه فهو قانط. وقنوط: صيغة مبالغة، قال تعالى: ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت: ٤٩]، أي: شديد اليأس معدوم الأمان.

(٣) الزور: الباطل. قال تعالى: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]، قال ابن منظور في (اللسان ـ مادة: زور): «الزور: الكذب والباطل. وقيل: شهادة الباطل».

وهذا هو السبب في أن اللَّه يُبدِّل سيئاتهم حسنات، وعندما نعلم أن ربنا يُبدِّل سيئاتهم حسنات فليس لنا أن نحتقر المسرفين على أنفسهم، بل علينا أن نفرح بأنهم تابوا، ولا نجعل لهم أثراً رجعياً في الزلة والمعصية.

فما دام الإنسان قد استغفر من ذنبه وقال: أستغفر اللَّه الذي لا إلٰه إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه[١]. فلا يجب أن يحرجه أحد بعد ذلك، ولا أن يعايره أحد، فقد استغفر عند من يملك الملك كله، وهو وحده سبحانه الذي يملك العفو والمغفرة.

فلا يُدْخِلَنَّ أحدكم نفسه في هذه المسألة، ولا يجب أن يحرج إنسانٌ مذنباً ما دام قد استغفر مَنْ يملك العفو.

ومَنْ يسمع مستغفراً عليه أن يقول: عفا اللَّه عنك، ولا أحد يعرف إن كان اللَّه قد عفا عنه أم لا، فَلْتُعِنْه بالدعاء له.

ومن يعاير مذنباً نقول له: تأدب، لأنه لم يرتكب الذنب عندك، ولكنه ارتكبه عند ربه، وإذا كان مَنْ يستغفر من ذنبه لا يُحرج به بين الناس، فما بالنا بعفو اللَّه سبحانه القادر وحده على العفو؟

والحق سبحانه يقول في آية أخرى:

﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

فالذين أسرفوا على أنفسهم هم من عباد اللَّه الذين آمنوا ولم يشركوا بربهم أحداً، ولكنهم زَلُّوا وغووا ووقعوا في المعاصي، فهؤلاء يُقَال عنهم: إنهم مذنبون لأنهم مؤمنون باللَّه، ومعترفون بالذي أنزله.

أما المشرك فلم يعترف باللَّه، ولا بما شرع وقنَّن من أحكام، فما هو عليه لا يُسمّى ذنباً، وإنما هو كفر وشرك.

وكل معصية تكون تجاوزاً عمَّا أحلَّه اللَّه لك، وزيادة غير مشروعة، وإن كانت من نوع ما أحله اللَّه، ولكنها زيادة عن مُقَوِّمات حياتك.

فاللَّه شرع لنا الزواج لنأتي بالأولاد، وعندما نأخذ أكثر من هذا من غير

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/ ١١٨) من حديث ابن مسعود رضي اللَّه عنه، وصححه على شرط مسلم، وأقرّه الذهبي.

زواج نكون قد أسرفنا، واللَّه أعطانا مالاً بقدر حركتنا، فإن طمعنا في مال غيرنا فقد أسرفنا.

إنه سبحانه يوضح: أنا حللت لك كذا من النساء، فما الذي جعل عينيك تزوغ وتميل إلى غير ما أحله اللَّه لك؟

أنا أحللت لك كسب يدك، وإن كنت فقيراً فستأخذ صدقة، لماذا أسرفت؟

إذن: فكل أمر زائد على الحد المطلوب لبقاء الحياة اسمه «إسراف».

والحق سبحانه عندما يغفر الذنب، ويغفر الإسراف في الأمر نكون أهلاً للمدد[١]، وأهلاً لتثبيت اللَّه لنا.

ويقول الحق سبحانه:

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١٧].

قد يقول واحد: ما دام الحق قد شرع التوبة، فلأفعل ما أريد من المعاصي، وبعد ذلك أتوب. نقول له: إنك لم تلتفت إلى الحكمة في إبهام ساعة الموت، فما الذي أوحى لك أنك ستحيا إلى أن تتوب؟ فقد يأخذك الموت فجأة وأنت على المعصية.

وعليك أن تلتفت إلى دقة النص القرآني:

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ . . .﴾ [النساء: ١٧].

وفِعْل السوء بجهالة[٢]، أي بعدم استحضار العقوبة المناسبة للذنب، فلو

---

(١) المدد: ما مدَّهم به أو أمدهم، والجمع: أمداد. والإمداد: أن يرسل الرجل للرجل مدداً. فالمدد: ما أمددت به قومك في حرب أو غير ذلك من طعام أو أعوان. (لسان العرب: مادة مدد).

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٣/ ٢٥٢٠) في معنى كلمة «بجهالة»: «أي خطيئة من غير قصد. قال مجاهد: لا يعلم حلالاً من حرام، ومن جهالته ركب الأمر، فكل من عمل خطيئة فهو بها جاهل»، وقال (٤/ ١٧٥٨): «كل من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته. قال قتادة: أجمع أصحاب النبي ﷺ على أن كل معصية فهي بجهالة، عمداً كانت أو جهلاً».

استحضر الإنسان العقوبة لما فعل المعصية، بل هو يتجاهل العقوبة.

لذلك قال رسول اللَّه ﷺ:

«**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن**»(١).

فلو كان إيمانه صحيحاً، ويتذكر دائماً أن الإيمان يفرض عليه عدم الزنا، وأن عقوبة الزنا هي الجَلْد أو الرجم، لما قام بذلك الفعل.

والحق سبحانه قال:

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ . . .﴾ [النساء: ١٧].

فهناك مَنْ يفعل المعصية ويخطط لها ويفرح بها، ويزهى بما ارتكب، ويفخر بزمن المعصية، وهناك من تقع عليه المعصية، وبمجرد أن تنتهي يظل نادماً ويضرب نفسه ويعذبها، ويتساءل: لماذا فعلت ذلك؟

الأول يبحث عن أماكن اللهو والخلاعة(٢)، ويظل يفاخر بما فعل من المعاصي، أما الثاني فهو إنسان وقعت عليه المعصية ودون تخطيط، وبعد أن تهدأ شِرَّة(٣) الشهوة يغرق في الندم.

واللَّه سبحانه حين قدَّر أمر التوبة على خلقه، رحم الخلق جميعاً بتقنين هذه التوبة، وإلا لغرق العالم في شرور لا نهاية لها، والمهم في التائب أن يكون قد عمل السوء بجهالة، ثم تاب من قريب.

والرسول ﷺ حين حدَّد معنى: ﴿مِن قَرِيبٍ . . .﴾ [النساء: ١٧].

قال: «**إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**(٤)»(٥).

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٧٥)، ومسلم في صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

(٢) الخليع: المستهتر بالشرب واللهو، خُلِع من الدين والحياء، وقوم خلعاء بَيِّنو الخلاعة.

(٣) الشرة: النشاط والرغبة، وشرة الشباب: حرصه ونشاطه. (لسان العرب ـ مادة: شرر).

(٤) غرغر: جاد بنفسه عند الموت. والغرغرة: تردد الروح في الحلق، وهي لحظات الموت الأخيرة التي قال عنها رب العزة: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٨٥].

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ١٣٢، ١٥٣) وابن ماجه في سننه (٤٢٥٣) والترمذي في سننه =

فاللَّه سبحانه قد شرع قبول توبة العبد ما لم يغرغر، أي: ما لم يصل إلى مرحلة خروج الروح من الجسد، فإذا ما قدَّم العبد التوبة لحظة الغرغرة، فماذا يستفيد المجتمع؟

لن يستفيد المجتمع شيئاً من مثل هذه التوبة، لأنه تاب وقت ألا شر له؛ لذلك فعلى العبد أن يتوب قبل ذلك حتى يرحم المجتمع من شرور المعاصي.

والحق سبحانه يُذَيِّلُ الآية بقوله:

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧].

أي: عليماً بالتقنينات، فشرّع التوبة لعلمه جَلَّ شأنه بأنه لو لم يُشرّع التوبة لكان المذنب لمرة واحدة سبباً في شقاء العالم، لأنه حينئذٍ يكون يائساً من رحمة اللَّه.

إذن: فرحمةً منه سبحانه بالعالم شرَّع اللَّه التوبة، وهو حكيم فإياك أن يتبادر إلى ذهنك أن الحق قد حمى المجرم فحسب حين شرع له التوبة.

إنه سبحانه قد حمى غير المجرم أيضاً؛ لذلك بيَّن الحق سبحانه أن مَنْ وقع في بعض غفلات النفس عليه أن يستغفر اللَّه؛ لأن اللَّه سبحانه وتعالى لا يبخل برحمته على أحد من خلقه.

وإن طلب العبد المذنب مغفرة اللَّه، فسبحانه قد شرع التوبة، وهي الرجوع عن المعصية إلى طاعة اللَّه تعالى.

ولا يقع عبد في معصية إلا لأنه تأبَّى على منهج ربه، فإذا ما تاب واستغفر، فهو يعود إلى منهج اللَّه سبحانه، ويعمل على ألَّا يقع في ذنب جديد.

والحق سبحانه يقول:

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣].

= (٣٥٣٧) من حديث ابن عمر رضي اللَّه عنه وقال: «هذا حديث حسن غريب».

هكذا يُبيِّن الحق سبحانه أن على العبد أن يستغفر من ذنوبه السابقة التي وقع فيها، وأن يتوب من الآن، وأن يرجع إلى منهج اللَّه تعالى، لينال الفضل من الحق سبحانه.

المطلوب ـ إذن ـ من العبد أن يستغفر اللَّه تعالى، وأن يتوب إليه، هذا هو مطلوب اللَّه من العاصي؛ لأن «دَرْء[١] المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة».

وحين يُعجِّل العبد بالتوبة إلى اللَّه تعالى فهو يعلم أن ذنباً قد وقع وتحقق منه وعليه ألَّا يؤجل التوبة إلى زمن قادم، لأنه لا يعلم إن كان سيبقى حياً أم لا.

وساعة تطلب المغفرة من اللَّه تعالى، فهذا إعلان منك بالإيمان، واعتراف بأن تكليف الحق لك هو تكليف حق.

وما دام الإنسان قد طلب من اللَّه تعالى أن يغفر له الذي مضى من الذنوب، فعليه ألَّا يرتكب ذنوباً جديدة، وبعد التوبة على العبد أن يحرص على تجنُّب المعاصي.

فإن استغفر الإنسان، فالحق سبحانه قريب من كل عبد يستغفر من ذنوب لا تمثل حقوقاً للناس، واللَّه سبحانه يجيب لطالب المغفرة.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿... فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

ويقول رب العزّة في الحديث القدسي:

«**يابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي.**

يابن آدم، لو بلغت ذنوبك عَنَان[٢] السماء، ثم استغفرتني غفرتُ لك ولا أبالي.

---

(١) الدرء: الدفع. درأه: دفعه وكل مَنْ دفعته عنك فقد درأته. وفي الحديث: «ادرءوا الحدود بالشبهات»، أي: ادفعوا. (لسان العرب ـ مادة: درأ) بتصرف.

(٢) عَنَّ الشيء: ظهر أمامك، وعَنَّ: اعترض وعرض. والعَانُّ من السحاب: الذي يعترض في الأفق. والعنان: السحاب. وقيل: عنان السماء، ما عَنَّ لك منها إذا نظرت إليها، أي ما بدا لك منها.

يابن آدم، إنك لو أتيتني بقراب[١] الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقُرابها مغفرة»[٢].

(١) قِرَاب الشيء وقرابه: ما قارب قدره. وفي الحديث: «إن لقيتني بقراب الأرض خطيئة»، أي: بما يقارب ملأها (لسان العرب ـ مادة: قرب).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٣٥٤٠) وقال: «حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، وقد أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ١٥٤) من حديث أبي ذر.

اليوم أنساك كما نسيتني

١٦ ـ عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري قالا:

قال رسول اللَّه ﷺ:

«يُؤتَى بالعبدِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فيقول اللَّه له:

أَلَمْ أجعل لكَ سَمْعاً وبَصَراً ووَلَداً؟

وسخَّرْتُ لك الأنعامَ والحَرثَ؟

وتركتُكَ ترأسُ وتَرْبَعُ؟

فكنتَ تظنُّ أَنَّكَ مُلَاقيَّ يَوْمَكَ هَذَا؟

فَيقُول: لَا. فيقُول لَهُ سُبْحانَهُ:

اليوْمَ أَنسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي»(١).

يقول الحق سبحانه:

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨].

لا يحسب واحد من البشر أنه سيُفلت من اللَّه، فليس هناك مكان تستطيعون أن تختفوا فيه عن علم اللَّه تبارك وتعالى، فهو يعرف أماكنكم

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٤٢٨) وقال: «هذا حديث صحيح غريب»، وقد أخرج مسلم في صحيحه (٢٩٦٨) من حديث أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «فيلقى العبد فيقول: أي فُلْ، ألم أكرمك، وأسوّدك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى. قال: فيقول: أفظننت أنك ملاقيَّ؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني. ثم يلقى الثاني فيقول: أي فُلْ ألم أكرمك وأسوّدك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: أي رب. فيقول: أفظننت أنك ملاقيَّ؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني. ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك. فيقول: يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصُمْت وتصدقت ويثني بخير ما استطاع. فيقول: ها هنا إذن ثم يُقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك. ويتفكر في نفسه: من ذا الذي يشهد عليَّ؟ فيُختم على فيه. ويُقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي. فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليُعذر من نفسه. وذلك المنافق، وذلك الذي يسخط اللَّه عليه».

جميعاً واحداً واحداً، وسيأتي بكم جميعاً، مصداقاً لقوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ(١) ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً(٢) وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

أي: أن الحق جَلَّ جلاله يريدنا أن نعرف يقيناً أننا لا نستطيع أن نفر من علمه، ولا من قدره، ولا من عذابه.. وأن الطريق الوحيد المفتوح أمامنا هو أن نفر إلى اللَّه، وأنه لا منجاة من اللَّه إلا إليه.

ولذلك لا يظن كافر أو عاص أنه سيفلت من اللَّه، ولا يظن أنه لن يكون موجوداً يوم القيامة، أو أنه لن يُحَاسب، أو أنه يستطيع أن يختفي.

إن غرور الدنيا قد يركب بعض الناس، فيظنون أنهم في مَنَعَةٍ(٣) من اللَّه، وأنهم لن يلاقوه.

نقول لهم: إنكم ستفاجأون في الآخرة حين تعرفون أن: الحساب حق، والجنة حق، والنار حق. ستُفَاجأون بما سيحدث لكم، ومَنْ لم يؤمن ولم يسارع إلى الخير سيلقى الخزي(٤) والعذاب الأليم.

إن اللَّه ينصحنا أن نؤمن، وأن نسارع في الخيرات؛ لننجو من عذابه، ويقول لنا: لن يفلت واحد منكم، ولا ذرّة من ذرّات جسده من الوقوف بين يدي اللَّه للحساب.

---

(١) يوم نُسيِّر الجبال: أي تذهب من أماكنها وتزول وذلك يوم القيامة. سار: ذهب ومضى مختاراً أو مرغماً أو سيراً اضطرارياً لا إرادة فيه. فقوله: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ [القصص: ٢٩]. مضى بهم مختاراً. وقوله: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ١٠]، أي: تمضي خاضعة لأمر اللَّه سيراً اضطرارياً لا إرادة فيه ولا اختيار. (بتصرف من تفسير ابن كثير ٣/ ٨٧ والقاموس القويم).

(٢) أي: بادية ظاهرة ليس فيها معلم لأحد، ولا مكان يواري أحداً، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية. قال مجاهد وقتادة: لا حجر فيها ولا غيابة. قال قتادة: ولا بناء ولا شجر. نقله ابن كثير في تفسيره (٣/ ٨٧).

(٣) المنعة: الحماية والقوة. ومنه قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢]، أي: ظنوا أن حصونهم حامية وواقية من الهزيمة.

(٤) خزى خزْياً: هان وافتضح وخجل واستحيا. قال تعالى: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤]، أي: نهون ونفتضح.

ولذلك قال سبحانه في ختام هذه الآية:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة: ١٤٨].

أي: أن اللَّه سبحانه وتعالى لا يُعجزه شيء، ولا يخرج عن طاعته شيء، إنه سبحانه على كل شيء قدير.

وذلك مصداق لقول الحق سبحانه:

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا * لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ(١) وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا * وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا(٢)﴾ [مريم: ٩٥].

ويقول الحق سبحانه:

﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ(٣) وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

فقول الحق: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ . . .﴾.

أي: أن كلاً منكم يأتي إلى اللَّه فرداً عما كان له في دنياه من مال أو ولد أو أتباع، بدليل قوله تعالى:

﴿وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ . . .﴾.

وخوَّله: أي جعل له خَدَماً من الأتباع ومن المريدين، ومن المقدَّر والمضيَّق عليهم في الرزق، ومن العائشين في نعمته.

جاء كل منهم منفرداً عَمَّا له في الدنيا، كما خلقكم اللَّه أول مرة، أي: كما دخلتم في الدنيا.

وقول الحق سبحانه: ﴿جِئۡتُمُونَا . . .﴾.

---

(١) الإحصاء: العَدّ والحفظ. وأحصى الشيء: أحاط به. ومن أسماء اللَّه تعالى: المحصي، هو الذي أحصى كل شيء بعلمه فلا يفوته دقيق منها ولا جليل. (لسان العرب ـ مادة: حصى).

(٢) الفرد: ما كان وحده. وجاؤوا فرادى، أي: واحداً بعد واحد. وقوله تعالى: ﴿وَيَأۡتِينَا فَرۡدًا﴾ [مريم: ٨٠]، أي: لا أحد معه من الأبناء أو الأعوان. ومثله: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ . . .﴾ [الأنعام: ٩٤]، أي: ليس معكم مال ولا أهل ولا صديق (بتصرف من القاموس القويم).

(٣) خوَّله اللَّه نعمة: ملَّكه إياها. وخوَّله المال: أعطاه إياه (لسان العرب ـ مادة: خ و ل).

أي: كأن الإنسان الذي أذنب يكاد يقدم نفسه للعذاب، معترفاً أنه يستحق هذا العذاب، إقراراً منه بالذنب، فكأن الإنسان يبلغ منه الحزن على ما فعله، والتوبيخ لنفسه التي انصرفتْ عن الحق فيقول لنفسه: أنت تستحقين العذاب.

فالذي يرجو لقاء اللَّه يُعِدُّ نفسه لهذا اللقاء، ليستقبل ثواب اللَّه، لكن الذي لم يفعل أشياء تؤهله لثواب اللَّه، بل إنه عمل أشياء تؤهله لعقاب اللَّه، فكيف له أن يرجو لقاء اللَّه، إنه لا يرجو ذلك ولا يطلبه ولا يريده.

فالذي يرجو لقاء اللَّه هو الذي يُعِدّ نفسه لهذا اللقاء، بأن يتقي اللَّه في أوامره، ويتقي اللَّه في نواهيه، ولذلك تمر على الإنسان أحداث شتى.

وهي في مقاييس اليقين بين أمرين اثنين: حسنات وسيئات. وكل واحد يعلم أية حسنات قد فعل، وأية سيئات قد اقترف، ولا يغش أحد نفسه، فإذا ما كان حيّاً فقد يجعله الأمل يُكذِّب نفسه، ولا يرى إلا ما فات من المغريات.

أما إذا جاءته لحظة الغرغرة[١] في الموت، فهو يستعرض كل صفحته، فإن كانت حسنة استبشر وجهه، وإن كانت سيئة اكفهرّ[٢] وجهه، ولذلك يُقال: «**فلان كانت خاتمته سيئة، وفلان كانت خاتمته متهللة**».

وهذا كلام صحيح، لأن الروح ساعة أن تُقبض فهي تترك الجسم على ما هو عليه ساعة فراقها، فإنْ كان ضاحكاً ومُستبشراً، فقد رأى بعضاً مما ينتظره من خير.

والإنسان وقت الغرغرة لا يكذب على نفسه، فهو ساعة يمرض بمرض فهو يأمل في العافية، فإذا انتهى وقت انتهاء الحياة تُعرضُ عليه أعماله عَرْضاً

---

(١) عن عبد اللَّه بن عمر رضي اللَّه عنهما أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن اللَّه يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»، أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ١٣٢) والترمذي في سننه (٣٥٣٧) وقال: حسن غريب. والغرغرة هي تردد الروح في الحلق.

(٢) اكفهر: عبس وتجهَّم وجهه، ورأى الناس في وجهه انقباضاً لا أثر فيه من بشر ولا فرح (لسان العرب).

سريعاً، فإن كانت الأعمال حسنة تنفرج أساريره، لأنه يستشرف[١] ما سوف يلقاه من جزاء.

كذلك الذين يرجون لقاء اللَّه، عملوا استعداداً لهذا اللقاء، وينتظرون الجزاء من اللَّه.

أما مَنْ لم يعملوا فهم يخافون من لقاء اللَّه ولا يرجونه، وسبب ذلك أنهم لم يعملوا للآخرة ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ [يونس: ٧].

وكأنهم قد اكتفوا بها ولم يرغبوا في الآخرة.

وقد سَمَّى اللَّه هذه الدار اسماً كان يجب بمجرد أن نسمعه ننصرف عنها، فقال: ﴿بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا . . .﴾ [يونس: ٧].

ولا يوجد اسم أقل من ذلك، والمقابل للحياة الدنيا هي الحياة العليا[٢].

ولكن الإنسان تأخذه الغفلة، فيغفل عن الدار الآخرة ويرضى بالحياة الدنيا[٣] ويطمئن قلبه بها، ويضعف في قلبه إيمانه بلقاء اللَّه يوم القيامة.

ولكنه يصحو من غفلته وسَكْرته[٤] على حقيقة واقعة، وهي أن وعد اللَّه حق، وأن الجنة حق، وأن النار حق.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٥].

---

(١) التشرف والاستشراف للشيء: التطلع والنظر إليه وحديث النفس وتوقعه. وأصل الاستشراف: أن تضع يدك على حاجبك وتنظر، وأصله من الشرف العلو كأنه ينظر إليه من موضع مرتفع، فيكون أكثر لإدراكه. (لسان العرب ـ مادة: شرف).

(٢) قال رسول اللَّه ﷺ: «واللَّه ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع؟»، أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٥٨)، وأحمد في مسنده (٤/ ٢٢٩، ٢٣٠)، والترمذي في سننه (٣٣٢٣) من حديث المستورد بن شداد، قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٣) سُمِّيت الدنيا لدنوها ولأنها دَنَتْ وتأخرت الآخرة، وكذلك السماء الدنيا هي القُرْبَى إلينا بالنسبة للسماوات الأخرى. (بتصرف من لسان العرب ـ مادة: دنو).

(٤) السَّكْرة: الغفلة وذهاب العقل بسبب الانغماس في الشهوات كالخمر والنساء وجمع المال من حلال ومن حرام والسعي إلى الجاه والسلطان. وهناك سكرة الموت: شدته وغلبته. وكذلك سكرة الهم والنوم ونحوهما (لسان العرب ـ مادة: سكر).

فالحق سبحانه إذا قال ووعد، فلا رادَّ لما وعد به سبحانه، لأنه مُنزَّه عن أن يُخلف الميعاد، لأن عناصر كل الأحداث تخضع لمشيئته سبحانه، ولا تتأبَّى عليه، ووَعْده حق وثابت، فهو حين يعد يصير وعده مُحتَّم النفاذ، ولكن الكافرين ينكرون ذلك.

إن الدين كله بكل طاعاته، وكل منهجه قائم على أن هناك حساباً في الآخرة، وأن هناك يوماً نقف فيه جميعاً أمام اللَّه سبحانه وتعالى، ليحاسب المخطئ ويثيب الطائع، هذا هو الحكم في كل تصرفاتنا الإيمانية.

وبما أننا جميعاً سنلقى اللَّه، فلا بد أن نعمل لهذا اليوم، ولذلك فإن المؤمن لا يفعل شيئاً في حياته إلا وفي باله اللَّه، وأنه سيحاسبه يوم القيامة، ولكن غير المؤمن يفعل ما يفعل وليس في باله اللَّه.

وعن هؤلاء يقول الحق سبحانه:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ (١) بِقِيعَةٖ (٢) يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

وهكذا مَنْ يفعل شيئاً وليس في باله اللَّه، فسيُفاجأ يوم القيامة بأن اللَّه تبارك وتعالى الذي لم يكن في باله موجود، وأنه جَلَّ جلاله هو الذي سيحاسبه.

فصاحب الالتزام بالمنهج يطمئن إلى لقاء ربه، ويطمئن إلى جزائه، والذي لا يؤمن بالآخرة أخذ من اللَّه الحياة فأفناها فيما لا ينفع، ثم بعد ذلك لا يجد شيئاً إلا الحساب والنار.

فالكافرون مَثَلَهُم مَثَلُ الظمآن الذي يسير في صحراء، ويُخيَّل له أن أمامه ماء، ويمشي ويمشي فلا يجد ماء، أما غير الظمآن فلا يهمه إن كان هناك ماء

(١) السراب: ما يرى في نصف النهار من اشتداد الحر كالماء في الصحراء يلتصق بالأرض، وهو من خداع البصر، وقد سُمِّي السراب سراباً لأنه يسرب سروباً أي يجري جرياً. أي: يتحرك حركة تخدع الرائي من بعيد، فيظنه ماء وهو ليس بماء، بل خداع ضوئي وبصري ناتج عن الحالة النفسية للشخص عند شدة عطشه ووجوده في صحراء قاحلة، فأي حركة من بعيد يظنها ماء، ويجري إليها، ليفاجأ بعدم وجود شيء.

(٢) القيعة: أرض واسعة مستوية لا تنبت الشجر. قال الفراء: القيعة جمع قاع. والقاع: ما انبسط من الأرض. قال تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفۡصَفٗا﴾ [طه: ١٠٦].

أو لا يوجد ماء، فالظمآن ساعة يرى السراب يُمنِّي نفسه بأن المياه قادمة، وأنه سيحصل عليها.

﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا . . .﴾ [النور: ٣٩].

وليس المهم أنه لم يجده شيئاً، بل يُفَاجأ:

﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ . . .﴾ [النور: ٣٩].

إنه يُفَاجأ بأن الإلٰه الذي كان لا يصدق بأنه موجود يجده أمامه يوم القيامة، فيُوفِّيه حسابه، ويجزيه على عمله القبيح.

إذن: فإن عَمِل الإنسان عملاً فلينتظر الأجر ممن عمل له، وإن عمل الإنسان عملاً وليس في باله اللَّه فعليه ألا يتوقع الأجر منه، وعلى الرغم من ذلك يعطي اللَّه لهؤلاء الأجر في قانون نواميس[(١)] الحياة الكونية، لأن مَنْ يحسن عملاً يأخذ جزاءه عنه.

يقول الحق سبحانه:

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ[(٢)] أَعْمَـٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٧].

فالخير الذي يعمله غير المؤمن لا يُجزى عليه في الآخرة، لأنه عمل وليس في باله اللَّه، فكيف ينتظر ممن لم يؤمن به؟

إن اللَّه سبحانه يجزي مَنْ آمن به وعمل من أجله، ولكن مَنْ كفر باللَّه حبط كل عمله، وهذا أمر طبيعي لأنك ما دُمْتَ قد عملت الخير وليس في بالك اللَّه، فلا تنتظر جزاءً منه.

إن عملتَ للإنسانية أعطتْك الإنسانية، وإن عملتَ للمجتمع أعطاك المجتمع، وصنعوا لك التماثيل، وأطلقوا اسمك على الميادين والشوارع، وأقيمت باسمك المؤسسات، وتحقق لك الخلود في الدنيا، وهذا هو جزاؤك.

---

(١) جاء في لسان العرب أن الناموس «هو: وعاء العلم. والناموس: السر». فنواميس الكون هي أسراره المودعة فيه.

(٢) حبطت: فسدت. قال الجوهري: بطل ثوابه وأحبطه اللَّه. وقال ابن الأثير: هو من قولهم: حبطت الدابة حَبطاً، إذا أصابت مرعى طيباً فأفرطت في الأكل حتى تنتفخ فتموت. (انظر: لسان العرب ـ مادة: حبط).

ولكن إن كنت مؤمناً باللَّه، راجياً ثوابه تجيء يوم القيامة لتجدَ يدَ اللَّه ممدودة لك بالخير الذي قدَّمته.

أما الذين لا يرجون لقاء اللَّه فهم يقولون:

﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[1] . . . ﴾ [الجاثية: ٢٤].

ويقولون:

﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٢].

وإذا كان الإنسان لا يؤمن بالبعث، فهو لا يؤمن بلقاء اللَّه سبحانه، لأن الذي يؤمن بالبعث يؤمن بلقاء اللَّه، ويُعدّ نفسه لهذا اللقاء بالعبادة والعمل الصالح، ولكن الكافرين الذين لا يؤمنون بالبعث سيُفاجأون بالإله الذي أنكروه، وسوف تكون المفاجأة صعبة عليهم.

إنه يُفاجأ بوجود اللَّه سبحانه الذي لم يكن في باله، فهو واحد من الذين لا يرجون لقاء اللَّه، وهو ممن جاء فيهم القول:

﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا[2] فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ [السجدة: ١٠].

---

(١) الدهر: الأمد الممدود. وقيل: الدهر: ألف سنة. والدهر: الزمان الطويل ومدة الحياة الدنيا. والهلاك: الموت والفناء. وقد روى أبو هريرة عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «يقول اللَّه تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسبّ الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب ليله ونهاره»، وفي رواية: «لا تسبوا الدهر فإن اللَّه تعالى هو الدهر». قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٥١): «قال الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإن اللَّه هو الدهر»: كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا: يا خيبة الدهر، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبُّونه، وإنما فاعلها هو اللَّه تعالى، فكأنهم إنما سَبُّوا اللَّه عز وجل لأنه فاعل ذلك في الحقيقة. فلهذا نهي عن سب الدهر بهذا الاعتبار، لأن اللَّه تعالى هو الدهر الذي يعنونه، ويسندون إليه تلك الأفعال، هذا أحسن ما قيل في تفسيره، وهو المراد واللَّه أعلم، وقد غلط ابن حزم ومَنْ نحا نحوه من الظاهرية في عدِّهم الدهر من الأسماء الحسنى أخذاً من هذا الحديث»اهـ.

(٢) ضللنا في الأرض: خفينا وغِبْنا. وضلَّ الماء في اللبن إذا غاب. فالضلال في الأرض: الذهاب فيها، أي: إذا مِتْنَا وصِرْنا تراباً وعظاماً فضللنا في الأرض، فلم يتبين شيء من خلقنا. (من لسان العرب ـ بتصرف).

وعلينا أن نعرف أن «الضلال» يأتي على معانٍ متعددة، فقد يأتي الضلال مرة بمعنى الذهاب والفناء في الشيء.

وهنا يتساءل المشركون: أبعد أن نذوب في الأرض، وتتفكّك عناصرنا الأولية نعود ثانية، ونبعث من جديد؟

وقد يأتي الضلال مرة أخرى بمعنى عدم اهتداء الإنسان إلى وجه الحق، كما قال الحق وصفاً لرسوله ﷺ عندما رفض عبادة الأصنام، وظل يبحث عن المنهج الحق:

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧].

والذين لا يرجون لقاء اللَّه، ولا يؤمنون بالبعث، ولا بثواب أو عقاب، لا يلتفتون إلى الكون الذي يعيشون فيه، لأن النظر في الكون وتأمُّل أحواله يُوجب عليهم أن يؤمنوا بأنها دورة من الممكن أن تعود.

وسبحانه القائل:

﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ . . .﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وعند الإعادة، وفي يوم البعث يُفاجأ بمن كان ينكر البعث ونسي اللَّه، يقف بين يدي اللَّه، يُذكِّره ربُّه بما أنعم به عليه من السمع والبصر والولد.

ولذلك يقول ربُّ العزّة هنا في الحديث القدسي:

«**ألم أجعل لك سمعاً وبصراً وولداً**».

والسمع والبصر هما السيدان لملَكات[1] الإدراك، لأن إدراك المعلومات له وسائل متعددة:

إن أردت أن تدرك رائحة فبأنفك.

وإنْ أردتَ أن تدرك نعومةً فبلمْسِك وببشرتك.

وإنْ أردتَ أن تدرك مَذَاقَ شيء فبلسانك.

وإنْ أردتَ أن تتكلم فبأجهزة الكلام وعُمدتها اللسان.

وإنْ أردتَ أن تسمع فبأذنك.

---

(١) الملكات: جمع ملكة، وهي المِلْك، أي ما يملكه الإنسان من حواس، ويُقال: فلان حسن الملكة إذا كان حسن الصنع إلى مماليكه. (راجع لسان العرب ـ مادة: ملك).

وكذلك تتجلّى لك المرائي بعينيك، ثم تأتي إدراكات متعددة من الحواس، لتُكوِّن أشياء نسميها الخميرة، توجد منها القضية العقلية الأخيرة.

فالطفل أمام النار يجد منظرها جميلاً جذاباً، لكن ما إنْ يلمسها حتى تلسعه فلا يقرب منها أبداً من بعد ذلك، لأنه اختبرها بحواسه، فارتكزت لديه القضية العقلية وهي أن هذه نار مُحرقة، واستقرّ هذا لديْه يقيناً.

وحينما أراد الحق سبحانه أن يقُصَّ علينا مراحل الإدراك في النفس الإنسانية، ليربي الإنسان معلوماته قال سبحانه:

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ[1] لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

لذلك يقال: «كما ولدته أمه» أي: لم يُعْطَ القدرة على استخدام حواسِّه بعد، ثم يجعل له الحق سبحانه الحواسَّ، ويجعله قادراً على استخدامها.

ولم يذكر بقية الحواس، بل جاء بالسيدين، وهما السمع والبصر، لأن آيات الكون تحتاج إلى الرؤية، وإبلاغ الرسل يحتاج للسماع، وهما أهم آلتين في البلاغ، فأنت ترى بالعين آيات الكون ومعجزات الرسل، وتسمع بالأذن البلاغ بمنهج اللَّه سبحانه وتعالى من الرسل.

وقد لفتنا الإمام علي بن أبي طالب[2] رضي اللَّه عنه إلى العجائب فقال:

«اعجبوا لهذا الإنسان، ينظر بشحم، ويتكلم بلحم، ويسمع بعظم، ويتنفس من خَرْم»[3].

---

(١) الأفئدة: جمع فؤاد، وهو القلب، سُمِّي بهذا لتوقُّده. والتفود: التوقد، وقيل: الفؤاد غشاء القلب. والمفؤود الذي أصيب فؤاده بوجع. ورجل مفؤود: جبان ضعيف القلب. (لسان العرب مادة: فأد).

(٢) علي بن أبي طالب: وهو أمير المؤمنين، رابع الخلفاء الراشدين، وابن عم النبي ﷺ وزوج ابنته فاطمة، ولد بمكة (٢٣ ق.هـ)، من أكابر الخطباء والعلماء بالقضاء، توفي عام (٤٠هـ) عن ٦٣ سنة.

(٣) أورده الشريف الرضي في كتابه «نهج البلاغة» (٤/ ٤).

فالصوت يطرق عظمة الأذن، ويرنّ عن طبلتها، ونرى بشحمة[١] العين، وننطق بلحمة اللسان.

وأضاف بعض العارفين: «**ونشمُّ بغضروف**[٢]، **ونلمس بجلد، ونفكر بعجين**».

فالإنسان يُولد وكأن مُخَّه قطعة من العجين التي تعمل في استقبال المعلومات من الكون وتخزينها فيه، وهي التي ستكون ركيزة لتشكيل الفؤاد من بعد ذلك.

ونلحظ هنا مَلْحظاً يجب الانتباه إليه، يدلنا على الفارق بين «الخَلْق» و«الجَعْل»، و«المِلْك».

فالحق سبحانه يقول هنا: «ألم أجعل لك سمعاً وبصراً»، وذلك مثلما قال في قرآنه:

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩].

ويقول سبحانه في آية أخرى:

﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ . . .﴾ [يونس: ٣١].

فالخلق قد عرفنا أمره، ومِلْكية كل شيء للَّه تعالى أمر مُلْزِمٌ في العقيدة ومعروف، أما «الجعل» فهو توجيه ما خلق إلى مهمته.

فأنت تجعل الطين إبريقاً[٣]، والقماش جلباباً، هذا على المستوى البشري، أما الحق سبحانه وتعالى فقد خلق المادة أولاً، ثم جعل من المادة سمعاً وبصراً. فالخالق هو اللَّه تعالى، ومَنْ جعل هو اللَّه تعالى، ومَنْ مَلَك هو اللَّه تعالى.

---

(١) شحمة العين: مُقلتها، وقيل: حدقتها أو ما تحت الحدقة. أما شحمة الأذن فهو ما لان من أسفلها، وهو ما يُعلَّق فيه القُرْط.

(٢) الغضروف، والغرضوف بمعنى واحد، وهو كل عَظْم ليِّن رخص في أي موضع كان، وغرضوف الأنف: ما صَلُب من مارنه فكان أشد من اللحم وألين من العظم. (لسان العرب).

(٣) الإبريق: إناء، وجمعه أباريق، فارسي معرب، وقال كراع: هو الكوز، ومنه قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨]، (راجع اللسان مادة: برق)، وقال في القاموس القويم (١/ ٣): «إبريق: إناء له خرطوم، وقد تكون له عروة».

وهو سبحانه يُنبِّهنا إلى ذلك، فالأشياء النافعة لابن آدم يخلقها اللَّه سبحانه، ويجعلها، ثم يُملِّكها له.

أما ذات الإنسان وأبعاضه من سمع وبصر وغيرهما، وإن كانت قد خُلقت في الإنسان، وجُعلت له للانتفاع بها، ولكنها ستظل مِلْكاً للَّه، يبقيها على حالها، أو يخطفها أو يصيبها بآفة، أو يُعطِّلها.

إذن: فهي خُلقت للَّه، وجُعلت من اللَّه، وتظل مملوكة للَّه، ويُصيِّرها كيف يشاء، فدقّاتُ القلب والحب والكراهية والأمور اللاإرادية التي تعمل لصالح الإنسان هي مملكة اللَّه.

فتدبير الأمر بيد اللَّه، ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَمَن يُدَبِّرُ(١) ٱلْأَمْرَ ۚ . . .﴾ [يونس: ٣١].

والتدبير هو عملية الإدارة لأي شيء، حتى يؤدي مهمته، وباللَّه، مَنْ يُدير قلبك؟ ومن يدير حركة أمعائك؟ لتستخلص من الطعام ما يفيدك، ثم تخرج ما لا يفيدك.

إياك أن تقول: إنني أنا الذي أدير ذلك.

وتقول: كنت طفلاً في مرحلة الطفولة، فهل كنت تدير حركة قلبك أو أمعائك؟ ومَنْ الذي يدير حركة رئتيك؟

إن الذي يديرها هو خالقها، لذلك اطمئنوا على حركة أجهزتكم التي لا دَخْل لكم فيها، لأن الذي خلقها فيكم قيُّوم(٢) لا تأخذه سِنَة(٣)

(١) دبَّر الأمر: نظر في عواقبه وأدباره ليقع على ما يرى فيه الخير له، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ . . .﴾ [يونس: ٣]، أي: يقضيه ويقدره وينفذه على حسب حكمته وإرادته، وقوله: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، هم الملائكة يدبرون أمور الخلق بإذن اللَّه وبمقتضى حكمته وإرادته (القاموس القويم ١/ ٢٢١).

(٢) القيوم والقيام في صفة اللَّه تعالى وأسمائه الحسنى: القائم بتدبير أمر خلقه في إنشائهم ورزقهم وعلمه بأمكنتهم، قال مجاهد: القيوم القائم على كل شيء. وقال قتادة: القيوم القائم على خلقه بآجالهم وأعمالهم وأرزاقهم. (لسان العرب ـ مادة: قوم).

(٣) قال تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أي: لا يأخذه نعاس ولا نوم، وتأويله أنه سبحانه لا يغفل عن تدبير أمر الخلق تعالى وتقدس. والسنة: نعاس من غير نوم. والسنة: نعاس يبدأ في الرأس، فإذا صار إلى القلب فهو نوم. (لسان العرب ـ مادة: وسن).

ولا نوم، ولا يؤوده[١] حفظ ذلك.

إذن: أما كان يجب أن نُرْهِف الآذان، ونُعْمِل الأبصار، لنرى قدرة اللَّه سبحانه الذي وهب لنا كل تلك النعم من رزق وسمع وبصر وإحياء وإماتة وإحياء من ميت، وتدبير الأمر كله؟

وما دام اللَّه تعالى هو الذي خلق ورزق ودبَّر الأمر، فكيف تتركون عبادته وتتجهون لعبادة غيره؟

فما دام الحق سبحانه قد جعل السمع والأبصار والأفئدة مصادر تأتي منها ثمرة، هي المعلومات وتمحيصها، فالحق سبحانه يستحق الشكر عليها.

والشكر لا يكون إلا على النعمة، فكأن وسائل الإدراك هذه مما تسمعه بأذنك، أو تراه ببصرك، أو تدركه بفؤادك، هي من نعم اللَّه التي يجب أن نشكره عليها، لأنها أعطتْنَا العلم الحسي بعد أن كنا لا نعلم شيئاً.

ومن العجيب أن الحق سبحانه رتَّب الحواس حسب ترتيب أداء وظيفتها، لأن الإنسان منا إذا كان له وليد، ثم جاء أحد بعد ميلاده، ووضع أصبعه أمام عينه فإنه لا يطرف[٢]، لأن عينه لم تُؤَدِّ بَعْد مهمة الرؤية، وعيون الوليد لا تؤدي مهمة الرؤية إلا بعد مدة من ثلاثة أيام إلى عشرة، ولكنك إذا جئت في أذنه وصرخت انفعل.

إن هذا دليل على أن أذنه أدَّتْ مهمتها من فَوْر ولادته، بينما عينه لا تؤدي مهمة الرؤية إلا بعد مدة، فأولاً يأتي السمع، ثم يأتي البصر، ومن السمع والبصر تتكون المعلومات، فتنشأ عند الإنسان معلومات عقلية.

وهناك شيء آخر، وهو أن السمع كما أنه يؤدي أول مهمة، فهو الإدراك الوحيد في النفس الإنسانية الذي يصاحب الإنسان في كل أطواره، لكن العين

---

(١) آده الأمر أوْداً وأوُوداً: بلغ منه المجهود والمشقة. وفي التنزيل العزيز: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥]، قال أهل التفسير وأهل اللغة معاً: معناه ولا يكرثه ولا يثقله ولا يشق عليه من آده يؤوده أوْداً. (لسان العرب ـ مادة: أود).

(٢) طرف بصره يطرف طرْفاً إذا أطبق أحد جفنيه على الآخر. والطرف: إصابتك عيناً بثوب أو غيره. يُقال: طُرِفَتْ عينه وأصابتها طرفة، وطرفها الحزن بالبكاء. (لسان العرب ـ مادة: طرف).

إذا نام الإنسان تنام معه وتغمض جفونه، ولا يرى، بعكس الأذن التي لا تغفل أبداً.

وذلك لأن الأذن بها الاستدعاء، وما دام بها الاستدعاء لا بد أن تظل جاهزة لمهمتها.

ومن إعجاز البيان في القرآن أنه حينما ذكر قصة أهل الكهف، الذين كانوا في كهف في الصحراء، والصحراء فيها أصواتُ وحوش وعواصف ورياح ورَعْد وبرق[١].

فلو أن سمعهم بقي معهم مثل غيرهم من الخلق لفزعوا في نومهم، ولكن الحق سبحانه ضرب[٢] على آذانهم طوال هذه المدة التي مكثوها في الكهف، حتى لا يشعروا بما حولهم من أصوات مزعجة.

قال تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: ١١].

لأنهم ناموا أكثر من ثلاثمائة سنة، بينما الواحد منا لو زاد في ساعات نومه، فإن أقلَّ صوت يوقظه، لأن الجسم يكون قد أخذ حاجته من النوم، ولم يَعُدْ الإنسان مستغرقاً في نوم عميق، فأقل صوت يُوقِظه، فما بالك بمن ينام ثلاثمائة سنة.

لذلك كله ضرب الحق سبحانه على آذانهم في الكهف طوال هذه السنين حتى لا يسمعوا.

---

(١) الرعد: هو صوت يُحدثه احتراق أجزاء من الهواء بسبب انفجار كهربائي بين السحب المحملة بالتيارات الكهربية، منها السالب ومنها الموجب، فيتخلل الهواء ويصطفق بعضه ببعض فجأة، وبمقدار قوة الاحتراق يكون امتداد البرق واشتداد الرعد، والرعد والبرق متلازمان يحدثان في لحظة واحدة، ولكننا نرى البرق أولاً بسرعة الضوء ثم نسمع الرعد بسرعة الصوت، فيتأخر الرعد بمقدار الفرق بين السرعتين وتساعد الرياح التي تحرك مياه السحب على توليد التيارات الكهربية التي تحدث البرق والرعد. قال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ . . .﴾ [الرعد: ١٣] لأنه دليل على قدرته ومبشر بنعمته فهو يُسبح بلسان الحال. (قاله الأستاذ إبراهيم أحمد عبد الفتاح في القاموس القويم ١/ ٢٦٨).

(٢) قال تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: ١١]، قال الزجاج: منعناهم السمع أن يسمعوا، والمعنى: أنمناهم ومنعناهم أن يسمعوا لأن النائم إذا سمع انتبه. أي أنه حُجِب الصوت والحس أن يلجا آذانهم فينتهبوا، فكأنه قد ضُرِب عليها حجاب. (لسان العرب ـ مادة: ضرب).

هو سبحانه واهب الولد

« ألم أجعل لك سمعاً وبصراً وولداً » .

فاللَّه سبحانه هو الوهَّاب، مالك السماوات والأرض، خالق ما يشاء.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا (١) إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

الأصل في الذرية أنها تأتي من اجتماع الذكر والأنثى، هذا هو القانون، ولكن القوانين لا تعمل إلا بأمر اللَّه، لذلك يتزوج الرجل والمرأة ولا تأتي الذرية لأنه ليس القانون هو الذي يخلق، ولكنها إرادة خالق القانون: إنْ شاء جعله يعمل، وإنْ شاء يُبطل عمله.

اللَّه سبحانه وتعالى لا تحكمه القوانين، ولكنه هو الذي يحكمها.

وكما أن اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ قادر على أن يجعل القوانين تفعل أو لا تفعل، فهو قادر على أن يخرق القوانين.

خذ مثلاً قصة زكريا عليه السلام فقد كان زكريا يكفل (٢) مريم ويأتيها بكل ما تحتاج إليه، ودخل عليها ليجد عندها ما لم يُحضره لها (٣).

---

(١) العُقْم: اليُبْس، عقمت المرأة: لم تلد. فهي عقيم. قال تعالى: ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ [الذاريات: ٢٩]، وعقيم يوصف به المذكر والمؤنث. قال تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا . . . ﴾ [الشورى: ٥٠]، أي: لا يلد. وعلى المجاز وُصِفَتْ الريح التي لا خير فيها، بل هي تهلك وتدمر ـ بأنها عقيم. قال تعالى: ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴾ [الذاريات: ٤١]: (القاموس القويم ٢/ ٣١).

(٢) كفله يكفله كفلاً، وكفالة: آواه ورعاه وربَّاه. قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران: ٤٤]، أي: يرعاها ويربيها. والكفيل: الكافل والضامن، قال تعالى: ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ [النحل: ٩١]، أي: ضامناً ورقيباً وكافلاً يضمن ما تعهدتم به وما حلفتم عليه. (القاموس القويم ٢/ ١٦٧).

(٣) قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو الشعثاء وإبراهيم النخعي والضحاك وقتادة والربيع بن أنس وعطية العوفي والسدي: يعني وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، قاله ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٦٠) ثم قال: « وفيه دلالة على كرامات الأولياء، وفي السنة لهذا نظائر كثيرة ».

وسألها، وهي القديسة[١] العابدة الملازمة لمحرابها[٢].

﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾ [آل عمران: ٣٧].

فمباذا ردَّتْ مريم عليها السلام؟

﴿قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [آل عمران: ٣٧].

إذن: فطلاقة قدرة اللَّه لا يحكمها قانون.

لقد لفتت مريم زكريا عليهما السلام إلى طلاقة القدرة، فدعا زكريا ربه في قضية لا تنفع فيها إلا طلاقة القدرة، فهو رجل عجوز وامرأته عجوز وعاقر، ويريد ولداً.

هذه قضية ضد قوانين الكون، لأن الإنجاب لا يتم إلا وقت الشباب، فإذا كَبِر الرجل وكَبِرتْ المرأة لا ينجبان، فما بالك إذا كانت الزوجة أساساً عاقراً. لم تنجب، وهي شابة وزوجها شاب، فكيف تنجب وهي عجوز وزوجها عجوز؟

هذه مسألة ضد القوانين التي تحكم البشر، ولكن اللَّه وحده القادر على أن يأتي بالقانون وضده؛ ولذلك شاء أن يرزق زكريا بالولد... وكان، ورُزِق زكريا بابنه يحيىٰ.

فالحق ـ سبحانه ـ هو الذي يحكم السبب، وهو ـ سبحانه ـ الذي يخلق الأسباب، ومتى قال: «كن» كان، بصرف النظر عن المادية المألوفة في الكون.

وفي قضية الخلق أراد اللَّه ـ جلَّ جلاله ـ للعقول أن تفهم أن مشيئته هي السبب، وهي الفاعلة.

---

(١) التقديس: التطهير والتبريك، وتقدَّس أي تطهَّر. فالقديسة: التي تطهرت من الإثم ومن الدنس. وقد وصفها اللَّه ـ عز وجل ـ في قرآنه بأنها صِدِّيقة، وذلك في قوله تعالى: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۖ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ...﴾ [المائدة: ٧٥]، والصديقة: صفة مبالغة، أي: أنها كثيرة الصدق عظيمة التصديق.

(٢) المحراب: صدر البيت، وأكرم موضع فيه، والجمع: المحاريب، وهو أيضاً الغرفة. وسُمِّي المحراب محراباً لانفراد الإمام فيه، وبُعْده من الناس. (لسان العرب مادة: حرب) بتصرف.

فالحق ـ سبحانه ـ جعل الذكورة والأنوثة هما السبب في الإنجاب، ولكنه جعل طلاقة القدرة مهيمنة[١] على الأسباب، فيأتي رجل وامرأة يتزوجان، ولكنهما لا ينجبان، فكأن الأسباب نفسها عاجزة عن أن تفعل شيئاً إلا بإرادة المسبِّب ـ سبحانه.

إنه الحق الأعلى القادر على أن يخلق دون ذكورة أو أنوثة، كخَلْقه لآدم عليه السلام، ويخلق الحق ـ سبحانه ـ بواحد منهما، كخَلْقه ـ سبحانه ـ لحواء، وخلق عيسى عليه السلام ويخلق الخالق الأعلى بالذكورة والأنوثة، وهذه تنضم في خَلْق جمهرة الناس.

وقد تجتمع الذكورة والأنوثة، ولا يوجد إنجاب.

هذه هي إرادة الحق، فلا تَقُلْ: إن اكتمال عنصري الذكورة والأنوثة هو الذي يحدث الخلق؛ لأن الخلْق يحدث بإرادة الحق.

إننا كثيراً ما نجد رجلاً يتزوج امرأة ولا تلد، ويُشاع عنها أنها عقيم، ويذهب الاثنان إلى معامل التحاليل، ويقال أحياناً: المرأة هي السبب في عدم النسل، أو: الرجل هو السبب في عدم النسل.

ويفترق الاثنان، ويتزوج كل منهما بآخر، فتلد المرأة من الزوج الجديد، ويُولد للرجل من الزوجة الجديدة؛ لأن المسألة كلها مرادات اللَّه، وليست أمور الحياة مجرد اكتمال أسباب تُفرض على اللَّه، بل هو المسبِّب دائماً.

فهو ـ سبحانه ـ القائل:

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

كم صورة إذن عندنا لمثل هذا الموقف؟

ـ يهب لمن يشاء إناثاً.

ـ ويهب لمن يشاء الذكور.

---

(١) المهيمن على الشيء: الرقيب عليه. هيمن عليه هيمنة: كان رقيباً عليه، حافظاً له مسيطراً عليه. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣]، أي: الرقيب المسيطر، والقرآن مهيمن على الكتب السابقة: أي رقيب عليها وحافظ لما فيها من الحق ومسيطر عليها يبيّن ما فيها من الحق وما أدخله الناس عليها من الباطل.

ـ أو يُزوِّجهم ذكراناً وإناثاً.

ـ ويجعل من يشاء عقيماً.

هي أربعة مقادير تجري على الرجل والمرأة، وعندما يَهَبُ اللَّهُ المؤمن الإناث يكون سعيداً، وكذلك عندما يهبه الذكور.

وعندما يهَبُ اللَّه لأسرة أبناء من الذكور فقط، فالزوجة تحِنُّ أن يكون لها ابنة، وإن وهب الحق ـ سبحانه ـ لأسرة ذرية من الإناث فقط، فالمرأة والرجل يتمنيان الابن.

وإن أعطاهما اللَّه الذكور والإناث نجدهما قد وصلا إلى الحالة التي تَقَرُّ[1] بها العيون عادة، وهي الحالة التي يكون العطاء فيها في القمة.

وأخيراً يأتي بالقَدَر الرابع الذي يُجريه على بعض خَلْقه، وهو:

﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ . . . ﴾ [الشورى: ٥٠].

لماذا يُسَرُّ الإنسان بقدر اللَّه حينما يهبه اللَّه الإناث أو الذكور، ويزداد السرور بقدر اللَّه حينما يهبه ـ سبحانه ـ الذكور والإناث؟

ولماذا لا تُسَرُّ إذن ـ أيها الإنسان ـ بقدر اللَّه حينما يجعلك عقيماً؟!

أتعتقد أنك تأخذ القدَر الذي تهواه، وترد القدر الذي ليس على هواك؟

إن المواقف الأربعة هي من قدر اللَّه.

والحق ـ سبحانه ـ يعطينا مثالاً من قصة زكريا عليه السلام على رغبة الإنسان في أن يكون له ولد.

لقد أخبرته مريم عليها السلام أن الرزق الذي عندها هو من عند اللَّه، الذي يرزق من يشاء بغير حساب، إنه الإلٰه القادر على أن يقول: كُنْ. فيكون.

هنا ذكر زكريا نفسه، وكأن نفسه قد حدثته:

---

(١) قرَّت عينها: رأت ما كانت متشوقة إليه فقرَّتْ ونامت. وقيل: أقرَّ اللَّه عينك، أي: بلَّغك أمنيتك حتى ترضى نفسك، وتسكن عينك، فلا تستشرف إلى غيره. (لسان العرب ـ مادة قرر)، ومنه قوله ـ تعالى ـ عن أم موسى ـ عليه السلام: ﴿ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ ﴾ [طه: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا . . . ﴾ [القصص: ٩].

إذا كانت للقدرة طلاقة في أن تفعل بلا أسباب، وتعطي من غير حساب، فأنا أريد ولداً يخلفني، رغم أنني على كبر، ورغم بلوغي من السن عتياً[١]، وامرأتي عاقر.

إن مسألة الرزق الذي وجده زكريا كلما دخل على مريم هي التي نبَّهتْ زكريا إلى ما يتمنى ويرغب.

ونحن نعلم أن المعلومات التي تمر على خاطر النفس البشرية كثيرة، ولكن لا يستقر في بؤرة الشعور إلا الذي يصرّ عليه الإنسان.

وهناك فرْق بين معلومات توجد في بؤرة الشعور، ومعلومات في حاشية الشعور، يتم استدعاؤها عند اللزوم.

فلما وجد زكريا الرزق[٢] المنوَّع عند مريم وقالت له عن مصدره[٣]:

---

(١) وذلك في قول زكريا عليه السلام بعد أن أتته البشرى بغلام اسمه يحيىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨]، ومعنى عتا: أي أسنَّ وكبر وذهبت نضارته وغضارته.

(٢) أورد السيوطي في الدر المنثور (٣/ ١٨٦) عن مجاهد أن هذا الرزق كان عنباً في غير زمانه. وفي رواية كان فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف. وفي رواية عن ابن عباس أنها كانت الفاكهة الغضة حين لا توجد الفاكهة عند أحد.

(٣) عن جابر بن عبد اللَّه رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ أقام أياماً لم يُطعم طعاماً حتى شق ذلك عليه، فطاف في منازل أزواجه، فلم يجد عند واحدة منهن شيئاً، فأتى فاطمة فقال: يا بنية، هل عندك شيء آكله فإني جائع؟. فقالت: لا واللَّه. فلما خرج من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم، فأخذته منها فوضعته في جفنة لها وقالت: واللَّه لأوثرن بهذا رسول اللَّه ﷺ على نفسي ومن عندي، وكانوا جميعاً محتاجين إلى شبعة طعام، فبعثت حسناً أو حسيناً إلى رسول اللَّه ﷺ فرجع إليها فقالت له: بأبي أنت وأمي، قد أتى اللَّه بشيء قد خبأته لك. فقال ﷺ: «هلمي يا بنية بالجفنة». فكشفت عن الجفنة فإذا هي مملوءة خبزاً ولحماً، فلما نظرت إليها بهتت وعرفت أنها بركة من اللَّه. فحمدت اللَّه ـ تعالى ـ وقدمته إلى النبي ﷺ، فلما رآه حمد اللَّه وقال: من أين لك هذا يا بنية؟ قالت: يا أبت هو من عند اللَّه، إن اللَّه يرزق من يشاء بغير حساب، فحمد اللَّه ثم قال: الحمد للَّه الذي جعلك شبيهة سيدة نساء بني إسرائيل، فإنها كانت إذا رزقها اللَّه رزقاً فسُئلت عنه: ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]، أورده ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٦٠)، والسيوطي في الدر المنثور (٣/ ١٨٦) وعزواه لأبي يعلى الموصلي عن جابر، وفيه ابن لهيعة.

﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

هنا[١] تساءل زكريا: كيف فَاتَني هذا الأمر؟

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى عن زكريا:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً[٢] طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

إنها ساعة أن قالت له: إن الرزق من عند اللَّه، وأنه الحق الذي يرزق من يشاء بغير حساب، هنا أيقظت فيه القضية الإيمانية فجاءت أمنيته إلى بؤرة الشعور، فقال زكريا لنفسه: فلنطلب من ربنا أن يرزقنا ما نرجوه لأنفسنا[٣].

وما دام قد قال هذا القول فلا بُدَّ أنه قد صدَّق مريم في قضيتها، بأن هذا الرزق الذي يأتيها هو من عند اللَّه.

ودليل آخر في التصديق، هو أنه لا بد، قد رأى أن الألوان المتعددة من الرزق التي توجد عند مريم، ليست في بيئتها، أو ليست في أوانها، وكل ذلك في المحراب.

هنا دعا زكريا ربه أثناء وجوده في المحراب:

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً[٤] إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

---

(١) أخرج ابن جرير الطبري عن ابن عباس قال: لما رأى زكريا فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف عند مريم قال: إن الذي يأتي بهذا مريم في غير زمانه قادر أن يرزقني ولداً، فذلك حين دعا ربه. أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٨٧).

(٢) ذَرَّ الخلق في الأرض: نشرهم، وذرية الرجل: ولده. والجمع الذراري والذريات. فالذرية: اسم يجمع نسل الإنسان من ذكر أو أنثى. (لسان العرب ـ مادة: ذرر).

(٣) أخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر عن الحسن قال: لما وجد زكريا عند مريم ثمر الشتاء في الصيف وثمر الصيف في الشتاء يأتيها به جبريل قال لها: أنى لك هذا في غير حينه؟ فقالت: هذا رزق من عند اللَّه يأتي به اللَّه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]، فطمع زكريا في الولد فقال: إن الذي أتى مريم بهذه الفاكهة في غير حينها لقادر أن يصلح لي زوجتي، ويهب لي منها ولداً، فعند ذلك ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ . . .﴾ [آل عمران: ٣٨]، وذلك لثلاث ليالٍ بقين من المحرم. قام زكريا فاغتسل ثم ابتهل في الدعاء إلى اللَّه قال: يا رازق مريم ثمار الصيف في الشتاء، وثمار الشتاء في الصيف، هب لي من لدنك ـ يعني من عندك ـ ذرية طيبة يعني تقياً. (أورده السيوطي في الدر المنثور ٣/ ١٨٧).

(٤) الطيب: خلاف الخبيث. أرض طيبة للتي تصلح للنبات، وريح طيبة إذا كانت لينة، ليست =

إنه هنا يطلب الولد، ولكن لا بُدَّ لنا أن نلاحظ ما يلي:

ـ هل كان طلبه للولد كما يطلبه الناس العاديون من أن يكون زينة للحياة الدنيا، أو «عزوة»[١]، أو ذِكْراً؟

لا، إنه يطلب الذرية الطيبة، وذِكْر زكريا الذرية الطيبة تفيد معرفته أن هنالك ذرية غير طيبة.

وأورد الحق ـ سبحانه ـ قول زكريا:

﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ[٢] ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ[٣] ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ[٤] مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٤ ـ ٦].

= بشديدة، وطُعْمة طيبة: إذا كانت حلالاً، وامرأة طيبة: إذا كانت حَصَاناً عفيفة، وكلمة طيبة: إذا لم يكن فيها مكروه، وبلدة طيبة: أي آمنة كثيرة الخير، ونكهة طيبة: إذا لم يكن فيها نتن، ونفس طيبة بما قُدِّر لها: أي راضية، وطعام طيب للذي يستلذ الآكل طعمه. (لسان العرب مادة طيب).

(١) العزوة: الانتماء إلى قوم أو عشيرة. والعزوة: اسم لدعوى المستغيث، وهو أن يقول: يا لفلان، أو يا للأنصار، أو يا للمهاجرين. (لسان العرب ـ مادة عزو).

(٢) الوهن: الضعف في العمل والأمر، قال تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: ٤]، أي: ضعف، كناية عن العجز وكبر السن، وإظهار الشكوى من الضعف للاسترحام.

(٣) اشتعل الرأس شيباً: أي كَثُر شيب رأسه، ودخل في قوله الرأس شعر الرأس واللحية، لأنه كله من الرأس (لسان العرب ـ مادة شعل). وشعل النار: أشعلها وألهبها. واشتعلت النار: انتشر لهبها. قال تعالى: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤]، استعارة مكنية، والمعنى: انتشر فيه الشيب كالنار في الحطب. (القاموس القويم ١/ ٣٥٠).

(٤) الموالي: ورثة الرجل وبنو عمه. قال أبو الهيثم: المولى على ستة أوجه:
ـ المولى: ابن العم والعم والأخ والابن والعصبات كلهم.
ـ المولى: الناصر.
ـ المولى: الولي الذي يلي عليك أمرك.
ـ الولي: مولى الموالاة، وهو الذي يُسلم على يدك ويواليك.
ـ المولى: مولى النعمة، وهو المعتق أنعم على عبده بعتقه.
ـ المولى: المعْتِق لأنه ينزل منزلة ابن العم يجب عليك أن تنصره وترثه إن مات ولا وارث له.
(لسان العرب ـ مادة: ولي).

أي: أن يكون دعاء لإرث النبوة، وإرث المنهج، وإرث القيم، لهذا طلب زكريا الولد، لقد طلبه لمهام كبيرة.

لقد طلب زكريا عليه السلام وليًّا يرثه، والأنبياء لا تُورث منهم أموال[١]، إنما يُورِّثون العلم والحكمة.

إذن: فقد طلب زكريا عليه السلام أن يرث ابنه الحكمة منه، ويرث من آل يعقوب، وأن يجعله اللَّه رضياً[٢].

فلو كان الأنبياء يُورِّثون المال، لكان البعض قد فهم أن طلب زكريا للابن كي يرثه في المال، لكن الحق ـ سبحانه ـ أراد لأنبيائه ألّا يُورِّثوا المال، بل يُورِّثون العلم بمنهج اللَّه، وقد طلب زكريا الابن لتثبيت منهج اللَّه في الأرض.

لقد أراد اللَّه للأتقياء والأنبياء أن يكون لهم من الذرية أبناء، ليرثوا المنهج السلوكي، ويكونوا مُثُلاً طيبة للناس يقتدون بهم.

إذن: فالمؤمن يجب أن تكون ذريته قدوة سلوكية.

* * *

نعمة التسخير:

«**وسخرت لك الأنعام والحرث**».

فخَلْق الأنعام في ذاته نعمة، وتمليكها لنا من اللَّه نعمة أخرى؛ لأن في الكون مخلوقات كثيرة لا نستطيع أن نملكها لأنها متوحشة، لكن هذه الأنعام مستأنسة ومسالمة ومُسخَّرة.

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه (٣٠٩٤) وكذا مسلم في صحيحه (١٧٥٧) من حديث أبي بكر الصديق أن رسول اللَّه ﷺ قال: «لا نُورث، ما تركناه صدقة».

(٢) قال ـ تعالى ـ عن زكريا عليه السلام أنه دعا فقال: ﴿... فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٥، ٦]، وقد أورد السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٤٨١) أن ابن أبي حاتم أخرج عن محمد بن كعب القرظي قال: قال داود عليه السلام: «يا رب هب لي ابناً» فولد له ابن خرج عليه، فبعث إليه داود جيشاً فقال: «إن أخذتموه سليماً فابعثوا إليّ رجلاً أعرف السرور في وجهه، وإن قتلتموه فابعثوا إليّ رجلاً أعرف الشر في وجهه»، فقتلوه فبعثوا إليه رجلاً أسود، فلما رآه عرف أنه قتل، فقال: ربِّ سألت أن تهب لي ابناً، فخرج عليّ؟ فقال: إنك لم تستثن. قال محمد بن كعب: لم يقل كما قال زكريا: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٦].

والحق ـ سبحانه ـ يقول:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ * وَذَلَّلْنَـٰهَا[1] لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ[2] وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١ ـ ٧٣].

والأنعام هي النعمة البارزة في أشياء متعددة؛ لأننا نأخذ منها أشياء كثيرة لحياتنا، فنشرب لبنها، ونأكل لحمها، ونستفيد بصوفها وجلودها، كما تحمل أثقالنا[3] من مكان إلى مكان.

والتسخير معناه التذليل، ولا تتمرد ظواهر الكون على الإنسان، وإذا كانت هناك ظواهر في الكون تتمرد بقدر اللَّه، مثل الفيضانات والبراكين والكوارث الطبيعية.

نقول: إن ذلك يحدث ليلفتنا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ إلى أن كل ما في الكون لا يخدمنا بذاته، ولا بسيطرتنا عليه، وإنما يخدمنا بأمر اللَّه له، وإلا لو كانت المخلوقات تخدمك بذاتك، فاقدر عليها حينما تتمرد على خدمتك.

وكل ما في الكون خاضع لطلاقة قدرة اللَّه، حتى الأسباب والمسببات خاضعة لطلاقة القدرة الإلهية، فالأسباب والمسبّبات في الكون لا تخرج عن إرادة اللَّه.

لذلك إذا تمرَّد الماء بالطوفان، وتمردت الرياح بالعاصفة، وتمردت

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٨٠): «أي جعلهم يقهرونها وهي ذليلة لهم، لا تمتنع منهم، بل لو جاء صغير إلى بعير لأناخه، ولو شاء لأقامه وساقه، وذاك ذليل منقاد معه، وكذا لو كان القطار مائة بعير أو أكثر لسار الجميع بسير الصغير».

(٢) الرَّكوب (بفتح الراء): ما يُركَبُ. وقال الفراء: اجتمع القرّاء على فتح الراء، لأن المعنى: فمنها يركبون. قال الأصمعي: الرَّكوبة: ما يركبون. والرَّكوب، والرَّكوبة من الإبل: التي تُرْكب، وقيل: الرَّكُوب كل دابة تُركب. (لسان العرب ـ مادة ركب).

(٣) الأثقال: الأحمال. جمع حِمْل، وقد قال ـ تعالى ـ عن الأنعام: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٧]. قال ابن كثير في تفسير هذه الآية (٢/ ٥٦٢): «هي الأحمال الثقيلة التي تعجزون عن نقلها وحملها، وذلك في الحج والعمرة والغزو والتجارة، وما جرى مجرى ذلك، تستعملونها في أنواع الاستعمال من ركوب وتحميل».

الأرض بالزلازل والبراكين، فما ذلك إلا ليعرف الإنسان أنه ليس بقدرته أن يسيطر على الكون الذي يعيش فيه.

واقرأ قوله ـ سبحانه:

﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧٢].

فالإنسان عاجز عن أن يُخضِع حيواناً إلا بتذليل اللَّه له، ومن العجيب أنك ترى الحيوانات تدرك ما لا يدركه الإنسان في الكون، فهي تحس بالزلزال قبل أن يقع، وتخرج من مكان الزلزال هاربة، بينما الإنسان لا يستطيع بعقله أن يفهم ما سيحدث.

وعملية التذليل مهمة جداً؛ لأن أشياء كثيرة خلقها اللَّه، وقد تملكها، لكنها غير مذللة لك فتتعبك.

ولنضرب لهذا مثل الجمل والثعبان، فالجمل الضخم القوي يمكن أن يقوده طفل صغير، وهو يحمل الأحمال، ويسير خلفه طائعاً.

لكن الثعبان لو ظهر يفزع كل الموجودين، حتى لو كان الثعبان صغيراً، وذلك لأنه غير مُذلّل للإنسان.

كذلك البرغوث الضعيف لو وُجِد في فراشك يحرمك من النوم، مع أنه ضعيف حقير، وأنت قوي لأنه غير مُذلَّل لك.

إذن: خَلْق الأنعام ليس هو النعمة، ولكن فيها خلق ومِلْك وتذليل، فاللَّه خلقها ومَلَّكها لنا، وذلَّلها لخدمتنا ومنفعتنا.

ولولا هذا التذليل ما استطعنا أن نستفيد منها.

ولذلك حينما تحدَّث الحق ـ سبحانه وتعالى ـ عن دواب الركوب من الخيل والبغال[١] والحمير ذكر مهمتها الأساسية في الركوب ونقل الأثقال.

ثم أضاف إلى ذلك أن في هذه الدواب جمالاً يسُرُّ الناظرين ممَّن لا يملكون هذه النعم.

---

(١) البغال: جمع بغل، وهو ابن الفرس من الحمار، وهو لا يلد، فالشأن في البغل العقم، قال تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨]، وذكرها القرآن بين الخيل والحمير إشارة إلى تولُّدها منهما. (القاموس القويم ١/ ٧٦).

قال تعالى:

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ(١) وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٥ ـ ٨].

فهو ـ سبحانه ـ لا يعطينا ضروريات الحياة فقط، ولكن أيضاً يعطينا الكماليات.

والحق ـ سبحانه ـ يقول:

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ(٢) . . .﴾.

فبعد أن تكلم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ عن نعمه علينا في الزراعة، ونعمه علينا في الماشية قال:

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ . . .﴾ [الأنعام: ١٤٢].

وهي الإبل والبقر والغنم (حمولة) والحَمُولة هي التي تحمل، فيقال: «فلان حَمُول» أي: يتحمل كثيراً.

والذي تحمله فوق ظهرها يسمى «حمُولة».

والإبل نحمل عليها الرِّحال وكل متطلباتنا.

وفي الحديث عن الأنعام، جاء بالحمولة والفَرْش، ويأتي أيضاً بحديث عن الرزق والطعام؛ لأننا نأكل لحمها وألبانها ومشتقات الألبان كلها، وهكذا تتعدد المنافع، فهي تحملنا، ونأخذ من أصوافها وأوبارها(٣)

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٥/ ٣٧٩٥): «وذلك في المواشي حين تروح إلى المراعي وتسرح عليه. والرواح: رجوعها بالعشي من المرعى، والسراح بالغداة».

(٢) قال ابن عباس: الحمُولة كل ما حمل من الإبل والبقر والخيل والبغال والحمير، والفرش: الغنم. وقال ابن زيد: الحمولة: ما يُركب، والفرش: ما يؤكل لحمه ويُحلب مثل الغنم والفصلان والعجاجيل، سميت فرشاً للطافة أجسامها وقربها من الفرش، وهي الأرض المستوية التي يتوطأها الناس. قال النحاس: ومن أحسن ما قيل فيهما: إن الحمولة المسخرة المذللة للحمل. والفرش: ما خلقه اللَّه من الجلود والصوف مما يجلس عليه ويتمهد. (نقل القرطبي هذه الأقوال في تفسيره ٣/ ٢٦٣٢).

(٣) يقول الحق سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ =

وشعورها الفرش، والوبر هو شعر الجمال، والصوف هو شعر الغنم:

«وسخرت لك الأنعام والحرث».

حين تسمع كلمة «الحرث» فافهم أن المراد بها هنا الزرع، ولكن اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ يريد منك أن تعلم أن اللَّه حين ينبت لك الأشياء بدون معالجتك، فإنه يريد منك أيضاً أن تستنبت أشياء بمعالجتك، وهذا لا يتأتى إلا بعملية الحرث.

والحرْثُ هو إهاجة الأرض، فالتربة تكون جامدة، فلا بُدَّ أن يُهيجها الإنسان بالحرث، أي: أن تَفُكَّ يبوستها[1] وتلاصق ذراتها، لأن تلاصق ذرات التربة لا يصلح أن يكون بيئة للنبات؛ لأن النبات يحتاج إلى الماء، ويحتاج إلى الهواء، ويحتاج من الإنسان أن يُمهِّد للشعيرات البسيطة أن تخرج، وتجد تربة سهلة تتحرك فيها إلى أن تقوى.

إذن: فالحرث يثير الأرض، ويجعلها لينة متفتتة حتى تستطيع البذرة أن تنمو؛ لأن اللَّه قد أودع في فلقتي كل بذرة مقومات الحياة إلى أن يوجد لها جذر يأخذ مقومات الحياة من الأرض، وكلما قوي الجذر في النبات فإن الفلقتين تضمحلان وتصيران مجرد ورقتين، فأين ذهب حجم الفلقتين؟

لقد قامت الفلْقتان بتغذية النبتة إلى أن استطاعت النبتة أن تتغذى بنفسها من الأرض، ولا يمكن حدوث ذلك إلا إذا كانت الأرض محروثة.

لذلك يقولون: إن الأرض الطينية السوداء تكون صعبة وغير خصبة.

ويُقال: إن الأرض الرملية أيضاً غير خصبة، لماذا؟

لأننا نريد صفتين اثنتين في الأرض:

الصفة الأولى: أن تكون الأرض صالحة أن يتخللها الماء ليشرب الزرع.

= ﴿ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠]، والأوبار: جمع وبر، وهو صوف الإبل والأرانب ونحوها، وكذلك وبر الثعالب. والأثاث: أنواع المتاع من متاع البيت ونحوه.

(١) يبست الأرض: ذهب ماؤها ونداها، وأرض يَبَسٌ: صلبة شديدة. واليَبَس: المكان يكون رطباً ثم ييبس، ومنه قوله ـ تعالى: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: ٧٧]. أي: طريقاً جافاً صُلباً بعد رطوبته. (لسان العرب ـ مادة: يبس).

والصفة الأخرى: ألا تُسرب الماء بعيداً.

فإذا كانت الأرض طينية فإن جذور الزرع تختنق وتتعطن[(١)]، وإذا كانت رملية فإن الماء يتسرب بعيداً.

لذلك نحتاج في الزراعة إلى أرض بين سوداء ورملية، أي: أرض صفراء.

والحق ـ سبحانه ـ يتكلم عن الزرع فإنه يقول «الحرث»، وذلك حتى يلفتنا إلى أن من يريد أن يأخذ زرعاً لا بد أن يجدَّ ويحرث الأرض.

وهو ـ سبحانه ـ القائل:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤].

فصحيح أن الإنسان يقوم بحرث الأرض ورمي البذرة، وربما تعهد الزرع بالعناية والري، ولكن ليس في كل ما يفعله مهمة خَلْق، بل إن اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ هو خالق كل شيء، ولو كنت تزرع بقدرتك فأتِ ببذرة من غير خلق اللَّه، وأرض لم يخلقها اللَّه، وماء لم يُنزِله اللَّه من السماء.

فعملك أيها الإنسان أن تهيج الأرض وتثيرها. وتأتي بالبذر الذي خلقه اللَّه في الأرض التي خلقها اللَّه، وتسقيها بالماء الذي خلقه اللَّه، وتكبر في الهواء الذي خلقه اللَّه.

ثم يقول رب العزّة في الحديث القدسي الذي نحن بصدده:

«**وتركتُك ترْأَسُ[(٢)] وتَرْبَع[(٣)]**».

إن اللَّه ـ سبحانه ـ هو الذي يعطي الملْك، فلو دقَّق كل منَّا النظر إلى مُجْريات الأمور، لوجد أن اللَّه هو الذي يُؤتي، واللَّه هو الذي ينزع، واللَّه هو الذي يُعِزّ، واللَّه هو الذي يُذِلّ.

---

(١) العطن: الفساد وإنتان الرائحة، ورجل عطين: مُنتن البشرة، ويقال: إنما هو عطينة إذا ذُمَّ في أمر. أي: منتن كالإهاب المعطون.

(٢) رأس القوم يرأسهم، وهو رئيسهم. والرئيس: سيد القوم. ورأس كل شيء: أعلاه. (لسان العرب ـ مادة: رأس).

(٣) ربعهم يربعهم ربعاً: أخذ رُبع أموالهم. وربعهم: أخذ ربع الغنيمة، فمعنى تربع في الحديث: ألم أجعلك رئيساً مطاعاً؟ (لسان العرب ـ مادة: ربع).

إن إيتاء الملْك عملية تحتاج إلى تحضير بشري وبأسباب بشرية، وأحياناً يكون الوصول إلى الحكم عن طريق الانقلابات العسكرية أو السياسية.

وكذلك نَزْعُ الملْك يحتاج إلى نفس الجَهْد.

إن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يوضح لنا أن هذا ليس أمراً صعباً على قدرته اللانهائية، لأنه ـ سبحانه ـ لا يتناول الأفعال بعلاج أو بعمل، إنما هو سبحانه يقول «كُنْ» فتنفعل الأشياء لإرادته.

والحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ[1]:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

فإياك أيها المؤمن ـ أن تظن أن أحداً قد أخذ الملك غَصْباً من اللَّه، إنما الملْك يريده اللَّه لمن يُؤدِّب به العباد، وإن ظلم المِلك في التأديب فإن اللَّه يبعث له منْ يظلمه.

فلا يظن أحد أن هناك إنساناً قد ملك شيئاً، أو جاهاً في هذه الدنيا بغير مراد اللَّه فيه، فكل إنسان يملك بما يريده اللَّه له من رسالة، فإذا انحرف العباد فلا بد أن يُولِّي اللَّه عليهم مَلِكاً ظالماً، لماذا؟

لأن الأخيار قد لا يُحسنون تربية الناس، فإن رأيتَ واحداً قد أخذ الملْك وهو ظالم، فاعلم أن اللَّه قد جاء به ليُرَبِّي به المملوكين، وسبحانه لا يربي

---

(١) من بركات هذه الآية الكريمة مما أرشد إليه رسول اللَّه ﷺ، ما رواه الطبراني عن معاذ بن جبل أن رسول اللَّه ﷺ افتقده يوم الجمعة، فلما صلى رسول اللَّه ﷺ أتى معاذاً فقال: «يا معاذ ما لي لم أرك؟» فقال: ليهودي عليَّ وقية من تبر، فخرجت إليه فحبسني عنك، فقال ﷺ: «ألا أعلمك دعاء تدعو به فلو كان عليك من الدين مثل صبير أداه اللَّه عنك، فادع اللَّه يا معاذ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧]، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، تعطيهما من تشاء، وتمنع منهما منْ تشاء، ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك»، أورده السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٢/ ١٧٢).

الأشرار بالأخيار، لأن الأخيار لا يعرفون كيف يُربُّون، وقلوبهم تمتلئ بالرحمة[١].

ولذلك يُعلِّمنا الحق ـ سبحانه:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي[٢] بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

والخيِّر لا يدخل المعركة، بل يشاهد الصراع من بعيد، ويجري كل شيء بعلم اللَّه؛ لأنه ـ سبحانه ـ له مُلْك السماوات والأرض، وهو الذي يُحيي ويُميت، فإياك أن تُفتن في غير خالقك أبداً؛ لأن الخَلْق مهما بلغ من قدرته وطغيانه، لا يستطيع أن يحمي نفسه من أغيار اللَّه في كونه؛ ولذلك فليأخذ المؤمنُ اللَّه ولياً له ونصيراً.

ويقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

أي: إياكم أن تُغضبوا ربكم في أيِّ عمل من هذه الأعمال، وكُنْ أيها المسلم في هذه التقوى على يقين من أنك ملاقي اللَّه، ولا تشك في هذا اللقاء أبداً، وما دُمْتَ ستتقي اللَّه، وتكون على يقين أنك تلاقيه لم يبق لك إلا أن تُبشَّر بالجنة.

والحق ـ سبحانه ـ حينما تحدث عن الصبر والصلاة قال:

﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ * ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥، ٤٦].

---

(١) فاللَّه ـ سبحانه ـ يعلم من قلوب المؤمنين الرحمة والرأفة والرقة والعفو والصفح، ولذلك عند تطبيق حد الزنا مثلاً قال ـ سبحانه: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

(٢) قال ابن كثير في تفسير هذه الآية (٢/ ١٧٧): «نسلط بعضهم على بعض، ونهلك بعضهم ببعض، وننتقم من بعضهم ببعض جزاء على ظلمهم وبغيهم».

وقد أورد السيوطي آثاراً في تفسير هذه الآية منها:

ـ قال الأعمش: إذا فسد الناس أُمِّر عليهم شرارهم، عزاه لأبي الشيخ.

ـ قال كعب الأحبار: إن لكل زمان ملكاً يبعثه اللَّه على نحو قلوب أهله، فإذا أراد صلاحهم بعث عليهم مصلحاً، وإذا أراد هلكتهم بعث عليهم مترفهم. عزاه للبيهقي.

ـ قال الحسن: إن اللَّه قال لموسى: يا موسى أنبئهم أن رضاي عنهم أن أستعمل عليهم خيارهم، وأن سخطي عليهم أن أستعمل عليهم شرارهم. عزاه للبيهقي.

فَمَنْ خشع بقلبه للَّه فهو يُقبل على الصلاة بحب وإيمان ورغبة، وهؤلاء هم الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم.

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ لم يقُلْ: الذين تيقَّنوا أنهم مُلَاقُو ربهم. لماذا لم يستخدم الحق ـ تعالى ـ لفظ اليقين، وأبدله بالظن؟

لأن مجرد الظن أنك مُلاقٍ اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ كافٍ أن يجعلك تلتزم بالمنهج، فما بالك إذا كنت مُتيقِّناً، فمجرد الظن يكفي لتقي نفسك من عذاب عظيم.

ويقول المعري[1] في آخر حياته:

زَعَمَ المنجِّمُ والطَّبِيبُ كِلَاهُما ... لا تُحْشَرُ الأجسادُ قُلْتُ إليكُما

إنْ صَحَّ قَوْلُكُما فَلَسْتُ بخاسرٍ ... أو صَحَّ قَوْلي فَالخَسَارُ عَليكُما

فكل مُكذبٍ بالآخرة خاسر، والنفس البشرية لا بُد أن تحتاط للقاء اللَّه، وأن تعترف أن هناك حَشْراً، وتعمل لذلك.

والحق ـ سبحانه ـ يقول:

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦].

والرجوع إلى اللَّه ـ سبحانه ـ أمر يقيني، فما دُمْتَ قد جئت إلى الدنيا قد خلقك اللَّه، فأنت ـ لا محالة ـ سترجع إليه، وهذا اليوم يجب أن نحتاط له حَيْطة كبرى، وأن نترقّبه، لأنه يوم عظيم.

والحق ـ سبحانه ـ يقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ[2] ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا

---

(١) هو: أبو العلاء أحمد بن عبد اللَّه، شاعر فيلسوف، ولد في معرة النعمان عام ٣٦٣هـ، كان نحيف الجسم، عَمِيَ في السنة الرابعة من عمره، قال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة، كان يحرم إيلام الحيوان، ولم يأكل اللحم خمساً وأربعين سنة، توفي عام ٤٤٩هـ. راجع ترجمته في كتاب (الأعلام لخير الدين الزركلي ١/ ١٥٧).

(٢) الزلزلة والزِّلزال: تحريك الشيء. قال أبو إسحاق في قوله ـ عز وجل: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١]؛ والمعنى: إذا حُرِّكت حركة شديدة، والزلازل أيضاً: الشدائد والأهوال. وفي الحديث: اللهم اهزم الأحزاب وزلزلهم، كناية عن التخويف والتحذير، أي: اجعل أمرهم مضطرباً متقلقلاً؛ غير ثابت. (لسان العرب ـ مادة: زلل).

تَذْهَلُ[١] كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ[٢] وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١، ٢].

ويقول ـ جل جلاله:

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧].

إذا كان هذا حالنا يوم القيامة[٣]، فكيف لا يكفي مجرد الظن لأن نتمسك بمنهج اللَّه، ونحن نحتاط لأحداث دنيوية لا تساوي شيئاً بالنسبة لأهوال يوم القيامة.

إن الظن هنا بأننا سنلاقي اللَّه ـ تعالى ـ يكفي لأن نعمل له ألف حساب.

والحق ـ سبحانه ـ يقول عن خسارة الذين لا يؤمنون بلقاء اللَّه:

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا[٤] فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ[٥] عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

---

(١) الذَّهْل: تركك الشيء تناساه على عمد أو يشغلك عنه شُغْل. (لسان العرب ـ مادة: ذهل).

(٢) أي: سكارى من هولها ومما يدركهم من الخوف والفزع، وقال أهل المعاني: وترى الناس كأنهم سكارى. (تفسير القرطبي ٦/ ٤٥٣٧).

(٣) عن أبي سعيد الخدري قال. قال النبي ﷺ: «يقول اللَّه يوم القيامة: يا آدم ـ ابعث بعث النار. فيقول: يا رب، وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون. فعند ذلك يشيب الوليد ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢]. قال: فشق ذلك على الناس فقالوا: يا رسول اللَّه من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون ويبقى الواحد! فأيُّنا ذلك الواحد؟ فقال: من يأجوج ومأجوج ألف. ومنكم واحد، وهل أنتم في الأمم إلا كالشعرة السوداء في الثور الأبيض؟ أو كالشعرة البيضاء في الثور الأسود؟»، أخرجه البخاري في صحيحه (٦٥٣٠) ومسلم في صحيحه (٢٢٢) كتاب الإيمان.

(٤) فرطنا: معناه ضيَّعنا، وأصله التقدم، يُقَال: فرط فلان أي: تقدم وسبق إلى الماء، ومنه الفارط أي: المتقدم للماء، وقيل «فرطنا» أي: جعلنا غيرنا الفارط السابق لنا إلى طاعة اللَّه وتخلفنا. (تفسير القرطبي ٣/ ٢٤٩٨).

(٥) الأوزار: الذنوب، جمع وزر. قال أبو عبيد: ويقال للرجل إذا بسط ثوبه فجعل فيه المتاع احمل وزرك، أي: ثقلك، ومنه الوزير لأنه يحمل أثقال ما يسند إليه من تدبير الولاية، والمعنى أنهم لزمتهم الآثام فصاروا مثقلين بها. (تفسير القرطبي ٣/ ٢٤٩٨).

قد خسر الذين كذبوا بلقاء اللَّه؛ لأنهم باعوا الآجل الطويل العمر بالعاجل القصير العمر، والعاقل لا يحب الخسارة؛ لذلك نجده يوازن دائماً، ويقارن بين ما يبذله من جهد والعائد الذي سيأتي إليه.

أما الذين كفروا بلقاء اللَّه فهم قد خسروا أنفسهم، لأنهم لم يوازنوا بين حياتين: حياة مظنونة، وحياة متيقنة؛ لأن مدة حياتنا الدنيا مظنونة غير متيقنة.

إننا لا نعرف كم سنحيا فيها، فمتوسط عمر الإنسان على الأرض هو سبعون عاماً على سبيل المثال، ولكن أحداً لا يعرف كم عمره في الدنيا بالضبط، وله أجل محدود، إنه فانٍ وذاهب وميت.

لكن حياة الآخرة متيقنة لا أجل لها، إنها دائمة ونعلم أن نعيم الدنيا بالنسبة للإنسان هو على قدْر الأسباب الموجودة لديه.

أما نعيم الآخرة فهو على قدر طلاقة قدرة المسبِّب ـ سبحانه ـ وهو اللَّه، وعلى هذا تكون خسارة الذين كفروا كبيرة، وفادحة، ودامية؛ لأنهم لم يتاجروا مع اللَّه.

والذين كفروا، كان كفرهم وتكذيبهم مُوصِّلاً إلى الخسران، فمجيء الساعة بغتة ليس هو نهاية المطاف، ولكنه وصول إلى أول الخسران؛ لأن خسرانهم لا ينتهي من فور مجيء الساعة، ولكنه يبدأ لحظة مفاجأة الساعة لهم.

فهم يُفاجأون بوقوع ما كانوا يُكذِّبون به، ويعلمون جيداً أن ما صنعوه في الدنيا لا يستوجب إلا العذاب.

وأيضاً فإن من عمل أعمالاً نافعة وليس في باله اللَّه، فاللَّه ـ سبحانه ـ لا يمنعه ثواب ما عمل، بل يعطيه في الدنيا، لأنه لا يؤمن بالآخرة.

والحق ـ سبحانه ـ يقول:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ[1] يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ

(١) القيعة: جمع قاع. والقاع: ما انبسط من الأرض واتسع، ولم يكن فيه نبت، وفيه يكون السراب. وأصل القاع: الموضع المنخفض الذي يستقر فيه الماء. (تفسير القرطبي ٦/ ٤٨١٩).

شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ[1] ٱلْحِسَابِ ﴾ [النور: ٣٩].

فالذين كانوا يؤمنون به ـ سبحانه ـ يطمئنون على أن جزاءه قد جاء، والذين لم يكونوا يؤمنون به يُفاجأون بوجوده ـ سبحانه ـ وبالجزاء والحساب، فَفُوجئوا بأمر لم يكن في بالهم، ولم يعملوا له أي حساب.

فالكافر يُفاجأ بوجود اللَّه ـ سبحانه ـ لأن هذا شيء لم يكن في حُسبانه.

والحق ـ سبحانه ـ يقول عن الكافرين:

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟[2] عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ * ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٠، ٥١].

---

(١) ورد وصف اللَّه تعالى بأنه سريع الحساب في عشر آيات:
(البقرة: ٢٠٢)، (آل عمران: ١٩، ١٩٩)، (المائدة: ٤)، (الأنعام: ١٦٥)، (الأعراف: ١٦٧)، (الرعد: ٤١)، (إبراهيم: ٥١)، (النور: ٣٩)، (غافر: ١٧).
قال القرطبي في تفسيره (١/ ٩١٤، ٩١٥): «المعنى في الآية أن اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ سريع الحساب، لا يحتاج إلى عَد، ولا إلى عقد، ولا إلى إعمال فكر كما يفعله الحُسَّاب، فاللَّه عز وجل عالم بما للعباد وما عليهم، فلا يحتاج إلى تذكر وتأمل، إذ قد علم للمُحاسب وعليه؛ لأن الفائدة في الحساب علم حقيقته.
وقيل: سريع المجازاة للعباد بأعمالهم.
وقيل: المعنى: لا يشغله شأن عن شأن، فيحاسبهم في حالة واحدة، كما قال ـ وقوله الحق: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۚ . . . ﴾ [لقمان: ٢٨].
قال الحسن: حسابه أسرع من لمح البصر.
وقيل: هو أنه إذا حاسب واحداً فقد حاسب جميع الخلق، وقيل لعلي بن أبي طالب: كيف يحاسب اللَّه العباد في يوم؟ قال: كما يرزقهم في يوم. ومعنى الحساب؛ تعريف اللَّه عباده مقادير الجزاء على أعمالهم، وتذكيره إياهم بما قد نسوه، بدليل قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۖ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ ﴾ [المجادلة: ٦].
وقيل: معنى الآية: سريع بمجيء يوم الحساب، فالمقصد بالآية الإنذار بيوم القيامة.
قلت: والكل محتمل، فليأخذ العبد لنفسه في تخفيف الحساب عنه بالأعمال الصالحة، وإنما يخفُّ الحساب في الآخرة على من حاسب نفسه في الدنيا» اهـ.

(٢) الإفاضة: التوسعة، يقال: أفاض عليه نعمه، قال القرطبي في تفسيره (٣/ ٢٧٣٢): «تبين الآية أن ابن آدم لا يستغني عن الطعام والشراب وإن كان في العذاب».

ويقول في آية أخرى عن المنافقين:

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ(١) أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧].

وعن هؤلاء وأولئك يقول ـ تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦].

لذلك يُوجِّه الحق ـ سبحانه ـ نداءه لعباده المؤمنين، فيقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۞ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٨، ١٩].

❁ ❁ ❁

(١) قبض الطائر جناحه: جمعه. وتقبضت الجلدة في النار: انزوت، وقوله تعالى: ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ... ﴾ [التوبة: ٦٧]، أي: عن النفقة. وقيل: لا يؤتون الزكاة. (لسان العرب ـ مادة: قبض)، وفي تفسير القرطبي (٤/ ٣١٢٤): «قبض أيديهم عبارة عن ترك الجهاد، وفيما يجب عليهم من حق».

الظَّلُومُ الجَهُول

١٧ ـ قال اللَّه ـ عز وجل ـ في حديثه القدسي:

«يا آدَمُ، إنِّي عَرَضْتُ الأمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالأرْضِ، فَلَمْ تُطِقْهَا، فَهَل أنتَ حَامِلها بِمَا فِيهَا؟

قال آدم: وَمَا لِي فِيهَا؟

قال تعالى: إنْ حملْتَها أُجِرْتَ، وإنْ ضيَّعتَها عُذِّبْتَ.

فقال آدم: قَدْ حَملتُها بِمَا فيها.

فَلَمْ يَلْبثْ في الجنة إلَّا مَا بَيْن الصَّلاةِ الأُولى إلى العَصْر، حتَّى أخرجَهُ الشَّيطانُ مِنْها»[(١)].

يقول الحق سبحانه:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

إن الكون ـ كما نعلم ـ فيه أجناس، أدناها الجماد، وأوسطها النبات، وأعلى من الأوسط الحيوان ثم الإنسان، والإنسان هو سيد هذه الأجناس، لأنها تخدمه جميعها، لكن الجماد والنبات والحيوان لا اختيار لأي منها في أن

---

(١) أورده المتقي الهندي في كنز العمال (٦/ حديث ١٥١٤٢) وعزاه لأبي الشيخ من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس، وأورده ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٢٢) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس، وساقه، ثم قال: «وقد روى الضحاك عن ابن عباس قريباً من هذا وفيه نظر وانقطاع بين الضحاك وبينه واللَّه أعلم».
ولفظه عن ابن عباس من طريق ابن جبير الذي أورده ابن كثير وعزاه لابن جرير الطبري: «عرضت على آدم فقال: خذها بما فيها فإن أطعت غفرت لك، وإن عصيت عذبتك. قال: قبلت، فما كان إلا مقدار ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم حتى أصاب الخطيئة».
وأورد طريق الضحاك عن ابن عباس القرطبي في تفسيره (٨/ ٥٥٢٢) وعزاه للترمذي الحكيم.

يفعل أو لا يفعل، وإنما كل جنس منها قد خُلق لشيء يؤديه، ولا اختيار له في أن يمتنع عن الأداء.

الأرض والسماوات والجبال لم تقبل أن تكون مختارة، أو أن تحمل أمانة، وتكون المسألة فيها راجعة إلى اختيارها، إنْ شاءت فعلت، وإنْ شاءت لم تفعل.

وأشفقتْ الأرض والسماوات والجبال من حمل الأمانة لعدم الثقة بحالة النفس وقت أداء الأمانة.

فيجوز أن يعقد الكائن العزم عند تحمُّل الأمانة أن يؤديها، ولكن عند أدائها لا يملك نفسه، فربما خانته نفسه وجعلته لا يقرّ بها.

لقد احتاطت السماوات والأرض والجبال وقالوا: لا نريد هذه الأمانة، ولا نريد أن نكون مختارين بين أن نفعل أو نترك، نطيع أو نعصي، وإنما يا رب نريد أن نكون مُسخَّرين[1] لما تحب دون اختيار لنا.

سلَّمتْ الأرض والسماوات والجبال الأمر لخالقها، وأبَيْنَ أن يحمِلْنَ الأمانة وأشفقْنَ منها، لكن الإنسان بما فيه من فكر يُرجِّح الاختيار بين البديلات قال:

أنا أقبلها، وإن فكري سيخطط لأدائها، ولم يلتفت الإنسان ساعة تحمُّله الأمانة إلى حالة أدائه لها، ومثال ذلك: من الجائز أن يعرض عليك إنسان مبلغاً من المال كأمانة عندك، فأخذته وأنت واثق أنك ستؤديه حين يطلبه منك، ولكنك ساعة الأداء قد لا تملك نفسك، فقد تمرُّ بك ظروف فتصرف شيئاً من المال، أو أن تكون ـ والعياذ باللَّه ـ قد خربتْ ذمتك.

---

(١) أورد ابن جرير الطبري فيما نقله عن ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٢٣) من قول ابن زيد في هذه الآية: «إن اللَّه تعالى عرض عليهم الأمانة أن يفترض عليهم الدين، ويجعل لهن ثواباً وعقاباً ويستأمنهن على الدين. فقلن: لا، نحن مُسخَّرات لأمرك لا نريد ثواباً ولا عقاباً».
وعن مجاهد أنه قال: عرضها على السماوات فقالت: يا رب حملتني الكواكب وسكان السماء وما ذكر وما أريد ثواباً ولا أحمل فريضة. قال: وعرضها على الأرض فقالت: يا رب غرست فيّ الأشجار، وأجريت فيَّ الأنهار وسكان الأرض وما ذكر، وما أريد ثواباً ولا أحمل فريضة. وقالت الجبال مثل ذلك، قال اللَّه تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، في عاقبة أمره».

إذن: فالإنسان لا يملك نفسه وقت الأداء، وإنْ ملكَ نفسه وقت الأخذ، فالذين يحتاطون يقولون: أبْعد عنّا تحمُّل الأمانة، فلا نريد أن نحمل لك شيئاً.

ولكن الإنسان قَبِلَ تحمُّل الأمانة؛ لأنه ﴿كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ظلم نفسه وجهل بحالته وقت الأداء.

إذن: فالأمانة التي عُرِضتْ على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، وحملها الإنسان هي أمانة الاختيار التي يترتب عليها التكليف من اللَّه.

إن التكليف محصور في «افعل» و«لا تفعل»، فإن شئت فعلت في «افعل»، وإنْ شئتَ لم تفعل في «لا تفعل»، وإنْ شئت العكس.

ومعنى ذلك أن الأمانة في هذا المعنى مقصورة على ما طلبه اللَّه من الإنسان وقت العرض، لكنها لم تتعرض للأمانات التي توجد بيننا.

والأمانة كذلك هي ما يتعلق بذمتك بحقِّ غيرك؛ لذلك فحين يعطي إنسان إنساناً شيئاً يصير الآخذ مُؤْتمناً، فإن شاء أدى، وإن شاء لم يُؤَدِّ.

لكن هناك أمانات أخرى لم يُعطها إنسانٌ لإنسان، وإنما أعطاها ربُّ الإنسان لكل إنسان، فالعلم الذي أعطاه اللَّه للناس أمانة.

فهل الذي علَّمك علْماً وأعطاه لك، وبعد ذلك قال لك: أدّه لي كمثل منْ يكون مأموناً على مال؟

نقول للعالم: العلم ليس من عندك حتى تعطيه لغيرك، وبعد ذلك يرده لك، ولكن اللَّه يجازيك عليه ثواباً، وكذلك في الحِلْم والشجاعة.

ولا تتضح هذه المسائل بين العبد والعبد إلا في المال، ولكن في بقية الأشياء نقول لك: أنت أمينٌ عليها أمام خالقك، وقد أمَّنك ربك على هذه الأشياء كي تؤديها إلى منْ لا يعلم.

فأمَّنك على قدرة، وأمرك: أعْطِها لمن لا يقدر.

وأمَّنك على علم، وأوضح لك: أعْطِه لمن لا عِلْم له.

إذن: فمن الذي أعطاك هذه الأمانة؟ اللَّه.

فليس ضرورياً أن تكون الأمانة من صاحبها الذي أعطاها لك لتردها إليه، فالأمانة ما تصير مأموناً عليه ممن خلق أو من مخلوق، فأدِّها.

والأمانة بهذا المعنى أمرها واسع[1]، فاستحقاق اللَّه للتوحيد أمانة عندك، أهليتُك للتكليف من اللَّه حين كلَّفك أمانة عندك، وأهليتُك في المواهب المختلفة أمانة عندك.

فكل إنسان عنده موهبة هو أمين عليها، ولا بُدَّ أن يُؤدِّيها، وينقل آثارها لمن لا توجد عنده هذه الموهبة.

فالحق ـ سبحانه ـ أعطى هذا الإنسان قوة عضل، وأعطى ذلك قوة فِكْر، وأعطى ثالثاً قوة حلم، وأعطى رابعاً علماً.

كل هذه الأشياء أمانات أودعها اللَّه ـ سبحانه ـ في خلقه ليتكامل الخلق، فحين يؤدي كل إنسان أمانته لكل إنسان يصبح كل إنسان عنده مواهب كل الآخرين.

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما يقول:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا . . .﴾ [النساء: ٥٨].

نتذكر على الفور قمة الأمانة أن تعبده ولا تشرك به أحداً، والأمانة في التكاليف التي كلَّفك اللَّه بها؛ لأنها أمانة لغيرك عندك، وأمانة عندك لغيرك، فحين يُكلِّفك اللَّه بألا تسرق، يكون قد كلَّف الناس كلهم ألا يسرقوا.

إن كل أمانة عند غيرك تقابلها أمانة عندك، فإن أدَّيْتَ مطلوبات الأمانة عندك أدَّى المجتمع الذي يحيط بك الأمانة التي عنده، وهكذا تكون الأمانة هي: أداء حَق في ذِمَّتك لغيرك.

هذه الأمانة بمعناها الواسع جعل الكون كله يشفق على نفسه من تحمُّل الأمانة، وهذا يعني أن الأمانة سوف تكون عُرْضة للتصرف والاختيار، ولا كائن في الكون قد ضمن لنفسه القدرة على الوفاء وقت الأداء.

---

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (٨/ ٥٥٢٢) من قول عبد اللَّه بن عمرو بن العاص موقوفاً عليه: أول ما خلق اللَّه تعالى من الإنسان فرجه وقال: هذه أمانة استودعتكها، فلا تلبسها إلا بحق، فإن حفظتها حفظتك، فالفرج أمانة، والأذن أمانة، والعين أمانة، واللسان أمانة، والبطن أمانة، واليد أمانة، والرِّجل أمانة، ولا إيمان لمن لا أمانة له.

لقد أعلنت الكائنات قولها، فأبَيْنَ تحمُّل الأمانة، وكأنها قالت: إنّا يا ربنا نريد أن نكون مُسخَّرين مَقْهورين لا اختيار لنا[(١)].

ولذلك نجد الكون كله يُؤدِّي مهمته كما أرادها اللَّه، ما عدا الإنسان، أي: أنه الذي قَبِل ـ بما له من عقل وتفكير ـ أن يتحمَّل أمانة الاختيار، وبلسان حاله أو بلسان مقاله قال: إنني قادر على تحمُّل الأمانة؛ لأني أستطيع الاختيار بين البدائل.

ولتقرأ قوله سبحانه وتعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ[(٢)]﴾ [الحج: ١٨].

---

(١) قال مقاتل بن حيان:
إن اللَّه تعالى حين خلق خلقه جمع بين الإنس والجن والسماوات والأرض والجبال.
فبدأ بالسماوات، فعرض عليهن الأمانة وهي الطاعة، فقال لهن: أتحملن هذه الأمانة، ولَكُنَّ عليّ الفضل والكرامة والثواب في الجنة؟ فَقُلْنَ: يا رب إنّا لا نستطيع هذا الأمر، وليس بنا قوة، ولكنّا لك مطيعين.
ثم عرض الأمانة على الأرضين، فقال لهن: أتحملن هذه الأمانة، وتقبلنها مني، وأعطيكن الفضل والكرامة في الدنيا؟ فقلن: لا صبر لنا على هذا يا رب، ولا نطيق، ولكنَّا لك سامعين مطيعين، لا نعصيك في شيء أمرتنا به.
ثم قرب آدم فقال له: أتحمل هذه الأمانة، وترعاها حق رعايتها؟
فقال عند ذلك آدم: ما لي عندك؟
قال: يا آدم إن أحسنت وأطعت ورعيت الأمانة فلك عندي الكرامة والفضل وحسن الثواب في الجنة، وإن عصيت ولم ترعها حق رعايتها وأسأت فإني مُعذِّبك ومعذبك وأنزلك النار.
قال: رضيت يا رب.
وتحمّلها، فقال اللَّه عز وجل عند ذلك: قد حَمَّلتُكها.
(قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٢٣): رواه ابن أبي حاتم).

(٢) يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨]، قال القرطبي في تفسيره (٥/ ٣٨٣٦): «فدوران الظلال وميلانها من موضع إلى موضع سجودها.. وقال الزجاج: يعني سجود الجسم، وسجوده انقياده وما يُرى فيه من أثر الصنعة، وهذا عام في كل جسم».

إنها الأجناس كلها ساجدة[١]، الشمس ساجدة، والقمر ساجد، والنجوم[٢]، والجبال، كل هذه الجمادات ساجدة، وكذلك الشجر[٣] والنبات ساجد للَّه، والحيوان والدواب ساجدة للَّه، وكثير من الناس سجود.

لكن في مقابل هذا الكثير الساجد من البشر، هناك كثير غير ساجد، لذلك حَقَّ عليه العذاب، ولو أن الإنسان قد أخذ منهج اللَّه فنفَّذه لصار كبقية الأجناس، لكن الإنسان اختلف، وقال:

«**أنا سوف آخذ اختيار تحمُّل الأمانة؛ لأني عالم وعاقل**»، فلو أخذ الإنسان منهج اللَّه في «افعل» و«لا تفعل» لانسجم الإنسان مع الوجود كله، وحين ينسجم الإنسان مع الوجود كله فلن تأتي منه مخالفة أبداً، كما لا تأتي مخالفة في الوجود من غير الإنسان.

إذن: فالانقسام جاء عند مَنْ؟

لقد جاء الانقسام عند الإنسان، لماذا؟

لأن اللَّه خلق الإنسان مختاراً.

ألم يَكُنْ من الممكن أن يخلق اللَّه الإنسان مُسخَّراً كبقية الكائنات؟

أليس التسخير دليلاً على قدرة المسخِّر، وأن شيئاً من خلقه لن يخرج من قدرته؟

---

(١) عن أبي ذر رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «أتدري أين تذهب هذه الشمس؟» قلت: اللَّه ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها ارجعي من حيث جئت»، أخرجه البخاري في صحيحه (٣١٩٩) وكذا أحمد في مسنده (٥/ ١٦٥).

(٢) قال أبو العالية: ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع للَّه ساجداً حين يغيب، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه. أورده ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢١١).

(٣) عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما قال: جاء رجل فقال: يا رسول اللَّه إني رأيتني الليلة وأنا نائم كأني أصلي خلف شجرة، فسجدتُ، فسجدتْ الشجرة لسجودي، فسمعتها وهي تقول: اللهم اكتب لي بها عندك أجراً، وضَعْ عنِّي بها وِزراً، واجعلها لي عندك ذُخْراً، وتقبَّلها مني كما تقبلتها من عبدك داود. قال ابن عباس: فقرأ رسول اللَّه ﷺ سجدة ثم سجد فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة. أخرجه الترمذي في سننه (٥٧٩، ٣٤٢٤)، وابن ماجه في سننه (١٠٥٣)، وابن حبان (٦٩١ ـ موارد الظمآن).

هذا صحيح، لكن الحق ـ سبحانه ـ كما أراد أن يثبت القدرة والقهر بالتسخير، أراد أن يثبت المحبوبية بالاختيار، فمن كان مختاراً أن يؤمن أو يعصي ثم اختار أن يؤمن، فهذا الاختيار إنما يثبت به الإنسان المحبوبية للَّه، فتطيع حباً في اللَّه وطاعة لأوامره.

وضربنا لذلك مثلاً، وللَّه المثل الأعلى، وقلنا:

لو أن إنساناً عنده عبدان:

أحدهما: مربوط بحبل فجذبه من الحبل وقال له: تعال، هل يستطيع أن يعصي؟ لا يستطيع؛ لأنه مُقيَّد ومربوط.

الثاني: طليق، ومع ذلك حينما يناديه سيده يُسرع إلى طاعته وتلبية أمره، مع أنه يستطيع أن يعصي أو يتأخر عن الاستجابة، لكنه يُلبي نداء سيده ويأتيه عن حُب وطاعة.

أما العبد المقيّد فإنه لا يملك أن يعصي؛ لأنه ليس مُطلق السَّراح.

أما الذي يأتي للَّه ويطيعه ويُنفِّذ أوامره رغم قدرته على المعصية لأنه مختار فهذا يثبت محبته للَّه وطاعته له، فالأشياء المقهورة تثبت للَّه القدرة، أما الطاعة عن حُب واختيار فتثبت للَّه المحبوبية والطاعة.

واللَّه لا يحب مِنَّا أن نأتيه قَهْراً، ولكن يريد أن نأتيه عن حُب ورغبة وطاعة[1].

هكذا صنّف اللَّه الخلق بين قسم قهري يثبت القدرة، وقسم اختياري يثبت المحبوبية.

ولهذا أراد اللَّه للإنسان أن يكون مختاراً أن يفعل أو لا يفعل، فلماذا

---

(١) يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

وقال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ . . .﴾ [الكهف: ٢٩].

ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ ۚ﴾ [الشورى: ٨].

فلو شاء اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ لأكره الناس جميعاً على الهدى، ولكنه ـ سبحانه ـ وضع أساساً من أسس الإسلام، وهو: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ . . .﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ـ إذن ـ لا يفعل الإنسان كل أفعاله وهي منسجمة مع الإيمان؟

نقول: لأن للشهوة بريقاً سطحياً، وهذا البريق السطحي يجذب الإنسان كما تجذب النار الفراش[١].

عندما يُوقد الإنسان ناراً ما في الخلاء، فضوؤها يجذب الفراش، ويحترق الفراش بنيران الضوء، فقد جذبه النور وأغراه، ولكنه لم يعرف أن مصرعه في تلك النار.

والحكمة العربية تقول: «**رُبَّ نفسٍ عشقتْ مصرعها**».

كذلك في الشهوات، تتزين الشهوة للإنسان فتجذبه إليها، فيكون فيها مصرع الإنسان[٢].

لكن... ما الحماية للإنسان من ذلك؟

إن الحماية هي في منهج اللَّه «افعل» و«لا تفعل»، فمن يُرِدْ أنْ ينقذ نفسه من كيد الشيطان وكيد النفس، فعليه أن يخضع لمنهج اللَّه في «افعل» و«لا تفعل».

إنه من الحمْق أن يصنع صانعٌ صَنْعة ما، ثم ينسى أن يضع لها قانون الصيانة، والإنسان في حدود صناعته لا ينسى ذلك، فما بالنا بالحق ـ سبحانه ـ بطلاقة قدرته؟

إن الخالق ـ سبحانه ـ قد صنع الإنسان، ووضع الحق ـ سبحانه ـ قانون صيانة صَنْعته في الإنسان فقال ـ جَلَّ وعلا: افعل كذا، ولا تفعل كذا.

فمَنْ أراد أن يعتصم بالحبل المتين فلا يأتي له نزغ[٣] شيطان أو كيد

---

(١) الفراش: دواب مثل البعوض تطير، واحدتها فراشة. والفراشة: التي تطير وتتهافت في السراج، والجمع فراش. وفي المثل: أطيش من فراشة. والفراش: الخفيف الطيَّاشة من الرجال. (لسان العرب مادة: فرش).
وقد ورد ذكر الفراش في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤].
المبثوث: الكثير المنتشر على غير نظام كالفراش.

(٢) عن أنس بن مالك رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «حفّت الجنة بالمكاره، وحفّت النار بالشهوات» أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٢٢) والترمذي في سننه (٢٥٥٩).

(٣) النزغ: أن تنزغ بين قوم فتحمل بعضهم على بعض بفساد بينهم.
والنزغ: الكلام الذي يُغري بين الناس. نزغ الشيطان: وساوسه ونَخْسه في القلب بما =

عدو، ولا هوى شيطان، فليعتصم بمنهج اللَّه، لأن اللَّه هو الذي خلقه، وهو الذي وضع منهجه كقانون لصيانة صنعته، وهو القانون الموجز في «افعل» و«لا تفعل».

ومن حكمة الخالق ـ سبحانه ـ أنْ مَيَّز الإنسان على سائر الأجناس، مَيَّزه بالعقل، ومهمة العقل أن يختار بين البديلات، أما إذا كان هناك أمر ليس له بديل، فليس للعقل عمل فيه.

إذن: فالعقل لا عمل له إلا الاختيار بين البديلات، وإذا أراد العقل أن يختار بين البديلات ألا نضمن له حرية الاختيار، أم نُقيِّد حرية الاختيار لديه؟

إنك إنْ قيَّدتَ حرية الاختيار بالإكراه فقد أخذت النعمة التي أعطيتها له، وجعلته مقهوراً مُسخّراً مُكْرهاً، ولذلك فالمكْره لا يكون له حكم على الأشياء، بل هو مُجْبر ومُسَخَّر.

وما دُمْتَ تقول: إن العقل هو الذي يختار بين البديلات، فلا بُدَّ أن يكون حَقُّ الاختيار موجوداً، فإن كان في الإنسان عطب[1] كأن يكون مجنوناً، فلا اختيار له، وإن كان العقل موجوداً لكنه لم ينضج بعد[2] نقول أيضاً: لا اختيار.

إذن: فلا بد أن يكون العقل موجوداً وناضجاً للاختيار بين البديلات، ويكون

= يُسَوِّل للإنسان من المعاصي، (لسان العرب ـ مادة: نزغ). وقد جاء معنى التحريش بين الناس وإيقاع العداوة بينهم في حديث يوسف عليه السلام مع أبيه: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَايَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ . . .﴾ [يوسف: ١٠٠].

ولذلك وجّه الحق سبحانه المؤمنين إلى الاستعاذة باللَّه من نزغ الشيطان. وذلك في آيتين:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

وكلاهما في العفو عن الناس والتجاوز عن إساءاتهم.

(١) العطب: أصله في اللغة الهلاك. وعطب الفرس والبعير: انكسارهما أو هلاكهما، وقد يعبر به عن آفة تعتريه، تمنعه عن السير. فيُنحرْ. والعطب: الفساد (راجع لسان العرب ـ مادة: عطب).

(٢) أي: الذي لم يبلغ الحلم، أي كل من بلغ سِنَّ الحلم وجرى عليه حكم الرجال، احتلم أو لم يحتلم. وهو مناط التكاليف.

ومن حديث رسول اللَّه ﷺ: «رفع القلم عن ثلاث: عن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يحتلم».

للإنسان حرية أن يختار، فإن لم يكن العقل موجوداً فهو مجنون فلا تكليف له.

والمجنون قد سلبه اللَّه أعزَّ ما أعطى للإنسان وهو العقل، لكن أعفاه اللَّه أن يسأله أحدٌ عن شيء، فيفعل ما يفعل دون سؤال، فلا تكليف لمجنون، وكذلك لا تكليف من قبل البلوغ.

لقد اغترَّ الإنسان بعقله وقال: أنا لي عقل يختار بين البديلات، وأقبل تحمُّل الأمانة، وسوف أؤدي كل مطلوبات الأمانة، لأني أقدر على الاختيار.

لقد ادَّعى الإنسان لنفسه القدرة على أداء الأمانة، وكأنه قد وثِق من نفسه أنه سيؤديها، وهو لا يعلم بأي شيء حَكَم ذلك الحُكْم على أمر غيبيٍّ مُستقبلي.

صحيح، أنه ساعة التحمُّل كان في نيّته أن يؤدي الأمانة، لكن ماذا عن ساعة الأداء؟

وأنت لا تعرف ماذا تجيء به الأحداث والأغيار معك، فقد يأتي لك ظرف تُضطر أن تُبدِّد فيه الأمانة؛ لذلك تجد العاقل هو مَنْ يقول: ابعد عنِّي أمانة الاختيار؛ لأنِّي لا أعلم ماذا ستفعل بي الأغيار لحظة الأداء.

مثلما يأتي لك إنسان لِيُودع عندك ألفاً من الجنيهات كأمانات، ولكن أتظل على الأمانة؟ أم أنك قد تنكر المال أصلاً حين يطالبك به صاحبه، أو قد تمرُّ بك أزمة مالية، فتتصرف بهذا المال؟

ولذلك تجد الذكي هو مَنْ يقول لمودع هذا المال: «احفظ عليك مالك، لأنِّي من الأغيار».

وتلك هي القضية الإيمانية الأصيلة في الكون كله، لأن الحق ـ سبحانه ـ هو القائل:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ(١) مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا(٢)﴾ [الأحزاب: ٧٢].

---

(١) أشفقت من الشيء: حَذِرْته. والإشفاق: الخوف. والشفقة: رقة من نُصح أو حب يؤدي إلى خوف.

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦]، أي: كنا في أهلنا خائفين لهذا اليوم. (لسان العرب ـ مادة: شفق).

(٢) الجهل: نقيض العلم. والجهالة: أن تفعل فعلاً بغير العلم. وجهل فلان على غيره: تعدّى =

والأمانة هي ما يكون في ذمة المؤتمن، ولا حجة للمؤتمن عنده إلا ذمته، ولا شهود عليه، ولا يوجد إيصال بتلك الأمانة، بل هي وديعة لا توثيق فيها إلا ذمة المؤتمن قد يُقرُّ بها، وقد يُنكرها.

وكل ما دون الإنسان أعلن عدم تحمُّل الأمانة وقَبِل التسخير، أما الإنسان فأعلن قبول الأمانة وأنه سيؤديها.

ولذلك وصفه القرآن الكريم بقوله:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ظلوماً: لنفسه؛ لأنه حمّل نفسه شيئاً ليس في يده.

جهولاً: لأنه قاس وقت التحمُّل، ولم يذكر وقت الأداء، فلم يضع في الاعتبار ما سوف تفعل به الأغيار.

ونحن نرى أن ما دون الإنسان من طائر أو حيوان لا يفسد شيئاً؛ لأن غريزته تقوده، فلا نجد حيواناً يأكل فوق طاقته، لكننا نجد إنساناً يصيب نفسه بالتخمة(١).

ولا نجد حماراً يقفز فوق قناة من الماء لا يقدر عليها، بل نراه وهو يتراجع عنها، ولكننا نجد إنساناً يُشمِّر عن ساعديه، ليقفز فوق قناة مياه، فيقع فيها.

فمَنْ أعطاه اللَّه ـ سبحانه ـ البدائل هو الذي يُفسد الاختيار، ما دام لا يحرس الاختيار بالإيمان، وأن يختار في ضوء منهج اللَّه ـ تعالى.

إذن: فنحن بأهوائنا التي تسيطر على غرائزنا نُوقع أنفسنا فيما يضرُّنا، ما

= عليه وتسافه وقسا. والجهل: الطيش والسفه والتعدي بغير حق. ويتحدد معنى الجهل بما يناسب المقام، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]، يحتمل المعنيين: الخلو من المعرفة أو الطيش والسَّفه. وقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، أي: الخالي من المعرفة بأحوالهم وبمقدار حاجتهم، وقوله: ﴿يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ . . .﴾ [النساء: ١٧]، أي: بطيْش وسَفَه وعدم تبصُّر.
وقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

(١) التخمة: الذي يصيب الإنسان من الطعام إذا استوخمه. أي: استثقله. وقد تطلق التخمة على كثرة الطعام والمبالغة في الأكل والشرب حتى يثقل على الجسم هضم الطعام، فيصاب الإنسان بالوخم والثقل وعدم القدرة على الحركة. (اللسان ـ مادة: وضم).

لم نحرس أنفسنا بمنهج اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ فما دُمْت قد حملتَ الأمانة فعليك أن تُؤدِّيها، وإلا كنت خائناً لعهد اللَّه، والأمانة هي ما استُؤْمِنْت عليه، وأول شيء استُؤمنت عليه هو عهد الإيمان باللَّه، فأنت آمنتَ باللَّه، وما دُمْتَ آمنتَ به فعليك أن تنفذ أمره، وأن تلتزم بمنهجه.

والحق ـ سبحانه ـ ينادي عباده المؤمنين فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ[1] أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

فإذا كان اللَّه يقول لنا: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ . . .﴾ [الأنفال: ٢٧].

فعلينا أن نلتزم؛ لأن التشريع وصلنا من اللَّه بواسطة الرسول، ومَنْ يطع الرسول فقد أطاع اللَّه؛ لأن اللَّه لم يخاطبنا مباشرة، بل خاطب رسولاً اصطفاه[2]، مَنْ خلقه، وأيَّده بمعجزة، وكلُّ بلاغ وصلنا إنما كان بواسطة الرسول.

فلا تَخُن اللَّه فيما جاء في القرآن، وجاء من الرسول المفوّض من اللَّه بأن يُشرِّع.

فللَّه أمانة فيما نصَّ عليها القرآن، وللرسول أمانة فيما لم ينص عليه القرآن إلا بتفويض قائل القرآن للرسول ﷺ بأن يُشرِّع، فإنْ أطعْتَ هذا الرسول فقد أطعتَ اللَّه.

والإنسان حين آمن يصبح للإيمان في النفس أمانة، فأنت قد آمنتَ أنه لا إله إلا اللَّه، وأمانة هذا الإيمان تقتضيك ألَّا تجعل لمخلوق ولاية عليك، ولا

---

(١) خانه يخونه: غدر به. وخان الحق: نقصه. وخان العهد: لم يَفِ به، فهو خائن. وخان الأمانة: لم يؤدِّها كاملة. وخوَّان: صيغة مبالغة. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧]. واختانه يختانه: خانه وبالغ في خيانته أو تعوَّد عليها وكررها، فزيادة المبْنى تدل على زيادة المعنى. قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡ . . .﴾ [النساء: ١٠٧]، أي: تعودوا على الخيانة مراراً، يخون بعضهم بعضاً فكأنهم يخونون أنفسهم، ومن خان الناس فقد خان نفسه وأوقعها في العذاب.

(٢) استصفى الشيء واصطفاه: اختاره. والاصطفاء: الاختيار.
واصطفاه: اختاره وآثره وفضّله. قال تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢]، اختارك وفضَّلك. وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ . . .﴾ [الحج: ٧٥].

ولاء له، إلا أن يكون هذا الولاءُ نابعاً من اتباع منهج اللَّه ـ تعالى ـ وهذه هي أمانة الشهادة.

أما أمانة الرسالة في الحرص على تطبيق كل ما بلَّغه الرسول ﷺ عن ربه قَدْرَ الاستطاعة.

إذن: فالأمانة مع اللَّه ـ تعالى ـ أن تلتزم بكلمة الإيمان في أنه لا إلٰه إلا اللَّه، وإياك أن تعتقد في أن أحداً يمكنه أن يتصرف فيك، أو يملك لك ضراً أو نفعاً، أو أن مصالحك ممكن أن تُقْضى بعيداً عن اللَّه، فكل شيء بيد اللَّه ـ سبحانه ـ صاحب الحول[١] والطول[٢]، لا إلٰه إلا هو.

وإياك أن تفهم أن حكماً يجيء لك عن غير طريق رسول اللَّه ﷺ؛ لأنك إنْ خرجت عن هذا الإطار تكون إنساناً لم يؤدِّ أمانة اللَّه ولا أمانة الرسول.

والقمة في الأمانة هي الإيمان باللَّه والإيمان بالرسول ﷺ، واللَّه قد أمر بأحكام، وحين تقبلها فلها أمانة، وأمانتها هي أداؤها من غير نقص في شيء، سواء كان عاماً أو خاصاً، ولو في الحديث يجري أمامك.

وتمتد أمانة الإيمان إلى كل شيء، مثل أمانة أي مجلس توجد فيه، فلا يحقُّ لك أن تنقل أسرار غيرك إلى هذا المجلس أو أسرار المجلس إلى آخرين.

ونعرف رجلاً من قادة العرب هو زياد ابن أبيه[٣]، وكان شديد الحزم،

---

(١) الحول: الحيلة والقوة. قال ابن سيده: الحَوْل والحَيْل والحِوْل والحيلة والحويل والمحالة والاحتيال والتحوُّل والتحيُّل، كل ذلك: الحِذْق وجودة النظر والقدرة على دقة التصرف. (لسان العرب ـ مادة: حول).

(٢) الطول: الغنى والفضل والقدرة والسَّعة والعُلُوّ.
يقول تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣]، (لسان العرب ـ مادة: طول) قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٧٠): قال عكرمة: «(ذي الطول) ذي المنّ. وقال قتادة: ذي النعم والفواضل. والمعنى أنه المتفضل على عباده المتطوِّل عليهم بما هم فيه من المنن والإنعام التي لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها».

(٣) زياد ابن أبيه، أمير من الدهاة القادة الفاتحين الولاة، من أهل الطائف، ولد عام الهجرة، أدرك النبي ﷺ ولم يره، أسلم في عهد أبي بكر، ألحقه معاوية بنسبه عام ٤٤هـ، توفي عام ٥٣هـ (الأعلام للزركلي ٣/ ٥٣).

فوشى واشٍ[١] بهمام بن عبد اللَّه السلولي إلى زياد، وتوقع القوم عقاباً صارماً بهمام؛ لأن زياداً كان يأخذ بالظن[٢]، لكن اللَّه ألهم هماماً كلمة، ظلت دستوراً يطبق.

واستدعى زيادٌ همّاماً.

قال زياد: بلغني أنك هجوتني[٣].

قال همام: كلا، أصلحك اللَّه، ما فعلت ولا أنت لذلك بأهل.

فقال زياد: إن هذا الرجل ـ وأخرج الرجل من الخباء[٤] ـ أخبرني.

فنظر همام إليه فوجده جليساً له وصديقاً ومؤنساً، فلما رآه كذلك أقبل عليه، وقال:

أنت امرؤ إما ائتمنتك خالياً ... فَخُنْتَ، وإما قلت قولاً بلا علم

فَأُبْتَ[٥] من الأمر الذي كان بيننا ... بمنزلة الخيانة والإثم

---

(١) وشى به وشاية: نَمَّ به. ووشى به إلى السلطان وشاية أي سعى. وهو واشٍ، وجمعه وشاة. (لسان العرب ـ مادة: وشى).

(٢) الظنون: الرجل السيئ الظن: وقيل: السيئ الظَّنِّ بكل أحد. والظنين: المتهم الذي تُظنُّ به التهمة. والظن: ما يحصل في النفس عن أمارة، فهو شكٌّ راجح، وفعله من أفعال الرجحان. والظن: اسم لهذا الخاطر الذي يحصل في النفس، قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨]، وجمعه ظنون.

ويستعمل الظن بمعنى اليقين مجازاً للدلالة على أنه كافٍ في الهداية لو كان ظناً فكيف لا يهدي وهو يقين، وكثير من الناس يدَّعون اليقين ولا يفعلون ما يقتضيه، فقوله تعالى: ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠].

(٣) هجاه يهجوه هَجْواً، وهجاء: شتمه بالشعر، وهو خلاف المدح. والمرأة تهجو زوجها: تذم صحبته.. (لسان العرب ـ مادة هجا).

(٤) الخباء من الأبنية: هو ما كان من وبر أو صوف ولا يكون من شعر، وهو على عمودين أو ثلاثة، وما فوق ذلك فهو بيت (اللسان ـ مادة: خبا).

(٥) آب إلى الشيء: رجع. وآب الغائب يؤوب مآباً: إذا رجع. ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥]، أي: رجوعهم. والمآب: المرجع، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد: ٢٩].

وقال أهل اللغة: الأوَّاب الرجَّاع الذي يرجع إلى التوبة والطاعة. قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧]. (لسان العرب ـ مادة: أوب).

أي: إما أنك خائن أو آثم، فإن كنت قد ائتمنتُك على كلمة نفَّسْتُ[١] بها عن نفسي، فأنت خائن، وإن كنت اختلقتها[٢] عليَّ فأنت كاذب.

فأعجب زياداً هذا المنطق، وأقْصَى[٣] الواشي ولم يتقبل منه.

ويُقال: إنه خلع على همام الصلة والعطايا، فكان همام حين يرى الواشي يقول له: هل لك في وشاية أخرى تغنيني.

والحق ـ سبحانه ـ يحمي حُمْق الاختيار الذي وُجِد في الإنسان حين لا يلتزم بمنهج اللَّه، ولو أن الإنسان كان مُسَيَّراً ومُكْرهاً على الفعل لارتاح من هذا الاختيار.

وتَعَبُ الإنسان جاء من ناحية أنه اغترَّ بميزته على سائر خلق اللَّه، والميزة التي ميَّز اللَّه بها الإنسان هي العقل الذي يختار به بين البديلات، بينما سائر الأجناس كلها رضيتْ من اللَّه أن تكون مسخرة مقهورة على ما جعلها له بدون اختيار.

وتتجلى حماية الحق ـ سبحانه ـ للإنسان من حُمْق اختياره في قوله تعالى:

﴿إِن تَجْتَنِبُواْ[٤] كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ[٥] عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

---

(١) نفَّسْتُ: رفَّهت. يُقَال: اللهم نفِّس عني: أي فرِّج عني ووسِّع عليَّ. ونفست عنه تنفيساً أي: رفَّهت. يقال: نفَّس اللَّه عنه كربته أي فرَّجها. (لسان العرب ـ مادة: نفس).

(٢) خلق الكذب والإفك يخلقه وتخلَّقه واختلقه وافتراه: ابتدعه. والاختلاق: الكذب، وهو افتعال من الخلق والإبداع، كأن الكاذب تخلَّق قوله. (لسان العرب ـ مادة: خلق).

(٣) قصا عنه: بعد. والقصيّ والقاصي: البعيد. والجمع أقصاء. وقصوت عن القوم: تباعدت. وأقصيته أنا فهو مُقْصًى، ولا تقل مَقْصيّ. (اللسان ـ مادة: قصا).

(٤) جنَّب الشيء وتجنَّبه وجانبه وتجانبه واجتنبه: بَعُد عنه. واجتنب الشيء: تباعد عنه. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ ...﴾ [الشورى: ٣٧]. وتجنب الشيء: تباعد عنه. قال تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾ [الأعلى: ١١]، يبعُد ويُعرض عن الذكرى.

(٥) تكفير الخطايا والذنوب: محوها وسترها. وكفر الشيء: ستره وغطَّاه، وهو أصل المادة، فكأن الكافر يستر النعمة ويستر الحق ويُخفيه. كفَّر اللَّه السيئات: سترها ومحاها ولم يعاقب عليها. قال تعالى: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

فهذه الآية هي إحدى ثماني آيات قال عنها ابن عباس رضي اللَّه عنهما[١]:

«**ثماني آيات نزلت في سورة النساء خَيْر لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت**»:

أولهن: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ[٢] ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦].

الثانية: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

الثالثة: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

الرابعة: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

الخامسة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

السادسة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ[٣] إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

السابعة: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

الثامنة: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

---

(١) حديث ابن عباس أورده ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٤٨) وعزاه لابن جرير الطبري من طريق صالح المري عن قتادة عن ابن عباس. وأورده السيوطي في تفسيره (الدر المنثور) (٢/ ٤٥٣) وعزاه لابن جرير وابن أبي الدنيا في التوبة والبيهقي في الشعب.

(٢) السنة في الأصل سنة الطريق، وهو طريق سَنَّه أوائل الناس فصار مسلكاً لمن بعدهم. وسَنَّ فلان طريقاً من الخير يسُنُّه إذا ابتدأ أمراً من البِرِّ لم يعرفه قومه فاسْتَنُّوا به وسلكوه. والسنة: الطريقة. والسَّنَن أيضاً. (لسان العرب ـ مادة: سنن).

(٣) افترى القول اختلقه واخترعه. والفرية والفَرِيُّ: الكذب الواضح والأمر العظيم المنكر. قال تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧]، أي: منكراً عظيماً مُفترى مُخْترعاً. وافترى عليه الكذب اخترعه. قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٩٤]، أي: اختلقه.

هذه الآيات الكريمات كانت خَيْراً لهذه الأمة مما طلعتْ عليه الشمس أو غربتْ، فهي طمأنت الإنسان على أنه إنْ حَمُقَ[1] اختياره في شيء:

فاللَّه يريد أن يُبصِّره.

واللَّه يريد أن يتوبَ عليه.

واللَّه يريد أن يُخفف عنه.

واللَّه يريد إن اجتنب الكبائر أن يرفع عنه السيئات ويُكفِّرها.

كل هذه مُطَمئنات للنفس البشرية حتى لا تأخذها مسألة اليأس من حُمْق الاختيار.

فيُطمئن الحق ـ سبحانه ـ الإنسان:

أنا خالقك، وأعرف أنك ضعيف لأن عندك مسلكين. كل مسلك منهما يُغريك:

ـ تكليف اللَّه بما فيه من الخير لك، وما تنتظره من ثواب اللَّه في الآخرة يُغري.

وشهوة النفس العاجلة تُغري.

وما دامت المسألة قد تخلخلتْ بين اختيار واختيار؛ فالضعف ينشأ؛ لذلك يوضح الحق ـ سبحانه ـ أنه يحترم هذا في الإنسان لأنه وليد الاختيار، وأنه ـ سبحانه ـ الذي وَهَب له هذا الاختيار.

والحق ـ سبحانه ـ حين وهب هذا الاختيار لهذا الجنس الذي هو سيد الأجناس كلها، فإنه ـ تعالى ـ يحب أن يأتي ربه راغباً مُحِباً.

وتحقيقُ الأمر أن كَوْن اللَّه كله مُخْتار، لكن بعض الخلق كالسماوات والأرض والجبال اختار ألَّا يكون مختاراً، بل اختاروا أن يكونوا مُسخَّرين طائعين لمراد اللَّه.

---

(١) الحمق: ضد العقل. والحمق: قلة العقل. واستحمق الرجل إذا فعل فِعْل الحمقى. وحقيقة الحمق: وضع الشيء في غير موضعه مع العلم بقُبحه. (لسان العرب ـ مادة: حمق).

يقول الحق ـ سبحانه:

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ[١] فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا[٢] طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

فالسماء والأرض والجبال طلبت أن تكون مُسخَّرة لإرادة اللَّه، ليس لها هَوَىً أو اختيار أو إرادة، فالحق ـ سبحانه ـ لم يقهر كل الوجود، ولكنه كما خيَّر الإنسان خيَّر بقية الأجناس، فخيَّر السماوات والأرض والجبال في حمل الأمانة، فأبتْ واختارت أن تكون مقهورة لا اختيار لها.

فلا أحد من هذه الكائنات له اختيار أنْ يعمل أو لا يعمل، بل كلها مُسخَّرة؛ ولذلك تجد النواميس الكونية التي لا دَخْل للإنسان فيها ولا لاختياراته دَخْلٌ في أمورها تسير بنظام دقيق، ففي الوقت الفلاني ستأتي الأرض بين الشمس والقمر، وفي الوقت الفلاني سيقع القمر بين الأرض والشمس، وسيحدث للشمس كسوف[٣]، وسيحدث للقمر خسوف[٤]، وكل أمر من هذا له حساب دقيق.

---

(١) يطلق الدخان على ما يرتفع فوق النار من غازات لم يتمَّ احتراقها. وقد يطلق على البخار وما يشبهه من الغازات المتصاعدة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ . . .﴾ [فصلت: ١١]، أي: أن مواد النجوم كانت في حالة غازية كالدخان، ثم خلق منها السماوات والأرض.

(٢) أي: استجيبا لأمري وانفعلا لفعلي. طائعتين أو مكرهتين. قاله ابن كثير في تفسيره (٤/ ٩٣).

(٣) كسف القمر وكذلك الشمس: ذهب ضوؤها واسودَّت. قال أبو زيد: كسفت الشمس إذا اسودَّت بالنهار، وكسفت الشمس النجوم إذا غلب ضوؤها على النجوم فلا يبدو منها شيء. (لسان العرب ـ مادة: كسف). وقال في القاموس القويم (١/ ١٩٤): «خسوف الشمس أو كسوفها يقع في أواخر الشهر العربي في أيام المحاق، وسببه توسط القمر بين الأرض وبين الشمس فيحجب القمر الشمس، ويقع ظل القمر على الأرض فلا يصل إليها ضوء الشمس، وقد يحجب جزءاً من الشمس ويُسمّى كسوفاً أو خسوفاً جزئياً».

(٤) خسوف القمر في الدنيا هو ظاهرة فلكية يحسب مواعيدها علماء الفلك بكل دقة، وهي مسجلة في جداول ثابتة لا تتغير، ويحدث الخسوف دائماً في وسط الشهر العربي والقمر بدر وسبب الخسوف وقوع ظل الأرض على القمر حين تتوسط الأرض على القمر بين الشمس وبين القمر، وبما أن القمر يكتسب نوره من الشمس فإنه يخسف إذا وقع عليه ظل الأرض فتحجب الأرض نور الشمس عنه، ويظل ينكشف الظل شيئاً فشيئاً حتى يعود القمر إلى كماله كما كان قبل الخسوف».

وقد عقد الحق ـ سبحانه ـ مقارنة بين قوم اتصفوا بالأمانة مع الخَلْق، وآخرين كانوا على النقيض من ذلك، فقال ـ تعالى ـ:

﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ (١) يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ (٢) لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا (٣) . . . ﴾ [آل عمران: ٧٥].

إنه مُطلق الإنصاف الإلٰهي، فإذا كان الحق ـ سبحانه ـ قد كشف للرسول ﷺ بعضاً من مَكْر أهل الكتاب، فذلك لا يعني أن هناك حملة على أهل الكتاب، وكأنهم كلهم أهل سوء.

لا، بل منهم مَنْ يتميز بالأمانة، وهذا القول إنما يؤكد إنصاف الإلٰه المنصف العدل.

فساعة يقول اللَّه: إن بعضاً من أهل الكتاب يتميزون بالأمانة فإن مَنْ تراوده فكرة الإسلام يقولون: إن محمداً ﷺ لا يتكلم إلا عن نور من ربه.

لكن لو عمَّم القرآن الحكم على الكل، لتساءل الذين يشعرون بالرغبة في الإيمان بما جاء به رسول اللَّه ﷺ: «**لماذا يعمّ الحكم الجميع، ونحن نسير في الطريق إلى الإيمان**».

ولهذا يضع الحق ـ سبحانه ـ القول الفَصْل في أن منهم أناساً يتجهون إلى الإيمان:

---

(١) اختلف المفسرون في مقدار القنطار على أقوال وحاصلها أنه المال الجزيل. فقيل: ألف دينار. وقيل: اثنا عشر ألفاً. وقيل: أربعون ألفاً. وقيل: ستون ألفاً. وقيل غير ذلك. قاله ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٥١)، فالقنطار: المقدار الكبير من المال. وجمعه قناطير. قال تعالى: ﴿ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ . . . ﴾ [آل عمران: ١٤]، والمقنطرة: المتمَّمة، كما قالوا: ألف مؤلَّفة مُتَمَّمة. (لسان العرب ـ مادة: قنطر).

(٢) الدينار: فارسي معرب، وأصله دِنَّار. قال أبو منصور: دينار وقيراط وديباج أصلها أعجمية، غير أن العرب تكلمت بها قديماً فصارت عربية. (لسان العرب ـ مادة: دنر).

(٣) قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٧٤): «أي ما دمت عليه قائماً بالمطالبة والملازمة والإلحاح في استخلاص حقك، وإذا كان هذا صنيعه في الدينار فما فوقه أَولى أن لا يؤدّه إليك».

﴿لَيْسُوا[١] سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ[٢] ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

وفي هذا ما يُطمئن الذين شغلوا أنفسهم بدراسة هذا الدين، والتفكير في أن يؤمنوا برسول اللَّه ﷺ.

لو كان القرآن قد نزل بلغتهم جميعاً لَقَالَ الذين يفكرون منهم في الإيمان: «**نحن لسنا كذلك، ولا نستحق اللعنة، فلماذا يأتي محمد بلعنتنا؟**».

وقد قال بعض المفسرين: إن القرآن يقصد هنا من أهل الكتاب النصارى، لأن منهم أصحاب ضمير حي، ونحن نعرف أن المقصود بأهل الكتاب هم اليهود والنصارى.

وفي هذا التفسير إنصاف للنصارى، فصفة الخير لهم لا ينكرها اللَّه[٣]، بل يشيعها[٤] في قرآنه الذي يتلى إلى يوم الدين، وذلك ليصدق أيضاً أهل الكتاب أي أمر سيّئ تنزل فيه آيات من القرآن.

---

(١) قال ابن مسعود في تفسير هذه الآية: لا يستوي أهل الكتاب وأمة محمد ﷺ.
قال ابن كثير (١/ ٣٩٧): «يؤيد هذا القول الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث ابن مسعود قال: أخّر رسول اللَّه ﷺ صلاة العشاء، ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال: «أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر اللَّه هذه الساعة غيركم»... والمشهور عند كثير من المفسرين أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبد اللَّه بن سلام. أي: «لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب وهؤلاء الذين أسلموا».

(٢) قال أهل اللغة: آناء الليل ساعاته، واحدها (مفردها) إنْي وإنيٌ. (لسان العرب ـ مادة: أنى).

(٣) يقول الحق سبحانه عنهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ * وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ * فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٢ ـ ٨٥].

(٤) شاع الخبر في الناس: انتشر وتفرق وذاع وظهر. وأشاع ذكر الشيء: أطاره وأظهره. وأشعت السر شعْتُ به إذا أذعت به. (لسان العرب ـ مادة: شيع)، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

فالقرآن منصف مطلق الإنصاف، فما دام قد قال خصلة الخير فيهم، فلا بد أن يكون صادقاً عندما يقول الأمور السيئة التي اتصفوا بها.

والذين يسلكون مسلك خيانة الأمانة من أهل الكتاب إنما اتخذوه منهجاً بدافع عقديٍّ في أذهانهم، ولذلك قال الحق ـ سبحانه ـ عنهم:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ . . .﴾ [آل عمران: ٧٥].

وقد قام بعض بني إسرائيل على عهد رسول اللَّه ﷺ بخديعة الأميين من العرب المؤمنين، فأنكروا حقوقهم.

والمقصود بالأميين هنا المؤمنون الذين لم يكونوا من أهل الكتاب، أو أن يكون المقصود بالأميين أهل مكة[(١)]. ولكن من أين جاء أهل الكتاب بهذا الأسلوب المزدوج في معاملة الناس؟

ومن الذي وضع هذا المنهج الذي يقضي بخديعة المؤمنين الأميين؟

وهل الفضائل ومنازل الخلق تختلف في المعاملة من إنسان إلى آخر؟

وهل يقضي الخُلق القويم أن يأخذ إنسان الأمانة وينكرها إذا كانت لرجل أميّ؟ ويرد الأمانة ويعترف بها إن كانت ليهودي؟

هل يصح أن يُقرض إنسان أمواله بالربا لغير اليهود، ويقرض اليهود دون ربا؟

إذن: تكون هذه المعاملات مُجْحفة[(٢)]، هنا فضيلة، وهناك لا فضيلة، لا، إن القضية يجب أن تكون مُسْتوية ومكتملة في كل وقت وكل زمان ولكل إنسان، ولا ينبغي أن تتنوع.

من أين إذن جاؤوا بهذا القول، وهم أهل كتاب؟

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٧٤): «إنما حملهم على جحود الحق أنهم يقولون: ليس علينا في ديننا حرج في أكل أموال الأميين وهم العرب فإن اللَّه قد أحلها لنا، قال اللَّه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، أي: وقد اختلقوا هذه المقالة، وائتفكوها بهذه الضلالة. فإن اللَّه حرم عليهم أكل الأموال إلا بحقها وإنما هم قوم بهت».

(٢) الجحف والمجاحفة: أخذ الشيء واجترافه. وأجحف به: أي ذهب به. وأجحف بهم الدهر: استأصلهم. (لسان العرب ـ مادة: جحف).

إن هذا ضد منهج الكتاب الذي أنزله اللَّه عليهم، بل هو من التحريف والتحوير[(١)]، لقد خدعوا أنفسهم وألصقوا بالتشريع ما ليس فيه، فالكتاب السماوي الذي نزل عليهم ليس به تصنيف البشر صنفين:

صنف هم أهل الكتاب، ولهم معاملة خاصة.

وصنف هم الأميون، ولهم معاملة أخرى.

وكان عليهم أن يتعلموا من عدالة رسول اللَّه ﷺ في معاملتهم.

والذين[(٢)] استباحوا خيانة الأمانة من أهل الكتاب، إنما عميت بصيرتهم عن أن رسول اللَّه ﷺ قد نال الشهرة بالأمانة، سواء قبل الرسالة أو بعدها، وعميت أبصارهم.

إن الدين الحقَّ لا يُفرِّق في أداء الأمانة بين صنف من البشر، وصنف آخر، فالدين الحق يضم تشريعاً من إلٰه خلق الجميع، وهكذا نجد أن تشريعهم بالتفرقة في أداء الأمانة هو تشريع من عند أنفسهم، وليس من الرب المتولي شؤون خلقه جميعاً.

وهم في هذا ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

يعلمون ماذا؟

يعلمون أن قولهم كذب، فهم يعرفون الحكم الصحيح وينحرفون عنه، ويا ليتهم قالوا: إن ذلك الحكم من عند أنفسهم، لكنهم ينسبون ذلك إلى تعاليم دينهم، وتعاليم الدين ـ كما قلنا ـ مأخوذة من اللَّه.

وهم بذلك ـ والعياذ باللَّه ـ يفترون على اللَّه كذباً بأنه خلق خلقاً، ثم صنّفهم صنفين:

---

(١) ولذلك قال الحق سبحانه عنهم: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨].

(٢) أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج في الآية قال: بايع اليهود رجال من المسلمين في الجاهلية. فلما أسلموا تقاضوهم ثمن بيوعهم فقالوا: ليس علينا أمانة، ولا قضاء لكم عندنا لأنكم تركتم دينكم الذي كنتم عليه، وادعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم، فقال اللَّه: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥]. أورده السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٤٤).

ـ صنفاً تؤدي الأمانة له.

ـ وصنفاً لا تؤدي الأمانة له.

وهكذا كذبوا على اللَّه ويعلمون أنهم كاذبون، وهذا هو الافتراء، وهم أيضاً يعلمون العقوبة التي تلحق من يكذب على اللَّه، ورغم ذلك كذبوا[(١)].

ثم يقول رسول اللَّه ﷺ تعقيباً على هذا الحديث القدسي:

«**فلم يلبث ـ أي آدم ـ في الجنة إلا ما بين الصلاة الأولى إلى العصر**[(٢)]، **حتى أخرجه الشيطان منها**».

يقول الحق ـ سبحانه:

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا[(٣)] حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

بعد أن خلق اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ آدم، وأمر الملائكة أن تسجد له، وحدث كفر إبليس ومعصيته، أراد اللَّه ـ جل جلاله ـ أن يمارس آدم مهمته على الأرض، وليقوم بحمل الأمانة التي حملها، والتي أبت السماوات والأرض أن يحملنها.

ولكن الحق ـ سبحانه ـ قبل أن يمارس مهمته أدخله اللَّه في تجربة عملية

---

(١) أوضح الحق تعالى هذه العقوبة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

(٢) أخرج الحاكم في مستدركه (٢/ ٥٤٢) عن ابن عباس أنه قال: «ما سكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس»، قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على الشرط الشيخين ولم يخرجاه». وقال عبد بن حميد في تفسيره عن الحسن قال: لبث آدم في الجنة ساعة من نهار، تلك الساعة ثلاثون ومائة سنة من أيام الدنيا. نقله ابن كثير في تفسيره (١/ ٨٠).

(٣) عيش رغد: كثير مخصب رفيه غزير. عيشة رغْد ورغَد: أي واسعة طيبة، والرغد: الكثير الواسع الذي لا يصيبك من مال أو ماء أو عيش أو كلأ (لسان العرب ـ مادة: رغد)، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]، وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٨٩): «رغد: أي هنيئاً سهلاً».

عن المنهج الذي سيتبعه الإنسان في الأرض، وعن الغواية التي سيتعرض لها من إبليس.

فاللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ رحمة منه لم يشأ أن يبدأ آدم مهمته في الوجود على أساس نظري؛ لأن هناك فارقاً بين الكلام النظري والتجربة.

قد يقال لك شيء وتوافق عليه من الناحية النظرية، ولكن عندما يأتي الفعل فإنك لا تفعل شيئاً.

إذن: فالفترة التي عاش فيها آدم في الجنة كانت تطبيقاً عملياً لمنهج العبودية، حتى إذا ما خرج إلى مهمته لم يخرج بمبدأ نظري، بل خرج بمنهج عملي تعرض فيه لافعل ولا تفعل. والحلال والحرام، وإغواء الشيطان والمعصية.

ثم بعد ذلك يتعلم كيف يتوب ويستغفر ويعود إلى اللَّه، وليعرف بنو آدم أن اللَّه لا يغلق بابه في وجه العاصي، وإنما يفتح له باب التوبة(١).

والحق ـ سبحانه ـ أسكن آدم الجنة، وبعض الناس يقول: إنها جنة الخلد التي سيدخل فيها المؤمنون في الآخرة.. وبعضهم قال: لولا أن آدم عصى لكنَّا نعيش في الجنة.

نقول لهم: لا، جنة الآخرة هي للآخرة، ولا يعيش فيها إنسان فترة من الوقت، ثم بعد ذلك يطرد منها، بل هي كما أخبرنا اللَّه ـ تعالى ـ جنة الخلد(٢)، كل من دخلها عاش في نعيم أبدي.

إذن: فما هي الجنة التي عاش فيها آدم وحواء؟

---

(١) يقول تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].
ويقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].
ويقول أيضاً: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

(٢) وصف تعالى جنة الآخرة بأنها جنة الخلد في قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا * لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ [الفرقان: ١٥، ١٦]، والخلق: دوام البقاء في دار لا يخرج منها. وخلد بالمكان: أطال الإقامة به. (لسان العرب ـ مادة: خلد).

هذه الجنة هي جنة التجربة، أو المكان الذي تمت فيه تجربة تطبيق المنهج.

والحق ـ سبحانه ـ يريد منهجاً يحكم حركة الحياة، ويضمن للخلافة في الأرض أن تؤدي مهمتها أداء يسعد الإنسان فيها في الدنيا وينعم في الآخرة.

لذلك كان لا بد أن يدرّب الحق ـ سبحانه ـ خليفته في الأرض على المنهج، حتى لا يتلقى المنهج تلقياً نظرياً، لذلك شاء الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ألا يجعل آدم يباشر مهمة الخلافة إلا بعد أن يعطيه تدريباً على المهمة في «افعل» و«لا تفعل» وحذره من العقبات التي تعترض «افعل» حتى لا تجيء في منطقة «لا تفعل».

وحذره كذلك من العقبات في منطقة «لا تفعل» حتى لا تجيء في منطقة «افعل».

واختار له مكاناً فيه كل مقومات الحياة وترفها[1] حتى لا يتعب في أي شيء أبداً في أثناء التدريب، وأوضح له أن هذه هي الجنة، وهي بستان جميل، فيه كل مقومات الحياة وترفها.

ونحن إذا قرأنا القرآن الكريم نجد أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قد أطلق لفظ الجنة على جنات الأرض، والجنة تأتي من لفظ «جن» وهو الستر، ذلك أن فيها أشجاراً كثيفة تستر من يعيش فيها، فلا يراه أحد، وفيها ثمرات تعطيه لاستمرار الحياة، فلا يحتاج إلى أن يخرج منها.

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ جعل الجنة كمكان فيه كل مقومات الحياة لآدم بصنع اللَّه ـ سبحانه ـ وإعداده، وأعطى له منها القدر الذي يعطي المقوم بلا فضلات تتعبه، ولا ينتفخ ولا يعاني من متاعب في الصحة.. إلخ.

والحق ـ سبحانه ـ قادر على كل شيء، بدليل أنه يرعى الجنين في بطن أمه، والجنين ينمو، والنمو معناه أنه يتلقى الغذاء، ولا يخرج منه فضلات، لأن الغذاء الذي يدخله اللَّه له على قدر النمو فقط.

---

(١) الترف: التنعم. والمترف: الذي قد أبطرته النعمة وسعة العيش. والمترف: المتنعم المتوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها. (لسان العرب ـ مادة: ترف).

وحين يكون ربنا هو الذي يمد جنة التدريب بالغذاء، فهو قادر على كامل الإعداد.

إذن: فالجنة التي وجد فيها آدم بداية ليست هي جنة الجزاء، لأن جنة الجزاء لا بد أن تأتي بعد التكليف، ولا يمكن أن يكون فيها تكليف، ومن يسكنها لا يخرج منها[١].

وآدم ـ كما علمنا ـ مخلوق للأرض، إذن: وجود الجنة هنا يعني أنها مكان التدريب على المهمة في الخلافة.

إذن: فهذه الجنة ليست جنة الخلد، وإنما هي جنة سيمارس فيها تجربة تطبيق المنهج.

ولذلك لا يقال: كيف دخل إبليس الجنة بعد أن عصى وكفر، لأن هذه ليست جنة الخلد.

والحق ـ سبحانه ـ جعل هذه الجنة مرحلة من مراحل ما قبل الاستخلاف[٢] في الأرض. إنها كانت تدريباً على المهمة التي سيقوم بها في الأرض.

---

(١) نقل ابن القيم اختلاف المفسرين والعلماء في الجنة التي أسكنها آدم وزوجه، هل هي جنة الخلد في السماء، أم جنة في الأرض على ربوة عالية من روابي الأرض، فقال: «قال منذر بن سعيد في تفسيره: وأما قوله تعالى لآدم: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ . . .﴾ [البقرة: ٣٥]، فقالت طائفة: أسكن اللَّه آدم جنة الخلد التي يدخلها المؤمنون يوم القيامة. وقال آخرون: هي جنة غيرها جعلها اللَّه له وأسكنه إياها ليست جنة الخلد. قال: وهذا قول تكثر الدلائل الشاهدة له والموجبة للقول به.

وقال أبو الحسن الماوردي في تفسيره: واختلف الناس في الجنة التي أسكناها على قولين:

أحدهما: أنها جنة الخلد.

الثاني: أنها جنة أعدها اللَّه تعالى لهما وجعلها دار ابتلاء. وليست هي جنة الخلد التي جعلها دار جزاء، ومن قال بهذا اختلفوا فيه على قولين:

أحدهما: أنها في السماء، لأنه أهبطهما منها.

الثاني: أنها في الأرض، لأنه امتحنهما فيها بالنهي عن الشجرة التي نهيا عنها دون غيرها من الثمار.

(٢) وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]. =

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

هو استكمال للمنهج، فهناك أمر ونهي، افعل ولا تفعل. ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، هذا أمر.

﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ [البقرة: ٣٥].

هذا أمر آخر.

أما قوله ـ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، فهو نهي.

وهذا أول منهج يعلم الإنسان الطاعة للَّه ـ سبحانه وتعالى ـ والامتناع عما نهى عنه، وكل رسائل السماء(١) ومناهج اللَّه في الأرض أمر ونهي، افعل كذا، ولا تفعل كذا.

= والخلافة والاستخلاف هنا عن اللَّه ـ سبحانه ـ لا كما قال البعض أنه خلافة بشر لبشر. أو خلافة عن الجن في الأرض وقد كانوا فيها، أو خلافة عن الملائكة.

يقول البهي الخولي في كتابه القيم «آدم ـ فلسفة تقويم الإنسان وخلافته»: «أما أنها خلافة عن اللَّه، فذلك ما نجد له وجوهاً من الاستدلال يطمئن إليها العقل منها: تنويه اللَّه به، فإنه سبحانه قد أعلنها، ومهد لها في الملأ الأعلى قبل إظهارها بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً . . .﴾ [البقرة: ٣٠]، أي: سأجعل في الأرض خليفة، وإنما يكون ذلك حين الحفاوة بالأمور الجليلة والأقدار ذات الشأن.

وليس من ذلك في شيء أن بشراً سيخلف بشراً في هذه الأرض أو خلقاً سواه، جناً أو غيره، فإن العقل ـ على فرض جواز ذلك ـ لا يرى في شيء منه أي ميزة تدعو للحفاوة بها، والتمهيد لها قبل ظهورها على النحو الذي بيّنا.

ومنها ما نلحظه في دعوة الملائكة إلى مودة ذلك الخليفة، والحفاوة به، والسجود له سجود تحية وتكرمة، وهو أمر خطير لا نجد له حكمة، إذا كان قد أريد لهذا الخليفة أن يكون خليفة لجن أو بشر أو نحوهما. . إنما تبدو الحكمة وتستقيم الدعوة حين نلحظ أن المحتفى به خليفة عن اللَّه جل شأنه». (طبعة دار التراث القاهرة ـ ص١٢١، ١٢٢).

(١) فكل الأنبياء والرسل جاؤوا بالأمر والنهي، حتى أولئك الرسل الذين لم تنزل عليهم كتب سماوية جاؤوا بالأمر والنهي فدعوتهم إلى عبادة اللَّه وحده أمر، ونهيهم عن عبادة غير اللَّه نهي، وبدهي أن الرسل مثل موسى وداود وإبراهيم ومحمد ﷺ جاؤوا بكتب بها تكاليف ونواه وأحكام شرعية، أما عيسى عليه السلام فلم يأت بشريعة جديدة، بل جاء بالدعوة إلى الالتزام بشريعة موسى عليه السلام، فهو رسول من بني إسرائيل أرسل لبني إسرائيل، ولذلك جاء في الإنجيل: «ما جئت لأنقض الناموس»، ولذلك قالت الجن عندما سمعت تلاوة رسول اللَّه ﷺ للقرآن: ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠]. فلم يذكروا كتباً أو شريعة لعيسى عليه السلام. قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٧٠): «لم =

وهكذا فإن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ضمن لآدم الحياة، وليست الحياة فقط ولكن رغداً، أي مباحاً وبلا تعب وعن سعةٍ، وبدون مشقة، كما أننا نلاحظ هنا أن المباح كثير والممنوع قليل.

فكل ما في الجنة من الطعام والشراب مباح لآدم، ولا قيد إلا على شيء واحد، شجرة واحدة[1] من بين ألوف الأشجار التي كانت موجودة في الجنة، شجرة واحدة فقط هي الممنوعة.

وإذا نظرت إلى منهج السماء إلى الأرض، تجد أن اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ قد أباح فيه نعماً لا تحصى ولا تعد، وقيَّد فيه أقل القليل، فالذي نهانا اللَّه عنه بالنسبة لنعم الأرض هو أقل القليل، كما كان في جنة آدم شجرة واحدة، والمباح بعد ذلك كثير.

وفي آية أخرى يقول الحق ـ سبحانه:

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ[2]﴾ [طه: ١١٨، ١١٩].

هذه عناصر الحياة التي وفّرها اللَّه لآدم وزوجه في جنة التجربة الإيمانية العملية على التكليف.

= يذكروا عيسى لأن عيسى عليه السلام أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحريم، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة، فالعمدة هو التوراة، فلهذا قالوا: ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

(١) ذكر ابن كثير في تفسيره (١/ ٧٩) ستة أقوال في تعيين وتحديد هذه الشجرة: الكرم، الحنطة، السنبلة، البر، النخلة، التينة. ثم قال: «قال الإمام العلامة أبو جعفر بن جرير رحمه اللَّه: «والصواب في ذلك أن يقال: إن اللَّه عز وجل ثناؤه نهى آدم وزوجه عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها، ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين، لأن اللَّه لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن ولا من السنة الصحيحة، وقد قيل: كانت شجرة البر. وقيل: كانت شجرة العنب. وقيل: كانت شجرة التين. وجائز أن تكون واحدة منها وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه وإن جهله جاهل لم يضره جهله به واللَّه أعلم. وكذلك رجح الإبهام الرازي في تفسيره وغيره وهو الصواب».

(٢) ضحى الرجل يَضْحَى ضحاً إذا أصابه حر الشمس. قال اللَّه تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٩]، قال: لا يؤذيك حر الشمس. وقال الفراء: لا تضحى: لا تصيبك شمس مؤذية. (لسان العرب ـ مادة: ضحا).

والحق ـ تبارك وتعالى ـ أباح لآدم وحواء أن يأكلا كما يشاءان من الجنة، والجنة فيها أصناف كثيرة متعددة ولذلك قال: ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا . . .﴾ [البقرة: ٣٥].

وأنت لا تستطيع أن تقدم لإنسان صنفاً أو صنفين، وتقول له: كل ما شئت، لأنه لا يوجد أمامه إلا مجال ضيق للاختيار، كما أن قلة عدد الأصناف تجعل النفس تملُّ، ولذلك لا بد أن تكون هناك أصناف متعددة وكثيرة.

ثم جاء النهي في قوله ـ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

أي: لا تقتربا من مكانها.

ولكن: لماذا لم يقل الحق ـ سبحانه وتعالى: ولا تأكلا من هذه الشجرة؟

نقول: لأن اللَّه ـ جل جلاله ـ رحمة بآدم وزوجه كان لا يريدهما أن يقعا في غواية المعصية، فلو أنه ـ سبحانه ـ قال: ولا تأكلا من هذه الشجرة لكان مباحاً لهما أن يقتربا منها فتجذبهما بجمال منظرها، ويقتربا من ثمارها فتفتنهما برائحتها العذبة، ولونها الجذاب.

حينئذٍ يحدث الإغواء، وتمتد أيديهما تحت هذا الإغراء إلى الشجرة ليأكلا منها.

ولكن اللَّه ـ تعالى ـ يعلم أن النفس البشرية إذا حرم عليها شيء ولم تحُم حوله كان ذلك أدعى ألا تفعله، فاللَّه ـ تعالى ـ حين حرم الخمر لم يقل: حُرِّمت عليكم الخمر، وإلا كنا جلسنا في مجالس الخمر ومع الذين يشربونها، أو نتاجر فيها، وهذا كله إغراء بشرب الخمر.

والحق ـ سبحانه ـ قال في تحريم الخمر:

﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ(١) وَٱلْأَزْلَٰمُ(٢) رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

---

(١) الأنصاب: الأوثان، جمع نصب. قال القتيبي: النصب صنم أو حجر، وكانت الجاهلية تنصبه، تذبح عنده فيحمر للدم. وأصل المادة: نصب الشيء: وضعه ورفعه. وقال ابن سيده: الأنصاب حجارة كانت حول الكعبة تنصب فيُهَلُّ عليها ويذبح لغير اللَّه تعالى. (لسان العرب ـ مادة: نصب).

(٢) الأزلام: جمع زلم، وهي القداح التي كانت في الجاهلية، كان الرجل منهم يضعها في =

واجتنابه يكون بألا توجد معه في مكان واحد يخايلك ويشاغلك ويتمثل لك، فعندما تكون مثلاً في منطقة الذين يشربون الخمر يقول لك الحق (اجتنبها).

أي: لا تذهب إليها[١]، لأن الخمر عندما توجد أمامك وترى من يشربون وهم مستريحون مسرورون، فقد تشربها.

لكن عندما تجتنب الخمر ومجالسها فأنت لا تقع في براثنها[٢] وإغرائها.

ولذلك قلنا: إن الاجتناب أبلغ من التحريم.

فإذا رأيت مكاناً فيه خمر فابتعد عنه في الحال، حتى لا يغريك منظر الخمر وشاربها بأن تفعل مثله، أما إذا كانت غائبة عنك فلا تخطر على بالك فلا تقع فيها.

ثم يقول ـ سبحانه:

﴿فَأَزَلَّهُمَا[٣] ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦].

فالحق ـ سبحانه ـ بعد أن أسكن آدم وزوجه في الجنة، وأخبرهما بما هو حلال وما هو حرام، بدأ الشيطان مهمته، مهمة عداوته الرهيبة لآدم وذريته.

= وعاء له، فإذا أراد سفراً أو رواحاً أو أمراً مهماً أدخل يده فأخرج منها زُلَماً، فإن خرج الأمر مضى لشأنه، وإن خرج النهي كفَّ عنه ولم يفعله، (لسان العرب ـ مادة: زلم).

(١) عن عبد اللَّه بن عمر رضي اللَّه عنهما أن النبي ﷺ قال: «لعن اللَّه الخمر ولعن شاربها وساقيها وعاصرها ومعتصرها وبائعها ومبتاعها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها» أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٩٧) والحاكم في مستدركه (٢/ ٣٢).

(٢) البراثن في أصل اللغة: جمع بُرثُن، وهو مخلب الأسد. وقيل: البرثن الكف بكمالها مع الأصابع. (لسان العرب ـ مادة: برثن)، والمقصود هنا أن للخمر والأنصاب والأزلام ضراوة واعتياداً إذا اعتادها الإنسان كأنه وقع بين مخالب أسد، فكيف النجاة منه؟

(٣) قال القرطبي في تفسيره (١/ ٣٥٤): «قرأ الجماعة: فأزلهما بغير ألف، من الزلة وهي الخطيئة أي: استزلهما وأوقعهما فيها، وقرأ حمزة: فأزالهما بألف، من التنحية أي نحّاهما. قال ابن كيسان: فأزالهما من الزوال أي: صرفهما عما كانا عليه من الطاعة إلى المعصية».

والحق ـ سبحانه ـ يقول: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ . . .﴾ [البقرة: ٣٦].

أي: أن الشيطان باشر مهمته، فأوقعهما في الزَّلة، وهي العثرة(١) أو الكبوة(٢).

كيف حدث هذا، واللَّه ـ تعالى ـ قد نصح آدم وزوجه ألا يتبعا الشيطان، وأبلغه أنه عدو لهما في قوله ـ تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧].

إذن: فالعداوة مُعلنة ومُسْبقة، ولنفرض أنها غير مُعْلنة، ألم يشهد آدم الموقف الذي عصى فيه إبليس أمر اللَّه ولم يسجد لآدم؟ ألم يعرف مدى تكبُّر إبليس عليه في قوله: أنا خير منه(٣). وقوله: أأسجد لمن خلقت طيناً(٤).

كل هذا كان ينبغي أن ينبّه آدم إلى أن إبليس لن يأتي له بخير أبداً.

والحق سبحانه وتعالى لم يكتف بالدلالات الطبيعية التي نشأت عن موقف إبليس في رفضه السجود، بل أخبر آدم أن الشيطان عدو له ولزوجه.

يقول الحق سبحانه:

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ . . .﴾ [البقرة: ٣٦].

---

(١) عثر وتعثر: كبا. والعثرة: الكبوة والزلة. ويقال: عثر به فرسه فسقط وتعثر لسانه: تلعثم. وفي الحديث: «لا حليم إلا ذو عثرة». أي: لا يحصل له الحلم ويوصف به حتى يركب الأمور وتنخرق عليه ويعثر فيها فيعتبر بها ويستبين مواضع الخطأ فيجتنبها، ويدل عليه قوله بعده: «ولا حليم إلا ذو تجربة» (لسان العرب ـ مادة: عثر).

(٢) الكبوة مثل الوقفة تكون عن الشيء يكرهه الإنسان يُدعى إليه أو يراد منه كوقفة العاثر. والكبوة أيضاً: السقوط للوجه. وكبا يكبو كبوة إذا عثر. (لسان العرب ـ مادة: كبو).

(٣) يقص الحق سبحانه لنا هذا في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١١، ١٢].

وجاءت أيضاً في سورة ص: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ * فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ * قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ * قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧١ ـ ٧٦].

(٤) وذلك في قوله تعالى عنه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١].

من ماذا أخرجهما؟

أخرجهما من العيش الرغيد[١]، من واسع النعمة في الجنة، من الهدوء والاطمئنان في أن رزقهما يأتيهما بلا تعب.

فكان يجب على آدم أن يتنبه إلى أن إبليس يعتبره السبب في طرده من رحمة اللَّه، فلا يقبل منه نصيحة ولا كلاماً ويحتاط. ولكن:

كيف أزلّ الشيطان آدم وزوجه وأخرجهما من الجنة؟

قال تعالى:

﴿فَوَسْوَسَ[٢] لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا[٣] وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

أخرجهما بالوسوسة والكذب والمخادعة، فكلمة «وسوس» تدل على الهمس في الإغواء، ونحن نعرف أن الذي يتكلم في خير لا يهمّه أن يسمعه الناس، لكن من يتكلم في شر فيهمس خوفاً من أن يفضحه أحد، وكأن كل شر لا بد أن يأتي همساً، وصاحبه يعرف أن هذا الكلام لا يصح أن يحدث، ويستحي منه، ولا يحب أن يعرف المجتمع عنه هذا الشيء.

و(وسوس) مأخوذة من الصوت المغري، لأن الوسوسة هي صوت رنين الذهب والحلي.

إذن: فما قاله الشيطان لآدم وزوجه هو كلام مُغْرٍ ليلفتهما عن أوامر رب حكيم.

وقول الحق سبحانه: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا . . .﴾ [الأعراف: ٢٠].

يعطينا حيثيات البراءة لحواء، لأن الشائع أن حواء هي التي ألحّت على

---

(١) عيش رغد: كثير رفيه غزير. الرغد: الكثير الواسع الذي لا يعيبك من مال أو ماء أو عيش أو كلأ. (لسان العرب ـ مادة: رغد).

(٢) الوسوسة والوسواس: الصوت الخفي. وهو أيضاً حديث النفس. والوسواس: الشيطان، وقد وسوس في صدره ووسوس إليه. (لسان العرب ـ مادة: وسوس).

(٣) السوءات جمع سوأة، وهي: العورة والفاحشة. والسوأة: الفرج. قال الليث: السوأة: فرج الرجل والمرأة. قال ابن الأثير: السوأة في الأصل الفرج ثم نقل إلى كل ما يستحيا منه من قول أو فعل. (لسان العرب ـ مادة: سوأ).

آدم ليأكلا من الشجرة، وكثير منا يظلم حواء على الرغم من أن القرآن يؤكد أن الوسوسة كانت لآدم وحواء معاً.

وهل وسوس الشيطان ليبدي لهما ما ووري من سوءاتهما، أو وسوس ليعصيا اللَّه؟

لقد وسوس ليعصيا اللَّه، وكان يعلم أن هناك عقوبة على المعصية، ويعلم أنهما حين يأكلان من الشيء الذي حرّمه ربنا ستظهر سوءاتهما.

والسوءة هي ما يسوء النظر إليه، ونطلقها على العورة، والفطرة تستنكف أن يرى الإنسان المكتمل الإنسانية السوءة، وكأنهما في البداية لم ير أحدهما سوءة الآخر أو سوءة نفسه، لأن الحق سبحانه يقول:

﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ(١) عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا . . .﴾ [الأعراف: ٢٠].

إن فتحة العورة سوءة باعتبار ما يخرج منها، وحينما كانا يأكلان من إعداد ربنا لم يكونا ـ كما قلنا ـ في حاجة إلى إخراج فضلات، لأن إعداد اللَّه يعطي كلاً منهما على القدر الكافي للحركة والفعل، وكانت المسألة مجرد فتحات مثل بعضها.

لكن حينما يخرجان عن مرادات اللَّه في الطعام، ويأكلان غير ما أمر اللَّه به ويمارسان اختيار الطعام بدأت الفضلات في الخروج بما لها من رائحة غير مقبولة.

فهل ظهور السوءة لهما هو رمز إلى أن هناك مخالفة لمنهج اللَّه، سواء أكان ذلك في القيم والمعنويات، أم في الأمور المادية؟

نعم، لأن كل شيء يخالف فيه منهج اللَّه لا بد أن تبدو فيه العورة، وإن رأيتَ أي عورة في المجتمع فاعلم أن منهجاً من مناهج اللَّه قد عطل.

وينقل القرآن ما قاله لهما الشيطان من وسوسة: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

لقد همس الشيطان وأوحى لهما بأن الحق أراد أن لا تقربا هذه الشجرة،

---

(١) وريت الشيء وواريته: أخفيته. وتوارى هو استتر. ووُري: سُتِر (لسان العرب ـ مادة: ورى).

لأن من يأكل منها يصير ملكاً أو خالداً، ولم يمحّص[١] أي منهما كلمات الشيطان ليعرف أن كيده كان ضعيفاً واهياً وغبياً.

لأنه ما دام يعرف أن من يأكل من هذه الشجرة يصير ملكاً أو يبقى من الخالدين، فلماذا لم يخطف منها ما يجعله ملكاً أو خالداً؟

وفي هذا درس يبيّن لنا أن من يزين له، ويتصدى له أحد بالإغواء يجب عليه أن يمحّص إلى أي غواية يسير، وأن يدقق في نتائج ما سوف يفعل.

وإذا كان الشيطان قد قال:

﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ[٢] إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤].

فلماذا لم ينقذ نفسه بالأكل من هذه الشجرة وتنتهي المسألة؟

إذن: كان ما يقوله الشيطان كذباً.

وفي إغواء آخر قال إبليس:

﴿يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ[٣]﴾ [طه: ١٢٠].

وهكذا نعرف أن إبليس يأتي للإنسان من أكثر من زاوية؛ لذلك كانت الزاوية الأولى هي أن هذه الشجرة من يأكل منها يكون ملكاً، أو يكون خالداً.

وكان الإغواء الثاني أن هذه الشجرة تعطي لمن يأكل منها بجانب الخلود مُلكاً لا ينتهي.

إذن: فإبليس يُصوِّر للإنسان أن ما منعه اللَّه عنه هو الخير، وأنه لو عصى فسيحصل على المال والنفوذ.

لقد أكل آدم وحواء من الشجرة فلم يخلدا ولم يأت لهما ملك لا ينتهي،

---

(١) المحص في اللغة: التخليص والتنقية. والتمحيص: الاختبار والابتلاء.

ويقال: محصت الذهب بالنار إذا خلعته مما يشوبه.

(لسان العرب ـ مادة: محص) والتمحيص المطلوب من آدم هو وزن كلام الشيطان وتدبره والتفكر فيه لئلا يقع في المحظور الذي نهاه عنه ربه.

(٢) الإنظار: التأخير والإمهال. وأنظره: أخّره. واستنظره: طلب منه النظرة واستمهله. (لسان العرب ـ مادة: نظر).

(٣) بلي الثوب بلى وبلاء: رث وصار عرضة للفناء. قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]، أي: لا يفنى ولا يزول ولا ينتهي.

بل ظهرت عوراتهما، وعرفا أن إبليس كان كاذباً، وأن اللَّه سبحانه وتعالى بمنهجه وما ينهانا عنه إنما كان يريد لهما الخير.

ولكن الشيطان يأتي ويُزيِّن للإنسان طريق الباطل، ولو أن آدم كان قد حكَّم عقله لعرف كذب وسوسة إبليس، فإبليس كما يدعي كان يدل آدم على شجرة الخلد، ولو أن هذه الشجرة كانت تعطي الخلد فعلاً لما طلب إبليس من اللَّه تبارك وتعالى أن يُبقِي على حياته إلى يوم القيامة، بل لأكل من الشجرة ونال الخلد.

ولكن إبليس دخل من ناحية الغفلة في النفس البشرية ليوقع آدم في المعصية.

وهو يدخل إلى أبناء آدم من ناحية الغفلة أيضاً، ولو أن أبناء آدم حكَّموا عقولهم وهم يعرفون أن هناك عداوة مسبقة بين آدم وإبليس، وأن إبليس طلب من اللَّه سبحانه وتعالى أن يبقيه إلى يوم القيامة لينتقم من آدم وأولاده بإغوائهم على المعصية، لو تنبّهنا إلى ذلك لأخذنا حذرنا، وعندما تنكشف وسوسة الشيطان فإنه يهرب.

إبليس دخل إلى ناحية الغواية بأن أقسم بعزّة اللَّه، وأن اللَّه عزيز لا يحتاج لخلقه، ولا يضرّه سبحانه وتعالى من كفر، ولا يزيد شيئاً في مُلكه من آمن.

قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].

دخل إبليس إلى غواية بني آدم بعزّة اللَّه سبحانه وتعالى عن خلقه، فلو أن اللَّه سبحانه أراد خلقه جميعاً مهديين ما استطاع إبليس أن يتقدم ناحية واحد منهم.

ومعنى عزّة اللَّه أنه غني عن خلقه جميعاً، لا يحتاج لأحد منهم، فهو اللَّه بجلال وجمال صفاته قبل أن يوجد أحد من خلقه قد خلق هذا الكون وأوجده ولم يستعن بأحد، آمن به الناس جميعاً ما زاد ذلك في ملكه شيئاً، ولو كفر به الناس جميعاً ما نقص ذلك من ملكه شيئاً.

وقسم إبليس بعزّة اللَّه إقرار منه بها، وقد أقسم بعزّة اللَّه أن يطلب الغواية للإنسان، لأن اللَّه سبحانه وتعالى ما دام لا يزيد ملكه ولا ينقص بإيمان خلقه، لذلك أعطاهم حرية الاختيار.

ولو أراد اللَّه الناس مؤمنين ما استطاع إبليس أن يقترب من أحد منهم، ويحاول إبليس بحقده على الإنسان وكرهه له أن يصرفه عن طريق الإيمان.

ولكن هل يملك إبليس قوة إغواء على مؤمن؟

لا، ولذلك فهناك استثناء:

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٣].

أي: أن إبليس لا يستطيع أن يقترب من عبد مؤمن مخلص في إيمانه.

ويقول الحق سبحانه:

﴿فَدَلَّاهُمَا(١) بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا(٢) يَخْصِفَانِ(٣) عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢].

أي: أنزلهما من رتبة الطاعة إلى دَرَك(٤) المعصية والذنب، مما غرَّهما به وخدعهما من القسم. والدل مأخوذ من دَلَّى رِجْليه في البئر كي يرى إن كان فيه ماء أم لا، أو دَلَّى حبل الدلو لينزله في البئر. ومعناها: أنه يفعل الشيء مرة فمرة.

و﴿بِغُرُورٍ . . .﴾.

أي: بإغراء لكي يُوقعهما في المخالفة، فأظهر لهما النصح، وأبطن لهما الغشّ.

---

(١) أدليت الدلو ودليتها إذا أرسلتها في البئر لتستقي بها. وقوله تعالى: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ . . .﴾ [الأعراف: ٢٢]، قال أبو إسحاق: دلاهما في المعصية بأن غرّهما. . وقال غيره: فدلاهما فأطمعهما. وقال الجوهري: دلاه بغرور أي أوقعه فيما أراد من تغريره وهو من إدلاء الدلو. (لسان العرب ـ مادة: دلا).

(٢) طفق يفعل كذا: جعل يفعل وأخذ. قال الليث: طفق بمعنى علق يفعل كذا، وهو يجمع: ظل وبات. (لسان العرب ـ مادة: طفق).

(٣) خصف العريان على نفسه الشيء يخصفه: وصله وألزقه. وقوله تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ . . .﴾ [الأعراف: ٢٢].

أي: يلزقان بعضه على بعض ليسترا به عورتيهما. (لسان العرب ـ مادة: خصف).

(٤) الدَّرْك والدرَك: أقصى قعر الشيء. والدرك: الأسفل في جهنم أقصى قعرها، والجمع: أدراك. ودركات النار: منازل أهلها، والنار دركات، والجنة دركات، والدرك إلى أسفل والدرج إلى فوق. (لسان العرب ـ مادة: درك).

ولذلك يسمي اللَّه الشيطان، «الغَرُور» في قوله تعالى:

﴿. . . وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

إنه الشيطان الذي يُزين للناس بعض الأمور ويحثّ الخلق ليطمعوا في حدوثها، وعندما تحدث فإن هذه الأمور لا صواب فيها، فهي مما زيَّنه الشيطان، ولذلك فحصيلتها لا تتناسب مع الطمع فيها.

ويقال عن الرجل الذي ليس له تجربة: إنه «غِرٌّ» فيأتي بأشياء بدون تجربة، فلا ينتفع منها، ولا تصح.

إذن: فكل مادة «الغرور» مأخوذة من إطماع فيما لا يصح ولا يحصل، لذلك سَمَّى اللَّه الشيطان «الغرور»؛ لأنه يُطمِعنا نحن البشر بأشياء لا تصح ولا تحدث.

ولهذا سوف يأتي الشيطان يوم القيامة ليتبرأ من الذين اتبعوه ويتهمهم بالبلاهة:

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

والشيطان بذلك يتملص من الذين اتبعوه، لأنه لم يكن يملك قوة إقناع أو قوة قهر، فقط نادى بعضاً من الخلق، فزاغت أبصارهم واتبعوه من فرط غبائهم، فإرادة الشيطان هي إرادة تزيين، لا إرادة قدرة على القهر أو الإقناع.

فقول الشيطان هذا هو[1] سخرية ممن صدقوه، لأن السلطان إما سلطان

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٢٩) في تأويل الآية ٢٢ من سورة إبراهيم: «يخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه بعدما قضى اللَّه بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس لعنه اللَّه يومئذٍ خطيباً، ليزيدهم حزناً إلى حزنهم، وغبناً إلى غبنهم، وحسرة إلى حسرتهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: على ألسنة رسله، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعداً حقاً وخبراً صدقاً، وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم، كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]. ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: ما كان لي دليل فيما دعوتكم إليه ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ بمجرد ذلك هذا، وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤوكم به فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ اليوم ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ فإن الذنب لكم لكونكم خالفتم الحجج واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إليالباطل =

القهر بأن تأتي لإنسان بما هو أكبر منه وتقهره على فعل شيء بالقوة، وإما سلطان الإقناع بأن تقنع إنساناً بأن يفعل شيئاً، والشيطان ليس له سلطان القهر والحجة.

لذلك يوجّهنا الحق سبحانه إلى الاعتبار بما كان بين آدم وإبليس، فيقول تعالى:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ[1] مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

إياكم أن تنخدعوا بفتنة الشيطان، لأن أمره مع أبيكم واضح، ويجب أن تنسحب تجربته مع أبيكم عليكم، فلا يفتننكم كما أخرج أبويكم من الجنة.

إن هذا تحذير من فتنة الشيطان حتى لا يُخرجنا من جهة التكليف، كما فتن أبوينا فأخرجهما من جنة التجربة.

ففتنة الشيطان إنما جاءت لتخرج خلق اللَّه عن منهج اللَّه، وحينما عصى إبليس ربه عز عليه ذلك، فبعد أن كان في قمة الطاعة صار عاصياً لأمر اللَّه معصية أدّته وأوصلته إلى الكفر، لأنه رد الحكم على اللَّه.

إن ذلك قد أوغر[2] صدره وأحنقه[3]، وجعله يوغل ويسرف في عداوته للإنسان، لأنه عرف أن طرده ولعنه كان بسبب آدم وذريته.

= ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾ أي: بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ أي: بنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال ﴿إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُ﴾، قال قتادة: أي بسبب ما أشركتمون من قبل. وقال ابن جرير: يقول إني جحدت أن أكون شريكاً للَّه عز وجل وهذا الذي قاله هو الراجح».

(١) القبيل: الجماعة من الناس يكون من الثلاثة فصاعداً من قوم شتى، كالزنج والروم والعرب، وقد يكونون من نحو واحد، وربما كان القبيل من أب واحد كالقبيلة. ويقال لكل جمع من شيء واحد قبيل. قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡ...﴾ [الأعراف: ٢٧]. أي: هو ومن كان من نسله. (لسان العرب ـ مادة: قبل).

(٢) الوغر: احتراق الغيظ. ومنه قيل: في صدره عليَّ وَغْر، أي: ضغن وعداوة وتوقد من الغيظ. ويقال: وَغِر صدره عليه إذا امتلأ غيظاً وحقداً. وقيل: هو أن يحترق من شدة الغيظ (لسان العرب ـ مادة: وغر).

(٣) الحنق: شدة الاغتياظ. (اللسان).

فضل التجاوز عن المدين المعْسِر

١٨ ـ عن أبي مسعود الأنصاري قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

«حُوسِبَ رجلٌ ممنْ كانَ قبلكُمْ، فلم يُوجَدْ له مِنَ الخيْرِ شَيءٌ إلا أنه كانَ يُخالِط[١] الناس، وكانَ مُوسِراً[٢]، فكَان يأمرُ غِلْمانه أنْ يَتجاوزوا عن المعْسرِ».

قال: قال اللَّه عز وجل:

«نحنُ أحقُّ بذلِكَ مِنْه، تَجاوزوا عَنْه»[٣].

---

(١) خلط القوم وخالطهم: داخلهم. وخليط الرجل: مخالطه. وخليط القوم: مخالطهم كالنديم المنادم، والجليس المجالس. والخلطة: الشركة. وقوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [ص: ٢٤].

فالخلطاء ههنا الشركاء الذين لا يتميز ملك كل واحد من ملك صاحبه إلا بالقسمة. (لسان العرب ـ مادة: خلط).

(٢) اليسر واليسار والميسرة: السهولة والغنى والسعة. وأيسر الرجل إيساراً ويسراً: صار ذا يسار. أي: استغنى: يوسر. ويقال: أيسر أخاك أي: نفِّس عليه في الطلب ولا تعسره أي: لا تشدد عليه ولا تضيق. (لسان العرب ـ مادة: يسر).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ١١٨) ومسلم في صحيحه (١٥٦١) والترمذي في سننه (١٣٠٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح. من حديث أبي مسعود الأنصاري.

وقد ورد هذا الحديث عن حذيفة بن اليمان رضي اللَّه عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم. فقالوا: أعملت من الخير شيئاً؟ قال: لا. قالوا: تذكر. قال: كنت أداين الناس، فآمر فتياني: أن يُنظروا المعسر، ويتجوزوا عن الموسر، قالوا: قال اللَّه عز وجل: تجوزوا عنه» أخرجه مسلم في صحيحه (١٥٦٠).

وفي رواية عنه أيضاً عند مسلم: «أتي اللَّه بعبد من عباده آتاه اللَّه مالاً، فقال له: ماذا عملت في الدنيا؟ قال: يا رب آتيتني مالك، فكنت أبايع الناس، وكان من خُلقي الجواز، فكنت أتيسر على الموسر، وأُنظِر المعسر. فقال اللَّه: أنا أحق بذا منك، تجاوزوا عن عبدي».

وعن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن رجلاً لم يعمل خيراً قط، وكان يداين الناس، فيقول لرسوله: خذ ما تيسر، واترك ما عسر، وتجاوز لعل اللَّه تعالى =

إن الإسلام قد بنى العملية الاقتصادية على الرِّفْد[١] والعطاء، فالحق سبحانه يقول:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

هذا قانون يريد به اللَّه تعالى أن يحارب الشحّ في نفوس المخلوقين، إنه يقول لكل منا: انظر النظرة الواعية، فالأرض لا تنقص من مخزنك حين تعطيها كيلة من القمح، صحيح أنك أنقصت كيلة من مخزنك لتزرعها، ولكنك تتوقع أن تأخذ من الأرض أضعافها.

وإياك أن تظن أن ما تعطيه الأرض يكون لك فيه ثقة، وما يعطيه اللَّه لا ثقة لك فيه.

فالحق سبحانه يطمئننا أن الصدقة والنفقة لا تنقص المال بل تزيده، وضرب لنا المثل بالأرض التي تؤتينا بدل الحبة الواحدة سبعمائة حبة.

ورسول اللَّه ﷺ يؤكد لنا هذه الحقيقة، فيقول:

«**ما نقص مال من صدقة**»[٢].

= أن يتجاوز عنا، فلما هلك، قال اللَّه عز وجل له: هل عملت خيراً قط؟ قال: لا. إلا أنه كان لي غلام، وكنت أداين الناس، فإذا بعثته ليتقاضى. قلت له: خذ ما تيسر، واترك ما عسر، وتجاوز لعل اللَّه يتجاوز عنا. قال اللَّه: قد تجاوزت عنك» أخرجه النسائي في سننه (٧/ ٣١٨).

(١) الرفد: العطاء والصلة. رفده يرفده: أعطاه. وأرفده: أعانه. وترافدوا: أعان بعضهم بعضاً. والرفادة: شيء كانت قريش تترافد به في الجاهلية، فيُخرج كل إنسان مالاً بقدر طاقته فيجمعون من ذلك مالاً عظيماً أيام الموسم، فيشترون به للحاج الجُزر والطعام والزبيب للنبيذ، فلا يزالون يطعمون الناس حتى تنقضي أيام موسم الحج.

والإرفاد: الإعطاء والإعانة. والمرافدة: المعاونة. والترافد: التعاون. والاسترفاد: الاستعانة.

والارتفاد: الكسب (لسان العرب ـ مادة: رفد).

(٢) عن أبي هريرة عن رسول اللَّه ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد اللَّه عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد للَّه إلا رفعه اللَّه»، أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٨٨) وأحمد في مسنده (٢/ ٢٣٥، ٣٨٦) والترمذي في سننه (٢٠٢٩). قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

فالصدقة هي التي تكثر المال، وتضع فيه البركة، فيزداد وينمو، والمال هو مال اللَّه ينتقل من يد إلى يد في الدنيا، ثم يموت الإنسان ويتركه.

فلا تعتقد أن الصدقة وإيتاء الزكاة ينقصان مالك، فقد يكون هذا صحيحاً في ظاهر الأمر، ولكنه سبحانه يأخذ منك هذا المال فيزيده لك وينميه.

فإذا بالجنيه الواحد قد تضاعف إلى سبعمائة مِثْل، ثم تضاعف إلى ما شاء اللَّه، كما أن هذا الحكم الذي يأخذ منك الآن وأنت غني هو بذاته الذي سوف يعطيك إن افتقرت ولجأت إلى الناس.

فإذا كان الحكم الذي سيأخذ هو الذي سيعطي، تكون هذه عدالة وتأميناً ضد الأغيار، وعليك أن تقارن الصفقة النفعية بمقابلها.

وساعة تعطي أنت الذي لا يملك، لا بد أن تتذكر أنه قد يأتي عليك يوم لا تملك فيه.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

فالشيطان يوسوس لكم بأن الإنفاق إفقار لكم، ويحاول أن يصرفكم الإنفاق في وجوه الخير، ويغريكم بالمعاصي والفحشاء، فالغنيُّ حين يقبض يده عن المحتاج فإنه يُدخل في قلب المحتاج الحقد، وأيُّ مجتمع يدخل في قلبه الحقد نجد كل المنكرات تنتشر فيه.

والحق سبحانه لا يسألك أن ترد عطاءه لك من المال، إنما يطلب تعالى تطهير المال بالإنفاق منه في سبيل اللَّه ليزيد وينمو، وليخرج الضِّغْن[1] من المجتمع، لأن الضغن حين يدخل مجتمعاً فعلى هذا المجتمع السلام.

ولا يفيق المجتمع من هذا الضغن إلا بأن تأتيه ضربة قوية تزلزله، فيتنبه إلى ضرورة إخراج الضغن منه، لذلك يحذرنا سبحانه أن نسمع للشيطان.

---

(١) الضِّغْن والضَّغَن: الحقد والجمع أضغان، وكذلك الضغينة، وجمعها الضغائن. والضغن: الحقد والعداوة والبغضاء. وتضاغن القوم واضطغنوا: انطووا على الأحقاد. (لسان العرب ـ مادة: ضغن).

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

فالذي يسمع لقول الشيطان ووعده، ولا يستمع إلى وعد اللَّه يصبح كمن رجَّح عدو اللَّه على اللَّه ـ أعاذنا اللَّه وإياكم من مثل هذا الموقف ـ إن الشيطان قد وسوس لكم بالفقر إذا أنفقتم.

وخبرة الإنسان مع الشيطان تؤكد للإنسان أن الشيطان كاذب مُضلّل، وخبرة الإنسان مع الإيمان باللَّه تؤكد للإنسان أن اللَّه واسع المغفرة، كثير العطاء لعباده.

والحكمة تقتضي أن نعرف إلى أيِّ الطرق نهتدي ونسير.

ومن الإنفاق في سبيل اللَّه إقراض المحتاجين المقترضين قرضاً حسناً لا يدخله رِبَاً ولا مَنٌّ[1] ولا أذىً.

يقول تعالى:

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ۖ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

ساعة تسمع: ﴿ يُقْرِضُ ٱللَّهَ . . . ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، فذلك أمر عظيم لأنك عندما تقرض إنساناً فكأنك تقرض اللَّه، وتعاملك يكون مع اللَّه.

والحق سبحانه يريد أن ينبهنا بكلمة القرض على أنه يطلب منا عملية ليست سهلة على النفس البشرية، وهو سبحانه يعلم بما طبع عليه النفوس.

والقرض في اللغة[2] معناه: قَضْم الشيء بالناب، وهو سبحانه وتعالى

---

(١) مَنّ عليه منة: امتن عليه، يقال: المنة تهدم الصنيعة. وقوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ . . . ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، المنُّ هنا: أن تُمنَّ بما أعطيت وتعتد به كأنك إنما تقصد به الاعتداد، والأذى: أن تُوبِّخ المعطي، فأعلم اللَّه أن المن والأذى يبطلان الصدقة. (لسان العرب ـ مادة: منن).

(٢) القرض: القطع. قرضه يقرضه: قطعه. والقراضة: ما سقط بالقرض ومنه قراضة الذهب. والقراضة: فُضالة ما يقرض الفأر من خبز أو ثوب أو غيرهما، وكذلك قُراضات الثوب التي يقطعها الخياط. قال الجوهري: القرض، ما يعطيه من المال ليُقْضاه. (لسان العرب ـ مادة: قرض).

يعلم أن عملية الإقراض هي مسألة صعبة، وحتى يبين للناس أنه يعلم صعوبتها جاء بقوله: «يقرض».

إنه سبحانه المقدِّر لصعوبتها، ويُقدِّر الجزاء على قَدْر الصعوبة.

ولكن ما هو القرض الحسن؟ وهل إذا أقرضت عبداً من عباد اللَّه لا يكون القرض حسناً؟

إنك إذا أقرضتَ عبداً من عباد اللَّه فكأنك أقرضتَ اللَّه، صحيح أنت تعطي الإنسان ما ييسّر له الفرج في موقف متأزم، وهو سبحانه يبلغنا: أن مَنْ يقرض عبادي فكأنه أقرضني، كيف؟

لأن اللَّه هو الذي استدعى كل عبد له للوجود، فإذا احتاج العبد فإن حاجته مطلوبة لرزقه في الدنيا، فإذا أعطى العبد لأخيه المحتاج فكأنه يُقرض اللَّه المتكفِّل برزق ذلك المحتاج.

وقوله تعالى: ﴿يُقْرِضُ ٱللَّهَ . . .﴾ [البقرة: ٢٤٥]، يدلنا على أن القرض لا يضيع، لأن القرض شيء تُخرجه من مالك على أَمل أن تستعيده، وهو سبحانه وتعالى يُطمئنك على أنه هو الذي سيقترض منك، وأنه سيردُّ ما اقترضه، لكن ليس في صورة ما قدمت، وإنما في صورة مستثمرة أضعافاً مضاعفة.

إن الأصل محفوظ مستثمر، ولذلك يقول:

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ۖ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

إنها أضعاف كثيرة بمقاييس اللَّه عز وجل، لا بمقاييسنا كبشر.

والتعبير بالقرض الحسن هنا يدلنا على أن مصدر المال الذي تُقرض منه لا بُدَّ أن يكون من حلال[1]، ولذلك قيل للمرأة التي تتصدق من مال الزنا: «ليتها لم تَزْنِ ولم تتصدق».

---

(١) عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «أيها الناس إن اللَّه طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن اللَّه أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ . . .﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِّي بالحرام، فأنَّى يُستجاب لذلك»، أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب الزكاة ـ حديث ٦٥.

وقيل: إن القرض ثوابه أعظم من الصدقة، مع أن الصدقة يجود فيها الإنسان بالشيء كله، في حين أن القرض هو دَيْن يسترجعه صاحبه؛ لأن الألم في إخراج الصدقة يكون لمرة واحدة، فأنت تُخرجها وتفقد الأمل فيها.

أما القرض فتتعلق نفسك به، فكلما صبرتَ مرة أتتْك حسنة، كما أن المتصدَّق عليه قد يكون غير محتاج، ولكن المقترض لا يكون إلا مُحتاجاً.

والقرض من المال الذي لديك يجعل المال يتناقص، لذلك فاللَّه يعطيك أضعافاً مُضاعفة نتيجة هذا القرض، وذلك مناسب تماماً لقوله تعالى: ﴿يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ ...﴾ [البقرة: ٢٤٥].

أي: أن المال الذي تقرض منه ينقص في ظاهر الأمر، ولكن اللَّه سبحانه يزيده ويبسطه أضعافاً مُضَاعفة، وفي الآخرة يكون الجزاء جزيلاً.

وإذا احتاج أخ مسلم فالحق سبحانه لا يقول لك: «أعطه من عندك، أو أقرضه من عندك»، إنما يقول لك: «أقرضني أنا، لأنِّي أنا الذي أوجدتُه في الكون، ورِزْقه مطلوب مِنِّي».

فكأنك حين تعطيه تقرض اللَّه.

إنه سبحانه مُتفضِّل بالنعمة، ثم يسألك أن تقرضه هو.

والحق سبحانه بذلك قد أغنى عباده عن أن يذلوا أنفسهم لغيره تعالى، فسبحانه أنقذ المؤمن بالإيمان من أن يذل نفسه لأيِّ مصدر من مصادر القوة، أنقذ الضعيف من أن يذل نفسه لقوي، وأنقذ الفقير من أن يذل نفسه لغني، وأنقذ المريض من أن يذل نفسه لصحيح.

إنْ أردت أيها الإنسان عِزًّا ينتظم ويفوق كل عز، فاذهب إلى اللَّه، لأنه سبحانه أعزَّنا فنحن خَلْقه، وهذا يتمثل في أن الحق سبحانه لم يجعل الفقير يقترض، بل قال سبحانه:

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ ...﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وهنا يرفع اللَّه عبده الفقير إلى أعلى درجات العزّة، العبد الفقير لا يقترض، ولكن القرض مطلوب للَّه.

ومع أن المال مال اللَّه، فقد احترم سبحانه عمل الإنسان الذي يأتيه بالمال، وطلب منه أن يعطي بعضاً منه أخاه المحتاج، ابتغاءَ مرضاةِ اللَّه،

واعتبر سبحانه وتعالى هذا العمل إقراضاً له جَلَّ جلاله، وكأن الذي يعطي المال للمحتاج يُقرِض اللَّه.

وفي هذا مَيْزة للغني والفقير، فالغني يأخذ مَيْزة وشرف أنه أعطى للَّه، والفقير أخذ مَيْزة، لأن اللَّه سبحانه وتعالى اقترض من أجله.

والمال ليس غاية في حَدِّ ذاته، ولكنه وسيلة، وعندما يمنع الغنيُّ ماله عن الفقير يكون قد جعل المال غايةً فلا ينفعه.

أما إذا أعطى الغني بعضاً من المال للفقير، فهو قد أعاد إلى المال وظيفته في أنه وسيلة من وسائل الحياة، وأنت تشتري بالمال ما تعتقد أنه ينفعك، فعليك أن تُوظِّفه في أكمل ما ينفعك، وهو رضا اللَّه سبحانه وتعالى وثوابه.

والحق سبحانه يصف القرض بأنه حسن، حتى لا يكون فيه مَنٌّ، أو منفعة تعود على المقرض، وإلا صار في القرض رِباً.

ولنا الأُسْوة الحسنة في أبي حنيفة عندما كان يجلس في ظل بيت صاحب له، واقترض صاحب هذا البيت من أبي حنيفة بعض المال، وجاء اليوم التالي للقرض، وجلس أبو حنيفة بعيداً عن ظل البيت، فسأله صاحب البيت: لماذا تجلس بعيداً؟

أجاب أبو حنيفة: خِفْتُ أن يكون ذلك لوناً من الربا.

قال صاحب البيت: لكنك كنت تقعد قبل أن تُقرضني؟!

فقال أبو حنيفة: كنت أقعد وأنت المتفضل عليَّ بظلِّ بيتك، فأخاف أن أقعد وأنا المتفضِّل عليك بالمال.

والقرض الحسن هو الذي لا يشوبه مَنٌّ أو أذىً أو منفعة، ولأن القرض دَيْن وضع الحق سبحانه له القواعد:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُۚ ...﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فالحق سبحانه يحمي المقترض من نفسه، لأنه إذا علم أن الدَّيْن مكتوب يحاول جاهداً أن يتحرك في الحياة ليسُدَّ هذا الدين، ويستفيد المجتمع من حركته أيضاً.

وعندما يُكتب القرض فهذا أمر دافع للسداد وحاثٌّ عليه، لكن إن لم يُكتَب القرض فقد يأتي ظرف من الظروف ويتناسى القرض.

ولو حدث ذلك من شخص فلن تمتد له يد من بعد ذلك بالمعاونة في أيِّ أزمة، فيريد سبحانه أن يُديم الأسباب التي تُتداول فيها الحركة.

ولذلك يُقال في الأمثلة العامية: مَنْ يأخذ ويعطي يصير المال له، ويكون مال الدنيا كلها معه.

ولذلك يقول الحقُّ سبحانه:

﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ[1] عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ . . .﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وفي ذلك حمايةٌ للنفس من الأغيار، ولم يمنع الحق الأريحية[2] الإيمانية فقال:

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ . . .﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وهكذا يحمي اللَّه الحركة الاقتصادية.

ونجد رسول اللَّه ﷺ وهو الرحيم بالمؤمنين، وقد بلغه أن واحداً قد مات وعليه دين، فقال للصحابة: صَلُّوا على أخيكم[3]. لكنه لم يُصلِّ على الميت.

وتساءل الناس: لماذا لم يُصَلِّ رسول اللَّه على هذا الميت؟ وما ذنبه؟

كأن رسول اللَّه ﷺ أراد أن يُعلِم المؤمنين عن دَيْن المدين، فلم يمنع

---

(١) القِسْط: العدل. ويقال: أقسط وقسط إذا عدل، وأقسط في حكمه: عدل، فهو مُقسِط، والإقساط: العدل في القسمة والحكم. (لسان العرب ـ مادة: قسط).

(٢) الأرْيح: الواسع من كل شيء. والأريحي: الواسع الخلق المنبسط إلى المعروف. والاسم الأريحية. (لسان العرب ـ مادة: ريح).

(٣) عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ كان يُؤْتَى بالرجل الميت عليه الدين، فيسأل: هل ترك لدينه من قضاء، فإن حدث أنه ترك وفاء صلى عليه، وإلا قال: «صلوا على صاحبكم». فلما فتح اللَّه عليه الفتوح قال: أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم. فمن تُوفي وعليه دين فعليَّ قضاؤه، ومن ترك مالاً فهو لورثته. أخرجه مسلم في صحيحه (١٦١٩) كتاب الفرائض.

الصلاة، ولكنه لم يُصَلِّ عليه حَفْزاً للناس ودَفْعاً لهم إلى أن يُبرئوا ذمّتهم بسداد وأداء ما عليهم من دين.

ورسول اللَّه ﷺ قال:

«من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى اللَّه عنه.. ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه اللَّه»[(١)].

وفي فلسفة هذا الأمر نفسياً نجد أن المقترض عندما يقترض شيئاً كبيراً لا يستطيع أن يتجاهله أو ينساه، ثم لا يمر بذهن الذي أقرض أن فلاناً مدين، بل وقد تبلغ الحساسية بالذي قَدَّم القرض ألَّا يمر على المقترض حتى لا يحرجه، ونثق أن اللَّه قد قذف هذا الخاطر في نفس المقرض، لأن المقترض يريد أن يسدّد القرض.

أما إنْ تحرَّك قلب الدائن على المدين، وجلس يفكر في قيمة الدَّيْن، فَلْيُفهم أن عند الذي اقترض بعضَ مَا يسدد به الدَّيْن. أي: أن المدين عنده القدرة على الوفاء بالدَّيْن أو ببعضه، ذلك أن اللَّه لا يُحرج مَنْ يَجِدّ ويجتهد في السعي لسداد دينه.

والحق سبحانه يُوجِّه المدين إلى أداء دَيْنه، ويُوجِّه المؤتمن إلى أن يؤدي أمانته، فيقول سبحانه:

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ . . .﴾ [البقرة: ٢٨٣].

إنه الطموح الإيماني، لم يَسُدّ اللَّه مسألة المروءة والإيثار في التعامل، إن كتابة الدين والإشهاد والرَّهْن ليس إلزاماً. وقد يفهم البعض أن الذي اؤتمن هو المدين، وهنا نقول: لا. إن الأمر مختلف، فهنا رِهان، وذلك معناه وجود مسألتين:

المسألة الأولى: هي «الدَّيْن».

والمسألة الثانية: هي «الرهان المقبوضة».

وهي مقابل الدين، فواحد مأمون على الرَّهْن في يده، والآخر مأمون على الدَّيْن.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٣٦١، ٤١٧) والبخاري في صحيحه (٢٣٨٧)، وابن ماجه في سننه (٢٤١١) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

ولهذا يكون القول الحكيم مقصوداً به مَنْ بيده الرَّهن، ومن بيده الدَّيْن، ومعنى ذلك أن يؤدي مَنْ معه الرهن أمانته، وأن يؤدي الآخر دينه.

وحين نرتقي إلى هذا المستوى في التعامل فإن وازع الإنسان ليس في التوثيق الخارج عن ذات النفس، ولكنه التوثيق الإيماني بالنفس.

ولكن، أنضمن أن يوجد التوثيق الإيماني عند كل الناس؟

أنضمن الظروف؟

نحن لا نضمن الظروف، فقد توجد الأمانة الإيمانية وقت التحمُّل والأخذ، ولا نضمن أن توجد الأمانة الإيمانية وقت الأداء، فقد يأتي واحد ويقول لك: إن عندي مائة جنيه، وخُذها أمانة عندك.

ومعنى «أمانة» أنه لا يوجد صَكّ[1]، ولا شهود، وتكون الذمة هي الحكم، فإن شئتَ أقررتَ بهذه الجنيهات المائة، وإن شئتَ أنكرتها.

إن الرجل الذي يفعل معك ذلك إنما يطلب منك توثيق المائة جنيه في الذمة الإيمانية. ومن الجائز أن تقول له لحظة أن يفعل معك ذلك: نعم سأحتفظ لك بالمائة جنيه بمنتهى الأمانة. وتكون نيتك أن تؤديها له ساعة أن يطلبها، ولكنك لا تضمن ظروف الحياة بالنسبة لك، وأنت كإنسان من الأغيار.

ومن الجائز أن تضغط عليك الحياة ضَغْطاً يجعلك تماطل معه في أداء الأمانة، أو يجعلك تنكرها، فتقول لمن ائتمنك:

ابعد عني، أنا لا أملك نفسي في وقت الأداء، وإن ملكت نفسي وقت التحمُّل.

إذن: فالإنسان وإن كان واثقاً أنه سيؤدي الأمانة إلا أنه عُرْضة للأغيار، لذلك قال الحق سبحانه:

﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ . . .﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فالكتابة فرصة ليحمي الإنسان نفسه من الضعف وقت الأداء، فاللَّه

(١) الصك: الكتاب. فارسي معرب، وجمعه صكوك وصكاك، وأصله چكّ. وكانت الأرزاق تسمى صكوكاً لأنها كانت تُخرج مكتوبة. (لسان العرب ـ مادة: صك).

سبحانه يريد أن يُوثِّق الأمر توثيقاً، لا يجعلك أيها العبد خاضعاً لذمَّتك الإيمانية فقط، ولكنك تكون خاضعاً للتوثيق الخارج عن إيمانيتك أيضاً، وذلك يكون بكتابة الدَّيْن صغيراً أو كبيراً إلى أجله.

ولكن إنْ كان المدين راغباً في سداد ما عليه، ولكنه مُعْسِرٌ، أي: ليست عنده قدرة على السداد، حين يوجه الحق سبحانه عباده المؤمنين في قوله تعالى:

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

فقوله: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ . . .﴾.

أي: فإن وُجِد ذو عُسْرة (فنظرة) من الدائن (إلى ميسرة) أي: إلى أن يتيسّر، ويكون رأس المال في هذه الحالة «قَرْضاً حسناً».

وكلما صبر عليه لحظةً أعطاه اللَّه عليها ثواباً.

ولنا أن نعرف أن ثوابَ القرض الحسن أكثر من ثواب الصدقة، لأن الصدقة حين تعطيها فقد قطعت أمل نفسك منها، ولا تشغل بها، وتأخذ ثواباً على ذلك دفعة واحدة.

لكن القرض حين تُعطيه فقلبك يكون مُتعلِّقاً به، فكلما يكون التعلق به شديداً، ويهب عليك حب المال وتصبر فأنت تأخذ ثواباً.

ويجب أن تلحظ أن هناك فارقاً بين معذور بحق، ومعذور بباطل.

المعذور بحق هو الذي يحاول جاهداً أن يُسدِّد دَيْنه، ولكن الظروف تقف أمامه وتحول دون ذلك، أما المعذور بباطل فيجد عنده ما يسُدُّ دَيْنه، ولكنه يماطل في السداد، ويبقي المال ينتفع به، وهو بهذا ظالم.

ولذلك جَرِّب نفسك، ستجد أن كل دَيْن يشتغل به قلبك فاعلم أن صاحبه قادر على السداد ولم يسدد، وكل دين كان بَرْداً وسلاماً على قلبك فاعلم أن صاحبه معذور بحق ولا يقدر أن يسدد، وربما استحييتَ أنت أن تمرَّ عليه مخافة أن تحرجه بمجرد رؤيتك.

وهؤلاء لا يطول بهم الدَّيْن طويلاً، لأن الرسول ﷺ حكم في هذه القضية حُكْماً فقال:

« **من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى اللَّه عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه اللَّه** » .

فما دام ساعة أخذها كان في نيته أن يؤدي فإن اللَّه ييسر له سبيل الأداء، ومن أخذها يريد إتلافها فاللَّه لا ييسر له أن يسدد، لأنه لا يقدر على ترك المال يسدد به دينه .

وفي حياة الرسول ﷺ واقعة تفسر لنا هذا الحديث، فقد مات رجل عليه دين، فلما علم رسول اللَّه ﷺ أنه مدين، قال لأصحابه :

« **صَلُّوا على أخيكم** » .

إذنْ : فهو لم يُصَلِّ، ولكنه طلب من أصحابه أن يُصَلُّوا، لماذا لم يُصَلِّ؟ لأنه قال قضية سابقة : « **مَنْ أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى اللَّه عنه** » .

ما دام قد مات ولم يُؤدِّ، إذن : فقد كان في نيته أن يماطل، لكن الرسول ﷺ لم يمنع أصحابه من الصلاة عليه .

والرسول ﷺ يأتي للمعسر ويعامله معاملة الأريحية الإيمانية، فيقول :

« **مَنْ أنظر مُعْسِراً ـ أو وضع عنه ـ أظله اللَّه في ظله يوم لا ظل إلا ظله** »[1] .

ومعنى « أنظر » أي : أمهل وأخَّر أخْذ الدَّيْن منه، فلا يلاحقه، فلا يحبسه في دينه، فلا يطارده .

وإن تسامى في اليقين الإيماني يقول له : « اذهب، اللَّه يعوّض عليّ وعليك » وتنتهي المسألة .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٨٠] .

والثمرة هي حُسْن الجزاء من اللَّه، فإما أن تُنظر وتؤخر، وإما أن تتصدق ببعض الدَّيْن أو بكل الدَّيْن، وأنت حُرٌّ في أن تفعل ما تشاء، فانظروا دِقَّة الحق سبحانه عند تصفية هذه القضية الاقتصادية التي هي الشغل الشاغل لحركة المجتمع بين الدائنين والمدينين .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٣٠٠٦)، وأحمد في مسنده (٣/ ٤٢٧) من حديث أبي اليسر، وهو كعب بن عمرو، شهد العقبة، وبدراً، توفي بالمدينة سنة ٥٥هـ.

وعفوك عن المدين المعسر يقابله اللَّه بالعفو عنك، وبالتجاوز عن ما اقترفته من ذنوب يوم القيامة.

ولا يمكن أن يكون للعفو مزية إيمانية إلا إذا كان مصحوباً بقدرة، فإن كان عاجزاً لما قال: عفوت، وسبحانه يعفو مع القدرة، فإن أردتَ أن تعفو فلتتخلق بأخلاق منهج اللَّه، فيكون لك العفو مع القدرة.

ولنا أن نعلم أن الحق سبحانه لا يريد منا أن نستخزي أو نستذل، ولكن يريد منا أن نكون قادرين، وما دُمْنا قادرين فالعفو يكون عن قدرة، وهذه هي المزية الإيمانية، لأن عفو العاجز لا يعتبر عفواً.

والناس تنظر إلى العاجز الذي يقول: إنه عفا ـ وهو على غير قدرة ـ تراه أنه استخزى، أما من أراد أن يتخلق بأخلاق منهج اللَّه فليأخذ من عطاءات اللَّه في الكون، ليكون قادراً وعزيزاً، بحيث إنْ ناله سوء فهو يعفو عن قدرة.

وخلق العفو أمر يركزه الحق سبحانه في قلوب المؤمنين به، لتكون هناك الأريحية الإيمانية النابعة من أخوة إيمانية، تربط قلوب المؤمنين برباط وثيق.

والعفو هو كما نقول: فلان عفَّى عليَّ آثاري. أي: أن آثارك تكون واضحة على الأرض، وتأتي الريح لتمسحها فتعفّي على الأثر.

والأمر بالعفو أي: امسح الأثر لذنب فعلوه، والخطيئة التي ارتكبوها عليك، أن تعتبرها كأنها لم تحدث.

وهذا مقام الإحسان، والحق سبحانه يقول:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ١٣].

والإحسان أن تفعل شيئاً فوق ما افترضه اللَّه، ولكن من جنس ما افترضه اللَّه، والمحسن الذي يدخل في مقام الإحسان هو مَنْ يعبد اللَّه كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فهو سبحانه يرى كل خَلْقه.

ومثال هذا: فإن اللَّه قد كلَّفَ المسلم بالصلاة، وأعلمه بأنه حُرٌّ بعد صلاة العشاء، وله الحق أن ينام إلى الفجر، فإن سمع أذان الفجر فَلْيقُمْ إلى صلاة الفجر.

لكن المحسن يريد الارتقاء بإيمانه؛ فيزيد من صلواته في الليل.

وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تحثّ المؤمنين على العفو.

واقرأ قوله تبارك وتعالى:

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

فإذا كنتَ تحب أن يغفر اللَّه لك، أفلا تغفر لمن فعل معك سيئة؟

وما دُمْتَ تريد أن يغفر اللَّه لك فاغفر للناس خطأهم، واعْفُ عنهم يعْفُ اللَّه عنك ويتجاوز.

وفي هذا يرتقي المؤمن بمنهج اللَّه سبحانه، وحين تريد أن تفسر حُبَّ اللَّه سبحانه للمحسنين فلسفياً أو منطقياً أو اقتصادياً ستجد القضية صحيحة.

فإنْ أساء أخوك إليك سيئة، فإما أن تردَّ بالمثل، أو تكظم الغيظ، أو تَرْقى إلى العفو، وبذلك تكون من المحسنين؛ لأنك إذا كنت قد ارتكبت سيئة، وعلمت أن اللَّه سبحانه وتعالى يغفرها لك، ألا تشعر بالسرور؟

إذن: فما دُمْتَ تريد أن يغفر اللَّه تعالى لك السيئة عنده، فلماذا لا تعفو عن سيئة أخيك في حقِّك؟

ويقول الحق سبحانه:

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ[1] . . .﴾ [النور: ٢٢].

وقد جاء الحق سبحانه هنا من ناحية النفس، فجعل عفو العبد عن سيئة العبد بحسنة، فلعفو العبد ثمن عند اللَّه تعالى، لأن العبد سيأخذ مغفرة اللَّه تعالى، وفوق ذلك فأنت تترك دَيْنك أو تُنظر وتُؤخِّر المدين، وعند ذلك تكون الراحة.

وهكذا ينال العافي عن المسيء مرتبة راقية؛ لأنه جعل اللَّه سبحانه وتعالى في جانبه.

---

(١) نزلت هذه الآية في شأن أبي بكر الصديق الذي حلف أن لا يعطي ابن خالته مسطح بن أثاثة ما كان يعطيه من قبل من النفقة بسبب ما تكلم به في حق عائشة مع من تكلم، وهو ما يسمى بحادثة الإفك، فأنزل سبحانه الآية. فقال أبو بكر: واللَّه إني لأحب أن يغفر اللَّه لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كانت عليه وقال: لا أنزعها منه أبداً. وتمام الآية: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

أين ملوك الأرض؟

١٩ ـ عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه عن النبي ﷺ قال:

«يَقْبِضُ[(١)] اللَّه الأرضَ، ويَطْوي[(٢)] السَّماءَ بِيَمِينِه.

ثُمَّ يقولُ: أَنَا الملِكُ، أَيْنَ مُلوكُ الأَرْضِ؟»[(٣)].

يقول الحق سبحانه:

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ * يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٥، ١٦].

لا بُدَّ أن نعرف أنه سيأتي يوم لا تكون فيه أيُّ ملكية لأيِّ أحد إلا اللَّه، وهو المالك الوحيد.

---

(١) يقبض اللَّه الأرض: يجمعها. وقبضت الشيء تقبيضاً: جمعته وزويته. وقبضت الشيء: أخذته. (لسان العرب ـ مادة: قبض).

(٢) الطيُّ: إدراج بعض الشيء في بعضه، ضد النشر. وطوى الشيء: ثناه ولَـمَّ أجزاءه. (القاموس القويم ١/ ٤١١).

(٣) وعن عبد اللَّه بن عمر قال. قال رسول اللَّه ﷺ: «يطوي اللَّه عز وجل السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك. أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله ثم يقول: أنا الملك. أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟».

أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٤٨) وأبو داود في سننه (٤/ ٤٧٣٢) وابن أبي عاصم في كتاب السنة (١/ ٥٤٧).

وفي رواية عن ابن عمر موقوفاً عليه: «إن اللَّه عز وجل إذا كان يوم القيامة جمع السماوات السبع والأرضين في قبضة، ثم يقول: أنا اللَّه، أنا الرحمٰن، أنا الملك، أنا القدوس، أنا السلام، أنا المؤمن، أنا المهيمن، أنا العزيز، أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الذي بدأت الدنيا ولم تَكُ شيئاً، أنا الذي أعيدها. أين الملوك؟ أين الجبابرة؟».

أخرجه أبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي في كتاب الأسماء والصفات والخطيب وابن النجار، انظر جامع الأحاديث القدسية (٥٥١).

والحق سبحانه يقول:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ . . .﴾ [آل عمران: ٢٦].

إن قول الحق «مالك الملك» يُوضِّح لنا أن ملكية اللَّه ـ وهي الدائمة والقادرة ـ واضحة وجلية ومُؤكَّدة.

ولو قال اللَّه في وصف ذاته: «ملك الملوك» لكان معنى ذلك أن هناك بشراً يملكون بجانب اللَّه.

لا، إنه الحق وحده، مالك الملك.

وما دام اللَّه هو مالك الملك، فإنه يهبه لمن يشاء، وينزعه مِمَّنْ يشاء.

والحق سبحانه يقول:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ١١٦].

ومادة الـ (م.ل.ك) يأتي منها «مالك» و«ملْك». ومنها «ملكوت».

و«المِلْك» هو ما تملكه أنت في حَيِّزك، فإن كان هناك أحد يملكك أنت ومَنْ معك ويملك غيرك، فهذا هو «المَلِك».

أما ما اتسع فيه مقدور الإنسان، أي الذي يدخل في سياسته وتدبيره، فاسمه مُلك، فشيخ القبيلة له مُلْك، وعمدة القرية له مُلْك، وحاكم الأمة له مُلْك، ويكون في الأمور الظاهرة.

أما الملكوت فهو ما للَّه في كونه من أسرار خفية.

والحق سبحانه يُبيِّن لنا أنه سبحانه وحده الذي بيده الملك، فيقول:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ۖ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ . . .﴾ [آل عمران: ٢٦].

فهو سبحانه مالك الملوك، وإنْ كان هناك في الدنيا ملوك قد مَلَّكهم اللَّه بعض الأمور في الدنيا، فإنه لا ملك ولا سلطان ولا حاكم في الآخرة إلا اللَّه.

قال تعالى:

﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ . . .﴾ [غافر: ١٦].

فالخَلْق كلهم مقهورون يوم القيامة، ومَنْ كان يبيح له اللَّه تعالى أن يملك شيئاً في الدُّنيا لم يَعُدْ مالكاً لشيء.

فربُّنَا سبحانه وتعالى ـ في دنيا الأسباب ـ جعل لكل واحد مِنَّا مِلْكاً، وجعل لبعض علينا مُلْكاً، فأصبحوا ملوكاً، لكن في الآخرة لا يوجد شيء من هذا.

ففي الدنيا قد تملك مثلاً أن تُوظِّفني عندك وتعطيني أجراً، وقد تملك أنْ تطبخ لي طعامي أو تعطيني طعاماً، أو تملك أنْ تخيط جلبابي.

لكن في الآخرة لا يملك أحد لأحد سبباً، لأننا نحيا في الدنيا بالأسباب التي منحنا اللَّه إياها، وفي الآخرة بالمسبِّب وحده دون أسباب.

وحين تتسلسل الأسباب التي نحيا بها سنرجع للحق سبحانه وتعالى، فحين تنتهي يد المخلوق وأسبابه تضيق به، فإن يَدَ الخالق جَلَّتْ قدرته مبسوطة إليه دائماً، وإياك أن تغرَّك الأسباب، ولكن سَلْسِلِ الأسباب إلى أن تنتهي إلى اللَّه.

وسبحانه قد وضع دنيانا موضعها، وجعلنا نفهم أن بعضنا له مُلْك. ولكن نقول لكل ملك: إن هذا الملك ليس بذاتك، لأنه لو كان بذاتك لما سلبك أحد هذا الملك أبداً.

وسبحانه القائل:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ . . .﴾ [آل عمران: ٢٦].

إذن: فليس هناك مَنْ له الملْك بذاته إلا اللَّه.

والحق سبحانه يقول:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٩].

فالحق سبحانه جاء بالقوسين ـ السماوات والأرض ـ لأن السماء تظل، والأرض تُقِلُّ[1]، فكل منا محصور بين مملوكين للَّه، وما دام كل منا محصوراً بين مملوكين للَّه، فأين تذهبون؟

(١) والأرض تُقِلُّ: أي تحمل وترفع ما عليها. يُقال: أقل الشيء يُقله واستقله يستقله، إذا رفعه وحمله. (لسان العرب ـ مادة: قلل).

وقد يكون هناك الملك الذي لا قدرة له أن يحكم، فيوضح سبحانه: لا، إن للَّه الملك، وله القدرة.

فالسماء والأرض هما طرفان للوجود وللكائنات كلها من أبراج[١] وكواكب وشمس وقمر ونجوم وهواء وغمام وماء وحيوان وإنسان.

فالأرض وهي المُلْك الأسفل الذي نراه، وما فيه من أقوات[٢] وحيوان وإنسان.

والسماء وما تحتوي وتضُمُّ من الملكوت الأعلى، هما جميعاً للَّه مِلْكاً ومُلْكاً، فهو ـ سبحانه ـ الذي يملك كل شيء، ويملك كذلك المالك للشيء.

فليس كل مالك مَلِكاً، لأن الملك هو الذي يملك المالك، وهذه سنن الكون، وفي الآخرة هناك مالك واحد، هو مالك يوم الدين.

فاللَّه تبارك وتعالى وصف نفسه في القرآن الكريم بأنه:

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

ومالك الشيء هو المتصرف فيه وحده، ليس هناك دَخْل لأيِّ فرد آخر، أنا أملك عباءتي، وأملك متاعي، وأملك منزلي، وأنا المتصرف في هذا كله، أحكم فيه بما أراه.

فمالك يوم الدين[٣]، معناها أن اللَّه سبحانه وتعالى سيُصرِّف أمور العباد في ذلك اليوم بدون أسباب، وأن كل شيء سيأتي من اللَّه مباشرة، دون أن يستطيع أحد أن يتدخل، ولو ظاهراً.

ففي الدنيا يعطي اللَّه المُلْك ظاهراً لبعض الناس، ولكن في يوم القيامة

---

(١) الأبراج: جمع بُرج، وهو واحد من بروج الفلك، وهي اثنا عشر برجاً، والجمع أبراج وبروج، وقال أبو إسحاق في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾ [البروج: ١]، قيل: ذات الكواكب. وقيل: ذات القصور في السماء. (لسان العرب ـ مادة: برج).

(٢) الأقوات: جمع قوت، وهو ما يقوم به الإنسان من طعام.

(٣) الدين: الجزاء والحساب. ومنه قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، معناه: مالك يوم الجزاء. والدين أيضاً: الطاعة. والدين: الجزاء والمكافأة. ودنْته بفعله دِيْناً: جزيته. وفي المثل: كما تدين تُدان. أي: كما تُجازِي تُجازَى. أي: تجازى بفعلك وبحسب ما عملت. (لسان العرب ـ مادة: دين).

ليس هناك ظاهر، فالأمر مباشر من اللَّه سبحانه وتعالى.

ولذلك يقول اللَّه تعالى في وصف يوم الدين:

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ [الإنفطار: ٩].

فكأن اللَّه سبحانه وتعالى خلق الإنسان في الدنيا لتمضي به الحياة، ولكن في الآخرة لا توجد أسباب.

وهنا نتساءل: هل الملْك في الدنيا والآخرة ليس للَّه؟

نقول: الأمر في كل وقت للَّه، ولكن اللَّه تبارك وتعالى استخلف بعض خَلْقه أو مَكَّنهم من الملْك في الأرض.

ولذلك نجد في القرآن الكريم قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ(١) إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ(٢) الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

والذي حاجَّ إبراهيم في ربه كافر منكر للألوهية، ومع ذلك فإنه لم يأخذ الملْك بذاته، بل اللَّه جَلَّ جلالُه هو الذي آتاه الملْك.

إذن: اللَّه تبارك وتعالى هو الذي استخلف بعض خَلْقه، ومكَّنهم من مُلْك ظاهريّ في الأرض، ومعنى ذلك أنه مُلْك ظاهر للناس فقط، ولكنه مُلْك ليس نابعاً من ذاتية مَنْ يملك، ولكنه نابع من أمر اللَّه، ولو كان نابعاً من ذاتية مَنْ يملك لبقي له ولم يُنْزع منه.

والملك الظاهر يُمتحنُ فيه العباد، فيحاسبهم اللَّه يوم القيامة:

كيف تصرَّفوا؟ وماذا فعلوا؟

هل سكتوا على الحاكم الظالم؟ أو أنهم وقفوا مع الحق ضد الظلم؟

---

(١) التحاجّ: التخاصم. وحاجَّه محاجَّة وحجاجاً: نازعه الحجة. والحجة: الدليل والبرهان، (لسان العرب ـ مادة حجج)، وكان الذي حاجّ إبراهيم في ربه هو ملك بابل «نمروذ بن كنعان»، وقد ذكر السدي أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم ونمروذ بعد خروج إبراهيم من النار، ولم يكن قد اجتمع بالملك إلا في ذلك اليوم. (انظر تفسير ابن كثير ١/ ٣١٣).

(٢) البَهْت: الانقطاع والحيرة. رأى شيئاً فبهت: ينظر نظر المتعجب، وبهت الخصم: استولت عليه الحجة فانقطع وسكن متحيراً. (لسان العرب ـ مادة بهت).

واللَّه سبحانه وتعالى لا يمتحن الناس ليعلم المصْلح من المفسد، ولكنه يمتحنهم ليكونوا شهداء على أنفسهم، حتى لا يأتي واحد منهم يوم القيامة ويقول: يا ربِّ، لو أنك أعطيتني الملك لاتّبعتُ طريق الحق وطبَّقتُ منهجك.

إذا قال الحق تبارك وتعالى:

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

أي: الذي يملك هذا اليوم وحده يتصرف فيه كما يشاء.

وإذا قيل: «**مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ**» فتصرُّفه أعلى من المالك، لأن المالك لا يتصرف إلا في مُلْكه، ولكنَ المِلِك يتصرف في مُلْكه ومُلْك غيره، فيستطيع أن يُصدر قوانين بمصادرة أو تأميم ما يملكه غيره.

الذين يقرأون: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ أثبتوا للَّه عز وجل أنه مالك هذا اليوم، يتصرف فيه كما يشاء دون تدخُّل من أحد ولو ظاهراً.

والذين يقرأون: «ملك» يقولون: إن اللَّه سبحانه وتعالى في ذلك اليوم يقضي في أمر خَلْقه حتى الذين ملَّكهم في الدنيا ظاهراً، ونحن نقول: عندما يأتي يوم القيامة لا مالك ولا مَلِك إلا اللَّه.

اللَّه تبارك وتعالى يريد أن يُطمئن عباده أنهم إذا كانوا قد ابتلوا بمالك أو ملك يطغى عليهم، فيوم القيامة لا مالك ولا ملك إلا اللَّه جل جلاله.

فالحقُّ سبحانه يُطمئن عباده، أنهم إذا أصابهم ظلم في الدنيا، فإن هناك يوماً لا ظلم فيه، وهذا اليوم الأمر فيه للَّه وحده بدون أسباب، فكل إنسان لو لم يدركه العدل والقصاص في الدنيا فإن الآخرة تنتظره.

أما الذي اتبع منهج اللَّه وقيّد حركته في الحياة يخبره اللَّه سبحانه وتعالى أن هناك يوماً سيأخذ فيه أجره، وعظمة الآخرة أنها تعطيك الجنة... نعيم لا يفوتك ولا تفوته.

فقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

قضية ضخمة من قضايا العقائد، لأنها تعطينا أن البداية من اللَّه، والنهاية إلى اللَّه جل جلاله، وبما أننا جميعاً سنلقى اللَّه، فلا بُدَّ أن نعمل

لهذا اليوم، ولذلك فإن المؤمن لا يفعل شيئاً في حياته إلا وفي باله اللَّه، وأنه سيحاسبه يوم القيامة، ولكن غير المؤمن يفعل ما يفعل، وليس في باله اللَّه.

وعن هؤلاء يقول الحق سبحانه:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ (١) بِقِيعَةٖ (٢) يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

وهكذا مَنْ يفعل شيئاً وليس في باله اللَّه فَسَيُفاجأ يوم القيامة بأن اللَّه تبارك وتعالى الذي لم يكن في باله موجود، وأنه جَلَّ جلاله هو الذي سيحاسبه.

وقوله تعالى:

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

هو أساس الدين، لأن الذي لا يؤمن بالآخرة يفعل ما يشاء، فما دام يعتقد أنه ليس هناك آخرة وليس هناك حساب، فَمِمَّ يخاف؟ ومن أجل مَنْ يقيد حركته في الحياة؟

إن الدين كله بكل طاعاته وكل منهجه قائم على أن هناك حساباً في الآخرة، وأن هناك يوماً نقف فيه جميعاً أمام اللَّه سبحانه وتعالى، ليحاسب المخطئ ويُثيب الطائع.

هذا هو الحكم في كل تصرفاتنا الإيمانية، فلو لم يكن هناك يوم نُحاسَب فيه... فلماذا نصلي؟ ولماذا نصوم؟ ولماذا نتصدَّق؟

إن كل حركة من حركات منهج السماء قائمة على أساس ذلك اليوم الذي لن يُفلتَ منه أحد، والذي يجب علينا جميعاً أن نستعد له.

---

(١) السراب: ما تراه في نصف النهار في الأرض الفضاء كأنه ماء وليس بماء، وأما قوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠]، أي: صارت لا حقيقة لها، أي: تشبه السراب في أنها لا حقيقة لها، أو كالأرض المسطوحة التي يظهر فيها السراب.

(٢) القيعة: جمع القاع. والقاع ما انبسط من الأرض وفيه يكون السراب نصف النهار. والقاع الأرض الحرة الطين التي لا يخالطها رمل فيشرب ماءها. والقاع: المكان المستوي الواسع في وطاءة من الأرض يعلوه. (لسان العرب ـ مادة: قوع).

إن اللَّه سبحانه وتعالى سَمَّى هذا اليوم بالنسبة للمؤمنين يوم الفوز العظيم[١]، والذي يجعلنا نتحمَّل كل ما نكره ونجاهد في سبيل اللَّه لنستشهد، ونُنفق أموالنا لنُعين الفقراء والمساكين.

كل هذا أساس أن هناك يوماً سنقف فيه بين يدي اللَّه، واللَّه تبارك وتعالى سمَّاه يوم الدين، لأنه اليوم الذي سيحاسب فيه كل إنسان على دينه، عمل به أم ضيَّعه؟

فمَنْ آمن واتبع الدين سيُكافأ بالخلود في الجنة.

ومَنْ أنكر الدين وأنكر منهج اللَّه سيُجازَى بالخلود في النار.

ومن عدل اللَّه سبحانه وتعالى أن هناك يوماً للحساب؛ لأن بعض الناس الذين ظلموا وبَغَوْا في الأرض رُبَّما يُفلتون من عقاب الدنيا.

هل هؤلاء الذين أفلتوا في الدنيا من العقاب سيفلتون من عدل اللَّه في الآخرة؟

أبداً، لن يُفلتوا، بل إنهم انتقلوا من عقاب محدود إلى عقاب خالد، وأفلتُوا من العقاب بقدرة البشر في الدنيا إلى عقاب بقدرة اللَّه ـ تبارك وتعالى ـ في الآخرة.

ولذلك لا بُدَّ من وجود يوم يعيد الميزان، فيُعاقَبُ فيه كل مَنْ أفسد في الأرض وأفلت من العقاب، بل إن اللَّه سبحانه وتعالى قد يجعل إنساناً يُفلت من عقاب الدنيا، فلا تعتقد أن هذا خَيْرٌ له، إنه شَرٌّ له؛ لأنه أفلت من عقاب محدود إلى عقاب أبدي.

والحمد الكبير للَّه بأنه «مالك يوم الدين»، وهو وحده الذي سيقضي بين خَلْقه، فاللَّه سبحانه وتعالى يعامل خَلْقه جميعاً معاملة متساوية، وأساس التقوى هو يوم الدين.

والحق سبحانه يعطينا مثالاً لملوك الأرض من الذين طَغَوْا وعَلَوْا، وكانوا من المسرفين، فيقول عن فرعون:

---

(١) يقول تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ(١) فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ(٢)﴾ [يونس: ٨٣].

فرعون كان جَبَّاراً في الأرض، مُدَّعِياً للألوهية، وقد علا في الأرض عُلوَّ طاغية من البشر على غيره من البشر المستضعفين.

حتى أن الحق سبحانه قال عنه:

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١].

وكان الفراعنة الأقدمون يحكمون مصر حتى منابع النيل، وكانوا يُسخِّرون الناس في كل الأعمال حتى استخراج الذهب، سواء من المناجم، أو من غَرْبلة رمال بعض الجبال لاستخلاص الذهب منها.

ولذلك قال موسى ـ عليه السلام:

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا . . .﴾ [يونس: ٨٨].

والزينة هي الأمور الزائدة عن ضروريات الحياة ومُقوِّماتها الأولى، فاستبقاء الحياة يكون بالمأكل لأيِّ غذاء يسدُّ الجوع، وبالمشرب الذي يروي العطش.

فالزائد عن الضرورات هو زينة الحياة، والزينة تأتي من الأموال، والرصيد الأصيل في الأموال هو الذهب، ثم تأخذ الفضة المرتبة الثانية.

وأنت إنْ نظرتَ إلى زينة الفراعنة تجد قناع «توت عنخ آمون» آية في الجمال، وكذلك كانت قصورهم في قمة الرفاهية.

ويكفي أن ترى الألوان التي صُنِعتْ منها دهانات الحوائط في تلك الأيام، لتعرف دِقَّة الصنعة ومدى الترف، الذي هو أكثر بكثير من الضرورات.

هذه الزينة، وهذه الأموال، وهذا الترف جعل فرعون عالياً في الأرض، مُفسِداً، فقال تعالى:

---

(١) العلو: التجبر والتكبر في الأرض. ويُقَال: علا فلان في الأرض إذا استكبر وطغى. ويُقال لكل متجبِّر: قد علا وتعظم. (لسان العرب ـ مادة: علو).

(٢) السرف والإسراف: مجاوزة القصد. وأسرف في الكلام وفي القتل: أفرط. قال القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٢٩٧): «﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣]، أي: المجاوزين الحدّ في الكفر؛ لأنه كان عبداً فادّعى الربوبية».

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا[١] يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ[٢] إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

فرعون استعلى على رعيته، وعلى مَنْ هم فوق الرعية من وزراء ومسؤولين، ليس هذا فقط، بل إنه علا حتى على ربه، وأراد أن يكون إلهاً.

فانظر كيف وصل به طغيانه إلى هذا الحدِّ؟

وما دام عنده هذه الصفات وهو بشر، وله هوى فسيستخدمها في إذلال رعيته، فهو لم يَسْتعْلِ في الأرض فقط، بل إنه جعل أهلها شيعاً، مع أن المفروض في شرع اللَّه أن الرعية كلها سواء، فلا تستأثر طبقة بحظوة[٣] عن طبقة أخرى، لكن فرعون جعل أهلها شيعاً.

والشيعة طائفة لها استقلالها الخاص، فهو جعلهم شِيَعاً، وسلَّط بعضهم على بعض، ومصر في ذلك العصر كانت مسكونة بالجنس الأساسي فيها، وهم القبط، وبعد ذلك في أيام يوسف عليه السلام دخلها بنو إسرائيل وسكنوا فيها وتناسلوا، وكان المفروض أنهم سيذوبون في المجتمع القبطي.

الناس يفهمون أن كلمة قبطي معناها نصراني، وهذا خطأ، لأن القبطي معناه المصري القديم، لكن عندما احتل الرومان مصر كانوا على دين المسيحية، فدخل هذا الخطأ عند كثير من الناس أن القبطي هو المسيحي[٤].

ولكن ما هو السبب في أن فرعون جعل طائفة تستعبد طائفة أخرى؟

---

(١) الشيع: جمع شيعة، والشيعة: الفرقة. قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ [القصص: ٤]، أي: أصنافاً قد صرَّف كل صنف فيما يريد من أمور دولته. (انظر: لسان العرب ـ وتفسير ابن كثير ٣/ ٣٧٩).

(٢) استحياه: استبقاه حياً ولم يقتله، أو أحب حياته وطلب له أن يعيش حيًّا. قال تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩]، أي: أنهم يقتلون الذكور فقط، ويتركون البنات والنساء على قيد الحياة.

(٣) الحُظْوَة والحِظْوة والحِظَة: المكانة والمنزلة للرجل من ذي سلطان ونحوه. ويقال: حظيت المرأة عند زوجها تحظى حظْوة وحُظوة، أي: سعدت ودنت من قلبه وأحبها. (لسان العرب ـ مادة: حظى).

(٤) قال ابن منظور في (لسان العرب ـ مادة: قبط) في معنى كلمة قبط: «القبط. جيل بمصر. وقيل: هم أهل مصر وبنكها (أي: أصلها)، والقُبطية: ثياب كتان بيض رقاق تعمل بمصر».

قالوا: لأن بني إسرائيل كانوا في خدمة المستعمر الذي أزاح حكم الفراعنة وتولى الملك، وهم ملوك الرعاة، فالذي كان يخدم هؤلاء الملوك هم بنو إسرائيل، فلما انقرض ملوك الرعاة نظر مَنْ جاء بعدهم إلى أنصارهم فاضطهدوهم، لذلك اضطهد فرعون مصر بني إسرائيل.

فمعنى هذا أن فرعون استعلى على الناس وجعلهم شيعاً، تستبد شيعة من شيعه بشيعة أخرى، فشيعة الأقباط استبدوا ببني إسرائيل انتقاماً لما فعلوه من مساعدة للمستعمر الذي احتل مصر، واستولى على الحكم فيها.

وساعة يُفرِّق فرعون بين الناس ويُقسِّمهم إلى شِيَع متنافرة، فهذا العمل منه ينفي أن يكون إلٰهاً، لأن الإلٰه يكون المخلوقون كلُّهم بالنسبة له سواء، لكن الذي يحرّض طائفة على أخرى ليس بإله.

ففرعون كان يستضعف[1] طائفة من رعيته وهم اليهود؛ لتعاونهم مع ملوك الرعاة الذين غَزَوْا مصر.

وتفصيل هذا الاستضعاف يتمثل في تذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم، وهو بهذا العمل وغيره كان من المفسدين.

والإفساد أن تأتي إلى صالح في ذاته فتفسده، فكَوْنُ فرعون يقتل الذكور من أطفال بني إسرائيل ويستحي النساء، فهذا فساد كبير، لماذا؟

لأن هناك شيئاً اسمه استبقاء الحياة، وآخر اسمه استبقاء النوع، فهو حين يقوم بهذا العمل يهدد بقاء النوع، وهو يقتل الأولاد خشية أن يناله منهم شر، لكن النساء يستبقيهن للخدمة والإذلال، لأنهن ليس لهن شوكة، ولا خطر منهن على مُلْكه.

إذن: فرعون كان مستعلياً ومفسداً في الأرض، وفرّق أهلها شيعاً،

---

(١) الضَّعْف والضُّعْف: خلاف القوة. واستضعفه وتضعَّفه: وجده ضعيفاً فركبه بسوء. (لسان العرب ـ مادة: ضعف)، قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٧٩): «كان يستعملهم في أخسِّ الأعمال، ويكدهم ليلاً ونهاراً في أشغاله وأشغال رعيته، ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحي نساءهم إهانة لهم واحتقاراً وخوفاً من أن يوجد منهم الغلام الذي كان قد تخوَّف هو وأهل مملكته من أن يوجد منهم غلام يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه».

ويستضعف طائفة منهم ويُنكِّل[١] بهم، واللَّه سبحانه وتعالى أرسل له رسولاً ليعدل سلوكه، ويُحسِّن الأمور، ويأخذ بيد المستضعفين، ولو أن المسلط على المستضعفين لم يَسْتعْلِ، ولم يتأبَّ على طاعة الرسول، وانقاد للحق، كانوا يعيشون كرعية مع بعضهم البعض، دون تفرقة.

وعندما يقولون: إن الثوريين حين يأتون للانتقام من مفسد وأعوانه، هم جاؤوا لينتقموا من هؤلاء المفسدين وينصفوا المظلومين، فكان يجب أن تمنع المفسد من الإفساد، لأن مَنْعَك له من الفساد فيه اعتدال الكون.

وبعد أن تقضي على الفساد لا تفضل فئة على فئة في المعاملة والقُرْب، ولكن اعدل بين الجميع، وبذلك تأمن غضبهم أو حقدهم عليك.

لأن الحقد يأتي من تقريبك لجماعة أو طائفة وإبعادك لأخرى، لكن المفروض أنك بعد أن أبطلت الفساد، بأن منعت المفسد أن يفسد فهذا إصلاح، ثم تأخذهم جميعاً في كنفك[٢] ورعايتك وتحتضنهم، حتى تأمن حدوث الثورة المضادة.

ففرعون جعل الأمة الواحدة طوائف، لأنه لا يريد أن تستقر بينهم الأمور، لأنه إن استقرت بينهم الأمور ربما تفرغوا إلى شيء ضده، فيشغلهم بأنفسهم حتى يظل هو مطلوباً من كل واحد منهم.

واللَّه سبحانه وتعالى شاء ألا تدوم هذه الحال، لأنه لن يُفلح ظَلُوم، ولا يموت ظَلُوم في الكون حتى ينتقم منه، ويرى من ظلمه آثار هذا الظلم الذي كان منه أولاً.

قال الحق سبحانه:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ[٣] وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

---

(١) نكَّل به تنكيلاً إذا جعله نكالاً وعبرة لغيره، فعاقبه عقاباً أليماً. والنكال: التنكيل والعقوبة الشديدة الزاجرة. (لسان العرب ـ مادة: نكل).

(٢) كنف الرجل يكنفه واكتنفه: جعله في كنفه، أي: جعله في ناحيته وجانبه وحفظه وكلاءته. (لسان العرب ـ مادة: كلأ).

(٣) السنون: جمع سنة. وقد يقصد بها: الجدب والقحط والشدة. قال ابن كثير في تفسيره =

فالحق سبحانه أخذ قوم فرعون بالسنين ونقص الثمرات لينفض أيديهم من أسبابها، فإذا نفضت اليد من الأسباب لم يَبْقَ إلا أن يلتفتوا إلى المسبب، ويقولون: «يا رب».

إذن: فالإنسان يذكر المسبِّب حين تمتنع عنه الأسباب، لأنها مقدمات الحياة، فإذا امتنعتْ مقوِّماتُ الحياة يقول الإنسان: يا رب، وهكذا كان ابتلاء اللَّه لقوم فرعون بأخذهم بالسنين ونقص الثمرات؛ ليذكروا خالقهم.

ويتتابع العذاب عليهم بكفرهم:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ(١) وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ(٢) لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ(٣) * فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ(٤) بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣ ـ ١٣٦].

ثم يأتي بعد ذلك القول الذي يحقق ما سبق أن قاله سبحانه:

= (٢/ ٢٣٩): «هي سني الجوع بسبب قلة الزروع». ونقل السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥١٨) أن عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبا الشيخ أخرجوا عن قتادة في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ . . .﴾ [الأعراف: ١٣٠]. قال: أخذهم اللَّه بالسنين بالجوع عاماً فعاماً، ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ . . .﴾ [الأعراف: ١٣٠]، فأما السنون فكان ذلك في باديتهم وأهل مواشيهم، وأما نقص من الثمرات فكان في أمصارهم وقراهم.

(١) القمل: صغار الذر والدَّبى، وقيل: هو الدَّبى الذي لا أجنحة له. وقال ابن الأنباري: قال عكرمة في هذه الآية: القُمَّل الجنادب وهي الصغار من الجراد. وقال ابن السكيت: القُمَّل شيء يقع في الزرع ليس بجراد فيأكل السنبلة وهي غضَّة قبل أن تخرج فيطول الزرع ولا سُنبل له. (لسان العرب ـ مادة: قمل).

(٢) الرجز في القرآن هو العذاب المقَلْقِل لشدته. وله قلقلة شديدة متتابعة. والرِّجز: القذر مثل الرجس، والرُّجز: عبادة الأوثان والشرك. (لسان العرب ـ مادة: رجز).

(٣) النَّكْث: نقْض ما تعقده وتصلحه من بيعة وغيرها. وتناكث القوم عهودهم: نقضوها. والنكْث: نقْض العهد بعد إحكامه كما تُنكث خيوط الصوف المغزول بعد إبرامه. (لسان العرب ـ مادة: نكث).

(٤) يقع اسم اليمّ على ما كان ماؤه مِلْحاً زُعَاقاً، وعلى النهر الكبير العَذْب الماء، يقول تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ . . .﴾ [القصص: ٧]. (انظر لسان العرب ـ مادة: يمم).

﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

ويقول الحق سبحانه تأكيداً لذلك:

﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

فَتَمَّ وَعْد اللَّه الصادق بالتمكين لبني إسرائيل في الأرض، ونصره إياهم على عدوهم، واكتملتْ النعمة، لأن اللَّه أهلك عدوهم وأورثهم الأرض.

فأهلك اللَّه آل فرعون، وأغرقهم في اليمِّ، ذلك في الدنيا، أما عذابه في البرزخ ويوم القيامة، فيقول الحق سبحانه:

﴿ . . . وَحَاقَ[1] بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ * ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٥ ـ ٤٦].

ويقول في آية أخرى عن فرعون أنه:

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ[2] ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾ [هود: ٩٨].

فهم جميعاً يتقدمون في اتجاه واحد، في اتجاه النار، ومَنْ يقودهم يتقدمهم، ويُفهم من هذا أن فرعون اتبعه الملأ، والقوم اتبعوا الملأ وفرعون، وما داموا قد اتبعوه في الأولى، فلا بد أن يتبعوه في الآخرة.

فالكفار ومعبوداتهم سيردُون النار يوم القيامة ورُود إذاقةٍ وعذاب فيها، وليس ورُوداً كوُرودِ المؤمنين لها، الذين سيروْنها دون أن تمسَّهم بسوء.

إذن: الكفار سيدخلون النارَ مع آلهتهم التي عبدوها من دون اللَّه،

---

(١) حاق به الشيء يحيق حَيْقاً: نزل به وأحاط به، وقيل: حاق بهم العذاب أي: أحاط بهم ونزل كأنه وجب عليهم. وقال الزجاج في قوله تعالى: ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [النحل: ٣٤]، أي: أحاط بهم العذاب الذي هو جزاء ما كانوا يستهزئون. (لسان العرب ـ مادة: حيق).

(٢) أوردهم النار: أدخلهم النار. وأصل الورود: حضور المكان والإشراف عليه، دخله أو لم يدخله. يقول تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ . . . ﴾ [مريم: ٧١]، أي: بالغ النار وواصل إليها، فمنهم من يردها ليدخلها، ومنهم من لا يدخلها ويكون وصوله إليها ورؤيتها ليدرك مقدار نعمة اللَّه عليه بالنجاة منها.

وحينئذٍ سيتأكدون أن هؤلاء ليسوا آلهة؛ لأنهم لو كانوا آلهة بحق لما دخلوا جهنم.

قال تعالى:

﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٩].

فالحقُّ سبحانه يُدخِلُ آلهتهم النارَ معهم حتى يكونوا عبرة لمن عبدوهم، ولذلك يقول ربنا عن فرعون الذي ادَّعَى الألوهية، وأمر الناس أن يعبدوه:

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨].

فهو الذي يتقدمهم، ويقودهم إلى النار يوم القيامة، والحكمة من ذلك أن الكفار لو دخلوا النار وحدهم لكان عندهم أمل أن آلهتهم ستأتي لِتُخلِّصهم من العذاب.

ولكن الحق سبحانه أراد أن يُدخِل معهم آلهتهم حتى ينقطع أملهم في النجاة، وتكون حسرتهم أشد، ويعلمون أن هؤلاء ليسوا آلهة، فلو كانوا آلهة ما دخلوا النار وخُلدوا فيها.

والحق سبحانه يقول:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[1] [النمل: ٨٣].

الفوج هو الدفعة، ولكن هذا الفوج هل يأخذه من العامة، أم من عتاولة المكذبين؟

هذا الفوج يكون من عتاولة المكذبين والكافرين، من كل أمة يُحشر أكابر مُجرميها في فوج واحد، حتى يُرى زعماء الضلال وفتوات الكفر في هذا الهوان والعذاب.

لذلك حَقَّ للَّه سبحانه أن ينادي يوم القيامة: «**أنا الملك... أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**».

---

(١) يوزعون: أي يُحبس أولهم على آخرهم. وقيل: يُكفُّون. قال ابن عباس: يُدفعون. وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: يُساقون. (ابن كثير ٣/ ٣٧٦، ولسان العرب ـ مادة: وزع).

وعن أبي سعيد الخدري رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال:

«**افتخرت الجنة والنار، فقالت النار: يا رب يدخلني الجبابرة والمتكبرون والملوك والأشراف**[(١)]. **وقالت الجنة: أي ربِّ، يدخُلني الضعفاء والفقراء والمساكين، فيقول اللَّه تبارك وتعالى للنار: أنتِ عذابي أصيب بك مَنْ أشاء. وقال للجنة: أنت رحمتي وسعتْ كل شيء، ولكل واحدة منكما مِلْؤُها**»[(٢)].

(١) المقصود بهم أعيان القوم والكبار فيهم الذين لهم من الحسب والمجد ما يجعلهم يتعالون على الناس بآبائهم وأحسابهم وأنسابهم.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ١٣، ٧٨)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٣٣). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١١٢): «رجال أحمد ثقات لأن حماد بن سلمة روى عن عطاء بن السائب قبل الاختلاط».

النظر إلى وجه اللَّه الكريم

٢٠ ـ عن صُهيب الرُّومي[(١)] عن النبي ﷺ قال:

«إذَا دَخَلَ أهْلُ الجنةِ الجنةَ، يقولُ اللَّه تَبارَكَ وتعالى:

تُرِيدُون شَيْئاً أَزِيدكُمْ؟

فَيقُولونَ: أَلَمْ تُبيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدخِلْنَا الجنةَ، وتُنجِّنَا مِنَ النَّارِ؟».

قال ﷺ:

«فَيُكشَفُ الحجابُ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئاً أحبَّ إليهم مِنَ النَّظرِ إلى رَبِّهِمْ عَزَّ وجَلَّ»[(٢)].

يقول الحق سبحانه في كتابه العزيز:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ[(٣)] * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

لا بُدَّ أن نعرف أن قضية رؤية اللَّه في الدنيا محسومة، وأنه لا سبيل إلى ذلك والإنسان في جسده البشري، لأن هذا الجسد له قوانين في إدراكاته، ولكن يوم القيامة نكون خَلْقاً بقوانين تختلف، ففي الدنيا لا بُدَّ أن تخرج مخلفات الطعام من أجسادنا، وفي الآخرة لا مخلفات.

وفي الدنيا يحكمنا الزمن، وفي الآخرة لا زمن، إذ يظل الإنسان شباباً دائماً، إذن: فهناك تغيير.

المقاييس هنا غير المقاييس يوم القيامة، ففي الدنيا بإعدادك وجسدك لا

---

(١) هو: صهيب بن سنان بن مالك، صحابي، أحد السابقين إلى الإسلام، كان أبوه من أشراف العرب، ولد صهيب بالموصل عام (٣٢ق.هـ)، سباه الروم صغيراً، وأقام بمكة يحترف التجارة، توفي بالمدينة عام (٣٨هـ) عن ٧٠ عاماً. (الأعلام ٣/ ٢١٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٨١)، والإمام أحمد في مسنده (٤/ ٣٣٢)، والترمذي في سننه (٢٥٥٢).

(٣) قال الفراء في قوله ـ عز وجل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢]، قال: مُشْرقة بالنعيم. والنضرة: نعيم الوجه. والنضرة: النَّعْمة والحُسْن والرَّوْنق. (لسان العرب ـ مادة: نضر).

يمكن أن ترى اللَّه، وفي الآخرة يسمح إعدادك وجسدك بأن يتجلى عليك اللَّه سبحانه وتعالى.

هذا قِمَّة النعيم في الآخرة، فأنت الآن تعيش في آثار قدرة اللَّه سبحانه، وفي الآخرة تعيش عيشة الناظر إلى اللَّه تبارك وتعالى.

والإنسان في الدنيا قد اخترع آلاتٍ مَكَّنتْهُ من أنْ يرى مَا لا يراه بعينه المجرَّدة، يرى الأشياء الدقيقة بواسطة الميكروسكوب، والأشياء البعيدة بواسطة التلسكوب.

فإذا كان عمل الإنسان في الدنيا جعله يبصر ما لم يكُنْ يبصره، فما بالُكَ بقدرة اللَّه في الآخرة؟

وإذا كان الإنسان عندما يضعف نظره يطلب منه الطبيب استعمال نظارة، فإذا ذهب إلى طبيب أمهر أجرى له عملية جراحية في عينه، يستغني بها عن النظارة ويرى بدونها.

فما بالكم بإعداد الحق سبحانه للخلق، وبقدرة اللَّه التي لا حدود لها في أن يُعيد خَلق العين، بحيث تستطيع أن تتمتع بوجهه الكريم.

فإذا كان البشر قد استطاعوا أن يُعدُّوا بمقدوراتهم في الكون المادي أشياء، لتؤهلهم إلى استعادة حاسة ما، فما بالنا بالخالق الأكرم، الإلٰه المربِّي؟

أَلَا يستطيع الخالق سبحانه أن يُعيدَ خَلْقنا في الآخرة بطريقة تتيح لنا أن نرى ذاته ووجهه؟

إنه القادر على كل شيء.

أما أن يراه الخَلْق في الدنيا، فلا، لأن تكويننا غير مُؤهَّل لأن نرى الحق سبحانه، بدليل أن الأصْلب والأقوى مِنَّا، وهو الجبل حينما تجلى ربُّه عليه اندكَّ[١]، فلما اندكَّ الجبل خَرَّ موسى صعقاً[٢]، فإذا كان موسى قد خَرَّ صعقاً لرؤية المتجلَّى عليه ـ وهو الجبل ـ فكيف لو آره؟

---

(١) الدَّكُّ: الهدم والدَّق. ودك الأرض: سَوَّى صعودها وهبوطها، ودك التراب: كبسه وسوَّاه. (لسان العرب ـ مادة: دكك).

(٢) الصعق: الغَشْي، وهو أن يغشى على الإنسان من صوت شديد يسمعه وربما مات منه. (لسان العرب ـ مادة: صعق).

إذن: هو غير مُعَدٍّ له.

يقول الحق سبحانه:

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا[1] وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۖ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فخَلْقكم ليس على هيئة تسمح لكم أن تَرَوْهُ الآن، ولكن حين تبرزون في الآخرة، وتُعَدُّون إعداداً آخر، فمن الممكن أن تنالوا شرف رؤيته.

ولا يستوي الناس في ذلك، لأن المؤمن هو مَنْ ينال شرف النظر إلى اللَّه، أما الكافر فهو محجوب عن رؤية الحق.

يقول تعالى في شأن الكفار:

﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

فلا يستوي المؤمن والكافر في هذه الحالة، فما دام الكافر محجوباً، فالمؤمن غير محجوب، ويرى ربه.

قال موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ . . .﴾ [الأعراف: ١٤٣].

قال الحق: ﴿لَن تَرَىٰنِي . . .﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وفي اللغة نجد أن «لن» تأتي تأبيدية، أي: تُؤبِّد المستقبل، أي: لا يحدث ولا يتحقق ما بعدها.

فهل معنى ذلك أن قول الحق سبحانه: ﴿لَن تَرَىٰنِي . . .﴾ [الأعراف: ١٤٣]، أن موسى لن يرى اللَّه في الدنيا ولا في الآخرة؟

نقول: ومَنْ قال إن زمن الآخرة هو زمن الدنيا؟

إن هذه لها زمن، وتلك لها زمن آخر.

﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ[2] ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

---

(١) وذلك قوله تعالى: ﴿۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ . . .﴾ [الأعراف: ١٥٥].

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٤٣): «تكون على غير الصفة المألوفة المعروفة. وقال =

إذن: فزمن الآخرة وإعادة الخلق فيها سيكون أمراً آخر، يكفي أن أهل الجنة سيأكلون، ولن تكون لهم فضلات، إنه خَلْق جديد.

إن مجيء (لن) في قول الحق: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ تأبيدها إضافي، أي: بالنسبة للدنيا، وفيها تعليل لعدم قدرة موسى على الرؤية.

ويضيف الحق سبحانه:

﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ(١) رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وسبحانه هنا يعلل لموسى بعملية واقعية، فأوضح: لن تراني، ولكن حتى أطمئنك أنك مخلوق بصورة لا تمكنك من رؤيتي، انظر إلى الجبل، والجبل مفروض فيه الصلابة، والقوة، والثبات، والتماسك، فإن استقر مكانه يمكنك أن تراني.

إن الجبل بحكم الواقع، وبحكم العقل، وبحكم المنطق أقوى من الإنسان، وأصلب منه وأشدّ، ولما تجلى ربه للجبل اندكَّ، والدكُّ هو الضغط على شيء من أعلى ليسوّى بشيء أسفل منه.

فالحق سبحانه تجلَّى على خَلْق من خَلْقه، ولكن أيقدر المتجلَّى عليه على هذا التجلي، أم لا يقدر؟

إنْ أقدره اللَّه فهو يقدر، أما إنْ لم يُقدِره اللَّه فلن يقدر.

والجبل هو الأصلب، فلما تجلَّى له ربه اندكَّ.

إذن: فمن الممكن أن يتجلى اللَّه على بعض خَلْقه، ولكن المهم أيقوى المستقبل للتجلي أو لا يقوى؟

= عمرو بن ميمون: أرض كالفضة البيضاء نقية، لم يُسفك فيها دم، ولم يُعمل عليها خطيئة، ينفذهم البصر، ويسمعهم الداعي حُفاة عُراة كما خُلِقوا، قياماً حتى يلجمهم العرق».

(١) قال الزجاج: أي: ظهر وبان، وهذا قول أهل السنة والجماعة. وقال الحسن: تجلَّى: بدا للجبل نور العرش (لسان العرب ـ مادة: جلو). ونقل ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٤٤) أخباراً مرفوعة للرسول ﷺ أنه لم يَبْدُ منه سبحانه أكثر من طرف الإصبع الخنصر. واللَّه تعالى أعلى وأعلم.

ولم تَقْوَ طبيعة موسى على التجلي للَّه، بدليل أن الأقوى منه لم يَقْوَ، وهو الجبل.

ولقد حسم اللَّه تبارك وتعالى المسألة مع موسى عليه السلام، بأن أراه العجز البشري؛ لأن الجبل بقوته وجبروته لم يستطع احتمالَ نور اللَّه فجعله دَكّاً.

وكأن اللَّه يريد أن يفهم موسى أن اللَّه تبارك وتعالى حجب عنه رؤيته رحمة منه، لأنه إذا كان هذا قد حدث للجبل، فماذا كان يمكن أن يحدث بالنسبة لموسى؟

إذا كان موسى قد صُعق برؤية المتجلَّى عليه، فكيف لو رأى المتجلِّي سبحانه؟

وهذه هي عظمته سبحانه، فلو أحسَّه الناس بأيِّ حاسة ما استحق أن يكون إلهاً؛ لأن مَنْ خلقه خلق مَا لا يُحَسَّ مثل الروح التي إذا خرجتْ من الجسد يموت ويتعفَّن، فهل علمتَ أين كانت الروح فيه؟

هل شممتها، أو أبصرتها، أو سمعتها، أو لمستها؟

لا.. إذن: الروح وهي مخلوقة للَّه لم تستطع أن تدركها بأيِّ حاسة من حواسك، فإذا كانت الروح المخلوقة فيك لم تستطع أن تدركها، فكيف تدرك خالقها؟

فمن عظمته تعالى أنه لا يُرى ولا يُحس.

فإذا كانت هناك مخلوقات للَّه لا يمكن للعقل أن يدركها ولا للحواس، فكيف ندرك خالقها؟

إذن: من عظمته سبحانه وتعالى أنه لا يُدرك.

قال الحق سبحانه:

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ(١) ٱلْخَبِيرُ﴾[الأنعام: ١٠٣].

---

(١) اللطيف: صفة من صفات اللَّه واسم من أسمائه. قال أبو عمرو: اللطيف: الذي يوصل إليك أربك (حاجتك) في رفق. واللطف من اللَّه تعالى: التوفيق والعصمة. وقال ابن الأثير: اللطيف هو الذي اجتمع له الرفق في الفعل والعلم بدقائق المصالح وإيصالها إلى مَنْ قدَّرها له من خلقه. (لسان العرب ـ مادة: لطف).

ولماذا لا تدركه الأبصار؟

لأن البصر آلةُ إدراك لها قانونها، بأن ينعكس الشعاع من المرئي إلى الرائي ويحدده، فلو أن الأبصار تدركه لحددته، وأصبح مَنْ يراه قادراً عليه، ولَصارَ مَقْدوراً لكم، لأنه دخل في إدراككم.

فلو أنك أدركتَ اللَّه لكان اللَّه مقدوراً لبصرك، والقادر لا ينقلب مَقْدوراً أبداً.

إذن: فمن عظمته أنه لا يُدرَك.

أنت قد ترى الشمس، ولكن أتدَّعي أنك أدركتها؟

لا... لأن الإدراك معناه الإحاطة.

لقد اختلف العلماء عند هذه الآية إلى أبعد حَدّ، فمنهم مجيز للرؤية، ومنهم مُنكِر لها، وأرى أن خلافهم في غير مَحلِّ نزاع؛ لأنهم تكلموا عن الرؤية.

والكلام هنا عن نَفْي الإدراك، والإدراك إحاطة، والرؤية تكون إجمالاً، إنما الإحاطة ليست ممكنة.

وعلى تقدير أن الرؤية والإدراك مُتحدان في المفهوم نقول: لماذا يكون الخلاف في أمر الآخرة؟

لو أن الخلاف في أمر الرؤية في الدنيا لكان هذا كلاماً جميلاً، ولكن الخلاف جعلتموه في الآخرة.

إن آيات القرآن صريحة في أن رؤية الحق سبحانه وتعالى من نِعَم اللَّه على المؤمنين، وهي زيادة في الحُسْنى عليهم، وحَجْبه سبحانه عن الكفار لَوْنٌ من العقوبة لهم.

يقول الحق سبحانه:

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

فاللَّه يعاقب من كفر به بأن يحتجب عنه، فالكافرون محجوبون عن رؤية اللَّه عقاباً لهم، ولو اشتركنا معهم، وحُجِبنا كما حُجِبوا، فما مَيْزتنا كمؤمنين؟

فمَنْ أطاع اللَّه طمعاً في الحصول على نعيم اللَّه في الآخرة، يأخذ هذا

النعيم، والذي أطاع اللَّه لذات اللَّه، ولأنه سبحانه وتعالى يستحق أن يُعبد لذاته ويُطاع، يكون في الآخرة مع التعظيم والتكريم والمحبة واللقاء بالمنعم.

إذن: فكلُّ إنسان لما عَمِل له، فإذا زادتْ عبادتك عما فرض اللَّه عليك، وأحببت أن تكون دائماً في لقاء مع اللَّه، بأن تقوم الليل وتتهجد، وتقرأ القرآن، وتصلي والناس نيام، وتتقن العمل الذي ترتقي به حياتك وحياة غيرك، وتفعل ذلك محبة في اللَّه الذي يستحق التعظيم، فأنت تستحق المنزلة الأعلى، وهي أن تكون في معية اللَّه.

يقول سبحانه:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

والحق سبحانه يتجلى على أهل الجنة فتراتٍ، ويتجلى على أهل محبوبية ذاته دائماً، وعندما يتجلى الحق سبحانه على أهل الجنة ويقول:

«**يا أهل الجنة**».

فيقولون: لبيك ربنا وسعديك[(١)] والخير في يديك.

فيقول سبحانه: هل رضيتم؟

فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربِّ، وقد أعطيتنا ما لم تُعْط أحداً من خلقك.

فيقول: أَلَا أعطيكم أفضل من ذلك؟

فيقولون: يا ربّ، وأيُّ شيء أفضل من ذلك؟

فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط[(٢)] عليكم بعده أبداً»[(٣)].

---

(١) حكي عن ابن السكيت في قوله: «لبيك وسعديك» تأويله: إلباباً بك بعد إلباب، أي: لزوماً لطاعتك بعد لزوم، وإسعاداً بعد إسعاد. وأصل الإسعاد والمساعدة متابعة العبد أمر ربه ورضاه. (لسان العرب ـ مادة: سعد).

(٢) السَّخَط والسُّخْط: الكراهية للشيء وعدم الرضا به. وأسخطه: أغضبه. ومنه حديث: إن اللَّه يسخط لكم كذا، أي: يكرهه لكم ويمنعكم منه ويعاقبكم عليه. (لسان العرب ـ مادة: سخط).

(٣) متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٦٥٤٩)، ومسلم في صحيحه (٢٩٨٩) عن أبي سعيد الخدري.

والحق سبحانه تحدث في كتابه عن المتعة والنعيم والجنات التي تجري من تحتها الأنهار، والمساكن الطيبة التي في جنات عدن، فقال:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ[1] . . .﴾ [التوبة: ٧٢].

إذن: فالحق سبحانه وتعالى وعد المؤمنين والمؤمنات بالجنة، والجنة تُطلق على البستان والأماكن الجميلة، تملؤها الزهور والأشجار، وهذه عامة للمؤمنين يتمتعون بها جميعاً.

ثم يأتي قوله تعالى:

﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ [التوبة: ٧٢].

وهذه المساكن زيادة على هذه الجنة، وهنا وَعْد من اللَّه لكل مؤمن بجنة خاصة بمفرده، يكون له فيها مسكن طيب.

إذن: فعندما جنات، وهي لجميع المؤمنين، ثم مساكن طيبة. أي: مسكن طيِّب لكل مؤمن، وما هو الطيب في هذه المساكن؟

لنا أن نلاحظ أن الإنسان يحب الشيوع أولاً، ثم يحب الانكماش ثانياً، وإذا أراد أن يملك فهو يريد أن يملك مكاناً متسعاً خاصاً به، ثم يُخصِّص في هذا المكان مأوىً طيباً خاصاً به.

خُذْ صورة من المجتمع الذي تعيش فيه، فأنت تحتاج إلى مسكن لتسكن وتستريح فيه من عناء الحياة، وهناك مَنْ عنده مسكن من حجرة واحدة، فإذا ترقَّى يكون المسكن من حجرة وصالة، أو حجرتين وصالة.

ثم بعد ذلك يزداد الرُّقي، فيبحث عن شقة واسعة، فإذا ارتقى كان له مسكن خاص، فإذا ارتقى جعل حَول مسكنه حديقة، وهكذا يزداد الرُّقي.

إذن: فالمسألة لم تَعُدْ مكاناً تأوي إليه فقط، بل ترتقي في الإيواء كلما ارتقيتَ في الحياة، فتتحقق لك المتعة في الإيواء، ولهذا يقول الحق سبحانه:

﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً . . .﴾ [التوبة: ٧٢].

---

(١) عدن فلان بالمكان: أقام. وجنات عدن منه، أي: جنات إقامة لمكان الخُلْد. ومنه المعْدِن: وهو المكان الذي يثبت فيه الناس لأن أهله يقيمون فيه ولا يتحولون عنه شتاء ولا صيفاً. (لسان العرب ـ مادة: عدن).

أي: هناك جنات، وهناك مساكن، لأن الإنسان يحب في بعض الأوقات أن يجلس بمفرده وحوله المتعة التي تخصّه، وفي أحيان أخرى يحب أن يجلس مع الناس في مكان جميل، مثلما يحدث في الأعياد والمناسبات، عندما نخرج إلى الحدائق والبساتين ونجلس معاً.

فكأن الجنات للرفاهية الزائدة، عندما تحب أن تجتمع مع الناس، أتمتع بها أنا وأنت وغيرنا.

أما المساكن فهي للخصوصية، فيكون لكل واحد مكان خاص يجلس فيه، ويتمتع بما حوله.

ونحن حينما نذهب إلى بيت إنسان ثري، قد نجد أن للبيت حديقة، يشرف عليها بستانيّ مُتمكِّن من عمله، ويقوم بتنسيق الزهور والأشجار بشكل يناسب ثراء المالك.

ويكون إعجابنا في هذه الحالة بالحديقة إعجاباً كبيراً، بحيث نجلس فيها، ونكره أن نغادرها، فإذا كان هذا هو ما يحدث بقدرات البشر، فكيف بهذه الحدائق التي صُنِعت بقدرة اللَّه سبحانه وتعالى؟

وكيف يكون جمالها وحلاوتها والمتعة فيها؟

إن الذي وَعَدنا بهذه الجنات هو الحق سبحانه وتعالى، وهو قادر على أن يُنفِّذ ما وعدنا به، من جنات فيها من الكماليات والرفاهية ما لا عين رَأَتْ، ولا أذن سمعتْ، ولا خَطَر على قلب بشر[(١)].

وجعل الحق سبحانه هذه الجنات واسعة شاسعة، فيها زروع وأزهار وأشكال، تسُرُّ العين بجمالها، وتُمتِع اللمس بنعومتها، وتملأ الأنوف برائحتها الزكية.

وكل إنسان في الدنيا يتمتع على قَدْر قدراته، وتصورات الخلق لأنواع

---

(١) عن سهل بن سعد الساعدي قال: «شهدت من رسول اللَّه ﷺ مجلساً وصف فيه الجنة حتى انتهى. ثم قال ﷺ في آخر حديثه: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ثم قرأ هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۞ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦، ١٧]»، أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٢٥)، وأحمد في مسنده (٥/ ٣٣٤).

النعيم تختلف باختلاف بيئاتها ومقاماتها، فقد تكون من الفلاحين، وكل متعتك أن تجلس على مصطبة أمام بيتك.

وقد يكون عند إنسان آخر بيت فيه صالون كبير، والثالث له بيت فيه عدة صالونات.

فكل واحد يتمتع على قَدْر إمكاناته في الدنيا، ولكننا في الآخرة نتمتع كلنا على قَدْر قدرات الحق سبحانه وتعالى، ويكون متاعنا بقدرة لا تفوقها قدرة، ويكون الجزاء بقدر ما فعلْتَ من خير في الدنيا، واتبعت منهج اللَّه.

إذن: فأنت الذي تحدد المساحة التي لك في الجنة، وتحدد المسكن وأنواع النعيم بقدر عملك.

ثم أوضح الحق سبحانه أن هناك شيئاً أكبر من هذا كله، وهو رضوان اللَّه في قوله تعالى:

﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ٧٢].

فالذي عمل للجنة يعطيه اللَّه الجنة، والذي عمل لذات اللَّه يعيش في معية اللَّه سبحانه.

إن رضواناً من اللَّه أكبر من كل شيء، ولقد نبَّأنا اللَّه بما في الجنات، ونبّأنا بالخير من كل ذلك، لقد نبّأنا اللَّه بأن رضوانه الأكبر هو أن يضمن المؤمنُ أن يظفر برؤية ربِّه، وهذا ما يقول اللَّه فيه:

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

إذن: فهناك في الجنة مراتب ارتقائية[١]، فالحق سبحانه سيعطي كل

---

(١) ذكر السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٣٧) آثاراً مرفوعة وموقوفة عن درجات الجنة فقال: أخرج ابن أبي حاتم (أي: في تفسيره) عن سليم بن عامر عن رسول اللَّه ﷺ قال: «الجنة مائة درجة: فأولها: من فضة أرضها فضة، ومساكنها فضة، وآنيتها فضة، وترابها مسك. والثانية: من ذهب أرضها ذهب، ومساكنها ذهب، وآنيتها ذهب، وترابها مسك. والثالثة: لؤلؤ، أرضها لؤلؤ، وآنيتها لؤلؤ، وترابها مسك. وسبع وتسعون بعد ذلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

وأخرج ابن أبي شيبة (أي في مُصنَّفه) عن ابن عمر قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلة رجل له ألف قصر، ما بين كل قصرين مسيرة سنة، يُرى أقصاها كما يُرى أدناها، في كل قصر من الحور العين والرياحين والولدان ما يدعو شيئاً إلا أُتي به» اهـ.

إنسان على قدر موقفه من منهج ربه، فمن أطاع اللَّه رغبة في النعيم بالجنة يأخذ جنة اللَّه.

ومن أطاع اللَّه لأن ذات اللَّه أهلٌ لأن تُطاع؛ فإن اللَّه يعطيه متعة ولذة النظر إليه ـ سبحانه:

تقول رابعة العدوية[١] في هذا المعنى:

كُـلُّـهـم يَـعـبـدُونَ مِـنْ خَـوْفِ نَـارٍ وَيـرَوْنَ الـنـجـاةَ حَـظّـاً جَـزِيـلا
إنَّـنـي لَـسْـتُ مِـثْـلَـهـم ولـهـذَا لَـسْـتُ أبْـغِـي بـمَـنْ أُحِـبُّ بَـدِيـلا

وقالت أيضاً:

«**اللهم إنْ كنت تعلم أنِّي أَعْبدك خَوْفاً من نارك فأدْخلْني فيها، وإنْ كنتَ تعلَمُ أنني أعبُدك طَمَعاً في جَنَّتِك فَاحْرِمني منها، إنما أعبدُكَ؛ لأنك تستحق أن تُعبد**».

فالحق سبحانه سيعطي كل عبد على قدر حركته ونيّته في الحركة، فالذي أحبَّ ما عند اللَّه من النعمة، فليأخذ النعمة ويفيضها اللَّه عليه، أما الذي أحبَّ اللَّه وإنْ سلب منه النعمة، فإن اللَّه يعطيه العطاء الأَوْفى.

وهكذا نرى أن هناك اختلافاً في التكريم، والمؤمنون حين يرتقون في درجة الإيمان يعيشون دائماً مع النعمة والمنعم، فإذا جاء الطعام قالوا: «بسم اللَّه»، وإذا أكلوا قالوا: «الحمد للَّه».

ولكنهم إذا ارتقَوْا أكثر في الإيمان عاشوا مع المنعم وحده، ولذلك يباهي اللَّه بعباده الملائكة[٢]، يباهي بعبادتهم وطاعتهم التي يلتزمون بها على أي حالة يكونون عليها، ولو نزل بهم أشد البلاء وسلبت منهم النعم.

---

(١) رابعة بنت إسماعيل العدوية، أم الخير، مولاة آل عتيك، البصرية، صالحة مشهورة، من أهل البصرة، مولدها بها، لها أخبار في العبادة والنسك. توفيت بالقدس عام ١٣٥هـ (الأعلام لخير الدين الزركلي ٣/ ١٠).

(٢) عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص قال: صلينا مع رسول اللَّه ﷺ المغرب. فرجع من رجع وعقَّب من عقَّب. فجاء رسول اللَّه ﷺ مسرعاً، قد حفزه النفس، وقد حسر عن ركبتيه فقال: «أبشروا هذا ربكم قد فتح باباً من أبواب السماء، يباهي بكم الملائكة. فيقول: «انظروا إلى عبادي قد قضوا فريضة، وهم ينتظرون أخرى»»، أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ١٨٦، ٢٠٨) وابن ماجه في سننه (٨٠١) قال البوصيري في الزوائد: هذا إسناد صحيح، ورجاله ثقات.

وهؤلاء من أصحاب المنزلة العالية، ولذلك «**فأشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل**»(١)، ليرى الحق سبحانه وتعالى مَنْ يحبه لذاته وإن سلب منه نعمته، وهذه منزلة عالية.

فمَنْ عبد اللَّه ليدخل الجنة أعطاها له، ومَنْ عبده سبحانه لأنه يستحق أن يُعبد فسوف يرتقي في الجنة ليرى وجه اللَّه في كل وقت، وأما الآخرون فيرونه لمحاتٍ، ولذلك يكون الجزاء في الآخرة على قَدْر العُمْق الإيماني للعبد.

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال أحد الصالحين:

«**إني لا أشرك بك أحداً حتى الجنة؛ لأن الجنة أحد**».

فلا يجب أن تشغلنا النعمة ـ الجنة ـ عن المنعم، وهو اللَّه سبحانه وتعالى، والذي عمل للجنة سيأخذها، والذي عمل لما هو فوق الجنة يأخذه.

أما إنْ كنت تعمل للذات وليس للعطاءات، فإنك تكون في معية اللَّه يوم القيامة.

(١) عن سعد بن أبي وقاص قال: قلت يا رسول اللَّه، أيّ الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل من الناس، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة» أخرجه أحمد في مسنده (١/ ١٧٢، ١٧٣، ١٨٠، ١٨٥)، وابن ماجه في سننه (٤٠٢٣)، والترمذي في سننه (٢٣٩٨) وقال: «حديث حسن صحيح».

أصحاب الأعراف

٢١ ـ عن حذيفة رضي اللَّه عنه قال:

«أصحابُ الأعْرافِ قَوْمٌ تجاوزتْ بهم حسناتُهم النارَ، وقَصُرَتْ بهم سَيِّئاتُهم عن الجنة، فإذا صُرِفَتْ أبْصَارُهم تِلقاءَ أصحابِ النارِ قَالُوا: رَبَّنا لا تجعلْنَا مع القَوْمِ الظالمين، فبَيْنما هُمْ كذلك إذِ اطَّلع عَليهم رَبُّك.

قال: قُومُوا ادخُلوا الجنةَ، فإنِّي قَدْ غَفرْتُ لَكُمْ»[(١)].

يقول الحق سبحانه:

﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَٰهُمْ[(٢)] وَنَادَوْٓاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ٤٦].

«الأعراف» جمع «عُرْف» مأخوذ من عُرْف الديك وهو أعلى شيء فيه، وكذلك عُرْف الفرس، كأن بين الجنة والنار مكاناً مرتفعاً كالعُرْف، يقف عليه أناس يعرفون أصحاب النار بسيماهم، ويعرفون أصحاب الجنة بسيماهم، فكأن مِنْ ضمن السِّمات والعلامات ما يُميِّز أهل النار عن أهل الجنة.

وكيف تُوجد هذه السمات؟

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/ ٣٢٠) من قول حذيفة بن اليمان، وهو في حكم المرفوع، فمثل هذا لا يكون إلا من قبيل المرفوع. وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» وأقره الذهبي.

(٢) السُّومة: العلامة. وقوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم . . .﴾ [الفتح: ٢٩]، أي: علامة إيمانهم نور في وجوههم. فالسِّيما: هي العلامة يُعرف بها الخير والشر. (لسان العرب ـ مادة: سوم).

فأهل الأعراف يعرفون الناس بسيماهم، فيعرفون أهل النار بسواد وجوههم، ويعرفون أهل الجنة ببياض وجوههم، فإذا مروا بزمرة يذهب بهم إلى الجنة قالوا: سلام عليكم. وإذا مروا بزمرة يذهب بها إلى النار قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين. أورده السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٤٦٧) وعزاه لابن جرير الطبري وأبي الشيخ عن السدي.

يُقال: إن الإنسان ساعةَ يؤمن يصير أهلاً لاستقبال سمات الإيمان، وكلما دخل في منهج اللَّه طاعةً واستجابةً أعطاه اللَّه سمة جمالية، تصير أصيلة فيه تُلازمه ولا تفارقه.

فالمؤمنون جماعة أشرقتْ وجوههم بسيماء الإيمان، فكأنها مشرقة بالنور، ونور الوجه لا يُقصد به البشرة البيضاء، ولكن نور الوجه في المؤمن يكون بإشراقة الإيمان في النفس.

ولذلك يصف الحق سبحانه المؤمنين برسالة رسول اللَّه محمد ﷺ:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ . . .﴾ [الفتح: ٢٩].

فحتى لو كان المؤمن أسودَ اللون، فإن له سمة على وجهه.

كيف؟ ولماذا؟

لأن الإنسان مُكوَّن من أجهزة، ومُكوَّن من ذرّات، وكل جهاز في الإنسان له مطلوب محدد، وساعة أن تتجه كل الأجهزة إلى ما أراده اللَّه، فإن الذي يحدث للإنسان هو انسجام كل أجهزته، وما دامت الأجهزة مُنسجمة فإن النفس تكون مرتاحة، ولكن عندما تتضارب مطلوبات الأجهزة تكون السِّحْنة مكفهرة[١].

فالنور يشع من وجوه المؤمنين[٢]؛ لأنهم أهل للقيم.

وقد سُئِل عمر رضي اللَّه عنه عن المتقين، فقال:

«**الواحد منهم يزيدك النظر إليه قرباً من اللَّه**».

وكأنه رضي اللَّه عنه يشرح لنا قول الحق سبحانه:

---

(١) السَّحْنة والسِّحْنة: الهيئة واللون والحال. وهي أيضاً: بشرة الوجه. والوجه المكفهر هو الوجه العَبُوس المنقبض الذي لا طلاقة فيه، لا يُرى فيه أثر بِشْر ولا فرح. (لسان العرب ـ مادة: كفهر) بتصرف.

(٢) عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما أن نبي اللَّه ﷺ قال: «إن الهَدْي الصالح، والسَّمْت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة» أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٢٩٦)، وأبو داود في سننه (٤٧٦٦).

﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ[1] . . .﴾ [الفتح: ٢٩].

وساعة ترى المؤمن المتقي للَّه تُسَرُّ وتفرح به، ولا تعرف مصدر هذا السرور إلا حين يقال لك: إنه ملتزم بتقوى اللَّه.

هذا السرور يلفتك إلى أن تقلده، لأن رؤياه تذكِّرك بالخشوع، والخضوع، والسكينة، ورِقَّة السمت، وانبساط الأسارير[2].

وبالعكس من ذلك أصحاب النار، فتبتعد عنهم سمات الجلال والجمال، وتحل محلها سمات القبح والشناعة والبشاعة.

يقول الحق سبحانه:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

فالذي يرى مقعده من النار لا بُدَّ أن يكون مُظلم الوجه أسود، حتى ولو كان في الدنيا أبيض الوجه، فالذين كانوا يعرفونهم هكذا في الدنيا، يفاجأون بهم يوم القيامة على وجوههم غبرة سوداء، وترهقهم قترة، فيقولون لهم:

﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ . . .﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وكأن ذلك هو سمة مَنْ يكفر بعد الإيمان.

هذه هي سِمَتهم وعلامتهم في الآخرة، أي: ما الذي صَيَّركم إلى هذا اللون؟

إنه الكفر بعد الإيمان.

---

(١) أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم . . .﴾ [الفتح: ٢٩]، قال: «أما إنه ليس بالذي ترون، ولكنه سيما الإسلام وسحنته وسمته وخشوعه». أورده السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٥٤١).
أي: أنه ليس بما يكون في جبهة الإنسان من أثر السجود بما يُعرف بـ «الزبيبة»، وقد قال حميد بن عبد الرحمٰن: كنت عند السائب بن يزيد، إذ جاء رجل في وجهه أثر السجود، فقال: لقد أفسد هذا وجهه، أما واللَّه ما هي السيما (العلامة) التي سمَّى اللَّه، ولقد صليت على وجهي منذ ثمانين سنة ما أثَّر السجود بين عينيَّ. أورده السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٥٤٢) وعزاه للطبراني والبيهقي في سننه.

(٢) نقل ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٠٤) أن بعضهم قال: «إن للحسنة نوراً في القلب، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الناس».

وهو سبحانه القائل:

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ [عبس: ٤٠، ٤١].

وترهقها: أي تغطيها. وقترة تعني الغبار، وهي مأخوذة من القُتَار، وهو الهواء الذي يمتلئ بدخان الدُّهْن المحترق من اللحم المشوي، وقد تكون رائحته أخّاذة ويسيل لها اللعاب، ولكن مَنْ يوضع على وجهه هذا القتار يصنع له طبقة سوداء.

يقول تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [يونس: ٢٧].

هؤلاء لن يجيرهم أحد عند اللَّه تعالى، ولن يقول أحد للَّه سبحانه: لا تعذبهم.

ولا يقتصر أمرهم على ذلك فقط، بل يقول الحق سبحانه:

﴿ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا . . . ﴾ [يونس: ٢٧].

أي: كأن قطعاً من الليل المظلم قد غَطَّتْ وجوههم.

هذا هو حال الذين كذَّبوا بآيات اللَّه تعالى وكذبوا الرسل، وتأبَّوا عن دعوة اللَّه سبحانه وتعالى إلى دار السلام، واتبعوا أهواءهم، واتخذوا شركاء من دون اللَّه تعالى.

فإذا ما رأى أهل الأعراف أصحاب الجنة يقولون: سلام عليكم، لأن الأَدْنى منزلة ـ أصحاب الأعراف ـ يقول للأعلى ـ أصحاب الجنة ـ سلام عليكم.

وجماعة الأعراف هم مَنْ تساوت سيئاتهم مع حسناتهم في ميزان العدل الإلٰهي، الذي لا يظلم أحداً مثقال ذرة.

والقرآن يقول:

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ (١) ﴾ [القارعة: ٦ ـ ٩].

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٤٣): «قيل: معناه، فهو ساقط هاوٍ بأم رأسه في نار جهنم، =

فهذان فريقان: أحدهما مَنْ ثقلت موازينه، وثانيهما مَنْ خَفَّت موازينه.

لذلك كان لا بُدَّ أن يوجد فريق ثالث تتساوى سيئاتهم مع حسناتهم، فلم تثقل موازينهم فيدخلوا الجنة. ولم تَخِفّ موازينهم فيدخلوا النار.

وهؤلاء هم مَنْ تُعرض أعمالهم على «لجنة الرحمة»، فيجلسون على الأعراف.

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٨، ٩].

فالموازين هي عين العدل، وليست مجرد موازين عادلة، بل تبلغ دِقَّة موازين اليوم الآخر أنها عَدْلٌ في ذاتها، فالميزان في هذا اليوم حق ودقيق.

والميزان الحق هو الذي قامت عليه عدالة الكون كله، وكل شيء فيه موزون، وسبحانه هو الذي يضع المقادير على قَدْر الحكمة والإتقان والدّقَّة التي يؤدي بها كل كائن المطلوب منه.

فالميزان يثقل بالحسنات، ويخِفّ بالسيئات، ونلحظ أن القسمة العقلية لإيجاد ميزان ووازن وموزون تقتضي ثلاثة أشياء:

أن تثقل كفة، وتخف الأخرى، أو أن يتساويا.

فهؤلاء الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم جلسوا على الأعراف، ينتظرون وينظرون لأهل الجنة قائلين:

﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٦].

فهم يسعدون بعطاء اللَّه لأهل الجنة، ويطمعون أن يغفر اللَّه ـ سبحانه تعالى ـ لهم.

فمع أنهم في مأزق بين الجنة والنار، وينتظرون رحمة اللَّه ومشغولون

= وعبر عنه بأمه، يعني دماغه. روي نحو هذا عن ابن عباس وعكرمة وأبي صالح وقتادة. وقيل: معناه: فأمه التي يرجع إليها، ويصير في المعاد إليها هاوية، وهي اسم من أسماء النار».

بأنفسهم، إلا أنهم يفرحون لأصحاب الجنة ويُحيُّونهم، ويقولون لهم:

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ . . .﴾ [الأعراف: ٤٦].

ولكن ماذا حين ينظرون إلى أهل النار؟

يقول الحق سبحانه:

﴿وَإِذَا صُرِفَتۡ(١) أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ(٢) أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٧].

انظر إلى التعبير القرآني: ﴿صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ . . .﴾.

أي: أنهم لم يصرفوا أبصارهم، لأن المسألة ليست اختيارية، لأنهم يُكرهون أن ينظروا لهم، لأن أهل النار ملعونون، وكأن في: ﴿صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ . . .﴾ لوناً من التوبيخ لأهل النار.

وقول الحق سبحانه:

﴿وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ . . .﴾ [الأعراف: ٤٧].

أي: جهة أصحاب النار.

يقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٧].

هنا يدعو أهل الأعراف: يا ربِّ جنِّبنا أن نكون معهم.

إنهم حين يرون بشاعة العذاب يسألون اللَّه، ويستعيذون به ألَّا يُدخلهم معهم.

ويقول الحق سبحانه:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٨].

---

(١) الصرف: رد الشيء من حال إلى حال. وصرف القلوب يصرفها: حَوَّلها من الهدى إلى الضلال، يقول تعالى: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم . . .﴾ [التوبة: ١٢٧]. أي: حَوَّلها.

(٢) تلقاء: مصدر «لقي» مثل تبيان، واستعمل ظرف مكان، بمعنى جهة أو عند. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ . . .﴾ [القصص: ٢٢]، أي: جهة مدين. وقال: ﴿وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ . . .﴾ [الأعراف: ٤٧]، أي: جهتهم. وقال: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ . . .﴾ [يونس: ١٥]، أي: من عند نفسه أو جهتها بغير وحي من اللَّه تعالى (القاموس القويم ٢/ ٢٠٠).

وكأن أصحاب الأعراف قد صُرِفت أنظارهم لأصحاب النار، ويرون فيهم طبقات من المعذَّبين.

فهذا أبو جهل، وذاك الوليد، ومعه أمية بن خلف وغيرهم، ممن كانوا يظنون أن قيادتهم لمجتمعهم وسيادتهم على غيرهم تعطيهم كل سلطان وكيان.

وكانوا يَسْخرون من السابقين إلى الإسلام كعمار وبلال وصهيب وخباب، وغيرهم ممَّنْ عاشوا للحق، ومع الحق.

فيقول أهل الأعراف لهؤلاء:

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٨].

وكأنهم يقولون لهم:

إن اجتماعكم على الضلال في الدنيا لم ينفعكم بشيء.. شياطينكم، والأوثان، والأصنام، والسلطان لم ينفعوكم، وكذلك استكبارهم على الدعوة إلى الإيمان: هل أغنى ذلك عنكم شيئاً؟

لا.. لم يُغْنِ عنكم شيئاً.

ويشير أهل الأعراف إلى المؤمنين الصادقين من أمثال: بلال، وخباب، فيقولون لأهل النار من أمثال أبي جهل والوليد بن المغيرة:

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ..﴾ [الأعراف: ٤٩].

أي: أهؤلاء الأبرار من أهل الجنة الذين تقولون إنهم لن ينالوا رحمة اللَّه؟

هم إذن ـ أي: أهل الأعراف ـ قد عقدوا المقارنة والموازنة بين أهل الجنة وأهل النار، وكأنهم نسوا موقفهم في انتظار الفرج، وفرحوا بأصحاب الجنة، ووبَّخوا أهل النار، ولم يشغلهم حالهم أن يقفوا موقف الفعل في هذه المسألة.

هنا يُدخِل الحق سبحانه أصحاب الأعراف جَنَّته لفرحهم بأصحاب الجنة، وتوبيخهم أهل النار، ويقول لهم:

﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩].

وهؤلاء ـ كما قلنا ـ الذين تساوتْ حسناتهم وسيئاتهم، وهم الطائفة التي

جلست على الأعراف، فلم تثقل حسناتهم لتدخلهم الجنة، ولم تثقل سيئاتهم ليدخلوا النار.

هؤلاء ينالون المغفرة من اللَّه، لأن مغفرة اللَّه وهو الرحمن الرحيم قد سبقتْ غضبه جل وعلا[١]، ولو لم يجئ أمر أصحاب الأعراف في القرآن لقال واحد:

لقد قال اللَّه لنا خبر الذين ثَقُلَتْ موازينهم، وأخبار الذين خَفَّت موازين الخير عندهم، ولم يَقُلْ لنا خبر الذين تساوت شرورهم مع حسناتهم.

لكن الحليم الخبير قد أوضح لنا خبر كل أمر، وأوضح لنا أن المغفرة تسبق الغضب عنده، لذلك فالحساب لا يكتفي الحق فيه بالعلم فقط، ولكن بالتسجيل الواضح الدقيق.

لذلك يُطمئننا الحق سبحانه فيقول:

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

إن الحق سبحانه يُطمئننا على أن ما نصنعه من خير نجده في كِفَّة الميزان، ويُطمئننا أيضاً على أنه سبحانه سيُجازينا على ما أصابنا من شرِّ الأشرار، وأننا سنأخذ من حسناتهم لتضاف إلى ميزاننا.

إذن: فالطمأنينة جاءت من طرفين:

ـ طمأننا الحق على ما فعلناه من خير، فلا يُنسى أنه يدخل في حسابنا.

ـ وطمأننا أيضاً على ما أصابنا من شرِّ الأشرار، وسيأخذ الحق سبحانه من حسناتهم ليضيفها لنا.

ونحن نجد في الكون كثيراً من الناس قد يحبهم اللَّه لخصلة من خصال الخير فيهم[٢]، وقد تكون هذه الخصلة الخيِّرَة خفية فلا يراها أحد، لكن اللَّه

---

(١) عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لما قضى اللَّه تعالى الخلق كتب بيده في كتاب عنده: غلبت ـ أو قال: سبقت ـ رحمتي غضبي. فهو عنده فوق العرش» أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٣٨١)، والبخاري في صحيحه (٣١٩٤)، وكذا مسلم في صحيحه (٢٧٥١).

(٢) عن ابن عباس أن رسول اللَّه ﷺ قال لأشجّ عبد القيس: «إن فيك خصلتين يحبهما اللَّه: =

الذي لا تخفى عليه خافية يرى هذه الخصلة في الإنسان، ويحبه اللَّه من أجلها.

ويرى الحق سبحانه أن حسنات هذا الرجل قليلة، فيجعل بعض الخلق يصيبون هذا الرجل بشرورهم وسيئاتهم، حتى يأخذ من حسنات هؤلاء، ليزيد في حسنات هذا الرجل.

= الحلم، والأَنَاةُ» أخرجه مسلم في صحيحه (١٧) كتاب الإيمان.
قال النووي في شرحه لصحيح مسلم (١/ ٣٠٣) طبعة دار القلم بيروت: «سبب قول النبي ﷺ ذلك له ما جاء في حديث الوفد (وفد عبد القيس) أنهم لما وصلوا المدينة بادروا إلى النبي ﷺ وأقام الأشج عند رحالهم فجمعها وعقل ناقته ولبس أحسن ثيابه، ثم أقبل إلى النبي ﷺ فقربه النبي ﷺ وأجلسه إلى جانبه ثم قال لهم النبي ﷺ: تبايعون على أنفسكم وقومكم. فقال القوم: نعم. فقال الأشج: يا رسول اللَّه إنك لم تزاول الرجل عن شيء أشد عليه من دينه نبايعك على أنفسنا ونرسل من يدعوهم، فمن اتبعنا كان منا ومن أبى قاتلناه. قال: «صدقت إن فيك خصلتين» الحديث.
قال القاضي عياض: فالأناة تربصه حتى نظر في مصالحه ولم يعجل، والحلم هذا القول الذي قاله الدال على صحة عقله وجودة نظره للعواقب.
قلت: ولا يخالف هذا ما جاء في مسند أبي يعلى وغيره أنه لما قال رسول اللَّه ﷺ للأشج: «إن فيك خصلتين». الحديث. قال: يا رسول اللَّه كانا فِيّ أم حدثا؟ قال: بل قديم. قال: قلت الحمد للَّه الذي جبلني على خُلُقين يحبهما».

كذَّبَني ابنُ آدمَ

٢٢ ـ يقول رب العزّة سبحانه في الحديث القدسي:

«كَذَّبني ابنُ آدمَ، ولم يكُنْ لَهُ ذَلِكَ.

وتَكْذيبُه إيَّاي قَوْلُه: لَنْ يُعيدَني كما بَدَأني.

وليسَ أَوَّل الخلْقِ بأهْوَنَ عليَّ مِنْ إعَادَتِهِ»[(١)].

لقد كان الشكُّ عند الذين عاصروا الدعوة المحمدية في مسألة البعث من الموت، وكل كلامهم يؤدي إلى ذلك، بل إنهم تعجَّبوا من حدوث هذا الأمر.

﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٢].

فهم لم يتعقَّلوا أو يتدبَّروا ليؤمنوا، ولكنهم قالوا مثل مَنْ سبقوهم من الأوَّلين الذين كذَّبوا بالبعث، وقالوا: كيف نُبعث بعد أن نصير تراباً وعظاماً؟!

وهم يستشهدون بأن آباءهم وأجدادهم وُعِدوا بذلك من قبل ولم يحدث.

وقد حكى تعالى قولهم فقال:

﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٨٣].

وهذا جهل منهم، لأنهم ربما ظنُّوا أن معنى البعث أن يموتوا، ثم يعودوا إلى الحياة الدنيا مرة أخرى، مع أن اللَّه أخبرهم عن طريق رُسله أن البعث سيكون يوم القيامة، أي بعد أن تنتهي الدنيا كلها، ويموت الناس جميعاً، فهذا جهل وسَفْسَطة في الجدل.

فالبعث بعد الموت شيء لم يَأتِ أوانه بعد، لأن البعث لا يكون إلا بعد انقضاء الدنيا، وموت كل الخلائق.

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (٤٩٧٤)، والنسائي في سننه (٤/ ١١٢) من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة، وقد أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٣١٧) ضمن صحيفة همام بن منبه، و(٢/ ٣٥٠) من طريق ابن لهيعة، والحديث صحيح.

فالكفار هم الذين أخطأوا التوقيت، لأنهم ظنُّوا أنهم يموتون، ثم يُبعثون في الحياة الدنيا، وهذا جهل وخطأ في الفهم.

ولذلك فإنهم قالوا:

﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ[1] وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

بل إنهم ضربوا للَّه الأمثال، فقال تعالى:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ[2]﴾ [يس: ٧٨].

هذا الكلام لا يقتصر على أُبيّ بن خلف الذي أنكر البعث، وهَشَّم العظام أمام رسول اللَّه ﷺ، ولكن هذا يُقال لكل مُنكرٍ للبعث.

والذي ينكر هذه القضية لو يتذكَّر خِلْقته ونشأته لوجد الدليل على البعث، لماذا؟

لأن اللَّه خلقه من عدم، وبدأ خلقه على غير مثال، ثم يعيده بعد الموت، وإعادته أهون عليه من ابتدائه، بالنظر إلى مقاييس اعتقاد مَنْ يظن أن إعادة الشيء أسهل من ابتدائه.

فاللَّه له مطلق القدرة في خَلْقه، وهو الغالب في مُلْكه، وهو الحكيم في فِعْله وتقديره.

إن الذي يُعيد إنما يعيد من موجود، أما الذي بدأ فإنما يبدأ من معدوم، فالأهونُ هو الإعادة، أما الابتداء فهو ابتداء من معدوم، وكلاهما من قدرة الحق سبحانه وتعالى.

---

(١) الدهر: الزمان الطويل ومدة الحياة الدنيا. (لسان العرب ـ مادة: دهر). وقال ابن كثير في تفسير الآية (٤/ ١٥٠): «يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا . . .﴾ [الجاثية: ٢٤]، أي: ما ثَمَّ إلا هذه الدار يموت قوم، ويعيش آخرون، وما ثَمَّ معاد ولا قيامة، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون المعاد، وتقوله الفلاسفة والإلهيون منهم، وهم ينكرون البداءة والرجعة، وتقوله الفلاسفة الدهرية الدورية المنكرون للصانع المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا المعقول، وكذَّبوا المنقول».

(٢) الرميم: العظام البالية. والرميم: الخَلَق البالي من كل شيء (لسان العرب ـ مادة: رمم).

هذا الرجل الكافر حينما ألقى السؤال على أشباهه من الكافرين، وقال:

﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨].

لم يجيبوه، أو قالوا له: لا أحد يستطيع إحياءها.

أمَّا الحق سبحانه فإنه يردُّ على زعمهم عدم إحياء الموتى بقوله سبحانه:

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

فهو سبحانه أنشأها(١) من عدم، فلئن يُنشِئها من وجود فهو أهون.

الفلاسفة المسلمون أرادوا أن يُوضِّحوا هذا المعنى فقالوا:

حينما أراد اللَّه أن يخلق من العدم، فخلق السماء ولم تكن موجودة، فقال: اخرجي يا سماء. فخرجت.

وخلق الأرض ولم تكن موجودة، فقال: اخرجي يا أرض فخرجت.

فقادريته سبحانه هي التي أمرتْ، ومقدورية السماء والأرض هي التي انفعلتْ، فما الذي انتهى من هذين العنصرين، هل قادريته انتهت؟ أم مقدورية الأشياء هي التي انتهت؟

الاثنان موجودان: مقدورية الأشياء، وقادرية الفاعل.

وقوله تعالى:

﴿أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ...﴾ [يس: ٧٩].

يدلُّ هذا على أنه سبحانه سيُنشئها مرة ثانية.

فالكافرون كانوا يستبعدون فكرة البعث والإحياء بعد الموت، وكانوا يقولون:

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌ(٢) بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣].

---

(١) أنشأ الشيء: أوجده وأحدثه وخلقه. أنشأ اللَّه الخلق: أي ابتدأ خلقهم. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٤٧]، أي: البعثة (لسان العرب ـ مادة: نشأ).

(٢) رجع يرجع رَجْعاً ورُجوعاً: انصرف. ويقول تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٨]، قيل: إنه على رَجْع الماء إلى الإحليل (ذكر الرجل) وقيل: إلى الصلب، وقيل: إلى صُلْب الرجل وتريبة المرأة. وقيل: على إعادته حياً بعد موته وبِلَاه، لأنه المبدئ المعيد سبحانه وتعالى. وقيل: على بَعْث الإنسان يوم القيامة، وهذا يقويه: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩]، أي: قادر على بَعْثه يوم القيامة. واللَّه سبحانه أعلم بما أراد. (لسان العرب ـ مادة: رجع).

هؤلاء الناس لماذا يستصعبون إعادة الخلق مرة أخرى يوم القيامة؟

ما هو وجه بُعْده؟

الفلاسفة شرحوا هذه القضية وقالوا:

هَبْ أن إنساناً مات ودُفِن في الأرض، وتحلَّل جسمه إلى عناصر، واختلطتْ بالأرض، ثم غُرِسَتْ شجرة في هذا المكان ستتغذى من عناصره، ثم تنبت ثمرة.

فالذي أكل هذه الثمرة سيتكون عنده في جسمه جزئيات من هذه الثمرة المأخوذة من عناصر الميت المدفون في هذا المكان، فحين يبعث اللَّه الناس، يبعث هذا المأخوذ من الأول، أم من الثاني؟

وهذا هو معنى قولهم:

﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ [السجدة: ١٠].

أي: أنهم تساءلوا: هل بعد الموت والدَّفْن وتحلُّل الجثمان إلى عناصر تمتزج بعناصر الأرض، أبعد كل ذلك بَعْث ونشور؟

لقد تساءل المشركون: أبعد أن نذوبَ في الأرض، وتتفكك عناصرنا الأولية نعود ثانية، ونُبعث من جديد؟

فهم يعتقدون أن التشخُّصات مادة فقط، مع أن التشخصات معانٍ.

فَهَبْ أن واحداً سميناً وزنُه مائة كيلو جرام، وأصابه مرض، فحدث له هُزَال، وأخذ وزنُه في التناقص حتى صار وزنه خمسين كيلو جراماً فقط، فأين ذهب الخمسون كيلو الأخرى؟

نزلتْ في الأرض، واختلطت بعناصرها، ثم جاء طبيب ماهر واهتدى إلى علاج هذا الرجل، وزال ما به من مرض، وأوصاه الطبيب بأنْ يُغذِّي نفسه حتى يستردَّ صحته، فبدأ يأكل ويتغذى، وبعد مدة عاد وزنه كما كان قبل المرض.

فهذا الإنسان هل تغيرتْ شخصيته، أم أنه كما هو؟ كما هو لم يتغير.

وهل الجزئيات التي دخلتْ فيه بالغذاء هي نفسها التي خرجتْ منه؟

بالطبع لا.

إذن: الإنسان ومُشخصاته جزئيات مختلفة التكوين، فساعة تكون الجزئيات مضبوطة تظهر شخصيتُك.

ولذلك قال الحق ـ سبحانه وتعالى ـ رَدّاً عليهم عندما قالوا:

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣].

قال سبحانه:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق: ٤].

أي: أن عملية الإعادة ليست بعيدة على اللَّه؛ لأن هذا مُكوَّن مثلاً من ٢٠٪ أوكسجين، وكذا في المائة فوسفور، وكذا حديد، وكذا صوديوم.. إلخ.

عندما نجمع هذه العناصر بهذه النِّسَب يكون كما هو.

فهذه الإعادة تحتاج إلى علم بتكوين العناصر، وقدرة على الإبراز.

أما العلم ففي قوله تعالى:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ...﴾ [ق: ٤].

فهذا كان فيه كذا جرام من عنصر كذا، وكذا جرام من عنصر كذا.. إلخ.

والقدرة أنه سبحانه أخبرنا بأننا ما دُمْنا آمنا بأنه قادر أن يخلق من عدم، والكل يشهد بذلك.

فالذي خلق من لا شيء، وعنده أنقاص أو بقايا شيء، فإرجاع هذا الشيء أهون من خَلْقه من العدم.

قال تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ...﴾ [الروم: ٢٧].

وعملية أهون هذه لا تناسب مقام الألوهية؛ لأن الأمور عند اللَّه ليس فيها أَهْون وأصعب، ولكن هذا تقريب للمعنى في عُرْف البشر، فهو سبحانه خلقكم من لا شيء، وأصبحتم بشراً، وصار لكم مُخلَّفات موجودة في الكون.

فَأَنْ يعيدكم إلى الحياة مرة أخرى من هذه البقايا فهو أسهل من أن

يخلقكم من عدم، كما حدث في النشأة الأولى، وهذا بِعُرْفكم أنتم.

فإذا كان اللَّه لم يُعْجِزه أن يخلقكم من عدم، فحين يعيدكم من مواد موجودة، هل يصعب ذلك عليه؟!

فمثلاً أنا أحضرت الأسمنت، وأحضرت الحجارة والرمل والماء.. إلخ، وبنيت منها حجرة أو بيتاً، هذا سهل ميسور.

لكن لو أنا سأبني ابتداء، كيف أبني بدون هذه المواد. أما عند وجود المواد فالبناء يكون سهلاً ميسوراً.

إذن: أيهما أهون: الخلق من موجود، أم الخلق من غير موجود؟

الخلق من موجود أهون.

وكلمة «أهون» أفعل تفضيل، فأنت تقول: هذا هَيِّن، وهذا أهون. ومعنى هَيِّن: أي يسير سَهْل لا يُتعِب، وليس فيه لُغُوب[1]، وأهون مبالغة في السهولة، فهذا سهل، وهذا أسهل.

وهل اللَّه يُقال في عمله: سهل وأسهل؟

لا، إنما سهل وأسهل يُقال للقُوَى المحدودة التي تعالج الأشياء، لكن اللَّه لا يعالج الأشياء، ولكنه يخلق بكلمة «كن». ولكنه سبحانه يُعطينا مثلاً مما نفعله نحن، فيُبيِّن لنا أن الواحد منا لو صنع صنعة ثم هدمها، ثم أراد أن يُعيدها كما كانت من جديد، فأيُّهما أسهل: أنْ تُعيدها؟ أم أنْ تبدأها؟

لا شكَّ أن الإعادة أسهل في عُرفنا نحن، فالإعادة أسهل في عُرْفنا نحن، لكن بالنسبة للَّه ليس هناك هيِّن وأهون.

والحق سبحانه يقول:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩].

---

(١) اللغوب: التعب والإعياء. لَغَب يلغب: أعيا أشد الإعياء. يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، (لسان العرب ـ مادة: لغب).

والحق سبحانه يفجؤهم بالسؤال:

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ(١)﴾ [يونس: ٣٤].

فالحق سبحانه يأمر رسوله ﷺ أن يسألهم:

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ . . .﴾ [يونس: ٣٤].

ومعنى أن اللَّه يسأل القوم هذا السؤال أنه لا بُدَّ أن تكون الإجابة كما أرادها هو سبحانه.

وإن قال قائل: وكيف يأمنُهم على مِثْل هذا الجواب، ألم يكن من الجائز أن ينسبوا هذا إلى غير اللَّه؟

نقول: إن هذا السؤال لا يُطرح إلا وطارحه يعلم أن له إجابة واحدة. فلن يجد المسؤول إجابة إلا أن يقول: إن الذي يفعل ذلك هو اللَّه سبحانه، ولا يمكن أن يقولوا: إن الصنم يفعل ذلك؛ لأنهم يعلمون أنهم هم الذين صنعوا الأصنام، ولا قدرة لها على مثل هذا الفعل.

فالإجابة معلومة سلفاً: إن اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ وحده هو القادر على ذلك، وهذا يوضح أن الباطل لجلج(٢) والحق أبلج(٣)، وللحق صَوْلَة(٤).

فأنت ساعةَ تنطق بكلمة الحق في أمر ما، تجدها قد فعلت فعلها فيمَنْ هو على الباطل، ويأخذ وقتاً طويلاً، إلى أن يجد كلاماً يرد به ما قلته، بل يحدث له انبهار واندهاش، وتنقطع حجته(٥).

---

(١) أفك يأفك: كذب وافترى باطلاً. (لسان العرب ـ مادة: أفك). قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤١٧): ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [يونس: ٣٤]. أي: «فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل».

(٢) اللجلجة: ثِقَل اللسان، ونقص الكلام، وأن لا يخرج بعضه في أثر بعض. وقال الليث: اللجلجة أن يتكلم الرجل بلسان غير بيِّن. (لسان العرب ـ مادة: لجج).

(٣) أبلج الحق: ظهر ووضح. والبلوج: الإشراق والوضوح. (لسان العرب ـ مادة: يلج).

(٤) صال عليه: وثب. والمصاولة: المواثبة. (اللسان ـ مادة: صول). والمواثبة والمصاولة هو معنى القذف بالحق على الباطل. يقول تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

(٥) وهذا مثل المحاورة التي دارت بين إبراهيم عليه السلام والنمروذ بن كنعان، يقول تعالى: =

ولذلك لم يقل الحق سبحانه هنا مثلما قال من قبل:

﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١].

بل قال سبحانه:

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾ [يونس: ٣٤].

وجاء بها الحق سبحانه هكذا؛ لأنهم حينما سُئِلوا هذا السؤال بهرهم الحقُّ، وغلب ألسنتهم وخواطرهم، فلم يستطيعوا قَوْل أيِّ شيء.

ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد وكيل النيابة يضيّق الخناق على المتهم بأسئلة متعددة، إلى أن يُوجِّه له سؤالاً ينبهر المتهم من فَرْط دِقَّته، وليس له إلا إجابة واحدة، تتأبى طباعه ألّا يجيب عنه، فيجيب المتهم معترفاً.

وحين يُسأل السؤال: مَنْ يبدأ الخلق ثم يعيده؟

فاللسان بفطرية تكوينه المؤمنة يريد أن يتكلم، لكنه لا يملك إرادة الكلام، فيُبيِّن الحق سبحانه للنبي ﷺ أن يجيب نيابة عن الأبعاض المؤمنة.

فيقول سبحانه:

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ . . . ﴾ [يونس: ٣٤].

وهو بذلك يؤكد الصيغة، ويكفي أن يقول محمد ﷺ هذا القول مُبلِّغاً عن ربه، وينال هذا القول شرف العِنْدية:

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾ [يونس: ٣٤].

وقد وقف الكافرون عند نقطة البعث واستبعدوها، فأراد اللَّه أن يُبيِّن لنا هذه المسألة؛ لأنها تتمة التمسُّك بالمنهج، وكأنه يقول لنا: إياكم أن تظنُّوا أنكم أخذتم الحياة، وأفلتم بها وتمتّعْتُم، ثم ينتهي الأمر؟

لا، إن هناك بَعْثاً وحساباً، لذلك قال سبحانه:

﴿ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ . . . ﴾ [يونس: ٤].

فإن قال قائل: كيف يكون ذلك؟

= ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

يأتي القول الحق:

﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ . . .﴾ [يونس: ٤].

فالذي قَدَر على أن يخلق من عدم، أَيعجزُ أنْ يُعيد من موجود؟

إنه الحق القائل:

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩].

فإذا شاء أن يُعيدكم، فلا تتساءلوا: كيف؟

لأن ذرّاتكم موجودة.

والحق سبحانه يقول:

﴿أَفَعَيِينَا(١) بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ(٢) مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥].

هكذا يستدل الحق سبحانه بالخلق الأول على إمكان الخلق الثاني، وهو الإعادة، فإن كنتم تتعجبون من أنكم تعودون بعد أن أوجد الحق أجزاءكم وذرّاتكم ومواصفاتكم، فانظروا إلى الخَلْق الأول، فقد خلقكم من لا شيء.

أفيعجز أن يُعيدكم من شيء؟

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ . . .﴾ [ق: ١٥].

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ءَإِذَا كُنَّا تُرَٰبًا ءَإِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ . . .﴾ [الرعد: ٥].

وهذا من تلبيس الشيطان، فهو قد أقسم فقال:

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ(٣) لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ

---

(١) عَيَّ بالأمر عِيّاً وعَيِيَ، وهو عَيِيٌّ: عجز عنه ولم يُطِقْ إحكامه. عيَّ عن الأمر: عجز عن النهوض به. (اللسان ـ مادة: عيا).

(٢) اللَّبْس واللِّبَس: اختلاط الأمر. لَبَس عليه الأمر يلبسه فالتبس: إذا خلطه عليه حتى لا يعرف جهته. والتبس عليه الأمر: اختلط واشتبه. (لسان العرب ـ مادة: لبس).

(٣) لأقعدن: لأتربصنَّ بهم على صراطك المستقيم لأصرفهم عنه. وعن سبرة بن أبي فاكه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ قال: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟ قال: فعصاه وأسلم. وقعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطول، =

﴿خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

فالذي بين اليد هو ما كان إلى الأمام، ومن خلفهم أي: من الوراء. وعن أَيْمانهم أي: من جهة اليمين، وعن شمائلهم أي: من جهة اليسار.

والشيء الذي أمام العالم كله، ونسير إليه جميعاً هو «الدار الآخرة».

وحين يأتي الشيطان من الأمام فهو يُشكِّكهم في الآخرة، ويُشكِّكهم في البَعْث، ويحاول أن يجعل الإنسان غير مُقْبل على منهج اللَّه، فيصير من الذين لا يؤمنون بلقاء اللَّه.

فيجعلهم الشيطان يَشُكُّون في وجود دار أخرى، سيُجازَى فيها المحسنُ بإحسانه، والمسيءُ بإساءته.

وقد حدث ذلك، ووجدنا مَنْ يقول القرآن بلسان حاله:

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الصافات: ١٦، ١٧].

ولذلك يعرض الحق سبحانه قضية البعث عَرْضاً لا يجعل للشيطان مَنْفذاً فيها، فيوضح لنا أنه سبحانه لم يعجز عن خَلْقنا أولاً، لذلك لن يعجز عن إعادتنا، والإعادة بالتأكيد أَهْوَنُ من البداية؛ لأنه سيُعيدهم من موجود، لكن البداية كانت من عدم.

إنه سبحانه عندما يُبيِّن للناس أن الإعادة أَهْون من البداية، فهو يخاطبهم بما لا يجدون سبيلاً إلى إنكاره.

ويضرب لهم الحق سبحانه مثلاً يؤكد لهم قضية البعث، فيقول:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا

= فعصاه وهاجر. ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهد النفس والمال، فقال: أتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال. قال: فعصاه وجاهد»، قال رسول اللَّه ﷺ: «فمن فعل ذلك منهم كان حقاً على اللَّه أن يُدخله الجنة، وإن قتل كان حقاً على اللَّه أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقاً على اللَّه أن يدخله الجنة، وإنْ وقَصتْه دابته كان حقاً على اللَّه أن يدخله الجنة» أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٤٨٣)، والنسائي في سننه (٦/ ٢١) وابن حبان (ص٣٨٥ موارد) كلهم من طريق هاشم بن القاسم شيخ الإمام أحمد بهذا الإسناد. وأشار إليه ابن جرير الطبري في تفسيره (٨/ ١٣٤).

جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٣ ـ ٣٥].

فانظر إلى الأرض الجدباء المقفرة[١] الميتة بعد أن نزل عليها المطر دَبَّتْ فيها الحياة، وأخرجت النبات والثمر.

والأرض نفسها نعمة؛ لأن عليها مَقَرَّنا وغُدُوَّنا ورَوَاحنا، وسكوننا وحركتنا، حتى لو كانت صحراء جرداء، فما بالك لو مَسَّها اللَّه بشيء من النبات، فتنبت الخضرة والزروع والثمار.

فالأرض نفسها آية، وإحياؤها على مراتب:

ـ فإما أنْ يكون بإنبات نباتات لا تُغني في القوت مثل الحشائش والنجيل، ولكنها تعطي خُضرة وشكلاً جميلاً.

ـ وإما أنْ يكون إحياؤها بإنبات الثمار والحبوب التي يأكلها الإنسان، ويتغذى عليها.

فالأرض الميتة نعمة، وإحياؤها نعمة أخرى، وإحياؤها بالقوت والثمار نعمة ثالثة.

ويقول الحق سبحانه في آية أخرى:

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً[٢] فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ[٣] وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ[٤] * ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥ ـ ٧].

---

(١) القَفْر والقَفْرة: الخلاء من الأرض. وجمعه: قفار وقفور. وقيل: القفر: مفازة لا نبات بها ولا ماء. وقال الليث: القفر المكان الخلاء من الناس. (لسان العرب ـ مادة: قفر).

(٢) همود الأرض: أن لا يكون فيها حياة ولا نبْت ولا عود ولم يُصبها مطر. والهامد من الشجر: اليابس. (لسان العرب ـ مادة: همد).

(٣) ربا الشيء يربو: زاد ونما. وربا السويق رُبواً: صُبَّ عليه الماء فانتفخ. وقوله عز وجل في صفة الأرض: ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ . . .﴾ [الحج: ٥]. معناه: عظمت وانتفخت. (لسان العرب ـ مادة: ربا).

(٤) البهجة: حُسْن لون الشيء ونضارته. فالبهيج: هو كل ضرب من النبات حسن ناضر. (اللسان ـ مادة: بهج).

هذا أمر عياني، فأنت ترى الأرض هامدة ساكنة، فإذا أنزل اللَّه عليها الماء اهتزّتْ.

ومعنى الاهتزاز: تحرُّك ما كنت تظنُّه ثابتاً؛ لأن كل كائن له حركة في ذاته، حتى ولو كانت قطعة حديد ففي ذرّاتها حركة، ولكن أنت ليس عندك المعايير التي تدرك بها هذه الحركة.

بدليل أنهم كانوا حين يعلموننا الكهرباء يأتون ببرادة الحديد، ويضعونها في أنبوبة زجاجية؛ لِيُثبِتوا لنا أن الإنسان حين يأتي بقضيب فيه مغناطيسية، ويُحرِّكه على قضيب آخر في اتجاه واحد.

فالقضيب الذي لم تكُنْ فيه مغناطيسية يشحن وتصبح فيه مغناطيسية، ويجذب برادة الحديد إذا قَرَّبْته منها.

فهذا الحديد الجامد فيه حركة بين ذرّاته، ولكنك لا تراها. فالأرض الهامدة، أي: في رأي العين أنها ساكنة، وبعد ذلك اهتزّتْ بعد أن أنزل اللَّه عليها الماء، فأصبحت فيها حركة ساكنة غير مرئية.

ونحن أدركنا هذه الحركة بعد أن رَبَتِ الأرض، وتحرَّك زَرْعها، فحين ينزل عليها الماء تأخذ البذور حَظَّها من الرطوبة وتكبر.

فاهتزاز الأرض يأتي من تضخُّم البذور بعد نزول الماء عليها، فتدفع ذرّات التربة التي حولها فتتحرك، فإذا أنزل اللَّه عليها الماء تحركت فيها الحياة، وأنبتت زرعاً أخضر.

فالأرض عندما ينزل عليها المطر تنتفخ قشرتها، وتطفو تلك القشرة على سطح الأرض.

والعجيب أن المطر حينما ينزل على جبل أو صحراء تجد الصحراء تخضرّ، فمن أين جاء هذا النبات في الجبال، دون أن يزرعه أحد، أو يبذر بذوره فلاح؟

نقول: سبحان اللَّه الذي سخر الرياح لتحمل البذور من المناطق المزروعة إلى المناطق القاحلة[1]، فيحمل الهواء هذه البذور بقدرة اللَّه، حتى

---

(١) قحل الشيء: يبس، فهو قاحل. ومنه: تقحَّل الشيخ: إذا يبس جلده على عظمه من =

تهدأ الرياح، فتنزل في الأماكن التي شاء اللَّه لها أن تنزل فيها.

فإذا أنزل اللَّه عليها الماء تحركتْ فيها الحياة، وأنبتتْ زرعاً أخضر، يُغطِّي سفوح الجبال بالخضرة بعد نزول المطر.

فاللَّه تعالى هو الذي يُحيي هذه الأرض الميتة، ويجعلها تهتزُّ وتموج بالحياة والخُضْرة والنماء.

وما دام اللَّه يُحيي الموتى، وهو على كل شيء قدير، فلا تنكروا الساعة؛ لأن الذي أحيا الأرض قادر على إحيائكم أنتم.

والحق سبحانه يضرب المثل الحيّ على قدرته سبحانه على إحياء الموتى، فيقول سبحانه:

﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ[1] وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا[2] ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

عندما تسمع كلمة «قرية» فإنها تفيد تجمُّع جماعة من الناس يسكنون في مكان محدود، ونفهم أن الذي مَرَّ على هذه القرية ليس من سكانها، إنما هو قد مَرَّ عليها سياحة في رحلة على هذه القرية الخاوية.

والمقصود أنها قرية خالية من السكان، وقد تكون أبنيتها منصوبة، لكن ليس فيها سكان، والخاوي: هو الشيء الساقط على غيره، فبعد أنْ كان العرش، وهو السقف، أعلى البيوت أصبح ساقطاً تحتها، مِثْلَما نقول في العامية: «جاب عاليها واطيها».

= البؤس والكِبر. وفي الحديث: «قحل الناس على عهد رسول اللَّه» أي: يبسوا من شدة القحط. (اللسان ـ مادة: قحط).

(١) سنه الطعام والشراب سنهاً وتسنَّه: تغيَّر. لم يتسنه: لم يتغير بمرور السنين عليه. (لسان العرب ـ مادة: سنه).

(٢) نشز الشيء: ارتفع. وأنشزت الشيء: إذا رفعته عن مكانه. ومعنى ننشزها في التنزيل العزيز: نرفع بعضها على بعض. (اللسان ـ مادة: نشز).

وعندما يمرُّ إنسان على قرية مثل هذه، فلا بُدَّ أن مشهدها سيكون شيئاً لافتاً للنظر.

﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ . . .﴾ [البقرة: ٢٥٩].

فكأنه يسأل عن القرية، وعن إماتة وإحياء الناس الذين يسكنون القرية.

وساعةَ تسمع «أنَّى»، فهي تأتي مرة بمعنى «كيف»، ومرة تأتي بمعنى «من أين».

والمناسب لها هنا هو أن يكون السؤال كالتالي: كيف يُحيي اللَّه هذه بعد موتها؟

وقوله هذا يدل على أنه مؤمن، فهو لا يشك في أن قضية الإحياء من اللَّه، وإنما يريد أن يعرف الكيفية، فكأنه مؤمن بأن اللَّه هو الذي يُحيي ويُميت.

والسؤال عن الكيفية معناه التيقُّن من الحدث، والكيفية ليستْ مَناطَ إيمان، فاللَّه لم يَنْهنا عن التعرُّف على الكيفية، فهو يعلم أننا نؤمن بأنه قادر على إيجاد هذا الحدَثِ.

وأضرب هنا مَثلاً ـ وللَّه المثل الأعلى ـ فمصمّم الملابس عندما يقوم بتفصيل أزياء جميلة، أنت تراها، فأنت تتيقَّن من أنه صانعها، ولكنك تتعجب فقط من دِقَّة الصَّنْعة وتقول له: باللَّه كيف عملت هذه؟

كأنك قد عشقت الصنعة. فتشوَّقْتَ إلى معرفة كيف صارت، فما بالنا بِصَنْعة الحق تبارك وتعالى؟

إنك تندهش وتتعجَّب لتعيش في ظل السِّرِّ السَّائح من الخالق في المخلوق، وتريد أن تنعمَ بهذه النعم.

فسؤاله عن كيفية الإحياء بعد الإماتة ليس معناه أنه غير مؤمن، بل هو عاشق ومشتاق لأن يعرف الكيفية، ليعيش في جو الإبداع الجمالي الذي أنشأ هذه الصَّنْعة.

ونحن نعلم أن إحياء الناس سيترتب عليه إحياء القرية، فالإنسان هو باعث الحركة التي تَعْمُر الوجود، والناس لهم حياة ولهم موت، والقرية

بأنقاضها وجدرانها وعروشها[١] لها حياة، ولها موت.

وعندما سأل العبد هذا السؤال، أراد اللَّه أن تكون الإجابة تجربة مُعَاشةً في ذات السائل، فجعل الحق سبحانه الأمر والتجربة في السائل ذاته.

يقول الحق سبحانه:

﴿ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ . . . ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وكأن اللَّه قال له كلاماً كما كَلَّم موسى عليه السلام، أو أن العبد سمع صوتاً أو مَلَكاً، أو أن أحداً من الموجودين رأى التجربة. المهم أن هناك سؤالاً وجواباً.

والحقُّ سبحانه يُخبرنا بحوار دار في هذا الشأن.

السؤال هو: كم لبثْتَ؟

فأجاب الرجل: لبثتُ يوماً أو بعضَ يوم.

وإجابة الرجل تعني أنه قد تشكك، فقد وجد اليوم قد قارب على الانتهاء، أو انتهى بالفعل، وذلك لأن اليوم أو بعضه هو أطول مدة يتخيل الإنسان أنه ينامها.

والنائم لا يكون عنده دِقَّة في تقدير الزمن، خاصة أنه لم يَرَ شيئاً قد تغيَّر فيه ليحكم بمقدار التغيُّر، فلو كان قد حلق لحيته مثلاً، وقام بعد ذلك ليجد لحيته قد طالتْ، أو قد نام بشعر أسود، وقام بعد ذلك بشعر أشيب.

فلو حدثتْ أيَّةُ تغييرات فيه لَكَان قد لمسَها، لكنه لم يجد تغيُّراً.

ومع ذلك، فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ أثبت له أنه صادق في قوله:

﴿ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ . . . ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وأن اللَّه سبحانه صادق في قوله:

﴿ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ . . . ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

---

(١) العروش: جمع عرش. وعرش البيت: سقفه. يعني: قد سقط بعضه على بعض، وأصل ذلك أن تسقط السقوف ثم تسقط الحيطان عليها. ويقول تعالى: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا . . . ﴾ [الحج: ٤٥]، أراد: أن حيطانها قائمة، وقد تهدمت سقوفها، فصارت في قرارها، وانقعرت الحيطان من قواعدها، فتساقطت على السقوف المتهدمة قبلها. (لسان العرب ـ مادة: عرش).

فكيف يتأتَّى الصِّدْق من اللَّه في مائة عام، والصدق في يوم أو بعض يوم؟

إننا هنا أمام طرفين، ويكاد الأمر أن يصبح لغزاً، ونريد أن نَحُلَّ هذا اللغز.

إن الحق سبحانه صادق ومُنزَّه، والعبد المؤمن صادق في حدود ما رأى من أحواله.

ونقول: إن في القصة ما يؤيد قول العبد: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ . . .﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وفيها أيضاً ما يؤيد قول الرب سبحانه: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ . . .﴾ [البقرة: ٢٥٩].

فقد كان مع الرجل حماره، وكان معه طعامه وشرابه، من عصير وعنب وتين.

وأراد سبحانه أن يُدلِّل على الصدق في القضيتين معاً، فقال:

﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ . . .﴾ [البقرة: ٢٥٩].

ونظر الرجل إلى طعامه وشرابه، فوجدهما لم يتغيَّرا، وهذا دليلٌ على أنه لم يمكث إلا يوماً أو بعض يوم، وبذلك ثبت صدق الرجل.

بقيت قضية «مائة عام»، فقال الحق سبحانه:

﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ . . .﴾ [البقرة: ٢٥٩].

هذا القول يدل على أن هنا شيئاً عجيباً. وأراد الحق سبحانه أن يبيِّن له بنظرة إلى الحمار دليلاً على صدق مرور مائة عام، ووجد الرجل حماره، وقد تحوّل عظاماً مبعثرة.

ولا يمكن أن يحدث ذلك في زمن قصير، فإن مَوْتَ الحمار أمر قد يحدث في يوم، لكن أن يرمَّ جسمه، ثم ينتهي لحمه إلى رماد، ثم تبقى العظام مبعثرة، فتلك قضية تريد زماناً طويلاً، لا يتسع له إلا مائة عام.

فكأن النظر إلى الحمار هو دليلٌ على صِدْق مرور مائة عام، والنظر إلى الطعام دليلٌ على صِدْق مرور يوم أو بعض يوم.

فالقضية إذن هي قضية عجيبة!

كيف طُوي الزمن في مسألة الطعام؟

وكيف بُسِط الزمن في مسألة الحمار؟

إنه سبحانه يُظهر لنا أنه هو القابض الباسط، فهو الذي يقبض الزمن في حَقِّ شيء، ويبسط الزمن في حَقِّ شيء آخر، والشيئان مُتعاصران معاً.

وتلك العملية لا يمكن أن تكون إلا لقدرة طليقة، لا تملكها النواميس الكونية، وإنما هي التي تملك النواميس.

وقد أراه اللَّه العظام، وكيف يُنشِزها ويرفعها، فتلتحم، ثم يكسوها لحماً، أي: أراه عملية الإحياء مشهدياً[1].

وفي هذا إجابة للسؤال:

﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ . . .﴾ [البقرة: ٢٥٩].

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

و«ننشزها» أي: نرفعها.

وقد رأى «العزير» كل عظمة في حماره وهي تُرفع من الأرض، وشاهد كل عظمة تركَّب مكانها، وبعد تكوين الهيكل العظمي للحمار بدأت رحلة كسوة العظام لحماً، وبعد ذلك تأتي الحياة.

لقد وجد «عزير» إجابة في نفسه، ووجد إجابة في الحمار.

ومن بعد ذلك تذكَّر قريته التي خرج منها، وأراد العودة إليها، فلما عاد

(١) قال السدي وغيره: تفرقت عظام حماره حوله، يميناً ويساراً، فنظر إليها، وهي تلوح من بياضها، فبعث اللَّه ريحاً فجمعتها من كل موضع من تلك المحلة، ثم ركب كل عظم في موضعه، حتى صار حماراً قائماً من عظام لا لحم عليها، ثم كساها اللَّه لحماً وعصباً وعروقاً وجلداً، وبعث اللَّه مَلَكاً فنفخ في منخري الحمار فنهق بإذن اللَّه عز وجل، وذلك بمرأى من العزير، فعند ذلك لما تبين له هذا كله ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

إليها وجد أمرها قد تغيَّر بما يتناسب مع مرور مائة عام. وكان في تلك القرية مولاة لهم، أي: أَمَة في أسرته.

وكانت هذه الأَمَة قد عَمِيت، وأصبحت مُقْعدة، فلما دخل وقال: أين العزير؟. قالت الأمة: ذهب العزير من مائة عام، ولا ندري أين ذهب ولم يَعُدْ.

قال: أنا العُزير.

قالت: إن للعزير علامة، فإن كنتَ العزير فادْعُ اللَّه أن يرد عليَّ بصري، وأن يُخرجني من قُعودي هذا.

وقد كانت علامة العزير أنه مُجَاب الدعوة.

فدعا عزيرٌ اللَّه فبرئت، فلما برئتْ نظرتْ إليه فوجدته هو العزير، فذهبت إلى قومها وأعلنت أن العزير قد عاد[1].

وبعد ذلك ذهب العزير إلى ابنه، فوجده رجلاً قد تجاوز مائة سنة، وكان العزير لا يزال في سن الخمسين.

ولذلك ترى الشاعر يقول مُلغِزاً: وما ابن رأى أباه وهو في ضعف عمره؟

---

(١) ذكر السيوطي هذه القصة في «الدر المنثور» (٢/ ٢٨)، وعزاها لإسحاق بن بشر وابن عساكر من طرق عن ابن عباس وكعب والحسن ووهب بن منبه يزيد بعضهم على بعض، في سياق فيه طول، وفيه «أن عزيراً ركب حماره بعد أن أحياه له اللَّه، حتى أتى محلته فأنكره الناس (أي: لم يعرفوه)، وأنكر الناس، وأنكر منازله، فانطلق على وهم منه حتى أتى منزله، فإذا هو بعجوز عمياء مقعدة، قد أتى عليها مائة وعشرون سنة، كانت أمة لهم، فخرج عنهم عزير، وهي بنت عشرين سنة وكانت عرفته وعقلته. فقال لها عزير: يا هذه، أهذا منزل عزير؟ قالت: نعم، وبكت وقالت: ما رأيت أحداً من كذا وكذا سنة يذكر عزيراً وقد نسيه الناس. قال: فإني أنا عزير قالت: سبحان اللَّه، فإن عزيراً قد فقدناه منذ مائة سنة، فلم نسمع له بذكر. قال: فإني أنا عزير، كان اللَّه أماتني مائة سنة ثم بعثني. قالت: فإن عزيراً كان رجلاً مستجاب الدعوة، يدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافية والشفاء، فادع اللَّه أن يرد عليَّ بصري حتى أراك، فإن كنت عزيراً عرفتك، فدعا ربه ومسح يده على عينيها فصحَّتا، وأخذ بيدها فقال: قومي بإذن اللَّه، فأطلق اللَّه رِجْلها فقامت صحيحة كأنها نشطت من عقال، فنظرت فقالت: أشهد أنك عزير».

والمقصود بهذا اللغز هو العزير، الذي أماته اللَّه وهو في الخمسين، ثم أحياه اللَّه في عمره نفسه بعد مائة عام، والتقى العزير بابنه.

قال الابن: كنت أسمع أن لأبي علامة بين كتفيه «شامة».

فلما كشف العزير كتفه لابنه وجد الشامة.

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله:

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وهذا تأكيدٌ وتعريفٌ بقدرة الحق سبحانه على أنه يبسط الزمن ويقبضه، وقدرة اللَّه تعالى على الإحياء والإماتة.

وعزير كان يعلم هذا علم الاستدلال، وهو الآن يعلم علم المشهد، علم الضرورة، فليس مع العين أَيْن، فصار يعلم حَقَّ اليقين، بعد أن كان يعلم عِلْمَ اليقين.

والحق سبحانه يعطينا مثالاً آخر عملياً في قصة إبراهيم عليه السلام، فيقول تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ(١) إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا(٢) وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وسيدنا إبراهيم عليه السلام لا يشك في أن اللَّه يُحيي الموتى، ولكنه يريد أن يعرف الطريقة العجيبة التي يُحيي بها اللَّه الموتى.

---

(١) أصل الصَّرِّ: الجمع والشد. وكل شيء جمعته فقد صررته. (لسان العرب ـ مادة: صرر). قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٣١٥): «قوله: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ . . .﴾ [البقرة: ٢٦٠]، أي: وقطعهنَّ. قاله ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو مالك وأبو الأسود الدؤلي ووهب بن منبه. . . وقال العوفي عن ابن عباس ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾: أوثقهن».

(٢) سعى يسعى: مشى سريعاً دون العَدْو. «قال ابن عباس: أخذ رؤوسهن بيده، ثم أمره اللَّه عز وجل أن يدعوهن فدعاهن كما أمر اللَّه عز وجل، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض، حتى قام كل طائر على حدته، وأتينه يمشين سعياً ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها، وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم، فإذا قدم له غير رأسه يأباه، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جسده (انظر: تفسير ابن كثير ١/ ٣١٥).

فالكلام ليس في الحقيقة وجوداً وعدماً، ولكن الكلام في كيفية وجود الحقيقة.

والكلام في الكيفية لا علاقة له بالوجود، فهو مؤمن بأن اللَّه يُحيي الموتى، ولكنه يريد أن يعرف كيفية حدوث هذا الأمر العجيب.

فإبراهيم عليه السلام لا يتكلم في الإحياء، ولكنه أراد أن يُريه اللَّه، ويُطلعه على كَيفية الإحياء، ليزداد اطمئناناً، ليتحقق له العلم والمشاهدة لكيفية مخصوصة تُخرِجه من متاهات كيفيات مُصوَّرة ومُتخيّلة.

وما دُمْتَ تريد الكيفية. وهذه الكيفية لا يمكن أن نشرحها لك بالكلام، بل لا بد أن تكون تجربة عملية واقعية.

فقال سبحانه:

﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

صُرْهُنَّ، أي: أَمِلْهُنَّ واضْمُمْهُنَّ إليك؛ لتتأكد من ذوات الطير، ومن شكل كل طير، حتى لا تتوهم أنه قد جاء لك طير آخر.

وقال المفسّرون[1]:

إن الأربعة من الطير هي: الغراب، الطاووس، الديك، الحمامة.

وهكذا كان كل طائر له شكلية مختلفة.

وقوله:

﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

كان المفروض أن يقول: يأتينك طيراناً.

فكيف تسعى الطيور؟

إن الطير يطير في السماء وفي الجو، لكن الحقَّ سبحانه أراد بذلك ألا يدعَ أيَّ مجال لاختلاط الأمر، فقال: (سعياً) أي: أن الطير سيأتي أمامه

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٣١٥) وعزاه لابن عباس من قوله، وقال: «اختلف المفسرون في هذه الأربعة، ما هي؟ وإن كان لا طائل تحت تعيينها، إذ لو كان في ذلك مهم لنصَّ عليه القرآن».

سائراً، لقد نقل الحق سبحانه الأمر من الطيران إلى السَّعْي، كي يتأكد منها سيدنا إبراهيم.

إذن: فلكي تتأكد يا إبراهيم، ويزداد اطمئنانك جِئْنا بها من طيور مختلفة، وأنت الذي قطعتها، وأنت الذي جعلت على كل جبل جُزْءاً، ثم أنت الذي دعوتَ الطير فجاءتْ سَعْياً.

وهذا من عظمة اللَّه تعالى في أنه لا يفعل فقط، ولكنه يجعل مَنْ لا يفعل ـ وهو إبراهيم ـ يفعل، فبدلاً من أن يأمر اللَّه الطير بأن تحيا، يجعلها تستجيب لنداء عبد من عباده، وهو إبراهيم، فتحيا في الحال.

وهنا مَلْحظ في طلاقة القدرة، وفي الفرق بين القدرة الواجبة لواجب الوجود، وهو الحق سبحانه وتعالى، والقدرة الممنوحة من واجب الوجود، وهو اللَّه سبحانه، لمنكر واجب الوجود وهو الإنسان.

هذا له قدرة، وذاك له قدرة، إن قدرة اللَّه هي قدرة واجبة، وقدرة الإنسان هي قدرة مُمكنة، وقدرة اللَّه لا ينزعها منه أحد، وقدرة الإنسان ينزعها اللَّه منه.

فالإنسان من البشر، والبشر تتفاوت قدراتهم، فحين تكون لأحدهم قدرة. فهناك آخر لا قُدْرةَ له، أي: عاجز.

ويستطيع القادر من البشر أن يُعدِّي أثر قدرته إلى العاجز، فقد يحمل القادر كُرْسِياً ليجلس عليه مَنْ لا يقدر على حمله، لكن قدرة الحق تختلف.

كأن الحقَّ ـ سبحانه وتعالى ـ يقول: أنا أُعدِّي من قدرتي إلى مَنْ لا يقدر، فيقدر.

أنا أقول للضعيف: كُنْ قادراً، فيكون.

وهذا ما نفهمه من قوله سبحانه لإبراهيم:

﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا . . .﴾ [البقرة: ٢٦٠].

إن إبراهيم كواحد من البشر عاجز عن كيفية الإحياء، ولكن الحق يُعطيه القدرة على أن يُنادي الطير، فيأتي الطيرُ سَعْياً.

إن الحق سبحانه يعطي القدرة لإبراهيم أن يدعو الطير فيأتي الطير سَعْياً، وهذا هو الفرق بين القدرة الواجبة، وبين القدرة الممكنة.

إن قدرة الممكن لا يُعدِّيها أحدٌ لخالٍ منها، ولكن قدرة واجب الوجود تُعدِّيها إلى مَنْ لا يقدر فيقدر.

ولتوضيح هذا نقول:

إنك قد لا تستطيع حَمْل شيء معين، فيأتي مَنْ يحمله لك، وتظل أنت ضعيفاً، لا تقدر.

أما الحق سبحانه القادر فإنه يُقوِّي الضعيف من عباده، ويُقْدِر منهم مَنْ يشاء على فعل أشياء خاصة به سبحانه.

وهذا مِثْل شأن عيسى ابن مريم عليهما السلام، فقال سبحانه عنه:

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡۖ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ(١) وَٱلۡأَبۡرَصَ(٢) وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٩].

إن خصائص عيسى ابن مريم لا تكون إلا بإذن من اللَّه، فقدرة عيسى عليه السلام أن يصنع من الطين ما هو على هيئة الطير، وإذا نَفَخ فيه بإذن اللَّه لأصبح طيراً، وكذلك إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى.

إن ذلك كله بإذنٍ مِمَّن؟

بإذن من اللَّه.

وكذلك كان الأمر في تجربة سيدنا إبراهيم؛ لذلك قال له الحق:

﴿ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

إن الله عزيز، أي: لا يغلبه أحد، وهو حكيم أي يضع كل شيء في موقعه.

والحق سبحانه يقول:

﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾ [التغابن: ٧].

---

(١) الأكمه: الذي يُولَد أعمى.

(٢) البرص: مرض جلديّ يُحدث بقعاً بيضاء في الجلد تشوهه، وهو من أعراض مرض الجذام الكثيرة.

ولذلك يقول الحق سبحانه لهؤلاء الكافرين الكاذبين المكذِّبين بالإحياء بعد الإماتة:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

أي: ماذا كنتم تفهمون مِنْ خلقنا لكم؟

فالحياة مرسومة لغاية، والأحياء مخلوقون لغاية مُحدَّدة بمنهج مُحدَّد، والذي يُحدِّد الغاية هو الخالق سبحانه.

فنحن نعلم أن الصانع هوالذي يُحدِّد الغاية من صنعته، فكل صنعة لها غاية مُحدَّدة يُحدِّدها الصانع، ويضع لها قانون الصيانة.

وأنت أيها الإنسان صنعةُ اللَّه، فَدَعْه ليُحدد الغاية منك، ودَعْهُ ليحدد منهج صيانتك في: افعل كذا، ولا تفعل كذا.

إذن: فساد الدنيا جاء من أن الصنعة تريد أن تأخذ حَقَّ الصانع في تحديد الغاية، ووَضْع قانون الصيانة.

فتجد الإنسان يُريد أن يُحدِّد غاية نفسه، ويضع لنفسه قانون الصيانة. مع أن هذا من حَقِّ الخالق سبحانه، وليس من حق المخلوق.

فالخالق هو القادر على معرفة ما يُصلِح خَلْقه، فيضع لهم المنهج الذي يُعينهم على تحقيق الغاية المطلوبة[1].

فالحقُّ سبحانه لم يخلقنا عبثاً ولا هملاً، ولا تركنا بدون منهج أو هدف أو غاية.

وأنتَ في ذاتك تحاول أن تضع جزئية من هذه الغاية، فأنت تجعل ابنك يتعب في المذاكرة من عام إلى عام، فيحصل على القبول، ثم الإعدادية، حتى إذا وصل إلى الثانوية العامة انقلب حال البيت كله إلى همٍّ وقلَق وترقُّب.

كل هذا من أجل أن يدخل الجامعة، ويأخذ الشهادة العالية، ثم يتولَّى إحدى الوظائف العامة، وبعد ذلك يتزوج، ويُكوِّن أسرة وأولاداً..

---

(١) يقول تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، واللطيف: هو المدبر شؤون عباده المترفق بهم. والخبير: هو العالم ببواطن الأمور.

وهكذا..

هذه كلها ليست غاية حقيقية؛ لأن الغاية الحقيقية هي التي ليس لها بَعد، أي: ليس لها مُلْحق أو تكملة.

فالإنسان بعد أن ينجح في الدنيا، ويُحقِّق النجاح والوظيفة المرموقة، والأسرة والأولاد.. بعد ذلك يموت ويترك كل هذا.

فهذه ليست غاية، ولا بد أن هناك غاية أخرى نهائية، وهي أن العبد يَلْقَى اللَّه ويُحاسَبُ على عمله، فيدخل الجنة أو النار في خلود دائم.

هذه هي الغاية التي ليست بعدها غاية.

إذن: كل شيء لا بُدَّ أن يُقاس بمقياس الجِدِّية وعدم العَبَث، فاللَّه لم يخلق شيئاً عَبَثاً، بل كُلُّ شيء مخلوق لغاية مُرادة، وموضوع لها أسباب توصل إليها.

ومعنى «ترجعون» أي: تعودون إلى اللَّه رَغْماً عنكم.

ويقول تعالى:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا * وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا[1] أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنغِضُونَ[2] إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨ ـ ٥٢].

ويقول سبحانه أيضاً:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ[3] * فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ * وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ[4] فَإِذَا هُم مِّنَ

---

(١) الرفات: الحطام من كل شيء تكسَّر. رَفَتَ الشيء: كسره ودقَّه.

(٢) نغض: تحرك واضطرب. قال الفراء: أنغض رأسه إذا حركه إلى فوق وإلى أسفل. (لسان العرب ـ مادة: نغض).

(٣) خصم الرجل: اشتد في الخصام أو جادل بشدة فهو خصم. قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨].

(٤) الصور: الذي يُنفخ فيه، فيُحدث صوتاً عظيماً. وهو البوق.

﴿ٱلْأَجْدَاثِ[١] إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ[٢] * قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ * إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ * فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٤٨ ـ ٥٤].

يقولون: متى تأتي هذه القيامة؟

ويظلون في جَدَلٍ في أمر القيامة والبعث، تأتي أَمْ لا، حتى تُفاجئه القيامة، وعندما تُفاجئه تكون الحَسرة، فربما في اللحظة التي يقول فيها هذا الكلام تأتيه الصيحة، والمسألة لن تُكلِّفنا إلا صيحة واحدة، تأخذهم وهم يخصِّمون.

وإذا كان الإنسان لا يؤمن بالبعث، فهو لا يؤمن بلقاء اللَّه سبحانه؛ لأن الذي يؤمن بالبعث يؤمن بلقاء اللَّه، ويُعدّ نفسه لهذا اللقاء بالعبادة والعمل الصالح.

أما الكافرون الذين لا يؤمنون بالبعث، فَسيُفاجأون بالإلٰه الذي أنكروه، وسوف تكون المفاجأة صعبة عليهم.

ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا . . .﴾ [النور: ٣٩].

والسراب هو أن يمشي الإنسان في خلاء الصحراء، ويُخيَّل إليه أن هناك ماءً أمامه، وكلما مشى ظن أن الماء أمامه، وما إن يصل إلى المكان يجد أن الماء قد تباعد.

وهذه العملية لها علاقة بقضية انعكاس الضوء، فالضوء ينعكس، ليصور الماء وهو ليس ماء:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ . . .﴾ [النور: ٣٩].

إنه يُفاجأ بوجود اللَّه سبحانه الذي لم يكُنْ في باله، فهو واحد من الذين لا يَرْجُون لقاء اللَّه.

---

(١) الأجداث: القبور. ومفرده: جَدَث.

(٢) ينسلون: يخرجون بسرعة. قال الليث: النسلان مشية الذئب إذا أسرع. وقد نسل في العَدْو ينسل: أسرع. (لسان العرب ـ مادة: نسل).

والخُسْران الحقيقي أن يُكذِّب الإنسان، لا بنعيم اللَّه فقط، ولكن بلقاء اللَّه أيضاً.

يقول الحق سبحانه:

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ . . .﴾ [يونس: ٤٥].

أي: أن اللَّه سبحانه لم يكُنْ في بالهم، وهم حين تقوم الساعة يجدون اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ أمامهم، فَيُفاجأون بوجوده سبحانه وبالجزاء والحساب، فَفُوجِئوا بأمر لم يكُنْ في بالِهم، ولم يعملوا له أيَّ حساب.

يقول الحق سبحانه:

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الذاريات: ٥، ٦].

أي: أن ما تُوعدون من البعث وَعْدٌ صادق، والحق سبحانه إذا وعد فلا بد أن يتحقق وَعده، وإذا أوعد فلا بُدَّ أن يأتي وعيده.

فهو سبحانه القادر المسيطر على الأشياء، ولا يُوجد إلٰه آخر يُناقِضه فيما وعد أو أوعد به، فلا بُدَّ أن يتحقق الوعد، أو يأتي الوعيد.

وقد يظنُّ بعضُ الناس أن اللَّه قد يأتي بما وعد به، لكنهم قد يهربون منه، ولكن ليس الأمر كما يظنُّون، فالوعد آتٍ وأنتم لا تستطيعون الهرب منه، ولا أحدَ بقادرٍ على أن يمنع اللَّه عن تحقيق ما وعد أو أوعد.

ولن تَفِرُّوا من وَعْده أو وعيده، ولن تغلبوا اللَّه، أو تفوتوه وتُعجِزوه، فاللَّه غالب على أمره.

شتمني ابن آدم

٢٣ ـ يقول ربُّ العِزَّة سُبْحانه في الحديثِ القُدسيِّ:

«شَتَمنِي ابْنُ آدَمَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتْمُهُ إِيَّايَ قَوْلُه: اتَّخذَ اللَّهُ وَلَداً، وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ(١)، لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ، ولَمْ يَكُنْ لِي كُفُواً(٢) أَحَدٌ»(٣).

هذه قضية في قِمَّة العقيدة، ولذلك تكررتْ في القرآن الكريم، وتكرر الرد عليها مرة بعد أخرى.

واللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ يريدنا أن نعرف أن هذا ادّعاء خطير مُسْتقبح مُسْتنكر ومَمْقُوت.

ولقد عالجت سورة مريم المسألة علاجاً واسعاً، علاجاً اشترك فيه انفعال كل أجناس الكون غير الإنسان.

واسمع إلى قول الحق سبحانه، وهو يقول:

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۞ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا(٤) ۞ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ(٥) مِنْهُ

---

(١) الصمد: من صفاته تعالى وتقدس؛ لأنه أصمدت إليه الأمور فلم يقصد فيها غيره. وقيل: الصمد السيد الذي ينتهي إليه السؤدد، وقيل: الصمد الدائم الباقي بعد فناء خَلْقه. والصمد: السيد المطاع الذي لا يُقضى دونه أمر. وقيل: الذي يُصمد إليه في الحوائج أي يُقصد. (لسان العرب ـ مادة: صمد).

(٢) الكفء: النظير والمساوي. وكفء الرجل: المساوي له في قوته وقدرته ومنزلته مثل نظيره. فمعنى قوله: «ولم يكن لي كفواً أحد» أي: ليس للَّه نظير ولا مثيل.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٩٧٤)، والنسائي في سننه (٤/ ١١٢) من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة، وقد أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٣١٧) ضمن صحيفة همام بن منبه، و(٢/ ٣٥٠) من طريق ابن لهيعة. والحديث صحيح.

(٤) الإدُّ والإدَّة: العَجب والأمر الفظيع العظيم والداهية. والجمع: إدَد. وهي الدواهي العظام. (لسان العرب ـ مادة: أدد).

(٥) فطر الشيء يفطره: شقه، وتفطر الشيء: تشقق. وأصل الفطر: الشق، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، (لسان العرب ـ مادة: فطر).

وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٣].

انفعال السماوات والأرض والجبال وغيرها من خلق اللَّه التي تلعن كل مَنْ قال ذلك، بل وتكاد تشعر شعوراً منها بفداحة الجريمة أن تنفطر السماء، أي: تسقط قطعاً صغيرة، وتنشق الأرض أي: تتمزق، وتَخِرّ الجبال، أي: تسقط كتراب.

كل هذا من هَوْلِ ما قيل، ومن كَذِب ما قيل؛ لأن هذا الادعاء افتراء على اللَّه.

وإذا نظرت للذين قالوا إن للَّه ـ سبحانه وتعالى ـ ولداً، ستجد أن هناك أقوالاً متعددة:

ـ هناك قول قاله المشركون، قال الحق سبحانه عنهم:

﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ(١) لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ(٢) ﴾ [الصافات: ١٥١ ـ ١٥٦].

ـ وهناك قول اليهود، وهو ما يرويه لنا القرآن:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ . . . ﴾ [التوبة: ٣٠].

ـ وهناك قول النصارى:

﴿ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ . . . ﴾ [التوبة: ٣٠].

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ(٣) قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠].

هذا الادعاء فيه مَسَاسٌ بجلال اللَّه تعالى، فالإنسان يتخذ ولداً لعدة أسباب:

---

(١) الإفك: الكذب. ورجل أفَّاك: كذَّاب. وأفك الناس: كَذَبهم وحدَّثهم بالباطل. (اللسان ـ مادة: أفك).

(٢) السلطان: الحجة والبرهان. (اللسان ـ مادة: سلط).

(٣) المضاهاة: مشاكلة الشيء بالشيء. معنى يضاهون قول الذين كفروا أي: يشابهون في قولهم هذا قول من تقدم من الكافرين. أي: إنما قالوه اتباعاً لهم. (اللسان ـ مادة: ضها).

ـ إما لأنه يريد أن يبقى ذكره في الدنيا بعد أن يرحل. . واللَّه سبحانه دائم الوجود.

ـ وإما لكي يُعينُه ابنه عندما يكبر ويضعُفُ. . واللَّه سبحانه دائم القوة.

ـ إما ليرث ماله ومَا يملك. . واللَّه تبارك وتعالى يرث الأرض ومَنْ عليها.

ـ وإما ليكون عِزْوةً له. . واللَّه جَلَّ جلاله عزيز دائماً.

وهكذا تنتفي كُلُّ الأسباب التي يمكن أن تؤدي إلى هذا الادعاء، فهو جَلَّ جلاله له كمال الصفات أزلاً، وبكمال صفاته خلق هذا الكون وأوجده.

لذلك فهو ليس في حاجة إلى أحد من خلقه؛ لأنه ساعةَ خلق كانت له كُلُّ صفات القدرة على الخلق، بل قبل أن يخلق كانت له كُلُّ صفات الخالق، وبهذه الصفات خلق.

واللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ كان خالقاً قبل أن يخلق أحداً من خلقه، وكان رازقاً قبل أن يوجد مَنْ يرزقه، وكان قهاراً قبل أن يوجد مَنْ يقهره، وكان تواباً قبل أن يوجد مَنْ يتوب عليه.

وبهذه الصفات أوجد، وخلق، ورزق، وقهر، وتاب على خَلْقه.

إذن: كل هذا الكون لم يُضِفْ صفة من صفات الكمال إلى اللَّه، بل إن اللَّه بكمال صفاته هو الذي أوجد.

ولذلك يقول الحق سبحانه في حديثه القدسي:

« **يا عبادي**، كلكم ضال ـ إلا مَنْ هديتُه، فَاسْتَهْدُوني أهدكم.

يا عبادي، كلكم جائع، إلا مَنْ أطعمتُه، فَاسْتَطعِمُوني أُطعمكم.

يا عبادي، كلكم عَارٍ، إلا مَنْ كسوته، فاسْتكْسُوني أَكْسُكُم.

يا عبادي، إنكم تُخطِئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فَاسْتَغْفروني أغفر لكم.

يا عبادي، إنكم لن تبلُغوا ضُرِّي فَتضرُّوني، ولن تَبْلُغوا نَفْعي فَتَنْفعُوني.

يا عبادي، لو أن أوَّلكم وآخركُمْ، وإنْسَكُم وجِنّكم كانوا على أتْقَى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في مُلكي شيئاً.

يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجِنَّكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من مُلكي شيئاً.

يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنّكم، قاموا في صعيد[(١)] واحد، فسألوني، فأعطيتُ كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أُدْخِلَ في البحر»[(٢)].

فهؤلاء الذين قالوا هذه القَوْلة وغيرها من الأقوال الباطلة قال عنهم رَبُّ العزّة:

﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ * ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الحج: ٧٤ ـ ٧٦].

والقرآن كله ناطق بصفات الكمال في الإيجاد، والخَلْق، والإحياء والإماتة، القيوم على خَلْقه، السميع، البصير، العليم.

يقول الحق سبحانه في سورة الأنعام:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ[(٣)] ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥].

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا[(٤)] ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

---

(١) الصعيد: وجه الأرض. وهو الموضع العريض الواسع. (اللسان ـ مادة: صعد).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ١٦٠)، ومسلم في صحيحه (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رضي اللَّه عنه.

(٣) الفلق: الشق. وفلق اللَّه الحب بالنبات: شقه. وكذلك فلق الأرض بالنبات والسحاب بالمطر. وإذا تأملت الخَلْق تبين لك أن أكثره عن انفلاق. (لسان العرب ـ مادة: فلق).

(٤) الحسبان: الحساب. قال الزجاج: بحُسْبان يدل على عدد الشهور والسنين وجميع الأوقات. (اللسان ـ مادة: حسب). ويقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ . . .﴾ [يونس: ٥].
قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٠٧): «فبالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام».

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٧].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٨].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ(١) دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ (٢) إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٩].

ومن العجيب أن هناك مَنْ جعلوا للَّه شركاء!!

إلهٌ له كُلُّ هذه الصفات من أول: فالق الحب والنوى، وفالق الإصباح، وجعل الليل سكناً، والشمس والقمر حسباناً، والنجوم نهتدي بها في ظلمات البر والبحر، وأنزل لنا من السماء ماء، وأخرج لنا النبات منه خَضِراً.

كُلُّ هذه المسائل كان يجب أن تكون صارفة للناس، إلى أن اللَّه وحده هو الخالق المسْتحقُّ للعبادة، ولا تتجه أبداً بالعبادة أو بالإيمان لغيره.

ولكن من العجيب أنهم جعلوا للَّه شركاء، فقال تعالى:

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ(٣) بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

والتعجب من أمرين اثنين:

ـ أن يجعلوا شركاء للَّه من الجن أو من الملائكة، مع أن اللَّه هو الذي خلق العابد والمعبود.

ـ والعجيبة الأخرى أنه خلقهم وخَرَقُوا له بنين وبنات بغير علم.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

---

(١) القِنْو: العِذْق، وهو ذو الشماريخ المكللة بالبلح. ويسمى أيضاً الكِبَاسة، وجمعه: أقناء وقنوان.

(٢) ينع الثمر يينع: أدرك ونضج. واليَنْعُ: النضج. واليانع: الناضج. (اللسان ـ مادة: ينع).

(٣) خرق الكذب وتخرَّقه: اختلقه. والتخرّق: اختلاق الكذب وافتراؤه. ويقال: خلق الكلمة واختلقها وخرقها واخترقها إذا ابتدعها كذباً. (لسان العرب ـ مادة: خرق).

أي: تنزيهاً له عن الشرك في الذات، وفي الصفات، وفي الأفعال؛ لأن ذاته ليست ككل الذوات، وأفعاله ليست ككل الأفعال، وصفاته ليست ككل الصفات.

ثم يقول تعالى:

﴿بَدِيعُ[1] ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

وما دام سبحانه بديع السماوات والأرض، وهو بقدرته الذاتية الفائقة خلق السماوات والأرض الأكبر من خَلْق الناس.

إذن: فإنْ أراد ولداً لَطَرأَ عليه هذا الابن بالميلاد، ولا يمكن أن يُسمَّى ولداً إلا إذا وُلِدَ، وسبحانه مُنَزَّه عن ذلك.

ثم لماذا يريد ولداً، وصفاتُ الكمال لن تزيد بالولد، ولم يَكُنْ الكون ناقصاً قبل ادّعاء البعض أن للحقِّ سبحانه ولداً.

إن الكونَ مخلوقٌ بذات الحق ـ سبحانه وتعالى ـ، والناس تحتاج إلى الولد لامتداد الذكرى، وسبحانه لا يموت، مِصْداقاً لقوله تعالى:

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ . . .﴾ [القصص: ٨٨].

والبشر يحتاجون إلى الإنجاب ليعاونهم أولادهم، وسبحانه هو القويُّ الذي خلق، وهو حَيٌّ لا يموت؛ لذلك فلا معنى لأن يُدّعى عليه ذلك.

وما كان يصحُّ أن تُناقش هذه المسألة عَقْلاً، ولكن اللَّه ـ لُطْفاً بخلقه ـ وضَّح وبيَّن مِثْل هذه القضايا.

ثم إذا كان للَّه ـ سبحانه وتعالى ـ زوجة وولد، فَمَنِ الذي وُجِد أولاً؟

إذا كان اللَّه سبحانه وتعالى قد وُجد أولاً، ثم بعد ذلك أوجد الزوجة والولد فهو خالق، وهما مخلوقان.

وإنْ كان كل منهم قد أوجد نفسه، فهم ثلاثة آلهة، وليسوا إلهاً واحداً.

وهذه يردُّ عليها رَبُّ العزّة، فيقول:

---

(١) البديع: من أسماء اللَّه تعالى لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها، أي: خالقها ومبدعها فهو سبحانه الخالق المخترع لا عن مثال سابق. (لسان العرب ـ مادة: بدع).

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

فلو أن هناك آلهة غير اللَّه سبحانه لصنع كلُّ إلهٍ شيئاً لا يقدر على صُنعه الإلٰه الآخر، ولأصبح الأمر صِراعاً بين آلهة متنافرة.

ويقول أيضاً:

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وعِلَّة التسبيح والتنزيه عن أن يكون له ولد تأتي في قوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ . . .﴾ [يونس: ٦٨].

لأن اتخاذ الولد إنما يكون عن حاجة: إما استعانة، وإما اعتماداً، وإما اعتداداً، وإما امتداداً. وكل هذه أمور باطلة بالنسبة له سبحانه، وهو الحق الأعلى.

وهم ليس عندهم حجة تدل على أن اللَّه تعالى اتخذ ولداً؛ ولذلك يقول تعالى:

﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨].

والحق سبحانه يسوق قول كل من اليهود والنصارى، فقال:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ . . .﴾ [التوبة: ٣٠].

وهكذا نجد أنهم لم يُنزِّهوا اللَّه، وأخلُّوا بالإيمان الحق.

ولا بُدَّ أن نعلم أن مَنْ قالوا: إن عُزَيْراً ابن اللَّه. ليسوا هم كل اليهود، بل جماعة منهم فقط هي التي جعلتْ عُزَيراً ابناً للَّه، لما رأى أفرادها على يديه نعمة أفاءها[1] اللَّه تعالى عليه.

فقالوا: هذه نعمة عظيمة جداً لا يمكن أن يعطيها ربنا لشخص عادي، بل أعطاها لابنه.

ذلك أن اليهود بعد سيدنا موسى عليه السلام قتلوا الأنبياء، وعاقبهم اللَّه

(١) أفاء اللَّه عليه فيئاً: منحه غنيمة في الحرب بالنصر أو بغير الحرب. والمقصود أنها نعمة أنعم اللَّه بها على عزير.

بأن رفع التوراة من صدور الحافظين لها، ولكن طفلاً لم يعجبه مشهدُ قَتْل الأنبياء، فخرج شارداً في الصحراء، مهاجراً وهارباً، فقابله شخص في الطريق، فسأله: لماذا أنت شارد؟ قال: خرجتُ أطلب العلم.

وكان هذا الشخص هو جبريل عليه السلام، فعلَّمه أن للَّه توراة، فحفظها فصار واحداً من أربعة، هم فقط مَنْ حفظوا التوراة: موسى، وعيسى، وعزير، واليسع.

ولأن الكتب قديماً لم تكُنْ تُكتب على ورق رقيق مثل زماننا، بل كانت تُكتب على الأحجار وسعف النخيل؛ لذلك كان وزن التوراة يقدر بسبعين حِمْل بعير.

وحين رجع عزير حافظاً للتوراة، اندهش قومه وقالوا: لا بُدَّ أنه ابن اللَّه؛ لأن اللَّه أعطاه التوراة، وآثره على القوم جميعاً.

ونشأتْ جماعة من اليهود تؤمن بذلك، وكان منهم سلَّام بن مشكم، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف، ونعمان بن أوفى.

وحينما أنزل اللَّه قوله:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ . . .﴾ [التوبة: ٣٠].

لم ينكر اليهود المعاصرون لهذا النزول تلك المسألة ولم يُكذِّبوها، فكأن هناك من اليهود الذين كانوا بالمدينة مَنْ كان يؤمن بذلك، وإلا لاعترضوا على هذا القول[(١)].

وهذا دليل على أن ما جاء بالآية يَصْدُق على بعضهم، أو هم عالمون بأن قوماً منهم قد قالوا ذلك.

وكذلك قالت النصارى عن عيسى عليه السلام، فجاء قول الحق تبارك وتعالى:

---

(١) قال ابن كثير في (قصص الأنبياء، ص: ٣٨٠) بتحقيقي: «روى ابن عساكر عن ابن عباس أنه سأل عبد اللَّه بن سلام عن قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ . . .﴾ [التوبة: ٣٠]، لم قالوا ذلك؟ فذكر له ابن سلام ما كان من كَتْبه لبني إسرائيل التوراة من حفظه، وقول بني إسرائيل لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلا في كتاب، وإن عزيراً قد جاءنا بها من غير كتاب. فرماه طوائف منهم، وقالوا: عزير ابن اللَّه».

﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ . . .﴾ [التوبة: ٣٠].

يُوضِّح لنا سبحانه أن البنوّة للَّه جاءت فيها مشبهة، كان يجب أنْ يلتفتوا إليها، ويُنزِّهوا اللَّه عن ذلك؛ لأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يَصِفُ عباده بأنهم عباد اللَّه، وأنَّ الخَلْق كلهم خَلْقُ اللَّه تعالى.

والحق سبحانه يقول:

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ[1] ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢].

فمصدر الشرف للإنسان أن يُحِسَّ ويشعر بتجلِّي اللَّه عليه بعبوديته له، والمسيح عليه السلام لا يجد غضاضة[2] أنْ كان عَبْداً للَّه، ولا يستكبر على ذلك، بل هو يشرفُ به.

والملائكة المقرَّبون أيضاً تشرُف بهذا الأمر، والملائكة المقربون هم الذين لا يعلمون شيئاً عن هذا العالم، وليس لهم عمل إلا التسبيح للَّه؛ لأنهم عرفوا العبودية للَّه.

وهي عبودية ليست لمن يَستذِلّ، لكنها لمنْ يُعِزّ.

وهي عبودية ليست للذي يأخذ، ولكنها للذي يُعطي.

والذي يستنكف من ذلك لا يعرف قيمة العبودية للَّه؛ لذلك لا يستنكف المسيح أن يكون عبداً للَّه، ولا الملائكة المقرَّبون.

والمولَى ـ سبحانه وتعالى ـ هو الخالق والقادر على كل شيء، خلق كل الخلق من عدم، ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً.

وقد جاءتْ الشُّبهة عند بعض من أتباع المسيح من أنه أُوجِدَ من دون أب.

ونقول لهم: لو أن هذا الأمر جاء لكم من هذا الطريق، فكان من الأَوْلَى

---

(١) استنكف: أنِفَ وامتنع. وهو أن يقول: لا. أي: لن ينقبض ولن يمتنع من عبودية اللَّه. وقال الزجاج في ذلك: أي ليس يستنكف الذين يزعمون أنه إلٰه أن يكون عبداً للَّه ولا الملائكة المقربون، وهم أكبر من البشر. (لسان العرب ـ مادة: نكف).

(٢) غضَّ الأمرُ منه: أي وضع ونقص من قدره. يُقَال: ما عليك بهذا غضاضة أي نقص ولا انكسار ولا ذل. (لسان العرب ـ مادة: غضض).

أن تجيء ذات الشبهة في خلق آدم؛ لأن قصارى ما في المسيح أنه جاء من غير أب، ولكن آدم جاء من غير أب، ومن غير أم، فأيُّهما كان أَوْلَى أن يكون ابنَ إلٰه؟

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

فالحقُّ سبحانه يخلق الشيء ـ أيّ شيء ـ بأسباب، وكُلُّ الأسباب مخلوقة له.

والولد مِنَّا ـ في جمهرة الناس ـ ينشأ من اجتماع الأب والأم، والشيء المردود بين شيئين له صور منطقية أربع:

ـ إما أنْ يوجد بوجود شيئين، ذكر وأنثى. وهذا لجمهرة الخلق.

ـ وإمَّا أنْ يُوجد بانعدام الشيئين، مثل: آدم.

ـ وإمَّا أنْ يُوجد بوجود واحد من الشيئين، وهو الذكر، مثل: حواء.

ـ وإمَّا بوجود واحد من الشيئين، وهي الأنثى، وخَلْق عيسى عليه السلام منها بدون وجود الذكر.

وليعلمنا اللَّه سبحانه وتعالى جميعاً أن الأسباب لا دَخْلَ لها في التكوين، وأن المسبِّب هو القادر على أنْ يُوجِد من غير أب وأم كما أوجد آدم، وأنْ يُوجد من أب وأم كما أوجد جمهرة الناس، وأن يُوجِد من أم دون أب كما أوجد عيسى، وأن يُوجِد من دون أم كما أوجد حواء.

إذن: فالقسمة دائرة بقدرة اللَّه وإرادته، ولا دَخْل لأحد إلا إرادة الحق سبحانه وتعالى، فالأسباب ليست هي الفاعلة في ذاتها، بل إرادة الخالق سبحانه هي الفاعلة.

والمعجزة في آدم أقوى منها في عيسى عليه السلام، أنتم فُتِنْتم في عيسى لأن عنصر الأُبوة ممتنع، وآدم امتنع فيه عنصر الأبوة والأمومة.

إذن: فالمعجزة أقوى، وكان الأَوْلَى أن تُفْتَنوا بآدم بدل أن تُفتنوا بعيسى.

ومن العجيب أنكم لم تذكروا الفتنة في آدم، وذكرتم الفتنة فيما فيه عنصر غائب من عنصرين غائبين في آدم، وكان من الواجب أن تنسبوا هذه القضية إلى آدم، لا إلى عيسى، ولكنكم لم تفعلوا.

ورسول اللَّه ﷺ قال له الحق سبحانه: إن القضية ليست قضية إنكار، ولكنها قضية كاذبة.

اقرأ قوله تبارك وتعالى:

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١].

أي: لن يضير اللَّه سبحانه وتعالى أن يكون له ولد، ولكنه جَلَّ جلاله لم يتخذ ولداً، فلا يمكن أن يعبد الناس شيئاً لم يكن للَّه، وإنما ابتدعوه واختلقوه.

يقول الحق سبحانه:

﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الصافات: ١٥١، ١٥٢].

ويقول تعالى:

﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

فكيف تريدون أن تفرضوا عليه سبحانه ولداً؟

يقول الحق سبحانه:

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨].

متى اتخذ الرحمٰن الولد؟ وفي أي قرن حدث هذا؟

هل حدث هذا من ميلاد المسيح؟ مع أن هذه المقُولة لم تَأتِ وتظهر إلا بعد ميلاد المسيح بـ ٣٠٠ سنة.

وأيضاً.. ما الذي زاد في مُلْك اللَّه بعد أن جاءه الولد؟

واقع الأمر يُؤكِّد أنه لم يَزِدْ شيء، فالشمس هي الشمس، والنجوم هي النجوم، والهواء هو الهواء.

إذن: الذي كان يُدير هذا الكون قبل مجيء الولد هو هو لم يتغير سبحانه.

إذن: مَقُولةُ اتخاذ الولد ما هي إلا عَبث؛ لأنه لم يزد شيء في الملك على يد هذا الولد؛ فلم تكن هناك صفة مُعطَّلة عند الحق سبحانه وتعالى، وجاء هذا الولد فأكمل الكون بهذه الصفة.

بل إن الصفات الكمالية للَّه، قبل أن يخلق أيَّ شيء. هو خالق قبل أن يخلق، ورازق قبل أنْ يرزق، ومُحي قبل أن يُحي، ومُميت قبل أن يُميت.

لأن الحق سبحانه بهذه الصفات أوجد الأشياء.

ونضرب لهذا مثلاً ـ وللَّه المثل الأعلى ـ عندما نقول: فلان شاعر.

وحيثية إطلاقنا هذه الصفة أنه قال قصيدة جيدة، أخذت بأسماع وقلوب السامعين له.

ولكِنْ هل هو أصبح شاعراً بعد أن قال القصيدة؟ أم لأنه شاعر ابتداءً قالها؟

إذن: صفة الكمال تُوجد أولاً قبل مُتعلقها.

ويستنكر الحق سبحانه هذه القَوْلة، فيقول لهم:

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ [مريم: ٨٩].

والإدُّ هو المتناهي في النُّكْر والفظاعة، مِنْ آدَهُ الأمرُ إذا أثقله، ولم يَقْوَ عليه.

ولذلك يقول تعالى في آية الكرسي:

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

لا يؤوده، أي: لا يثقله.

فكأن هؤلاء القائلين بأن اللَّه اتخذ ولداً، قد جاؤوا بأمر لا تتحمله الجبال لثقَلِه وفظاعته وعظيم نَكَارته.

ولسنا نحن فقط الذين نتكرَّه هذا الأمر، بل إن الأشياء التي لم تُكلَّف ترتجُّ له وتهتزُّ له من شِدَّته.

ولذلك يقول تعالى:

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٩٠].

ومعنى تفطُّر السماوات، أي: تتشقق وتصبح مِزَعاً[١] ممزقاً.

هذه السماء يقول عنها الحق سبحانه:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ[٢]﴾ [ق: ٦].

هذه السماء، وهي غير مُكلَّفة، يكون شأنها أنها توشك أن تتفطَّر.

ولكن، لماذا لم تنفطر، وقد قيل هذا القول المستبشع؟

والحق سبحانه يعطينا سبب هذا في قوله تعالى:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

ولذلك ففي الحديث القدسي:

«**قالت السماء: يا رب ائذن لي أن أسقط كسفاً[٣] على ابن آدم، فقد طَعِم خَيْرَك ومنعَ شُكْرك. وقالت الأرض: يا رب ائذن لي أن أخسف بابن آدم، فقد طَعِم خَيْرك ومنعَ شكرك. وقالت الجبال: يا رب ائذن لي أن أَخِرَّ على ابن آدم، فقد طَعِم خَيْرك ومنعَ شُكْرك. وقالت البحار: يا رب ائذن لي أنْ أُغرِق ابنَ آدمَ، فقد طَعِم خَيْرَكَ ومنعَ شُكْرك**»[٤].

فماذا قال الحق لهم؟

---

(١) المُزْعة: القطعة من القطن والريش واللحم ونحوها. ومَزَّع اللحم فتمزَّع: فرَّقه فتفرق. والتمزيع: التفريق. يقال: مزّع فلان أمره تمزيعاً إذا فرَّقه. وتمزَّع غيظاً: تقطَّع. (لسان العرب ـ مادة: مزع).

(٢) الفَرْج: الشَّق. الجمع: فروج. فالسماء متماسكة لا خلل فيها ولا شقوق. فالفَرْج: الخلل بين الشيئين. (اللسان ـ مادة: فرج).

(٣) الكِسْف والكِسْفة: القطعة مما قطِعْت. قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [سبأ: ٩].

(٤) مما ورد في معنى هذا ما أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٤٣) من حديث عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه: «ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات، يستأذن اللَّه عز وجل أن ينفضخ عليهم، فيكفه اللَّه عز وجل». قال الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه للمسند: «إسناده ضعيف، لجهالة الشيخ الذي روى عنه العوام بن حوشب، وأبو صالح مولى عمر مجهول أيضاً».

قال: «دعوني وخلقي.. لو خلقتموهم لرحمتموهم.. إن تابوا إليَّ فأنا حبيبُهم، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبُهم».

وحيثية انفطار السماء، وانشقاق الأرض، وخرُور الجبال هي:

﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩١].

ثم يقول سبحانه:

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢].

فهناك شيء اسمه «نفي الحدث»، وشيء آخر اسمه «نفي انبغاء الحدث».

والقرآن يقول في موضع آخر عن رسول اللَّه ﷺ:

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٩٦].

فلو قال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ...﴾ [يس: ٦٩] فحسب، لَاقتَضى هذا أن محمداً ليست عنده مُقوِّمات قَول الشعر. مثل: رِقة الإحساس، والثقافة الواسعة. وهو ليس عنده شيء من هذا.

فيُبيِّن ربُّ العزّة أن رسول اللَّه ﷺ عنده الاستعداد، ولكن لا ينبغي أن يكون شاعراً، ولا يليق به[1]، ولا يتأتَّى له هذا مع كونه حاملَ رسالةٍ، عِمادُها القرآن، وهو كلام اللَّه.

هكذا هنا لا ينبغي أن يكون للحق سبحانه ولد، أما الحَدَثُ نفسه فإنْ أراده اللَّه يكون، ولكن لا ينبغي له هذا سبحانه.

فعلى فَرْض أن الولد بَارٌّ وطائع، فهل هناك أحد مُتمرِّد عليَّ؟

---

(١) قال السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٧١) عند قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩]، أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي اللَّه عنه قال: بلغني أنه قيل لعائشة رضي اللَّه عنها: هل كان رسول اللَّه ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟

قالت: كان أبغض الحديث إليه، غير أنه كان يتمثل ببيت أخي بني قيس، يجعل آخره أوله، وأوله آخره، ويقول:

ويأتيك من لم تزوّد بالأخبار

فقال له أبو بكر رضي اللَّه عنه: ليس هكذا. فقال رسول اللَّه ﷺ: «إني واللَّه ما أنا بشاعر، ولا ينبغي لي».

لا، فالكُلُّ عبيد للرحمٰن.

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

حتى الذين كفروا فإنهم عبيد للَّه، فالإنسان له منطقة اختيار، يستطيع أن يفعل أو لا يفعل، ولكن هناك منطقة قَهْرٍ ليس للإنسان فيها اختيار.

فالكافر بما أعطاه اللَّه من صفة الاختيار والقدرة عليه، له أن يكون طائعاً أو عاصياً، مؤمناً أو كافراً.

يقول تعالى:

﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ . . .﴾ [الكهف: ٢٩].

فالكافر تعوَّد على المخالفة، متمرِّد على الإيمان، ولكِنْ إذا مرض، هل بِوُسْعه التمرُّد على المرض، ورفضه؟

هل إذا جاءه الموتُ يستطيع أنْ يُنجي نفسه منه؟

إذنْ: فالإنسان له اختيار في شيء، إنما هو عبد في كل الأشياء.

ثم إن منطقة الاختيار نفسها تمتنع في الآخرة، فأنت مُختَار في الدنيا (تفعل) أو (لا تفعل). أما في الآخرة. فلا.

ولذلك لا بُدَّ أن نُفرِّق بين «العبيد»، و«العباد».

فكلنا عبيدُ اللَّه، بدليل الأشياء التي تجري على الجميع، ولا يستطيع أن يخالفها أحدٌ مثل: المرض، والموت.

أما العباد فإنهم يدخلون منطقة الاختيار بمحْضِ إرادتهم، ودخلوا في التكليف، وأصبحت كل تصرفاتهم وِفْقاً لما يريده اللَّه.

ويقول تعالى:

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

فَهُمْ وإنْ كانوا في ظاهر الأمر في الدنيا لهم أمور يخرجون فيها عن مُرَادِ اللَّه، فهناك أمورٌ أخرى لا يستطيعون أن يخرجوا فيها عن مُرَادِ اللَّه.

ثم يقول سبحانه:

﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٩٤].

والإحصَاء: العدُّ. وكانوا يَعُدُّون بالحصَى، أما نحن فنعُدُّ الآن بالسبحة.

﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥].

فَكُلُّ إنسان سيأتي بمفرده، وستتفرَّق عنه العِزْوة والعشيرة، وسينصرف عنه الولد والزوجة، وسيفرُّ منه الأهْلُ.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ(١) مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَـٰحِبَتِهِۦ(٢) وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧].

ويقول الحق سبحانه في موضع آخر:

﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ(٣) حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ(٤) ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ * وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج: ١٠ ـ ١٤].

ولذلك كان قول اللَّه عز وجل الحاسم لأهل الكتاب:

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟(٥) فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ(٦) أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا

---

(١) قال عكرمة: «يَلْقى الرجل زوجته فيقول لها: يا هذه أي بعل كنت لك؟ فتقول: نعم البعل كنت، وتثني بخير ما استطاعت. فيقول لها: فإني أطلب إليك اليوم حسنة واحدة تهبيها لي لعلِّي أنجو مما ترين. فتقول له: ما أيسر ما طلبت، ولكن لا أطيق أن أعطيك شيئاً، أتخوف مثل الذي تخاف.

قال: وإن الرجل ليلقى ابنه، فيتعلق به، فيقول: يا بني، أي والد كنت لك؟ فيثني بخير، فيقول له: يا بني إني احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلِّي أنجو بها مما ترى. فيقول ولده: يا أبت، ما أيسر ما طلبت ولكني أتخوف مثل الذي تتخوف، فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً». أورده ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٧٣).

(٢) صاحبه: عاشره. والصاحب: المعاشر. والمقصود بالصاحبة هنا زوجته ورفيقته في الحياة.

(٣) الحميم: القريب الذي تودُّه ويودُّك. والحميم: القرابة. قال الفراء في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠]، أي: لا يسأل ذو قرابة عن قرابته، ولكنهم يعرفونهم ساعة ثم لا تعارف بعد تلك الساعة. وقال الجوهري: حميمك قريبك الذي تهتم لأمره. (لسان العرب ـ مادة: حمم).

(٤) فصيلة الرجل: عشيرته ورهطه الأدنَوْن. قال ابن الأثير: الفصيلة من أقرب عشيرة الإنسان. وأصل الفصيلة: قطعة من لحم الفخذ. (لسان العرب ـ مادة: فصل).

(٥) غلا في الدين والأمر يغلو غلواً: جاوز حَدَّه وأفرط فيه. والغلو: التشدد ومجاوزة الحد. (لسان العرب ـ مادة: غلا).

(٦) أطلقت الكلمة على المسيح عيسى ابن مريم في قوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١]، هي قوله «كُنْ». فهو مخلوق بغير أب بأمر اللَّه «كُنْ».

﴿تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ [النساء: ١٧١].

فالحقُّ سبحانه يُوجِّه أمراً لأهل الكتاب أنْ لا يغلوا في دينهم. والغُلُوُّ هو: الخروج عن حَدِّ الاعتدال في الحكم؛ لأن كل شيء له وسط وله طرفان، وعندما يُمسِك شخص طَرفاً نطلب منه ألَّا يكون هناك إفراطٌ أو تفريط.

وقد وقع أهل الكتاب في هذا المأزق، فلم يأخذوا الأمر بالاعتدال دون إفراط وتفريط.

لقد كفر اليهود بعيسى، واتهموا مريم بالزنا، وهذا غُلُوٌّ في الكُرْه.

وغَالَى النصارى في الحب لعيسى، فقالوا: إنه إلٰه، أو ابن إلٰه، أو ثالث ثلاثة.

وهذا وذاك غُلُوّ، ويطلب الحق سبحانه منهم أنْ يقفوا من أمر الدين موقفَ الاعتدال.

﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ [النساء: ١٧١].

وقد قال رسول اللَّه ﷺ لعلي بن أبي طالب ـ كرّم اللَّه وجهه:

«**إن فيك من عيسى مثلاً، أبغضته اليهود حتى بهتوا[١] أمه، وأحبته النصارى حتى أنزلوه المنزل الذي ليس له**»[٢].

فاليهود اتهموا سيدتنا البَتُول[٣] المصطفاة مريم بما ليس فيها، والنصارى جاؤوا بالمغالاة في الجهة الأخرى؛ لذلك يأمرهما الحق سبحانه بعدم المغالاة؛ لأن الحق لا يتعاند، فهو شيء ثابت لا يتغير أبداً، ولا يتعارض.

والحق سبحانه يؤكد على بشرية عيسى عليه السلام وأمه، فيقول:

---

(١) بهت الرجل يبهته بُهتاناً فهو بهَّات. أي: قال عليه ما لم يفعله. والبُهْت: الكذب. وباهته: استقبله بأمر يقذفه به، وهو منه بريء. (لسان العرب ـ مادة: بهت).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ١٦٠)، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٤٨٤) من حديث علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه.

(٣) البتول من النساء: المنقطعة عن الرجال لا أرب لها فيهم، وبها سُمِّيت مريم أم المسيح. ويقال: البتول هي المنقطعة إلى اللَّه عز وجل في الدنيا. (لسان العرب ـ مادة: بتل).

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ[١] مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ[٢]﴾ [المائدة: ٧٥].

فهما يحتاجان كسائر البشر لما يُقوِّم حياتهما من طعام وشراب وكِسَاء، والألوهية المدّعاة، وبُنوّة عيسى للّه سبحانه يتنافيان مع هذا الاعتقاد الباطل، وهذا هو الإفك بعينه الذي يتصادم مع العقل المجرد عن الهوى.

والحق سبحانه يُطمئننا أنه ليس عنده مراكز قُوى، تؤثر عليه أو تضغط عليه في أي شيء، كما يحدث لنا نحن البشر. فيقول سبحانه:

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ[٣] رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣].

فالزوجة والولد هما وسائل الضغط على مرادات الإنسان، فالتأثير يأتي عادة من الصاحبة والولد، ولكنه سبحانه مُنزَّه عن ذلك، فليس هناك مؤثرات على الحق تُؤثِّر عليه كما تؤثر على البشر.

والحق سبحانه تنزَّه عن هذه الأمور، فليس عنده صاحبة حتى يكون له ولد.

ولهذا فإن الرحمن جَلَّ وعلَا، يعلمنا أنه ترفَّع عن أن يتخيل أحد من البشر أن له ما للبشر من زوجة وولد.

ولأن اللّه سبحانه وتعالى يعلم أن البشر يُعَانُون أحياناً من زَلَل[٤] الأبناء والزوجات، فَيُطمئنهم أنه أعْلَى من أنْ يختار لنفسه مَا أعطاه للبشر.. الزوجة والولد.

---

(١) خلا الشيء خلواً: مضى. والقرون الماضية: هم المواضي. التي مضت وسبقت. (لسان العرب ـ مادة: خلا).

(٢) الإفك: الإثم والكذب. والأفَّاك: الذي يأفك الناس أي يصدهم عن الحق بباطله. ورجل أفَّاك وأفيك: كذاب. والمأفوك: المأفون، وهو ضعيف العقل والرأي. (لسان العرب ـ مادة: أفك).

(٣) جَدَّ فلان: عَظُم عِظَماً. والجد: العظمة والمجد. وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣]، أي: أنه تعالت عظمة ربنا وتعالى مَجْدُ ربنا.

(٤) الزَّلَل: الخطأ والذنب.

ويُؤكِّد لنا ذلك في سورة الإخلاص:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾(١) [الإخلاص: ١ ـ ٤].

حين يتكلم الحقُّ سبحانه عن ذاته ونفسه، قد يتكلم بضمير المتكلم، فيقول:

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ . . .﴾ [طه: ١٤].

وقد يقول سبحانه:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ومرة يتكلم عن ذاته بما نسميه نحن ضمير الغيبة، مثل قوله سبحانه:

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ . . .﴾ [الأنعام: ٦١].

لأن ضمير المتكلم معه دليله، إن المتكلم يقول: أنا، ويخاطبك فيقول: أنت.

لكن الذي يتكلم بضمير الغيبة لا بُدَّ أن يعود الضمير على مرجع لهذا الضمير، وحين يتكلم الحقُّ سبحانه عن ذاته بما يُسمّى لدينا ضمير الغيبة، فإنه سبحانه يريد أن يُبيّن لنا أنه في أَجْلى مجالي المشاهدة والحضور.

فكأنه إذا قال «هو» لا تنصرف إلا إلى ذاته العُلْيا، فكأنه لا يوجد مرجع ضمير إلا هو.

ولذلك يقول:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].

وسبحانه يقول «هو» قبل أن يذكر المرجع، وهو اللَّه، مع أن الأصل في المرجع أن يتقدم.

فكأنه إذا أُطلق هذا الضمير فلا ينصرف إلا إلى ذاته سبحانه.

والحق سبحانه يقول:

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

---

(١) الكفِيء والكُفْءُ والكُفُوءُ: النظير: وتقول: لا كفاء له. أي: لا نظير له. والكُفْء: النظير والمساوي. (لسان العرب ـ مادة: كفأ).

وهنا قضيتان:

القضية الأولى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ . . .﴾ [البقرة: ١٦٣].

إلٰهكم: يعني أن المعبود إلٰه واحد، فالواقع أن الإله الحقَّ موجود قبل أنْ يُوجد الكفر.

والقضية الثانية: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ . . .﴾ [البقرة: ١٦٣].

لأن غفلة الناس هي التي جعلتْ بعضاً من نفوس الناس تلتفت إلى آلهة أخرى.

وقوله الحق سبحانه أنه إلٰه واحد، أي: ليس له ثانٍ. والفارق بين «واحد» و«أحد» هو أن «واحد» تعني ليس له ثانٍ، و«أحدَ» يعني ليس مُركَّباً ولا مُكوَّناً من أجزاء.

ولذلك فاللَّه لا يمكن أن نصفه بأنه «كُلّ» أو «كُليّ»؛ لأن «كل» يقابلها «جزء»، و«كلي» يقابلها «جزئي»، و«كل» هو أن يجتمع من أجزاء.

واللَّه مُتفرِّد بالوحدانية، وسبحانه المنزّه عن كل شيء، وله المثلُ الأعلى.

وأضرب مثالاً للتقريب، لا للتشبيه:

إن الكرسي «كل» مُكوّن من خشب ومسامير وغِراء وطلاء، فهل يمكن أن نطلق على الخشب أنه «كرسي»، أو على المسامير، أو على الغراء، أو على الطلاء؟

لا . . . إذن: كل جزء لا يطلق على «الكل»، بل الكل ينشأ من اجتماع الأجزاء.

و«الكلي» يُطلق على أشياء كثيرة، لكن كل شيء منها يحقق الكلي، فكلمة «إنسان» نقول عنها «كلي»، جزئياتها: محمد وزيد وبكر وعمر وخالد. فنقول: زيد إنسان، وهو قول صحيح.

ونقول: عمر إنسان، وذلك قول صحيح.

واللَّه سبحانه وتعالى لا هو «كُليّ» لأنه واحد.

ولا هو «كُلّ» لأنه أَحَد.

إن القضية الأساسية في الدين هي:

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٣].

والقرآن لا ينفي ويقول: لا إله إلا هو، إلا حين توجد غفلة تعطي الألوهية لغير اللَّه، أو: تعطي الألوهية للَّه ولشركاء معه.

إن القرآن ينفي ذلك ويقول:

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٣].

وليس هناك شيء غير اللَّه إلا نعمة منه سبحانه، أو مُنْعَم عليه.

إن ما دون اللَّه إما نعمة، وإما مُنْعَم عليه بالنعمة، وهذه كلها نَفْح الرحمٰن، ونَفْح الرحيم، وما دام كل شيء ما عدا اللَّه إما نعمة وإما مُنْعَم عليه، فلا تُوصف النعمة بأنها إلٰه، ولا يقال في المنْعَم عليه: إنه إلٰه[١].

لأن المنْعَمَ عليه معناه أن غيره أفاض عليه نِعمَه، لأن النعمة مَوْهوبة، والمنْعَم عليه مَوْهوب إليه، فإذا كانت هِبة أو موهوبة إليه، فلا يصح أن تكون إلهاً.

والحق سبحانه يقول:

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].

إنه الحقُّ الذي نَصَب الأدلة في الوجود على قيوميته[٢]، وعلى أنه إلٰه واحد، فقد شهد اللَّه أنه لا إلٰه إلا هو.

وباللَّه لو لم يكُنْ قد شهد لنفسه بأنه لا إلٰه إلا هو، وليس هناك مَنْ يعارض مُبْتغاه، أكان يُجازِف فيقولها؟

---

(١) قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

(٢) القيوم: سبحانه أي القائم بأمر خلقه في إنشائهم ورزقهم وعلمه بمستقرهم ومستودعهم. وهو سبحانه القائم بنفسه مطلقاً لا بغيره، وهو مع ذلك يقوم به كل موجود حتى لا يُتصوَّر وجود شيء ولا دوام وجوده إلا به.

إنه الحق الأعلى الذي شهد أن لا إلٰه إلا هو، فساعةَ أن يقول: «كُنْ» فإنه قد علم أنه لا يوجد إلٰه آخر يقول: «لا تكُنْ».

فهذه شهادة الذات للذات، وكَفَى باللَّه شهيداً، وشهدت الملائكة أيضاً، والملائكة هم الغَيْب الخفيّ عنَّا، وتتلقى الأوامر من الحق.

إن الملائكة لم يَرَوْا أحداً آخر يعطي لهم الأوامر، إنه الإلٰه الواحد القادر، وهذه هي شهادة المشهد.

ويُضاف إلى الملائكة «أولو العلم»، بشهادة الاستدلال.

فكأن الآية تقول لنا:

إذا ثبتتْ شهادة الذات للذات، وشهادة المشهد من الملائكة، وشهادة الاستدلال من العلماء، فإن القاعدة تكون قد استقرت استقراراً نهائياً لا شَك فيه، فخذوها مُسَلَّمة: «لا إلٰه إلا هو».

وعظمة الحقِّ سبحانه أنه: واحد، أحد، فَرْد، مُتفرِّد، صَمَد، وهو عزيز لا يُغلب على أمره، وهو صاحب كل الحكمة في وضع الأشياء في مواضعها، بحيث إذا ما عرفتَ حكمة ما يُجريها اللَّه سبحانه وتعالى على خَلْقه؛ فأنت تتعجَّبُ من عظمة قدرة اللَّه.

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

فلا يوجد في الكون حَقَّانِ، بل يوجد حَقٌّ واحد، وما عداه هو الضلال؛ لذلك يقول الحق سبحانه:

﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ . . .﴾ [يونس: ٣٢].

إذن: أنتم إن وجَّهتم الأمر بالربوبية إلى غيره، تكونوا قد ضللتم الطريق، فالضلال أن يكون لك غاية تريد أن تصل إليها، فتتجه إلى طريق لا يُوصِّل إليها، فإن صُرِفتم من الإلٰه الحق فأنتم تَصِلُون إلى الضلال.

ولذلك يُنهي الحق سبحانه الآية بما يُبيِّن أنه لا يوجد إلا الحق أو الضلال، فيقول سبحانه:

﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

أي: أنكم إن انصرفتم عن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فإلى الضلال، والحق واحد ثابت لا يتغيَّر.

ومَنْ عبد الملائكة أو الكواكب أو النجوم، أو بعض رسل اللَّه عليهم السلام، أو صَنماً من الأصنام، فقد هَوَى إلى الضلال.

فالحمد للَّه الذي لم يتخذ ولداً؛ لأنه لم يلد ولم يولد، وهو أحد.

والحمد للَّه الذي لم يتخذ شريكاً في الملك، لأنه واحد.

والحمد للَّه الذي لم يكن له وَليٌّ من الذُّلِّ؛ لأنه قاهر[١].

(١) فهو سبحانه القهار القادر على أن يبطش بمن يقولون هذا القول، ويفترون هذه الفرية، ولكن انظر إلى قول رسول اللَّه ﷺ: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من اللَّه، يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيهم». أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري.

رزق الشيطان

٢٤ ـ عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما عن النبي ﷺ:

«قَالَ إِبْلِيسُ: يَا رَبِّ، لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِكَ إِلَّا جَعَلْتَ لَهُ رِزْقاً ومعِيشةً، فَمَا رِزْقِي؟

قَالَ رَبُّ العِزَّةِ: مَا لَمْ يُذكَرْ عَلَيْهِ اسْمِي»[(١)].

قد كان إبليس يُسمَّى طاووس الملائكة، وكان يزهو بخيلاء بينهم، وهذه الخُيَلاء، وهذا الكِبْر هو الذي جعله يقع في المعصية، ولأن إبليس خُلِق مُخْتاراً، فقد كان مَزْهُواً باختياره لطاعة اللَّه، قبل أنْ يقوده غروره إلى الكفر والمعصية.

ولذلك لم يَكَدْ يصدر الأمر من اللَّه بالسجود لآدم، حتى امتنع إبليس تكبُّراً منه، ولم يجِدْ نفسه على طاعة اللَّه، فمعصية إبليس هي معصيةٌ في القمة؛ لأنه رَدَّ الأمر على الآمرِ، وظَنَّ أنه خَيْر من آدم.

ولم يلتزم إبليس بطاعة اللَّه، ومضى غروره يقوده من معصية إلى أخرى، فطرده اللَّه تعالى من رحمته وجعله رجيماً[(٢)].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ١٢٦)، وأبو الشيخ في العظمة (١١٥١)، وقد أورده السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٣٥٠) ط. دار الفكر بيروت وعزاه لابن مردويه.
وقد أخرج الطبراني في المعجم الكبير (١١١٨١) عن ابن عباس أيضاً أن رسول اللَّه ﷺ قال: «قال إبليس لربه: يا رب أهبطت آدم، وقد علمت أنه سيكون كتاب ورسل، فما كتابهم ورسلهم؟ قال: «رسلهم الملائكة والنبيون منهم، وكتابهم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان. قال: فما كتابي؟ قال: كتابك الوشم، وقرآنك الشعر، ورسلك الكهنة، وطعامك ما لا يذكر اسم اللَّه عليه، وشرابك كل مسكر، وصدقك الكذب، وبيتك الحمام، ومصايدك النساء، ومؤذنك المزمار، ومسجدك الأسواق»» قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١١٤): «فيه يحيى بن صالح الأيلي ضعفه العقيلي».

(٢) الرجم: الرمي بالحجارة. والرجم: اللعن. ورجيم: ملعون مرجوم باللعنة مُبْعَد مطرود من رحمة اللَّه. (لسان العرب ـ مادة: رجم).

وإبليس لم يكُنْ من الملائكة؛ لأنه من الجن بنصِّ القرآن.

يقول الحق سبحانه:

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ[1] عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ . . .﴾ [الكهف: ٥٠].

لذلك لا يصِحُّ أن يكون «إبليس» محلَّ خلاف: أهو من الملائكة أم لا؟

فقوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ . . .﴾ [الكهف: ٥٠].

نَصٌّ صريح يثبت جنسية إبليس؛ فهو من الجن، ولذلك كان من المختارين، له أن يطيع أو أن يعصي؛ لأن الجن داخلون في قانون الاختيار.

فإنْ ألزم الجنيّ نفسه بمنهج اللَّه إلزاماً يتساوى به مع الملائكة وجبَ عليه أنْ يقوم بذلك، ولكنه لم يفعل، وكان من الواجب أن يطيع إبليسُ الأمرَ.

وما دام الحق سبحانه هو الذي أمر الملائكة بالسجود لآدم، فالأدنى وهو إبليس كان عليه أنْ يسجد.

فلو كان إبليس أعلى من الملائكة لَكانَ أَوْلَى له أن يستجيب لأمر الخالق الأعلى، ولا يعصى ويتأبَّى، أمَا وإنه كان أقلَّ من الملائكة فكان لا بُدَّ من باب أَوْلَى أنْ ينصاعَ لأمر اللَّه.

ولكنه عصى، فوصفه الحق سبحانه بالفسق:

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ . . .﴾ [الكهف: ٥٠].

يعني: أن هذا الفُسوق أمر يجوز منه، لكن الملائكة لا يعصون اللَّه ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

وإنْ تساءل أحد: ولماذا جاء الحديث عن إبليس ضمن الحديث عن الملائكة؟

نقول: هَبْ أن فَرْداً مُخْتاراً من الإنس أو من الجن التزم بمنهج اللَّه كما يريده اللَّه، فأطاع اللَّه كما يجب ولم يَعْصِ.

أليستْ منزلته مثل الملَك، بل أكثر من الملَك؛ لأنه يملك الاختيار؛ ولذلك كانوا يُسمُّون إبليس طاووس الملائكة، أي: الذي يزهو في مَحضر

---

(١) الفسق: العصيان والترك لأمر اللَّه عز وجل والخروج عن طريق الحق. ومعنى فسق عن أمر ربه، أي: جار ومال عن طاعته. (لسان العرب ـ مادة: فسق).

الملائكة؛ لأنه ألزم نفسه بمنهج اللَّه، وترك اختياره، وأخذ مرادات اللَّه فنفَّذها.

فصار لا يعصي اللَّه ما أمره ويفعل ما يُؤْمَر، وصار يزهو على الملائكة لأنهم مجبورون على الطاعة، لكنه كان صالحاً لأنْ يُطيع، وصالحاً ـ أيضاً ـ لأنْ يعصي.

ومع ذلك التزم، فأخذ منزلة مُتميِّزة من بين الملائكة، وبلغ من تميُّزه أنه يحضر حضور الملائكة.

والحق سبحانه وتعالى قد أخبرنا عن جنس إبليس حتى نفهم من أي باب إلى المعصية دخل، ذلك أنه دخل من باب الاختيار الممنوح للإنس والجن في الحياة الدنيا وحدها.

ولو أراد اللَّه سبحانه وتعالى أن يكون إبليس مَقْهوراً على الطاعة ما كان يستطيع أنْ يعصي، ولكن معصيته جاءت من أنه خُلِق مختاراً.

فلما حضر إبليس مع الملائكة جاء البلاغ الأول عن آدم في أثناء حضوره، وقال ربنا للملائكة:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

والأمر بالسجود لآدم قد أراده اللَّه، لأنه سبحانه سخَّر الكون كله لخدمة آدم، ومن الملائكة مُدبِّرات أمر(١)، ومنهم حَفَظة(٢)، ومنهم مَنْ هو بين يَدَي اللَّه.

فلم يَكُنْ السجود للملائكة خضوعاً من الملائكة لآدم، بل هو طاعة لأمر

---

(١) وهم الذين ذكرهم اللَّه تعالى في كتابه: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٦٦): «قال علي ومجاهد وعطاء وأبو صالح والحسن وقتادة والربيع بن أنس والسدي: هي الملائكة. زاد الحسن: تدبر الأمر من السماء إلى الأرض، يعني بأمر ربها عز وجل».

(٢) يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً . . .﴾ [الأنعام: ٦١]، ويقول: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]. أي: يحفظون بدن الإنسان، وآخرون يحفظون عمله ويُحْصونه.

اللَّه؛ ولذلك سجد من الملائكة الموكلون بالأرض وخَدَمة الإنسان، لكن الملائكة المقربين لا يدرون شيئاً عن أمر آدم.

ولذلك يقول الحق سبحانه لإبليس:

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥].

والمقصود بالعالين الملائكة الذين لم يشهدوا أمر السجود لآدم، فليس للملائكة العَالين عَمَلٌ مع آدم؛ لأن الأمر بالسجود قد صدر لمَنْ لهم عمل مع آدم وذريته.

وهؤلاء هم الذين قال الحق سبحانه عنهم:

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ(١) مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ . . .﴾ [الرعد: ١١].

وسبحانه أيضاً القائل:

﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ(٢)﴾ [ق: ١٨].

وهؤلاء هم الملائكة الموكلون بمصالح الإنسان في الأرض، المطر مثلاً له مَلَكُه، الزرع مثلاً له مَلَكُه، وكل شيء له مَلَكٌ.

فالحق سبحانه يتحدث عن الملائكة الذين لهم صِلَة بالإنسان مثل: جبريل، وميكائيل، وعزرائيل، وإسرافيل، ورضوان، ومالك.

وهناك ملائكة اصطفاهم اللَّه للتفرُّغ لعبادته، فهم العَالُون لا يدرون بهذا الخَلْق كله.

فالأمر بالسجود لم يشمل أولئك الملائكة العالين من حملة العرش وحُرَّاس السماء وغيرهم ممن ليستْ لهم مهمة مع الإنسان، بل لهم رسالة مع عوالم أخرى.

---

(١) المعقبات: الملائكة، ملائكة الليل تُعقِّب ملائكة النهار، وملائكة النهار تُعقِّب ملائكة الليل، فكأن ملائكة النهار تحفظ العباد، فإذا جاء الليل جاء معه ملائكة الليل، وصعد ملائكة النهار، فإذا أقبل النهار عاد من صعد، وصعد ملائكة الليل، كأنهم جعلوا حفظهم عُقباً أي نُوَباً. (لسان العرب ـ مادة: عقب).

(٢) أي: أن ابن آدم ما يتكلم بكلمة إلا ولها من يرقبها معد لذلك، يكتبها لا يترك كلمة ولا حركة. (راجع: ابن كثير ٤/ ٢٢٤).

الحق سبحانه هو خالق كل الخلق؛ ولا بد أن يضمن له استبقاء حياة، واستبقاء نوع، فاستبقاء الحياة بالقوت[١]، واستبقاء النوع بالزواج والمصاهرة.

إذنْ: فمن ضمن ترتيبات الخَلْق أن يُوفِّر الرزق لكل دابة تدبُّ على الأرض.

ويقول تعالى:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ[٢] كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وكلمة «على» تفيد أن الرزق حَقٌّ لكلِّ مخلوق خلقه اللَّه، لكنه لم يفرض هو على اللَّه سبحانه وتعالى، ولكنه سبحانه قد ألزم نفسه بهذا الحق.

ولأنه سبحانه هو الذي يرزق كل مخلوق، فهو يعلم مُسْتقره، وأين يعيش، ليوصل إليه هذا الرزق.

والمستقرُّ: هو مكان الاستقرار. والمسْتَوْدع: هو مكان الوديعة.

والحق سبحانه يُعْلِمنا بذلك ليطمئن كل إنسان أن رزقه يعرف عنوانه، والإنسان لا يعلم عنوان الرزق.

فالرزق يأتي لك من حيث لا تحتسب، لكن السعي إلى الرزق شيء آخر، فقد تسعى إلى رزق ليس لك، بل هو رزق لغيرك.

فما دام الحق سبحانه هو خالق كل الخَلْق، فهو رَبُّ الجميع، والجميع مسؤولون منه.

فَعَطاء الربوبية يشمل الجميع، ولأنه سبحانه ربُّ العالمين، فالكون كله

---

(١) القوت: ما يمسك الرمق من الرزق. وفي الصحاح: هو ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام، وفي الحديث: اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً. أي: بقدر ما يمسك الرمق من المطعم. (لسان العرب ـ مادة: قوت).

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٣٦) عند تفسير هذه الآية: «أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض، صغيرها وكبيرها، بحريها وبريها، وأنه يعلم مستقرها ومستودعها، أي: يعلم أين منتهى سيرها في الأرض، وأين تأوي إليه من وكرها، وهو مستودعها».

لا يخرج عن حُكْمه، فليطمئن خَلْق اللَّه في الدنيا أن النعم مستمرة لهم بعطاء ربوبيته.

فلا الشمس تستطيع أن تغيب وتقول: لن أشرق، ولا النجوم تستطيع أن تصطدم بعضها ببعض في الكون، ولا الأرض تستطيع أن تمنع إنبات الزرع، ولا الغلاف الجوي يستطيع أن يبتعد عن الأرض، فيختنق الناس جميعاً.

إذنْ: فاللَّه سبحانه وتعالى يريد أنْ يُطمئِن عباده أنه رَبٌّ لكل ما في الكون؛ لأن اللَّه سبحانه وتعالى مُسَيْطر على كونه، وعلى كُلِّ مَا خلق.

إنه رَبُّ العالمين، وهذه تُوجِب الحمد، فكل مخلوق مُطمئن إلى رزقه، فهو واثق أن اللَّه سيرزقه، لأنه رَبُّ العالمين.

والحق سبحانه يقول:

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

والدابة: هي كل ما يدبُّ على الأرض، والمراد بها كل ذي حركة حَيٍّ، ومع أن هناك أشياء صغيرة لا نسمع لها دَبِيباً مثل النملة وغيرها، ولكن بعض الناس يبالغ ويقول: فلان يسمع دَبَّة النملة.

ولكن الأمر مع الخالق سبحانه يختلف، فهو سبحانه يعلم كل شيء، ولا تخفَى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، فهو يسمع دبيب النمل ويراه أيضاً.

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا . . .﴾ [العنكبوت: ٦٠].

أي: ليس كل مخلوق يحمل رزقه معه، فكثير من الدوابِّ لا تحمل رزقها، ومع ذلك تعيش ولا تموت جوعاً.

ولكن، هل هي لا تحمل رزقها لأنها لا تقدر على حمله؟

هذا صحيح.. أو: تقدر على حمله، ولكنها لا تفعل.

فالحشرات مثلاً، مثل القمل والبرغوث والبعوض وغيرها، هل هي تحمل رزقها؟

لا.. كذلك الميكروبات التي منها ما يصيب الناس بالأمراض لا تحمل

رزقها معها، فأنت لو نظرتَ إلى كثير من الدواب تجدها لا تحمل رزقها معها.

فمثلاً: الحمار يستطيع أن يحمل كمية من البرسيم تكفي أَكْله يومين، ولكنه بعد أن يشبع لا يلتفت إلى البرسيم، ولا يفكر فيما سيأكله غداً، وكذلك باقي الحيوانات.

ولذلك قالوا: ليس هناك أحد يدَّخِر رزقه إلا الإنسان والفأر والنمل.

وهذا كلُّه جعله اللَّه لحكمة؛ لأنه ليس قصوراً من اللَّه تعالى أن يجعل أكثر الدوابِّ لا تحمل رزقها، وذلك حتى يعلم الإنسان أن الخالق الذي خلق هذه العجماوات هو الذي يرزقها أيضاً، دون أن تحمل رزقها معها.

وأنت لو كنت في الريف مثلاً، وجلستَ تأكل وسقط منك جزء من بلحة أو قطعة صغيرة من اللحم.

انظر إليها بعد قليل تجد أن عدداً قليلاً من النمل دار حولها، ثم تركها وانصرف، وبعد ذلك تعود هذه المجموعة الاستطلاعية إلى قرية النمل، وتخبرهم عن هذا الرزق وحجمه، وكم نملة يحتاجها لنقله.

حينئذٍ تأتي مجموعة كبيرة من النمل يحملون قطعة اللحم الصغيرة مثلاً، ويجرُّونها إلى قريتهم أو جُحْرهم، حتى تتغذى عليها جماعة النمل.

وإذا أردتَ أن تختبر مدى دِقَّة النمل وذكائه يمكنك أن تُلقِي قطعة سكر صغيرة، ثم تنظر إلى عدد النمل الذي سيحملها بعد قليل، وبعد ذلك أَلْقِ قطعة أخرى ضِعْف وزن الأولى، وانتظر حتى يأتي النمل لحملها، وانظر إلى عدد النمل ستجد أن عدد النمل في المرة الثانية ضِعْف العدد في الأولى.

لأنه بمجرد أن ينظر النمل إلى أي غذاء يُقدِّر بالضبط عدد النمل القادر على حَمْله ونَقْله إلى بيوت النمل.

والأعجب من ذلك ما وجده العلماء في قُرَى النمل، حيث وجدوا أن أمام أعشاش النمل فتاتاً صغيراً أبيض اللون، فأخذوا يبحثون عن حقيقة هذا الشيء، فوجدوا أنه الزريعة الموجودة في كل حبة من الحبوب، وهي التي تنبت منها الحبة حينما تتعرض للرطوبة.

لقد وجد العلماء أن النمل قد اقتلع هذه الزريعة، وألقى بها خارج عُشِّه، فلا يُدْخِل الحبة، وفيها هذه الزريعة، لماذا؟

لأن هذه الحبَّة الصالحة للإنبات لو دخلتْ العُشَّ بمجرد أن تصيبها الرطوبة ستنبت وتسُدُّ عُشَّ النمل وتهدمه.

فتجد النمل ينزع هذه الزريعة، ويُلقي بها خارج العش حتى تظل الحبوب على طبيعتها صالحة للاستعمال، دون أن تنبت أو تضر العُشَّ، ولذلك تجده يشقُّ الحبة نصفين حتى لا تنبت.

ولكن العلماء فُوجِئوا في أعشاش النمل بوجود حبة الكزبرة مشقوقة أربعة أقسام، دون غيرها من الحبوب، فبحثوا وراء هذه الظاهرة فوجدوا أن حَبَّة الكزبرة تتكون من أربع غرف، كل غرفة صالحة للإنبات، فكان لا بُدَّ أن يشقها النمل إلى أربعة أقسام.

فمن الذي عَلَّم النمل أن يفعل ذلك؟

إنه الذي خلق فَسوَّى[1]، والذي قدَّر فهدى.

إذنْ: فقول اللَّه تعالى:

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

أي: كثير من الدواب لا تحمل رزقها معها، ولكن اللَّه يرزقها وإياكم.

أي: أنه سبحانه يرزق هذه المخلوقات، ونحن معها، لم يذكر الإنسان أولاً، مع أنه سيِّد المخلوقات، وكلها تتبعه؛ ليُبيِّن لنا أن مسألة الرزق لا دَخْل لها بالعقل أو الشَّطارة.

فاللَّه يرزق هذه المخلوقات، كما يرزقك أيها الإنسان، وربما يرزقها قبلك.

فالرزق مضمون عند اللَّه سبحانه؛ لأنه الخالق والرازق.

---

(١) سَوَّى الشيء تسوية: عَدَّله وجعله لا عوج فيه. قال تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧]، أي: جعلك كاملاً. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ * فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٧، ٨].

ومن العجيب أن رزقك ليس هو ما تملكه، ولكن رزقك هو ما تنتفع به.

فقد تملك أشياء، ولكنها ليستْ من رزقك، فقد تُسرق أو تضيع منك نقود، أو حتى يرثها الغير.

حتى في أقلِّ شيء، وهو الطعام، فقد تكون في انتظار الطعام على سُفْرتك في المنزل، وبعد ذلك يأتون لك به، وقد يحدث أن يقع طبق معين على الأرض، فلا يأكله أحد.

فهذا ليس من رزقك؛ لأنه لو كان من رزقك لأكلته، واستفاد به جسمك.

وأحياناً يكون الأكل في فَمِك، وبعد أنْ تمضغ اللقمة أو قطعة اللحم مثلاً، تُلقِي بها لأيِّ سبب من الأسباب دون أن تبلعها، لأنها ليستْ من رزقك.

وأكثر من ذلك قد تأكل الطعام ويُهضَم ويمتصُّ ويصير دماً يجري في العروق، وبعد ذلك تُصاب بجُرْح صغير، فينزل منك بعض الدم، ويقع على الأرض، فتأتي ذبابة أو نملة وتمتص هذا الدم؛ لأنه رزقُها وليس رزقك أنت.

كذلك الحشرات الصغيرة التي تتغذى على دم الإنسان، كالبعوض وغيره، هذه الحشرات لا تحمل رزقها معها، ولكنها تأخذه جاهزاً.

ومن العجيب أن الناس الذين رأوا التماسيح في أعالي النيل نقلوا لنا ظاهرة عجيبة، أنهم رأوا التمساح من هؤلاء يقف بعد أن يأكل طعامه، فيفتح فمه ليأتي الطير ويدخل فَمَه، ويتغذَّى على بقايا الطعام بين أسنان التمساح.

فانظر إلى هذا الطائر الضعيف يتحصَّل على غذائه من فَمِ التمساح، الذي يخاف منه الناس.

والأعجب من ذلك أن الصياد حينما يأتي ليصطاد التمساح، وهو في حالة الاسترخاء هذه على شاطئ النيل تجد هذا الطائر يصرخ صَرْخة يفهم التمساح منها أنه في خطر، فيغوص في الماء.

إذن: الرزق مضمون عند اللَّه.

والحق سبحانه يقول:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

والأمة: طائفة يجمعها نظام واحد وقانون واحد، وأفرادها متساوون في كل شيء، فتكون كل واحدة من هذه الأمم أمة.

فالأمة: هي جماعة وطائفة لها جنسٌ يجمعها، ولها تميُّزات أفرادية، وهي تلتقي في معنى عام.

فهذه المخلوقات التي نراها والتي لا نراها أُمَمٌ أمثالنا، لها نظامُ حياة، ولُغة، ومعيشةٌ، وتخطيط.. إلخ.

فكُلُّ الدوابِّ دون الإنسان أعطاها الإلهُ الإيمان بالفطرة، وهداها إلى الرزق بالغريزة.

ويقول تعالى:

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ(١) تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

فكل أمة من تلك الأمم الكثيرة التي خلقها اللَّه في الكون تسبّح بحمده، ولكن لا يفهم أحد لغات تلك الأمم.

وهذا ليس تسبيحَ دلالة ورمز، بل هو تسبيح حقيقي.

فإن فَقَّهك اللَّه تعالى في لُغاتهم لعلمتَ تسبيح الكائنات، بدليل أنه عَلَّم سليمان عليه السلام منطق الطير، وسمع النملة تقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

والهُدْهد قال لسليمان عليه السلام مَا رآه عن بلقيس ملكة سبأ:

---

(١) الفقه: العلم بالشيء والفهم له. وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٢): «﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ...﴾ [الإسراء: ٤٤]، أي: لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس، لأنها بخلاف لغاتكم، وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات، وهذا أشهر القولين، كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود أنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل. وفي حديث أبي ذر أن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات، فسمع لهن تسبيح كحنين النحل».

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل: ٢٤].

إذن: فكُلُّ ما في الكون مُسبِّح للَّه تعالى، يسير على منهجه سبحانه، ما عدا المختار من الثقلين: الإنسان والجان.

والجن خَلْق من خَلْق اللَّه، فسبحانه خلق الإنس وخلق الجن، خلق الإنس مَرْئياً، وخلق الجن مَستوراً، حتى لا نعتقد أن خَلقَ اللَّه لحيٍّ كائن، يجب أن يتمثَّل في هذا القالب المادي.

بل سبحانه يخلق ما يشاء كما شاء، فيخلق أشياء مستورة لا تُرى، ولها حياة، ولها تناسل، ويخلق أشياء مستورة، ولا تناسل لها.

كُلُّ ذلك بطلاقة قدرة الحق سبحانه، ليقرب لنا هذه القضية؛ لأن عقولنا قد تقف في بعض الأشياء التي لا تُدْرَك ولا تُرَى؛ لأننا لا نعلم وجوداً لشيء إلا إذا أحسسناه.

ولكن الحق سبحانه يوضح أنك لن تستطيع أن تدرك كل ما خلقه اللَّه، فليس حِسّك هو الوسيلة الوحيدة للإدراك، لأن حِسّك له قوانين تضبطه، فأنت ترى، ولكنك ترى بقانون، بحيث إذا بَعُدَ المرئيّ عنك امتداداً فوق امتداد بصرك، فلا تراه.

وكذلك أذنك تسمع، فإن بَعُدَ الصوت أو مصدر الصوت عنك بحيث لا تصل الذبذبة إليك، فلا تسمع.

كذلك عقلك، قد تفهم أشياء، ولا تفهم أشياء أخرى، ثم ضرب لنا في وجودنا المادي أمثالاً تُقرِّب لنا ذلك الخَلْق الخفيّ من الجن ومن الملائكة.

والجن جنس مقابل للإنس، وما دام في الإنس طائعون وعاصون، فكذلك في الجن طائعون وعاصون.

والحق سبحانه قال:

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ(١) مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا(٢) * يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١، ٢].

---

(١) النَّفر: ما دون العشرة. والجمع: أنفار. قال أبو العباس: النفر والقوم والرهط هؤلاء معناهم الجمع لا واحد لهم من لفظهم (لسان العرب ـ مادة: نفر).

(٢) العجب: روعة ودهشة تأخذ الإنسان عند استحسان شيء خفي سره أو استعظامه.

إذنْ: فمن الجن مَنْ هو مؤمن، ومن الجن مَنْ هو عَاصٍ، والعَاصِي من الجن يُسَمّى شيطاناً.

وإياك أن تنكر أيها المسلم وجود الشيطان لأنك لا تراه؛ لأن الشيطانَ من المخلوقات التي ذكرها اللَّه من عالم الغيب، وحُجَّة وجودها هو تصديقُك لمَنْ قال عنها.

والشيطان هو عَاصِي الجن، ونحن لم نَرَ الشيطان، ولكننا علمنا به بوساطة إعلام الحق الذي آمنَّا به فقال: أنا لي خَلْق مُستتر؛ ولذلك سمَّيتُه الجن، من الاستتار، والعاصي من هذا الخلق اسمه «شيطان».

إذن: فإيماننا به لا عَنْ حِسّ، ولكن عن إيمان بغيب أخبرنا به مَنْ آمنا به.

وحين نجد شيئاً اسمه الإيمان يجب أن نعرف أنه متعلق بشيء غير مُحسٍّ؛ لأن المحسَّ لا يُقَال لك آمِنْ به، لأنه مشهود لك، فأنا لا أقول: أنا أؤمن بأن المصباح مُنِيرٌ الآن، أنا لا أؤمن بأننا مجتمعون في المسجد الآن.

لا أقول ذلك؛ لأن هذا وَاقِعٌ مَشْهود ومُحَسّ.

إذن: فالأمر الإيمانيّ يتعلق بالغيب، مثل الإيمان بوجود الملائكة.

فإذا ما كُنَّا قد آمنَّا بالغيب نجد الحقَّ سبحانه وتعالى يُعطِي لنا صورة للشيطان، ولكنه حين يعطينا صورة للشيطان، أو لرأس الشيطان المميِّزة له.

يقول جَلَّ شأنه:

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ * طَلْعُهَا(١) كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٤، ٦٥].

وشجرة الزقوم في الآخرة في النار، إذن: فنحن لا نراها، ورؤوس الشياطين لا نراها، فكيف يُشبِّه اللَّه ما لم نَرَهُ بما لم نَرَهُ، يُشبِّه شيئاً مجهولاً بشيء مجهول؟

---

(١) طَلْع النخلة: نَوْرُها الذي هو أصل ثمارها، ويكون صغير الحجم أبيض منظماً منضوداً. قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٠): «أي: أصل منبتها في قرار النار، طلعها كأنه رؤوس الشياطين تبشيع لها، وتكريه لذكرها».

نقول: نعم، وذلك أمر مقصود للإعجاز القرآني؛ لأن للشيطان صورة مُتخيَّلة بَشِعة، بدليل أنك لو طلبتَ من رسامي العالم في فَنِّ الكاريكاتير، وقلت لهم: ارسموا لنا صورة الشيطان، ولم تُعْطِهِم ملامح صورة محددة، فكل منهم يرسم وَفْق تخيُّله كياناً غايةً في القُبْح.

فهذا يُصوِّره بالقبح من ناحية، وذاك يُصوِّره بالقبح من ناحية أخرى، بحيث لو جمعتَ الرسوم لما اتحد رَسْم مع رَسْم.

إذنْ: فكل واحد يستبشع صورة يرسمها.

وساعة نعطي الجائزة لمن رسم صورة الشيطان، أنعطي الجائزة لأجملهم صورة، أم لأقبحهم صورة؟

إننا نعطي الجائزة لصاحب أشدِّ الصُّوَر قُبْحاً.

إذنْ: فصورة الشيطان المتمثلة صورة بَشِعة قبيحة، ولو جاء على صورة واحدة من القُبْح لاختلف الناس حول هذه الصورة، فلعلَّ هذا يكون قُبْحاً عندك، ولا يكون قُبْحاً عند آخر.

ولكن حين يُطلق اللَّه أَخْيلة الناس في تصوُّر القُبْح، يكون القُبْح ماثلاً وواضحاً في عمل كُلِّ إنسان، فتكون الصورة أكمَل وأَوْفى، فالأكمل والأَوْفى أن يكون القُبْح شائعاً فيها جميعاً.

فإذا كنا نتخيل الشيطان في صورة مُسْتقبحة مُسْتبشعة، فالأبشع مِنها هو رزقه الذي قدّره اللَّه لتمرّده وخروجه على طاعة اللَّه، وردّه الأمر على خالقه في السجود لآدم، مما كان سبباً في عداوته لآدم وذريته، وكان عداؤه هذا هو سبب طرده ولعنته.

فقد جعل اللَّه رزقه مما لم يُذْكر اسم اللَّه عليه، والحق سبحانه سمَّاه «فِسْق»، فقال سبحانه:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ . . .﴾ [الأنعام: ١٢١].

وما لم يُذْكر اسم اللَّه عليه هو ما ذكره الحق سبحانه في قوله:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ . . .﴾ [البقرة: ١٧٣].

والإهْلال هو رفع الصوت، ولذلك يُقال: هَلَّلَ أي رفع صوته بـ «لا إلٰه إلا اللَّه»، ويُسمى الهلال هلالاً؛ لأننا ساعة نراه نُهلِّل ونقول: «اللَّه أكبر، ربِّي وربُّك اللَّه».

وساعةَ يُولد الولد، ويخرج من بطن أمه ينتبه إلى حياته وإلى ذاتية وجوده، بعد أن كان مُلْتَحماً بذاتية أمه فهو يصرخ، إنه يبدأ حياته بالصراخ؛ ولذلك فالذين ينتظرون مولد الطفل عندما يستمعون لصرخته يطمئنون.

وهكذا نعرف أن الإهلالَ هو رَفْع الصوت.

وقول الحق تعالى:

﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ . . .﴾ [البقرة: ١٧٣].

يعني: رفع الصوت لحظة الذبح. والذبح نوعان:

ـ ذَبْح لنفعك لتأكل ويأكل غيرك.

ـ وذَبْح قُرْبى للَّه.

وما أُهِلّ به للَّه هو ذَبْح قُرْبى للَّه، أما ما أُهِلَّ به لغير اللَّه فهو الذبح لمنفعة الإنسان فقط، وتقرُّباً إلى أصنامهم وأوثانهم وما يعبدونه من دون اللَّه.

وما دام اللَّه هو الذي أعطى الحيوانات وسخَّرها لنا من أجل أنْ نأكلها، فعلينا أنْ نذكرَ المنعِم، وأنْ تكون القُرْبى للَّه وحده هي القَصْد الأول.

ولذلك فالمؤمنون يتقرَّبون ويأكلون، أما الكفار فيأكلون ولا يتقرّبون للَّه، وإنما يذبحون ويتقرَّبون إلى آلهتهم.

فما أُهِلَّ لغير اللَّه فيه شِرْك باللَّه، فافتقد ذكر اللَّه الذي ذَلَّل للإنسان هذا الحيوان القريب من الإنسان في الحِسِّ والحركة وغير ذلك.

لذلك يُسمّي الحق سبحانه ما لم يُذكَر اسم اللَّه عليه بـ «الفسق».

ويقال: فسقتْ الرُّطَبة. أي: بَعُدَتْ القشرة عن الثمرة، فعندما تكون الثمرة أو البَلَحة حمراء تكون القِشْرة مُلتصقة بالثمرة، بحيث لا تستطيع أن تنزعها منها.

فإذا أصبحت الثمرة أو البَلَحة رُطَباً تسودُّ قشرتها وتبتعد عن الثمرة، بحيث تستطيع أن تنزعها عنها بسهولة.

هذا هو الفاسق المبتعد عن منهج اللَّه، ينسلخ عنه بسهولة ويُسْر؛ لأنه غير مُلْتصق به.

وعندما تبتعد عن منهج اللَّه فإنك لا ترتبط بأوامره ونواهيه، ولهذا تجد أن الدين سِيَاجٌ[1] يمنع الإنسان من أنْ يخرج على حدود اللَّه ويحفظه من المعصية، وحين ينفصل الإنسان عن الدين إنما يصبح كالثمرة التي انفصلتْ عن سياجها.

ومعلومٌ أن إبليس فَسَق عن أمر ربِّه، فتمرَّد واستكبر على الامتثال لأمر ربه بالسجود لآدم، فقال تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ . . .﴾ [الكهف: ٥٠].

فلم يَكَدْ إبليس يصدر له الأمر من اللَّه بالسجود لآدم، حتى امتنع عن السجود تكبُّراً منه، ولم يُجاهد نفسه على طاعة اللَّه، فمعصية إبليس هي معصية في القِمّة؛ لأنه رَدَّ الأمْر على الآمِر، وظنَّ أنه خَيْرٌ من آدم، ولم يلتزم بطاعة اللَّه.

ومضى غروره يقوده من معصية إلى أخرى، فطرده اللَّه من رحمته وجعله رجيماً.

وبعد أنْ أعلن إبليسُ عن تمرّده على أمر ربه، وتعاليه على آدم عليه السلام عاقبه الحق سبحانه على ذلك، فقال:

﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [ص: ٧٧، ٧٨].

والرجيم: هو الملعون، يلعنه اللَّه، ويلعنه اللاعنون، واللعنة هي الطرد من رحمة اللَّه.

ومادة «اللَّعْن» وردتْ في القرآن إحدى وأربعين مرة.

فساعةَ تأتي للعذاب تكون للطرد والإبعاد بغضب، وهو الخلود في النار.

---

(١) السياج في اللغة: الحظيرة من الشجر تُجعل حول الكرم والبستان. ويقال: حظر كرمه بالسياج، وهو أن يُسيَّج حائطه بالشوك لئلا يتسوَّر. (لسان العرب ـ مادة: سيج)، هكذا أمر الدين فهو سياج حول الإنسان يحميه من خصومه الشيطان وأتباعه، وكذلك يمنعه من الخروج على حدود اللَّه.

وساعةَ يكون الطردُ إبعادَ تأديبٍ، فلا يوجد بغضب، لأن المؤدب لا يغضب على مَنْ يُؤدِّبه، وإنما يغضب لمن يُؤدِّبه.

وعندما يحدث الطرد من بعد غضب، فذلك دليل على أنه ليس من بعد ذلك رَجعة، فالإنسان إذا تُرِك لشيء صامت ليعذب به كالنار يقول لنفسه: «**ربما جاء مَنْ يرقّ لحالي، ويعطف عليَّ فيُخرِجني من النار**».

إنه يقول ذلك لنفسه؛ لأن الذي يُعذّب به صامت لا عاطفة له، لكن ما المخرج إذا كانت اللعنة من اللَّه والملائكة والناس، كما يقول الحق سبحانه في آية أخرى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [آل عمران: ٨٧].

والشيطان موصوفٌ بأن اللَّه طرده من رحمته، فالحق سبحانه يقول:

﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ١١٨].

لماذا هذا اللَّعْن؟

لقد أذنب الشيطان وعصى اللَّه، وآدم أذنب أيضاً وعصى اللَّه.

فلماذا لعن اللَّه الشيطان؟ ولماذا عفا اللَّه عن آدم؟

فأما آدم، فقال عنه الحق سبحانه:

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ[1] فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

وبهذا نعرف أن هناك فَرْقاً بين أنْ يردَّ المخلوق على اللَّه حُكْماً، وبين أن تُفعل المعصية بسبب الغفلة.

فحين أمر الحقُّ سبحانه إبليسَ بالسجود لآدم، قال إبليس:

﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وهذا رَدٌّ للحكْم على اللَّه، وهذا يختلف عن معصية آدم وحواء، فقد قالا:

---

(١) أورد ابن كثير في تفسيره (١/ ٨١) قول مجاهد في تفسير هذه الكلمات أنهما قالا: «اللهم لا إله إلا أنت، سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسي فارحمني إنك خير الراحمين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسي فتب عليَّ إنك أنت التواب الرحيم».

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وهكذا نجد أن آدم عليه السلام قد اعترف بحكم اللَّه، وأقرَّ بأنه لم يقدر على نفسه.

ولذلك، فليحذر كل واحد أنْ يأتيَ إلى ما حرَّم اللَّه ويقول: لا، ليس هذا الأمر حراماً، لكن إنْ كان لا يقدر على نفسه فليعترف ويقول: إن ما حرم اللَّه حرام، لكني غير قادر على نفسي.

وبذلك يستبعد الكفر عن نفسه ويكون عاصياً فقط، ولعل التوبة أو الاستغفار يُذهِبان عنه سيئات فِعْله، أما مَنْ يُحلِّل ما حرّم اللَّه فهو يُصِرّ على الكفر، ويكون قد طمس اللَّه بصيرته نتيجة ذلك.

وسبحانه تعالى يصف الشيطان بقوله سبحانه:

﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ . . .﴾ [النساء: ١١٨].

أي: طرده من رحمته، وليتيقّظ ابن آدم لحبائل[1] الشيطان وليحذره، لأنه مطرود من رحمة اللَّه.

لذلك كان رزقه من أخبث شيء، وهو ما لم يُذْكَر اسم اللَّه عليه.

(١) الحبالة: التي يُصاد بها. وجمعها حبائل. وفي الحديث: النساء حبائل الشيطان أي: مصايده. (لسان العرب ـ مادة: حبل).

عَطاءُ الذَّاكِرينَ

٢٥ ـ يقول رَبُّ العِزَّة سبحانه: «مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلتِي أَعْطَيتُه فَوْقَ مَا أُعْطِي السَّائِلينَ»[(١)].

الحقُّ سبحانه دائمُ العطاء لخَلْقه، والخَلْق دائماً يأخذون من نِعَم اللَّه، فعبوديتك للَّه تعطيك ولا تأخذ منك، وهذا يستوجب الحمد.

واللَّه سبحانه يُحِبّ في عطائه أنْ يطلب منه الإنسان، وأن يدعوه، وأن يستعينَ به، وهذا يُوجب الحمد؛ لأنه يقينا الذُّلَّ في الدنيا.

فأنت إنْ طلبتَ شيئاً من صاحب نفوذ، فلا بُدَّ أن يُحدِّد لك موعداً أو وقت الحديث ومُدَّة المقابلة، وقد يضيق بك فيقف لِيُنهِيَ اللقاء.

أما الحق سبحانه فبابه مفتوح دائماً، فأنت بين يديه عندما تريد، وترفع يديك إلى السماء وتدعو وقت ما تحب، وتسأل اللَّه ما تشاء، فيعطيك ما تريد إنْ كان خَيْراً لك، ويمنع عنك ما تريده إنْ كان شَرًّا لك.

واللَّه سبحانه وتعالى يطلب منك أنْ تدعوه، وأن تسأله، فيقول:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ[(٢)]﴾ [غافر: ٦٠].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٩٢٦) من حديث أبي سعيد الخدري، وقال: هذا حديث حسن غريب، وكذا أخرجه أبو نعيم في الحلية (٥/ ١٠٦)، وكذا الدارمي في سننه (٢/ ٤٤١) بلفظ: «من شغله قراءة القرآن عن مسألتي وذكري أعطيته أفضل ثواب السائلين، وفضل كلام اللَّه على سائر الكلام كفضل اللَّه على خلقه».
قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٩/ ٦٦): «رجاله ثقات إلا عطية العوفي ففيه ضعف».

(٢) دخر الرجل دخوراً: ذَلَّ وصَغُر صَغَاراً. وهو الذي يفعل ما يُؤمر به، شاء أو أبى صاغراً قميئاً. والداخر: الذليل المُهان. (لسان العرب ـ مادة: دخر).

ويقول تعالى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

واللَّه سبحانه وتعالى يعرف مَا في نفسك، ولذلك فإنه يعطيك دون أنْ تسألَ.

واللَّه سبحانه عطاؤه لا ينفد، وخزائنه لا تفرغ، فكلما سألتَه جَلَّ جلاله كان لديه المزيد، ومهما سألتَه فإنه لا شيءَ عزيزٌ على اللَّه سبحانه وتعالى، إذا أراد أنْ يُحقّقه لك.

والعلماء يقولون: إن الدعاء إنْ قصدتَ به الذِّلة والعبودية يكون جميلاً، أما الإجابة فهي إرادة اللَّه، وأنت إنْ قدَّرْتَ حظَّك من الدعاء في الإجابة عليه، فأنت لا تُقدِّر الأمر.

إن حظَّك من الدعاء هو العبادة والذِّلة للَّه، لأنك لا تدعو إلا إذا اعتقدتَ أن أسبابك كبشرٍ لا تقدر على هذه، ولذلك سألتَ مَنْ يقدر عليها، وسألتَ مَنْ يملك.

ولنتعلّم ما علّمه رسول اللَّه ﷺ لعائشة أم المؤمنين:

لقد سألتْ رسول اللَّه إذا صادفت ليلة القدر، فقالت: إن أدركتني هذه الليلة بماذا أدعو؟

انظروا إلى رسول اللَّه ﷺ، لقد علَّم أم المؤمنين عائشة أن تدعو بمقاييس الخير الواسع، فقال لها:

«**قولي: اللهُمَّ إنكَ تحبُّ العَفْو فَاعْفُ عنِّي**»[(١)].

ولا يوجد جمالٌ أحسن من العفو، ولا يوجد خَيْر أحسن من العفو، فلا أقول: اعطني، اعطني. لأن هذا قد ينطبق عليه قول الحق سبحانه:

﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا[(٢)]﴾ [الإسراء: ١١].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ١٧١، ١٨٢، ١٨٣، ٢٠٨) والترمذي في سننه (٣٥١٣)، وابن ماجه في سننه (٣٨٥٠) من حديث عائشة رضي اللَّه عنها.

(٢) ذكر سلمان الفارسي وابن عباس ههنا قصة آدم عليه السلام حين هَمَّ بالنهوض قائماً قبل أن تصل الروح إلى رجليه، وذلك أنه جاءته النفخة من قبل رأسه، فلما وصلت إلى دماغه =

والحقُّ سبحانه يضع شرطاً للاستجابة للدعاء، وهو أن يستجيب العبد للَّه سبحانه وتعالى فيما دعاه إليه، عندئذٍ سيكون العباد أَهْلاً للدعاء.

ولذلك قال الحق هنا في هذا الحديث القدسي:

«**مَنْ شغله ذكري عن مَسْألتي أعطيتُه أفضلَ ما أُعطي السَّائلين**».

ومثال ذلك؛ سيدنا إبراهيم عليه السلام حين أُلْقِي في النار، قال له جبريل: أَلَكَ حاجة؟

لم يَنْفِ أنَّ له حاجة، فلا يوجد استكبار على البَلْوى، ولكنه قال لجبريل: «**أمّا إليك فلا**».

صحيح أن له حاجة، إنما ليستْ لجبريل، لأنه يعلم جيداً أن نجاته من النار المطبوعة على أنْ تحرق وقد أُلقِي فيها، فهي عملية ليست لخَلقْ أنْ يتحكم فيها، ولكنها قدرة لا يملكها إلا مَنْ خلق النار.

فقال لجبريل: «**أما إليك فلا، وعِلْمه بحالي يُغني عن سُؤالي**».

لذلك جاء الأمر من الحق سبحانه للنار:

﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا(١) وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

والحق سبحانه يوضح لنا بهذا أنه قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، يقول للأسباب: «اعملي» أو «لا تعملي»، وبذلك نلتفت إلى أنه المسيطر.

وذلك حتى لا تفتنَّا رتابة الأسباب، ولنذكر اللَّه باستمرار، وليكون الإنسان على ذِكْر من واهب الأسباب ومن خالقها، فلا تتولد عندنا بلادة من أن الأسباب مُستمرة دائماً.

والحق سبحانه يلفتنا إلى وجوده، فتختلف الأسباب لِتلفتك إلى أنها

= عطس فقال: الحمد للَّه. فقال اللَّه: يرحمك ربك يا آدم. فلما وصلت إلى عينيه فتحهما، فلما سرت إلى أعضائه وجسده جعل ينظر إليه ويعجبه فهمَّ بالنهوض قبل أن تصل إلى رجليه فلم يستطع. وقال: يا رب عجِّل قبل الليل. أورده ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٦).

(١) البرد: ضد الحر. والبرودة: نقيض الحرارة. وقد برده برداً وبرّده: جعله بارداً. أبرد له: سقاه بارداً (لسان العرب ـ مادة: برد)، وقال الثوري عن الأعمش عن شيخ عن علي بن أبي طالب في تفسير الآية قال: لا تضر به. وقال ابن عباس وأبو العالية: لولا أن اللَّه عز وجل قال: (وسلاماً) لآذى إبراهيم بَرْدُها. ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٨٤).

ليست فاعلةً بذاتِها، بل هي فاعلةٌ لأن اللَّه خلقها، وتركها تفعل، ولو شاءَ لَعطَّلها.

وها هو إبراهيم عليه السلام ألقاه أهلُه في النار، ولم يُحرق، وكان من الممكن أن يُنجِّي اللَّهُ إبراهيمَ بأيِّ طريقة أخرى، ولكن هل المسألة نجاة إبراهيم؟

إنْ كانت المسألة كذلك فما كان لِيُمكِّنهم منه، لكنه سبحانه مَكَّنهم منه وأمْسَكوه، ولم يُفْلت منهم.

وكان من الممكن أنْ يأمرَ السماءَ فتمطر عندما ألقوْهُ في النار، وكان المطر كفيلاً بإطفاء النار، لكن لم تمطر السماء بل وتأجَّجتْ النار.

ولكن الحق سبحانه يُصْدِر الأمر الإلٰهي للنار:

﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

باللَّه، أهذا غَيْظ لهم أم لا؟

هذا غَيْظ لهم، فقد قدرتُم عليه وألقيتموه في النار، وبعد ذلك لم ينزل مطر ليطفئ النار، والنار موجودة وإبراهيم في النار، لكن النار لا تحرقه.

هذه هي عظمة القدرة.

هذه هي النِّكَاية[1]، فلو جاء إنقاذ إبراهيم بطريق غير ذلك من الأمور الغيبية غير المادية المحسَّة، لوجد خصوم إبراهيم المخارج لتبرير هزيمتهم.

وهذا يدلُّنا أن يَدَ اللَّه ما زالت في كونه، وأن النواميس والقوانين التي وضعها اللَّه في كونه لم تأخذ الكلمة للتصرف في كَوْن اللَّه.

ولذلك رأينا النار التي تحرق يأتيها الأمر:

﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا . . .﴾ [الأنبياء: ٦٩].

والماء الذي يُغرق يأتيه الأمر:

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ[2] ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣].

---

(١) نكيْتُ في العدو أنْكى نِكاية: أي هزمته وغلبته. (لسان العرب ـ مادة: نكى).

(٢) الطود: الجبل العظيم العالي، والطود: الهَضْبة. والجمع أطواد: (لسان العرب ـ مادة: طود).

وقـــال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا[1] لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا[2] وَلَا تَخْشَىٰ * فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٧، ٧٨].

والعصا التي خُلِقت من غُصْن شجرٍ جَافّ، تتحول إلى أَفْعى، أي: نقلها كلها إلى جنس آخر، من نباتية إلى حيوانية.

هذا هو خَرْق النواميس.

وسيدنا إبراهيم عليه السلام كان حقّاً من الموقنين في كل أدوار حياته؛ لأن اللَّه أعلمه ما وراء مظاهر الملْك، ما وراء مظاهر الأشياء وعواقبها.

وإبراهيم عليه السلام يعرف أن النار تُحرِق، ولكن هذا ظاهر الملْك، وظواهر الأشياء، وسيدنا إبراهيم يعلم أن الذي خلقها جعلها مُحْرِقة، ويستطيع ألّا يجعلها مُحرِقة، وهو مُتيقِّن به.

لذلك لم يسأل إبراهيم عليه السلام ربه أن يفعل شيئاً ما لهذه النار، ولذلك قال: «**عِلْمه بحالي يُغني عن سؤالي**».

ولذلك لم يطفئ اللَّه النار بظاهر الأسباب، ولكنه سبحانه أوضح: يا نار، أنا خلقتُ فيك قوة الإحراق، وأنا أقول لك الآن: لا تحرقي.

وتروي كتب التفسير أن قوم إبراهيم عليه السلام بَنَوْا بناءً، ووضعوا فيه حَطَباً وأَخْشاباً ووقوداً، وأشعلوا ناراً، وظلوا أربعين يوماً يَسْجرون[3] فيها، ويُلْقُون فيها كل شيء قابل للاشتعال.

وقد بلغ من فظاعة هذه النار أن الطير التي كانت تطير فوقها تقع مُحترقة.

واستدلَّ العلماء على ذلك من أنهم لم يستطيعوا أن يقتربوا من النار لِيُلقوا إبراهيم فيها، فصنعوا منجنيقاً عالياً ووضعوه فيه، وألقوه في النار وهم بعيدون عنها حتى لا تلفحهم شدة حرارتها.

---

(١) يبس الشيء يبوسة: ذهبت رطوبته وجفَّ فهو يابس. والطريق اليبس: الجاف الصلب بعد رطوبته.

(٢) الدَّرَك: اسم مصدر بمعنى الإدراك واللحاق. قال تعالى: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧]، أي: لا تخاف أن يدركك فرعون وجنوده.

(٣) سجر التنور (الفرن) يسجره سَجْراً: أوقده وأحماه. وقيل: أشبع وقوده. والسَّجور: الحطب. (لسان العرب ـ مادة: سجر).

ولكن الحق سبحانه وتعالى الذي تعهد بنصر رسله وعباده المؤمنين لم يترك نبيه إبراهيم عليه السلام لانتقام الكافرين، ولكنه سبحانه حماه، وحفظه من شرِّهم، حتى يُباشِر مهمته في الدعوة.

وهكذا أراد الحق سبحانه أن يُذِلّ الكافرين وما يتخذون من آلهة على مَشْهد من الجميع، فقد كانت عملية إحراق إبراهيم انتقاماً؛ لأنه حطَّم الأصنام، وكان إحراقه على مَشْهد من الناس جميعاً.

وكان الفهم الخاطئ أن آلهة هؤلاء الكفار ستنتقم من إبراهيم بالإحراق بالنار، فإذا بإبراهيم يُلقَى في النار فلا تمسّه بأذى على مشهد من الجميع(١).

وهكذا أراد اللَّه أنْ يُبيِّن لهؤلاء الناس أنَّ ما يعبدونه هو إفْكٌ وضلال، وأنَّ آلهتهم لا تملك حَوْلاً ولا قوة أمام النار وخاصية الإحراق، ليريهم بالمعجزة الحسية والبرهان أن إلهَ إبراهيم هو الحقُّ، عَلَّهم يهتدون، حتى إذا ظَلُّوا على ضلالهم وشركهم يكون عذابهم في الآخرة عَدْلاً.

وهناك أيضاً قصة سيدنا يونس عندما قاربت السفينة على الغرق، وكان لا بُدَّ لإنقاذها أنْ يُلقى واحد إلى البحر، وجاء القول الحكيم:

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ(٢) إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ(٣) * فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ(٤) * فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٤].

---

(١) ذكر ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٧٩) أن كعب الأحبار قال: لم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه. وقال ابن عباس: لما ألقي إبراهيم جعل خازن المطر يقول: متى أومر بالمطر فأرسله. قال: فكان أمر اللَّه أسرع من أمره. قال اللَّه: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]. وقال: لولا أن اللَّه عز وجل قال: (وسلاماً) لآذى إبراهيم بردُها.

(٢) الإباق: هَرَب العبد من سيده. (لسان العرب ـ مادة: أبق). وقال إبراهيم أحمد عبد الفتاح في القاموس القويم (١/ ٤): «جعل ترك يونس عليه السلام قومه إباقاً؛ لأنه مملوك للَّه وللرسالة التي كلفه اللَّه أن يقوم بها».

(٣) دحضه: أزلقه. وقوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١]، أي: من المزلقين عن السفينة إلى الماء، أي من المغرقين، فقد أزلقه أصحاب السفينة وألقوه في اليم بعد أن ساهم أي قارع وخرجت القرعة عليه.

(٤) ألام الرجلُ، فهو مُليم إذا أتى ذَنْباً يلام عليه. (لسان العرب ـ مادة: لوم).

كان لا بُدَّ أن يُلْقى واحدٌ من تلك السفينة لينجوَ الباقون، لذلك تَمَّ إجراء قُرْعة بالسهام حتى لا تقومَ معركة بين الموجودين على ظَهْر السفينة، وحتى لا تكون الغَلَبة للأقوياء، ولكن القُرْعة حَمَتْ الناسَ من ظُلْم بعضهم بعضاً.

قالوا: لِنُجْرِ قُرْعة السِّهام، فمَنْ يخرج سَهْمه فهو الذي يُلْقَى به.

وكان على يونس عليه السلام أنْ ينزل إلى اليَمِّ[١] فيلتقمه الحوت، ولأنه من المسبِّحين فإن اللَّه يُنقذه، لقد قَبِل يونس عليه السلام اختيار اللَّه، ولم يَنْسَ تسبيحَ اللَّه، فكان في ذلك الإنقاذ له.

فيونس عليه السلام كان قد ذهب مُغَاضباً من قومه، تأثُّراً وحُزْناً من عدم استجابة قومه لرسالته الإيمانية، إلى أنْ رأوا غَيْماً يملأ السماء وعواصفَ.

وألقى اللَّه تعالى في خواطرهم أن هذه العواصف هي بداية عذاب اللَّه لهم[٢]، فَهُرعوا إلى ذوي الرأي فيهم، فأشاروا عليهم بأن هذه هي بوادر العذاب، وقالوا لهم: عليكم بإرضاء يونس، لأن اللَّه سبحانه وتعالى هو الذي أرسله، فآمِنُوا به ليكشفَ عنكم الغُمَّة.

وهُرع الناس إلى الإيمان بالحي الذي لا يموت، ولكن كان يونس عليه السلام قد ركب سفينة، فلعبتْ بها الأمواج فاضطربتْ اضطراباً شديداً، وأشرفتْ على الغرق بِرُكّابها، فألقَوْا الأمتعة في البحر، لِتخفّ بهم السفِينة، فاستمر اضطرابها، فاقترعوا على أنْ يُلْقوا إلى البحر مَنْ تقع عليه القرعة، فوقعت القرعة على نبي اللَّه يونس عليه السلام[٣].

مثلما نركب مصعداً، فنجد الضوء الأحمر وقد أضاء إنذاراً لنا بأن الحمولة زائدة، وأن المصعد لن يعمل فيخرج منه واحد أو أكثر حتى يتبقى

---

(١) اليمّ: البحر الذي لا يُدْرك قعره ولا شطَّاه. ويقع اسم اليمّ على ما كان ماؤه مِلْحاً زُعَاقاً، وعلى النهر الكبير العذب الماء. (لسان العرب ـ مادة: يمم).

(٢) وهذا يتوافق مع ما قاله الزجاج: «إنهم لم يقع بهم العذاب، وإنما رأوا العلامة التي تدل على العذاب، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان»، واختاره القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣١٢).

(٣) قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢١): «وقعت القرعة على نبي اللَّه يونس عليه السلام ثلاث مرات، وهم يضنون به أن يلقى من بينهم فتجرد من ثيابه ليلقي نفسه وهم يأبون عليه ذلك».

العدد المسموح به، وعادة يكون الخارج من أحسن الموجودين خُلُقاً؛ لأنه أراد تسهيل أعمال الآخرين.

كذلك كان الأمر مع السفينة التي ركبها يونس عليه السلام، كادت أن تغرق، فاقترعوا، وصار على يونس أن ينزل إلى البحر.

وألقى يونس عليه السلام بنفسه في البحر، فالتقمه الحوت وابتلعه.

﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢].

فَبطْن الحوت رغم ضيقه وَسِعه مدة من الزمن، حتى ذهب ولَفَظه على الشاطئ، فألقاه الحوت إلى الشاطئ.

ـ﴿فَنَبَذْنَٰهُ(١) بِٱلْعَرَآءِ(٢) وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٥].

أي: وهو مُتْعب من الضيق الذي كان فيه، أو سقيم من التفكير الذي حدث منه، فالسقم إما مادي أو معنوي أو كلاهما(٣).

وبعد أن ألقاه الحوت إلى الشاطئ أنبت اللَّه عليه شجرة من يقطين، قال تعالى:

﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٦].

واليقطين: شجر له ورق عريض ويسمى القَرْع، حتى تُظِله وتحميه من الحرارة والحشرات(٤).

ولذلك سُئِل رسول اللَّه ﷺ عن سِرِّ حُبِّه لليقطين (القرع)، فقال: «**إنها شجرة أخي يونس**»(٥).

---

(١) النبذ: طرحك الشيء من يدك أمامك أو وراءك. ونبذت الشيء: إذا رميته وأبعدته. (لسان العرب ـ مادة: نبذ).

(٢) قال ابن عباس وغيره: هي الأرض التي ليس بها نبت ولا بناء. وقيل: على جانب دجلة. وقيل: بأرض اليمن. فاللَّه أعلم. ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢١).

(٣) قال ابن مسعود رضي اللَّه عنه: كهيئة الفَرْخ (أي: ولد الطائر) ليس عليه ريش. وقال السدي: كهيئة الصبي حين يولد. (انظر ابن كثير ٤/ ٢١).

(٤) قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢١): «ذكر بعضهم في القرع فوائد منها: سرعة نباته، وتظليل ورقه لكبره ونعومته، وأنه لا يقربها الذباب، وجودة تغذية ثمره، وأنه يؤكل نيئاً ومطبوخاً وقشره أيضاً».

(٥) قال العسقلاني في الفتح (٩/ ٥٢٥): «للنسائي «كان ﷺ يحب القرع ويقول: إنها شجرة

والحق سبحانه يقول:

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۞ لَلَبِثَ[1] فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٤].

فكونه من المسبِّحين[2] جعله موضعاً لِلَّوم والعتاب لا للإيذاء والعذاب، فنعاتبه على أمر لا يصح أنْ يفعله لأننا نحبه.

وقد كان دعاء يونس عليه السلام في بطن الحوت:

﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

فاستجاب اللَّه تعالى لدعائه، وأنجاه من الغَمِّ، والغَمُّ أعنف جنود اللَّه، لأن الشيء الذي يضايقك هو الذي لا تستطيع له دَفْعاً.

وقد كان سيدنا جعفر الصادق له بصر وبصيرة بآيات القرآن ومتعلقاتها، فقال:

«عجبتُ لمن خاف، ولم يفزع إلى قول الحق سبحانه:

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

أخي يونس» وقد أخرج ابن ماجه في سننه من حديث أنس رضي اللَّه عنه قال: كان النبي ﷺ يحب القرع».

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢١): «اختلفوا في مقدار ما لبث في بطن الحوت. فقيل: ثلاثة أيام. قاله قتادة. وقيل: سبعة. قاله جعفر الصادق رضي اللَّه عنه. وقيل: أربعين يوماً. قاله أبو مالك. وقال مجاهد عن الشعبي: التقمه ضحى، ولفظه عشية. واللَّه تعالى أعلم بمقدار ذلك».

(٢) أخرج ابن إسحاق والبزار وابن جرير عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لما أراد اللَّه حبس يونس عليه السلام في بطن الحوت، أوحى اللَّه إلى الحوت أن خذه، ولا تخدش له لحماً، ولا تكسر له عظماً، فأخذه ثم أهوى به إلى مسكنه في البحر، فلما انتهى به إلى أسفل البحر، سمع يونس حساً فقال في نفسه: ما هذا!! فأوحى اللَّه إليه وهو في بطن الحوت: إن هذا تسبيح دواب الأرض، فسبّح وهو في بطن الحوت، فسمعت الملائكة عليهم السلام تسبيحه، فقالوا: ربنا إنَّا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غربة. قال: ذاك عبدي يونس، عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر. قالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم عمل صالح؟ قال: نعم. فشفعوا له عند ذلك، فأمره، فقذفه في الساحل كما قال اللَّه (وهو سقيم)». ذكره السيوطي في الدر المنثور ـ طبعة دار الفكر (٧/ ١٢٣).

فإني سمعت اللَّه يقول بعقبها:

﴿فَٱنقَلَبُواْ[١] بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤].

وعجبت لمن اغتمَّ، ولم يفزع إلى قول اللَّه سبحانه:

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

فإني سمعت اللَّه تعالى يقول عقبها:

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

وعجبتُ لمن مُكِر به، كيف لا يفزع إلى قول اللَّه سبحانه:

﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤].

لأني سمعت اللَّه تعالى يقول بعقبها:

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ[٢] وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥].

وعجبتُ لمن طلب الدنيا وزينتها، كيف لا يفزع إلى قول اللَّه سبحانه:

﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩].

لأنِّي سمعت اللَّه تعالى يقول بعقبها:

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا[٣] مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا[٤] زَلَقًا﴾» [الكهف: ٤٠].

وهكذا وجد جعفر الصادق رضي اللَّه عنه في كتاب اللَّه أربعَ آياتٍ لأربع حالات نفسية تصيب البشر، وجاء مع كل حالة دليلها من القرآن الكريم.

ونحن نعرف أن أول ما يُهدِّد حياة الإنسان هو الخوف، وقد يكون غير معروف سببُه، ومرة يحدث للإنسان انقباض قد لا يعرف سببه، فيقول: أنا

---

(١) انقلبوا: رجعوا. ويقول تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٥].

(٢) حاق به الشيء حيقاً: نزل به وأحاط به. وقيل: الحيْق في اللغة هو أن يشتمل على الإنسان عاقبة مكروه فعله. (اللسان ـ مادة: حيق).

(٣) الحسبان: العذاب والبلاء. والحسبان أيضاً: الجراد والعَجاج. قال أبو زياد: الحسبان شر وبلاء. (لسان العرب ـ مادة: حسب).

(٤) صعيداً زلقاً: أي بلقاً (أرضاً قفراً لا شيء بها) تراباً أملس لا يثبت فيه قدم. وقال ابن عباس: كالجرز الذي لا ينبت شيئاً. (قاله ابن كثير في تفسيره (٣/ ٨٤).

صدري منقبض، ولا أعرف له سبباً، فهذا غَمّ لا يُعرف سببه.

وهناك مَنْ يخاف من مَكْر الناس به، وهناك مَنْ يطلب الدنيا، ويريد أن يكون عنده كذا وكذا من متاعها وزينتها.

فهذه الأحوال التي تعتري الإنسان:

إما خوف، وإما غمّ وكَرْب يلحق به دون أن يعرفَ له سبباً.

وإما أنْ يخاف من مَكْر الناس به وتآمرهم عليه.

ومرَّة يشغل نفسه بطلب الدنيا ويسعى إلى تحقيق أهداف معينة، ويريد أن يترف حياته، ويرقي معيشته، ويجهد نفسه في سبيل الحصول على هذه الأشياء.

فسيدنا جعفر الصادق عمل (روشتة) للإنسان المؤمن وأخذها من القرآن؛ لأن الطبيب حينما يكتب روشتة لمريض يكون قد أخذ هذا العلم مِمّا قرأه ودرسه من كتب ومراجع في كلية الطب وغيرها.

ولكن جعفر الصادق أتى بهذه الروشتة للإنسان من خالق الإنسان، من قرآنه الكريم.

والقرآن هو الذكر، ورب العزّة يقول في حديثه القدسي:

«**من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين**».

وقد وردتْ معانٍ كثيرة للذكر في القرآن، وأول هذه المعاني وقمّتها أن الذكر حين يُطلق يُراد به القرآن:

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْأَيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨].

وكذلك في قوله الحق:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ولأن إنزال الذكر عملية عظيمة، فنأتي بـ «نون العظمة».

لأننا سنُنزله بقدرة، وسنُنزله بحكمة، وننزله بعلم، ونُنزله بسمع، وننزله ببصر، وننزله بقيومية، وننزله بقبض، ونُنزله ببسط.

إذن: يُطلق الذكر، ويُراد به القرآن.

ومرَّة يُطلق الذكر ويُراد به الصيت. أي: الشهرة الإعلامية الواسعة.

وقد قال الحق لرسوله عن القرآن:

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ . . .﴾ [الزخرف: ٤٤].

أي: أن القرآن شرفٌ كبير لك ولأمتك، وسيجعل لكم به صِيتاً إلى يوم القيامة؛ لأن الناس سترى في القرآن على تعاقب العصور كُلَّ عجيبة من العجائب، وسيعلمون كيف أن الكون يُصدِّق القرآن.

إذن: بفضل القرآن العربيّ سيظل اسمُ العرب مُلتصقاً ومرتبطاً بالقرآن، وكُل شرفٍ للقرآن ينال معه العرب شَرفاً جديداً.

أي: أن القرآن شَرَفٌ لكم.

ويقول سبحانه:

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ . . .﴾ [الأنبياء: ١٠].

أي: فيه شرفكم، وفيه صِيتكم، وفيه تاريخكم، فشرَفُ القوم يجيء من شَرَف القرآن، ومن صِيت القرآن.

والحق سبحانه يقول:

﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١].

أي: أن شرفه دائم أبداً.

ويُطلق الذِّكْر، ويُراد به ما نزل على جميع الرسل.

يقول تعالى:

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: ١، ٢].

أي: أن كل ما نزل على الرسل ذِكْر.

ويقول أيضاً:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ(١) وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

---

(١) كل ما فُرق به بين الحق والباطل فهو فرقان، فسمّى جل ثناؤه الكتاب المنزل على محمد ﷺ فرقَاناً، وسمى الكتاب المنزل على موسى ﷺ فرقاناً. والمعنى: أنه تعالى فرق بكل واحد منهما بين الحق والباطل. (لسان العرب ـ مادة: فرق).

ومرَّة يُطلق الذكر، ويُراد به معنى الاعتبار والتذكير، والتذكُّر، فيقول سبحانه:

﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ[1] وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

والمراد هنا بالذكر: الاعتبار والتَّذكر، وأنْ تعيشَ كمسلم في منهج اللَّه.

ومرَّة يُراد بالذكر: التسبيح والتحميد.

انظر إلى قول الحقِّ سبحانه وتعالى:

﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ[2] * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

كأن النورَ على النورِ يأتي من مَطَالع الهدى في مساجِده، فهي بيوت اللَّه نُقبل عليها ليفيض منها نور الحق على الخلق.

والإنسان الصادق لا تُلهيه التجارة عن ذكر اللَّه، وليكن اللَّه على بال المؤمن دائماً، فعندما يكون الإنسان على ذكر اللَّه فاللَّه يعطيه من مدده.

فأنت حين تذهب إلى المسجد لِتَلْقى اللَّه، فذلك النور، وتصلي له فذلك نور، وتخرج من هذا النور بنور يهبط عليك في بيته.

وكل هذا نور على نور، فمن أراد أن يتعرض لنفحات نور اللَّه عز وجل فَلْيُكثِر من الذَّهَاب إلى بيت اللَّه.

وللمساجد مهابة النور لأنها مكان الصلاة، ونعلم أن الصلاة هي الخلوة

---

(١) الأزلام: جمع زَلَم، وهو قطعة خشبية تشبه السهم يقترعون بها، فيقسمون بها الذبائح يكتب على كل زلم عدد الأنصباء يأخذه من المقامرين مَنْ يخرج له، وهو نوع من الميسر المحرّم شرعاً.
والأنصاب: جمع نُصُب، وهو ما يُنصب ليعبد من دون اللَّه، أو ليذبح عنده الذبائح تقرباً إليه أو إلى الأصنام.

(٢) الأصيل: العشيّ. والجمع: آصال. والأصيل: الوقت حين تصفر الشمس بعد العصر إلى المغرب. (لسان العرب ـ مادة: أصل).

التي بين العبد وربه، وكان رسول اللَّه ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة[١].

وأنت إذا ما اتبعتَ حضرة النبي ﷺ وتصلي ركعتين للَّه إن حَزَبَك[٢] أمر، وعزَّتْ عليك مسألة وكانت فوق أسبابك، ثم ذهبتَ بها إلى اللَّه، فلن يُخرجك اللَّه إلّا راضياً.

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [النور: ٣٦].

والغدو والآصال، أو البُكْرة والأصيل ـ كما عرفنا ـ هي أزمنةُ أولِ النهار، وأزمنةُ أوّلِ الليل.

ولماذا أزمنة أوّل النهار، وأزمنة أول الليل؟

لأن هذه الأزمنة هي التي يُطلب فيها الذكر، فقبل أنْ تخرج للعمل في أول النهار أنت تحتاج لشحنة من العزيمة تقابل بها العمل من أجل مطالب الحياة.

وفي نهاية النهار، أنت تحتاج أن تركن إلى ربك ليزيح عنك متاعب هذا اليوم.

لذلك إياك أنْ تشغلَك الحياةُ عن واهب الحياة، ولك أن تذكر ربنا وأنت تعيش مع كل عمل تُؤديه وتقوم به.

وأنْ تقابل كل نتيجة للعمل بكلمة: الحمد للَّه.

وعندما ترى أيّ جميل من الوهّاب ـ سبحانه وتعالى ـ يجب عليك أن تقول: «ما شاء اللَّه».

وعندما ترى أيَّ شيء يعجبك تقول: «سبحان اللَّه».

إن الحق سبحانه وتعالى يجزيك من فيض كرمه من ساعة أن تنوي زيارته في بيته، فأنت في صلاة وذِكْر منذ أن تبدأ في الوضوء في بيتك استعداداً

(١) عن حذيفة رضي اللَّه عنه قال: «كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلى» أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٣٨٨)، وأبو داود في سننه (١٣١٩).

(٢) حزبه الأمر: إذا نزل به واشتد عليه. والأمر الحازب والحزيب: الشديد. (لسان العرب ـ مادة: حزب).

للصلاة في المسجد؛ لأنه سبحانه وتعالى يريد أنْ يُطيل عليك نعمة أن تكون في حضرته(١).

وبيت اللَّه مفتوح لك دائماً، فهو سبحانه يَلْقاك في أيِّ وقت، وتدعوه بما تشاء، وتُطيل في حضرته كما تريد.

وقد يُطلق الذكر ويُراد منه خير اللَّه على عباده، ويُراد به كذلك ذكر عبادتهم له بالطاعة، فسبحانه يذكرُهم بالخير، وهم يذكرونه بالطاعة.

اقرأ إنْ شِئْتَ قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

وفي آية أخرى:

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وما دام قد قال جل وعلا: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ . . .﴾ [العنكبوت: ٤٥].

أي: ذكر اللَّه لهم بالنعم والخيرات، فَذِكْره فضل وإحسان، وهو الكبير المتعال، فهناك إذن ذكر ثانٍ، ذكر أقل منه، وهو العبادة لربهم بالطاعة.

والذكر مرور الشيء إنْ كان بالبال فهو ذكر في النفس، وإنْ كان باللسان ولا يُسمِع الغير ويُسمِعك أنت فهذا ذكر السرّ.

وإنْ كان جَهْراً فهو قسمان:

جَهْر مقبول، وجَهْر غير مقبول، والجهر غير المقبول هو أن يتحوّل الذكر إلى إزعاج، والعياذُ باللَّه.

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

---

(١) عن عقبة بن عامر رضي اللَّه عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا تطهر الرجل ثم أتى المسجد يرعى الصلاة كتب له كاتباه ـ أو كاتبه ـ بكل خطوة يخطوها إلى المسجد عشر حسنات، والقاعد يرعى الصلاة كالقانت، ويُكتب من المصلين من حين يخرج من بيته حتى يرجع إليه» أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ١٥٧) وابن حبان (٤٢١ ـ موارد الظمآن).

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ . . . ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

فهو تذكير لك بما حباك به من أفضال، خلقك وربَّاك، وأعطاك من فيض نعمه ما لا يُعَدُّ ولا يُحْصَى، فاذكُرْ ربك؛ لأنك إنْ لم تعشقْهُ تكليفاً، فأنت قد عشِقْته لأنه يُمِدُّك بالنعم، وسبحانه يتفضَّل علينا ويُوالينا جميعاً بالنعم.

واذكُرْه على حالين: الأول تضرُّعاً، أي: بِذِلَّةٍ. لأنك قد تذكر واحداً بكبرياء، إنما اللَّه الخالق المحسن يجب عليك أن تذكره بِذِلَّة عبودية لمقام الربوبية.

واذكر ربك خِيفةً. أي: خائفاً متضرعاً؛ لأنك كلما ذللتَ له يُعِزّك.

والحق سبحانه يقول:

﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٢].

فلتعيشوا دائماً في ذكر مَنْ أنعم عليكم، فاللَّه سبحانه وتعالى يريد من عباده الذكر، وهم كلما ذكروه سبحانه وشكروه شكرهم وزادهم.

واللَّه سبحانه وتعالى يقول في الحديث القدسي:

«أنا عند ظن عبدي بي[(١)]، وأنا معه إذا ذكرني، فإنْ ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، وإنْ ذكرني في ملأ ذكرتُه في ملأ خَيْرٍ منه، وإنْ تقرَّب إليّ بشبر تقرَّبْتُ إليه ذراعاً، وإن تقرَّب إليَّ ذراعاً تقرَّبْتُ إليه باعاً[(٢)]، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة[(٣)]»[(٤)].

---

(١) نقل ابن حجر العسقلاني في الفتح (١٣/ ٣٨٦) قول القرطبي في المفهم: «قيل: معنى ظن عبدي بي ظن الإجابة عند الدعاء، وظن القبول عند التوبة، وظن المغفرة عند الاستغفار، وظن المجازاة عند فعل العبادة بشروطها تمسكاً بصادق وعده».

(٢) قال الباجي: الباع طول ذراعي الإنسان وعضديه وعرض صدره، وذلك قدر أربعة أذرع. (فتح الباري ١٣/ ٥١٤).

(٣) الهرولة: الإسراع. والحديث كناية عن سرعة إجابة اللَّه عز وجل وقبول توبة العبد ولُطفه ورحمته (لسان العرب ـ مادة: هرول).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٠٥، ٧٥٠٥، ٧٥٣٧) وأحمد في مسنده (٢/ ٢٥١، ٣٥٤، ٤٠٥) والترمذي في سننه (٣٦٠٣) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

هذه هي رغبة الكريم في أنْ يعطي بشرط أن نكون أهلاً للعطاء؛ لأنه يريد أن يعطيك أكثر وأكثر.

فقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

أي: اذكروا اللَّه في كل شيء: في نِعَمه، في عطائه، في سِتْره، في رحمته، في توبته.

واعلم أنك إنِ اعتمدتَ على اللَّه وحده إلهاً فأنت قد اعتمدتَ على عزيز لا يُغلب على أمره، فإنْ آمنتَ به وحده، فلك الفوز.

فأنت تلجأ إلى خالق أعلى، بيده مقاليد كل شيء، وهو على كل شيء قدير، وعظمة الحق سبحانه أنه واحد أحد فَرْد متفرد صمد[١].

ولذلك يقول رسول اللَّه ﷺ في وصيته لابن عباس:

«**إذا سألت فاسأل اللَّه، وإذا استعنت فاستعن باللَّه**»[٢].

والاستعانة باللَّه سبحانه تُخرِجك عن ذُلِّ الدنيا، فأنت حين تستعين بغير اللَّه فإنك تستعين ببشر مهما بلغَ نفوذه وقوته، فكُلُّها في حدود بشريته.

ولأننا نعيش في عالم أغيار، فإن القويَّ يمكن أن يصبح ضعيفاً، وصاحب النفوذ يمكن أن يُصبح في لحظة واحدة طريداً شريداً لا نفوذَ له، ولو لم يحدث هذا فقد يموت ذلك الذي تستعين به، فلا تجد أحداً يُعينك.

ويريد اللَّه تبارك وتعالى أن يُحرِّر المؤمن من ذُلِّ الدنيا، فيطلب منه أنْ يستعينَ بالحيِّ الذي لا يموت.. وبالقوي الذي لا يضعف.. وبالقاهر الذي لا يخرج عن أمره أحد.

---

(١) الصمد: السيد المطاع الذي لا يُقْضى دونه أمر. وقيل: الذي يُصْمد إليه في الحوائج أي يُقْصد. وقيل: الصمد الدائم الباقي بعد فناء خَلْقه. (لسان العرب ـ مادة: صمد).

(٢) تمام الحديث أن رسول اللَّه ﷺ قال: «يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ اللَّه يحفظك، احفظ اللَّه تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل اللَّه، وإذا استعنت فاستعن باللَّه، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللَّه لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللَّه عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٢٩٣، ٣٠٧)، والترمذي في سننه (٢٥١٦)، والحاكم في مستدركه (٣/ ٥٤١) من حديث ابن عباس.

وإذا استعنتَ باللَّه سبحانه وتعالى كان اللَّه جَلَّ جلاله بجانبك، وهو وحده الذي يستطيع أنْ يُحوِّل ضعفك إلى قوة، وذُلَّكَ إلى عِزٍّ.

والاستعانة معناها طَلب المعونة، أي: أن الإنسانَ استنفد أسبابه ولكنها خذلتْه، حينئذٍ لا بُدَّ أن يتذكر أن له رباً لا يعبد سواه، لن يتخلى عنه، بل يستعين به.

وحين تتخلى الأسباب فهناك رَبُّ الأسباب، وهو موجود دائماً، لا يغفل عن شيء، ولا تفوته هَمْسة في الكون، ولذلك فإن المؤمن يتجه دائماً إلى السماء، واللَّه سبحانه وتعالى يكون معه.

أمَّتي . . أمَّتي

٢٦ ـ يقول رب العزّة سبحانه: «يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحمدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرضِيكَ في أُمَّتِكَ، وَلَا نَسوءُكَ[(١)]»[(٢)].

يقول الحق سبحانه:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

لقد جاءكم أيها المؤمنون رسول منكم، عربي، ومن قريش، يُبلِّغكم رسالة اللَّه تعالى، يحرص عليكم كي لا تقعوا في مشقّة، أو تعيشوا في ضَنْك الكفر، حريص على أن تكونوا من المهتدين.

فهو ﷺ مُحِبّ لكم، يشقُّ عليه ويُتعِبه ما يشقّ عليكم ويُتعبكم، ولذلك كان رسول اللَّه ﷺ مشغولاً بأمته.

وقوله سبحانه:

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ . . .﴾ [التوبة: ١٢٨].

فالعزّة تأتي لامتناع شيء إمَّا لقدرته، أو عزيز بمعنى نادر أو يستحيل.

---

(١) قال النووي في شرحه لهذا الحديث: «قال صاحب التحرير: هو تأكيد للمعنى. أي: لا نحزنك؛ لأن الإرضاء قد يحصل في حق البعض بالعفو عنهم، ويدخل الباقي النار. فقال تعالى: نرضيك ولا ندخل عليك حزناً، بل ننجي الجميع. واللَّه أعلم».

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٢) من حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ تلا قول اللَّه عز وجل في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]. وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فرفع يديه وقال: اللهم أمتي أمتي. وبكى. فقال اللَّه عز وجل: يا جبريل اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فسله: ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله فأخبره رسول اللَّه ﷺ بما قال ـ وهو أعلم ـ فقال اللَّه: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: «إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك».

والعزيز هو الأمر الذي يعزّ على الناس أنْ يتداولوه. فيقال: عَزَّ عليّ أنْ أصل إلى قمة الجبل.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨].

أي: شاقّ عليه أنْ يُعنتكم بحكم، فَقلْبه رحيم بِكُم، وهو لا يأتي لكم بالأحكام لكيّ تشقّ عليكم، بل تنزل الأحكام من اللَّه لمصلحتكم، فهو نفسه يعزّ عليه أنْ يشقَّ عليكم.

ولذلك قال النبي ﷺ:

«**مَثَلي كَمَثلِ رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حولها جعل الفَرَاش وهذه الدَّواب التي في النار يقعنَ فيها، وجعل يحجزهن ويغلبْنَهُ فيتقحَّمنَ**[(١)] **فيها. قال: فذلكم مَثَلي ومَثلكم أنا آخذٌ بِحجزِكم**[(٢)] **عن النار. هَلُمّ عن النار. هَلُمّ عن النار. فتغلبوني تقحَّمون فيها**»[(٣)].

فإذا كان الرسول ﷺ صفته أنه من أنفُسكم، أو من أنفَسكم، أو يحبكم حُباً يعزُّ عليه أنْ تكونوا في مشقة. إذن: فخذوا توجيهاته بحُسْن الظن وبحُسْن الرأي فيها.

وذلك هو القانون التربوي الذي يجب أن يسود الدنيا كلها، فقد يقسو والد على ولده بأوامر ونَوَاهٍ: «افعل كذا» و«لا تفعل كذا»، لا تذهب إلى المكان الفلاني، ولا تجلس إلى فلان، ولا تسهر خارج المنزل بعد الساعة كذا.

كل هذه أوامر قد تشقُّ على الولد، فنقول له:

مشقّة التكليف مِمَّنْ صدرتْ؟

---

(١) التقحم: هو الإقدام والوقوع في الأمور الشاقة من غير تثبت.

(٢) الحجز: جمع حجزة، وهي معقد الإزار والسراويل. قال النووي في شرحه (١٥/ ٥٥): «شبَّه ﷺ تساقط الجاهلين والمخالفين بمعاصيهم وشهواتهم في نار الآخرة، وحرصهم على الوقوع في ذلك مع منعه إياهم وقبضه على مواضع المنع منهم بتساقط الفراش في نار الدنيا لهواه وضعف تمييزه، وكلاهما حريص على هلاك نفسه، ساعٍ في ذلك لجهله».

(٣) حديث متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٨٣) وكذا مسلم في صحيحه (٢٢٨٤) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

لقد صدرتْ من أبيك الذي تعرف حُبَّه لك، والذي يشقى ليوفر لك بناء المستقبل، ويتعب لترتاح أنت، فكيف تسمح لنفسك أنْ تصادق صعاليك يُخرِجونك عن طاعة أبيك إلى اللهو وإلى الشرِّ.

وانظر إلى والدك الذي تحمّل المشقة حتى لا تتحمل أنت المشقة، ويشق عليه أنْ تتعب فهو أَوْلَى بأنْ تسمع كلامه.

ورسول اللَّه ﷺ عزيز عليه مشقتكم.

والمشقات أنواع، مشقات في الدنيا تتمثل في التكاليف التي يتطلبها الإيمان، ولكنها تمنع مشقاتٍ أخلدَ في الآخرة.

لذلك فالرسول ﷺ يحزن أن ينالكم في الآخرة تعبٌ، وتَعَبُ الدنيا موقوت وينتهي، لكن تعب الآخرة هو الذي يُرهِق حقاً ويُتعِب[1].

ولذلك يقول الحق سبحانه في تصوير هذه المسألة:

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ[2] نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا[3]﴾ [الكهف: ٦].

لماذا؟ لأنك تعرف يا محمد أنهم إن لم ينتهوا فسوف يجدون العنت كله في الآخرة، أو أن مشقة الآخرة هي التي يجب أن نتلافاها، وأن نتحمل المشقات الزائلة العرضية التي تُورِد ثماراً.

فنحن قد نجد الرجل يقول لابنه مثلاً: اخرج إلى الحقل، واحمل السِّباخ فوق الحمار واحْرُثْ وارْو، كُلُّ هذه مشقّات ستجد لذَّتَها يوم الحصاد، وتعطيك الأرض من خير اللَّه كذا إردب قمحاً أو غير ذلك.

ولو ترك الأب ابنه لكسله فهذه هي المشكلة الأكبر، أما حَثُّ الأب لابنه على العمل فهو دفع لمغبّة الضياع.

---

(١) قال أبو حامد الغزالي: «التمثيل وقع على صورة الإكباب على الشهوات من الإنسان بإكباب الفراش على التهافت في النار، ولكن جهل الآدمي أشد من جهل الفراش، لأنها باغترارها بظواهر الضوء إذا احترقت انتهى عذابها في الحال، والآدمي يبقى في النار مدة طويلة أو أبداً». أورده ابن حجر العسقلاني في فتح الباري (٦/ ٤٦٤).

(٢) بخع نفسه: قتلها غيظاً أو غماً. وقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الكهف: ٦]، قال الفراء: أي: مخرج نفسك وقاتل نفسك. (لسان العرب ـ مادة: بخع).

(٣) أسفاً: حزناً وغضباً على كفرهم. (تفسير القرطبي ٥/ ٤٠٨٢).

وقد يأخذ الأب ابنه للطبيب، ويجد الطبيب مشغولاً، ويرجوه الأب أنْ يُجري للابن جراحة تُنجيه وتنقذه من خطر رغم أن الأب يعلم أن الطبيب سيستخدم مع ابنه أدوات جراحية كالمشارط وغيرها.

ولكن، ليعلم الابن أن هذا المشرط سيمسُّ أباك قبل أن يمسَّك.

وعلى ذلك، إذا أُمرتَ بتكليفٍ شاقٍّ فانظر مَنْ أمرك؟

أهو ممَّنْ تعزّ عليه، وممَّنْ تحبه، وممَّن يريد لك الخير؟

إنْ كان الأمر كذلك، فعليك أنْ تقبل ولا تُسِيء الظن، ولا تُرهق مَنْ يحبك.

واعلم أن والدك حين يصرفك عن أصدقاء السوء ـ مثلاً ـ فهو يرد عنك مصارف الشر، لأنك إن اجتهدت في عملك فسوف تحصد النتيجة الطيبة.

أما إن اتجهت إلى مصارف الشر فسوف تُشرد وتجوع، وسوف تدقُّ باب بيت أبيك، وعندئذٍ ستسمع مثلاً عامياً يلخص الحكمة التي تقول: «**مَنْ يأكل لُقْمتي فليسمع كلمتي**».

والحق سبحانه يُسَرِّي عن رسوله ﷺ، فيقول:

﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٦].

فالرسول ﷺ كان يُحزنه أن يُسارع البعض إلى الكفر، فهل رسول اللَّه ﷺ لا يعلم أنه إنما جاء مُبَلِّغاً فقط؟

إنه يعلم، ولكنه ﷺ كان يحرص على أنْ يؤمن الناس جميعاً؛ ليذوقوا حلاوة ما جاء به، هذا الحرص هو الذي يدفع الحزن إلى قلب الرسول ﷺ.

وعندما يرى واحداً لا يذوق حلاوة المنهج، فالرسول يأمل أن يذوق الناسُ كلهم حلاوة الإيمان، لأنه ﷺ رؤوف رحيم بالمؤمنين، بل وبالناس جميعاً[(١)].

---

(١) أخرج الإمام أحمد في مسنده (١/ ٢٤٢) والحاكم في مستدركه (١/ ٥٣)، (٤/ ٤٠) والطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ١٥٢) عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما قال: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك. قال: «وتفعلون؟» قالوا: نعم. قال: «فدعا». فأتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن =

يقول الحق سبحانه:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ودليلُ ذلك أنه ﷺ عندما جاءه التخيير، وناداه جبريل عليه السلام، وقال:

«**إن اللَّه قد سمع قَوْل قومك لك وما رَدُّوا عليك، وقد بعث إليك مَلك الجبال لتأمره بما شئتَ فيهم. قال: فناداني ملك الجبال وسلَّم عليّ ثم قال: يا محمد. إن اللَّه قد بعثني إليك، وأنا مَلَك الجبال لتأمرني بأمرك فما شئتَ؟ إن شئتَ أُطبق عليهم الأخشبين**»(١).

فقال النبي ﷺ: «**بل أرجو أنْ يُخرج اللَّه من أصلابهم مَنْ يعبد اللَّه وحده، ولا يشرك به شيئاً**».

فالرسول ﷺ لا يُبقي على هؤلاء فقط، ولكنه يحرص أيضاً على الأجيال القادمة، وقد كان، وخرج من أولاد كفار قريش صناديد وأبطال وجنود دعوة وشهداء.

فكان رسول اللَّه ﷺ يحزن عندما لا يذوق أحد حلاوة الإيمان.

فالقرآن يُبيّن حِرْصه ﷺ أنْ يؤمن الناسُ جميعاً، وأنْ يذوقوا حلاوة اللقاء بربهم، واتباع منهج اللَّه، وحلاوة التشريع الذي يُسعدهم ويُسعِد كل مَلَكاتهم.

فإذا ما جاءتْ المسائل على غير ما يحب رسول اللَّه ﷺ، فها هو ذا قول اللَّه سبحانه:

﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ . . .﴾ [آل عمران: ١٧٦].

وهذا دليل على أن اللَّه يريد أن يُبلّغ البشر؛ أيها الناس، إن من فَرْط حب الرسول لكم أنه يحزن من أجل عصيانكم، وأنا الذي أقول له: لا تحزن.

والرسول ﷺ رحيم بالأمة كلها، كما يقول القرآن:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

= شئت أصبح لهم الصفا ذهباً فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة، فقال: «بل باب التوبة والرحمة».

(١) الأخشبان: الجبلان المطيفان بمكة، وهما: أبو قبيس والأحمر. والأخشب: كل جبل خشن غليظ. (لسان العرب ـ مادة: خشب).

ويكفيه موقفه ﷺ يوم القيامة، حين تذهب كل أمة إلى رسولها لِيردَّها، فتأتي الأمم إلى رسول اللَّه ﷺ فيُكرمه اللَّه بقبول شفاعته حتى يُعجّل اللَّه بالفَصْل والحساب.

وهذه رحمة للعالمين؛ لأنه من هَول الموقف يتمنّون الانصراف، ولو إلى النار.

فالرسول ﷺ لم يكن رحمة لمن أُرْسِل إليهم فقط، ولكنه رحمة للعالمين جميعهم، وأول هذه الرحمة إعلانه أن البشر كلهم سواء، وأنه بشر مثلنا يُوحى إليه، وأن إلٰهنا إلٰه واحد.

وما دام ليس لنا إلا إلٰه واحد فلن نخشى أحداً، أو نعبد قوياً، أو ذا سلطان، فاللَّه تعالى أرسل رسوله رحمةً للعالمين، وحتى ينال الناس هذه الرحمة لا بُدَّ أن يؤمنوا باللَّه ويتبعوا منهجه.

فالحق سبحانه يعلم انشغال سيدنا رسول اللَّه ﷺ بأمته، وبرحمته بهم، فقال له اللَّه ـ لِيُريح عواطفه ومواجيده ـ ما ورد هنا في الحديث القدسي الذي نحن بصدده:

«**إنَّا سَنُرضِيكَ في أُمتِك، ولَا نَسُوؤكَ**».

وذلك أن رسول اللَّه ﷺ كان يتلو قول اللَّه عز وجل في إبراهيم عليه السلام:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦].

وكذلك قول اللَّه عز وجل في عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

فرفع رسول اللَّه ﷺ يديه، وقال: «**اللهم أمّتي أمّتي**» وبكى ﷺ.

فقال اللَّه عز وجل: يا جبريل اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فَسَلْهُ: ما يُبكيك؟

فأتاه جبريل عليه السلام فسأله، فأخبره رسول اللَّه ﷺ بما قال، وهو أعلم.

فقال اللَّه: «يا جبريل، اذهب إلى محمد فَقُلْ: «**إنَّا سَنُرضِيكَ في أُمتِك، ولا نَسُوؤكَ**».

والحق سبحانه يقول في قرآنه:

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥].

وقد رُوي[١] عن الإمام علي رضي اللَّه عنه أنه قال لأهل العراق: إنكم تقولون: إن أَرْجَى[٢] آية في كتاب اللَّه تعالى:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟[٣] مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

قالوا: إنَّا نقول ذلك.

قال: ولكنّا ـ أهل البيت ـ نقول: إن أَرْجى آية في كتاب اللَّه قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥].

وهي الشفاعة»[٤].

ولم يَقُلْ سبحانه: يعطيك ربك. بل قال: (**ولسوف يعطيك**) لترى عطاء الحق مستمراً.

وقد قال النبي ﷺ عند نزول هذه الآية:

«**إذاً، لا أرضى وواحد من أمتي في النار**»[٥].

---

(١) أورد السيوطي هذا الأثر في الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٨/ ٥٤٣)، وعزاه لابن المنذر وابن مردويه وأبي نعيم في الحلية.

(٢) الرجاء من الأمل نقيض اليأس. وأرجى: صيغة مبالغة على وزن أفعل بمعنى أكثر رجاء وأملاً وإطماعاً في رحمة اللَّه. (وانظر: لسان العرب ـ مادة: رجو).

(٣) القنوط: اليأس. وفي التهذيب: اليأس من الخير. (لسان العرب ـ مادة: قنط).

(٤) وقد أخرج ابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية من طريق حرب بن شريح رضي اللَّه عنه قال: قلت لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين: أرأيت هذه الشفاعة التي يتحدث عنها أهل العراق، أحق هي؟ قال: إي واللَّه، حدثني عمي محمد ابن الحنفية عن علي أن رسول اللَّه ﷺ قال: «أشفع لأمتي حتى يناديني ربي: أرضيت يا محمد؟ فأقول: نعم، يا رب رضيت». قاله السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٥٤٣).

(٥) أخرج الخطيب في «تلخيص المتشابه» عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما قال: لا يرضى محمد، وواحد من أمته في النار. =

وقال ﷺ أيضاً:

«**لكُلِّ نبيٍّ دعوة مستجابة، فتعجَّل كل نبيّ دعوته، وإنِّي اختبأتُ دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة**»(١).

وهكذا نرى شُغل رسول اللَّه ﷺ بأمته كأمر واضح موجود في بُؤْرة شعوره ﷺ.

إذن: فقول اللَّه:

﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ . . .﴾ [آل عمران: ١٧٦].

هو توضيح من اللَّه لرسوله ﷺ بأنهم لم يسارعوا في الكفر تقصيراً منك، فأنت قد أدّيتَ واجبك.

ويؤكد الحق سبحانه هذا بقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ . . .﴾ [المائدة: ٤١].

فإياك أنْ تحزنَ؛ لأنِّي معك، فلن ينالك شَرُّ خُصومك، ولا يمكن أنْ أختارك رسولاً وأخذلك، إنهم لن ينالوا منك شيئاً.

وقد يكون حُزْن النبي ﷺ حُزْناً من لَوْن آخر، اسمه الحزن المتسامي، الذي قال فيه الحق سبحانه:

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

فإذا كان حزنك بسبب الخوف على المنهج منهم، فالحق ينصره ولن يُمكِّنهم منه.

وأما إذا كان خوفاً عليهم، فلا؛ لأنه سبحانه خلق الإنسان مُخْتاراً غير مقهور على القيام بتعاليم المنهج، وسبحانه يحب أنْ يعرف مَنْ يأتيه حُبّاً وكرامة.

فإياك أنْ تحزن لحرصك على أنْ يؤمنوا؛ لأن الحق سبحانه يقدر أن

= وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس أيضاً أنه قال: رضاه أن تدخل أمته الجنة كلهم.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٩) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه وتمامه: «فهي نائلة إن شاء اللَّه من مات من أمتي لا يشرك باللَّه شيئاً».

يُنزِل عليهم آية تجعل رقابهم خاضعة، ولكن الرب لا يريد رقاباً تخضع، وإنما يريد قلوباً تخشع.

ولذلك يقول تعالى:

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

فلو أراد اللَّه أن يُخضِعهم لمنهجه قَهْراً، لا يستطيع أحد أن يشذَّ عن طاعته، فهو سبحانه يريد من الإنس والجن عبادة المحبوبية، ولذلك خلقنا ولنا اختيار في أنْ نأتيه أو لا نأتيه، في أن نطيعه أو نعصيه، في أنْ نؤمن به أو لا نؤمن به.

فإذا كنتَ تحب اللَّه فأنت تأتيه عن اختيار، تتنازل عما يغضبه حبّاً فيه، فإذا تخليتَ عن اختيارك إلى مرادات اللَّه في منهجه تكون قد حققتَ عبادة المحبوبية لله تبارك وتعالى.

نحن نريد أن ينبع الإيمان من القلب، فاللَّه لا يريد أعناقاً، ولو كان يريد أعناقاً لَمَا استطاع أحدٌ أنْ يخرج عن قَدَره. وكان باستطاعته سبحانه أن يخلق البشر على هيئة غير قابلة للمعصية، كما خلق الملائكة.

والحق سبحانه يُبيِّن لنا شُغل رسول اللَّه ﷺ بأمته، وأنه يحب أن يكونوا جميعاً مؤمنين ملتزمين مطيعين، فيوضح له سبحانه: أَرِحْ نفسك، فعليك البلاغ فقط.

وهكذا يُخفّف اللَّه مهمة الرسول ﷺ فيقول:

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

فلا تُجهِد نفسك، وتظن أننا أرسلناك إليهم لترغمهم على أن يؤمنوا، فتكلف نفسك أمراً ما كلَّفك اللَّه به، وتقتل نفسك حزناً وغَمّاً وهَمّاً أنهم لم يؤمنوا.

فيقول تعالى:

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

ويقول سبحانه:

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢].

ويقول في آية أخرى:

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۚ . . .﴾ [ق: ٤٥].

أي: ليس لك أنْ تُجبرهم على أنْ يطيعوا، فالإجبار يتنافى مع التكليف، ويتنافى مع دخول الإيمان طواعية، ويتنافى مع الاختيار.

ونجد أغلب عتابات اللَّه لرسول اللَّه، لا لأنه خالف، ولكن لأنه حمّل نفسه فوق ما تفرضه عليه الرسالة، مثل مَنْ يثيرون قصة ابن أم مكتوم(١)، فيقولون: النبي أخطأ، ولذلك قرَّعه اللَّه ووبّخه.

نقول لهم: كان الرسول ﷺ يرغب أن يؤمن به صناديد قريش العتاة الكافرون، وجاءه ابن أم مكتوم مؤمناً ويريد أن يستفهم، وكان من الأسهل أن يتعرض لابن أم مكتوم ولا يتعرض للصناديد الذين يخالفونه.

لكن النبي ﷺ ترك السهل وذهب للصَّعب، فكأنه سبحانه يتساءل: لماذا أتعبتَ نفسك؟

﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس: ٧].

أي: ما الذي يجعلك تتعب؟ إذن: فهو يلومه لصالحه لا لأنه خالف.

فكأن الحق سبحانه وتعالى حينما يقول لرسوله ﷺ:

﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ [النساء: ٨٠].

إنما قاله لِيُخفِّف عن الرسول ﷺ، وليأمره أنْ يُشفِق على نفسه، وألَّا يقتلها بالحزن عليهم لعنادهم وعدم إيمانهم.

والحزن هو خروج النفْس من سياق انبساطها، فالإنسان يكون غاية في الاستقامة والسرور عندما يكون كل جهاز من أجهزته يُؤدِّي مهمته، فإن حدث شيء يُخِلُّ بعمل أحد الأجهزة فذلك يُورِث الحزن، أو يكون الحزن انفعالاً لمجيء وحصول أمر غير مطلوب للنفس.

لقد كان مطلب الرسول ﷺ أن يؤمن كل الذين استمعوا إلى البلاغ عنه،

---

(١) هو: عمرو ابن أم مكتوم القرشي، ويقال اسمه عبد اللَّه، وعمرو أكثر، وهو ابن قيس بن زائدة بن الأصم. واسم أمه أم مكتوم عاتكة بنت عبد اللَّه. أسلم قديماً بمكة وكان من المهاجرين الأولين، قدم المدينة قبل أن يهاجر النبي ﷺ. استخلفه رسول اللَّه ﷺ ثلاث عشرة مرة. (الإصابة في تمييز الصحابة ٤/ ٢٨٤).

لكن البعض قاوم، والبعض اتهم الرسول بالسحر أو الجنون أو قَوْل الشعر[١].

وها هوذا سبحانه يُسلّي[٢] رسوله ﷺ، فيقول:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ[٣]﴾ [الأنعام: ٣٣].

أي: إنك يا محمد لا بد لك أن تعلم أن أقوالهم هذه ليست متعلقة بك، لأنك ـ بإجماع الآراء عندهم ـ أنت الصادق الأمين.

وهم إنما يُكذِّبون بآياتي التي أرسلتها معك إليهم، لأن ماضيك معهم هو الصدق والأمانة، بدليل أن الكافر منهم كان لا يأمن أحداً على شيء من أمواله ونفائسه إلا رسول اللَّه ﷺ، والإنسان لا يغشُّ نفسه فيما يخصُّه.

فكأن اللَّه يريد أن يتحمل عن رسوله، لأن مَنْ يُوجِّه إهانة للرسول إنما يُوجِّهها للمرسِل له، وهو الذي جَلَّتْ قدرته وسبحانه يُبيِّن لنا أن رسوله ﷺ كان حريصاً أشد ما يكون الحرص على أنْ تستجيب أمته لداعي الحق، حتى يتأكد لدى المؤمنين قَوْل الحق سبحانه وتعالى في رسوله ﷺ:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ولا معنى للحرص إلا أن رسول اللَّه ﷺ يحب ألَّا يُفلت أحد من قومه عن منهجه وعن دينه، ومعنى الحرص: أن يحوطكم بالرعاية، حتى لا تقعوا في المشقة الأكبر.

وهو ﷺ رؤوف رحيم.

والرأفة والرحمة قد تلتقيان في المعنى العام، ولكن هناك أموراً تسلب مَضَرَّة، وأموراً تجلبُ منافع.

---

(١) يقول تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤].
ويقول أيضاً: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٦].
ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢].

(٢) يُقال: سَلَّاني من هَمِّي تسلية وأسلاني. أي: كشفه عني. وانسلى عني الهم أي: انكشف. (لسان العرب ـ مادة: سلا).

(٣) الجحود: الإنكار مع العلم. (اللسان ـ مادة: جحد).

فالرأفة: هي سَلْب ما يَضُر من الابتلاء والمشقة.

والرحمة: تجلب ما ينفع من النعيم والارتقاء.

وحَسْبكم من هاتين الصفتين أن اللَّه سبحانه وتعالى وصف رسوله بهذين الوصفين(١).

وقد ثبت أنه سبحانه قد وصف نفسه بقوله سبحانه:

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٧].

إذن: فالرسول ﷺ لا يسلك بما عنده، بل يسلك برأفة مُستمدة من رأفة العليِّ الأعلى، وكذلك رحمته ﷺ مُستمدة من رحمة العليِّ الأعلى.

ورسول اللَّه ﷺ حريص على أنْ يشمل اللَّه أمته بمغفرته ورحمته، وألَّا يسوؤه فيها، لذلك أخبره المولى عز وجل بأنه سوف يُرضيه في أمته.

وقد أشفق رسول اللَّه ﷺ على أمته من موقف يشهد فيه عليهم ضمن مَنْ سيشهد عليهم يوم الحشر، وذلك مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

وعن عبد اللَّه بن مسعود رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

«**اقرأ عليّ القرآن**»(٢).

فقلت: يا رسول اللَّه، أقرأ عليك وعليك أُنزل؟

قال: «**نعم، إنِّي أُحِب أنْ أسمعه من غيري**».

فقرأتُ سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

فقال ﷺ: «**حَسْبك، فإذَا عيناه تَذْرفانِ الدموعَ**».

فإذا كان الشهيد بكى من وَقْع الآية، فكيف يكون حال المشهود عليه؟

---

(١) أورد القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٢٢٨) ـ طبعة دار الغد ـ قول الحسن بن الفضل: لم يجمع اللَّه لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبي محمد ﷺ، فإنه قال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥].

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨٠٠) من حديث عبد اللَّه بن مسعود رضي اللَّه عنه، والترمذي في سننه (٣٠٢٥)، وأحمد في مسنده (١/ ٣٨٠، ٤٣٣).

الشهيد الذي سيشهد بكى من الآية، نعم، لأن قلبه ﷺ قد امتلأ رحمةً بأمته، ولذلك عرض رب العزّة سبحانه على رسوله أنْ يتولَّى أمر أمته.

وانظر إلى العظمة المحمدية والفَهْم عن اللَّه والفِطْنة، فقال ﷺ: «**لا، يا رب، أنت أرحم بهم مِنِّي**».

وكأنه ﷺ يقول للخالق سبحانه: أتنقل مسألتهم في يدي وأنا أخوهم، إنما أنت ربي وربهم، فهل أكون أنا أرحم بهم منك؟

لقد كان من المُتصوَّر أن يقول رسول اللَّه: نعم أعطني أمر أمتي، لكنه ﷺ قال: «**يا رب، أنت أرحم بهم مِنِّي**».

فكيف يكون رَدّ الربِّ عليه؟

قال سبحانه: فلا أُخْزِيك فيهم أبداً.

إخْلَاص الدِّينِ لِلَّه

٢٧ ـ يقول ربُّ العِزَّة سبحانه في الحديث القدسي:

«الإخْلَاصُ سِرٌّ مِنْ سِرِّي، اسْتَوْدعتُه قَلبَ مَنْ أحببْتُ مِنْ عِبَادِي»[(١)]

يقول الحق سبحانه:

﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ . . .﴾ [الأعراف: ٢٩].

والدعاء: طلبٌ مِنْ عاجز يتجه به لقادر في فِعْلٍ يحبه الداعي، وحين تدعو ربك ادْعُه مخلصاً له الدين، بحيث لا يكون في بالك الأسباب، لأن الأسباب إن كانت في بالك فأنت لم تخلص الدين.

فمعنى الإخلاص هو تصفية أي شيء من الشوائب التي فيه، والشوائب في العقائد وفي الأعمال تُفسِد الإتقان والإخلاص، وإياكم أن تفهموا أن أحداً لا تأتي له هذه المسألة.

فرسول اللَّه ﷺ يقول: **«إنِّي لَيُغانَ[(٢)] على قلبي، وإنِّي لأستغفر اللَّه كل يَوْمٍ مائة مرة»**[(٣)].

إذن: فالإخلاص عملية قلبية.

---

(١) ذكره الغزالي في الإحياء (٤/ ٣٧٦)، وقد قال الحافظ العراقي في تخريجه: «رويناه في جزء من «مسلسلات القزويني» مُسَلسلاً يقول كل واحد من رواته: سألت فلاناً عن الإخلاص؟ وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمي عن عبد الواحد بن زيد عن الحسن عن حذيفة عن النبي ﷺ عن جبريل عن اللَّه تعالى، وأحمد بن عطاء وعبد الواحد بن زيد كلاهما متروك. ورواه أبو القاسم القشيري في الرسالة من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف». وقد ضعَّف الحديث الألباني في السلسلة الضعيفة (٢/ ٦٣٠).

(٢) أراد ﷺ ما يغشاه من السهو الذي لا يخلو منه البشر، لأن قلبه كان مشغولاً باللَّه تعالى، فإن عرض له وقتاً ما عارض بشري يشغله من أمور الأمة والملة ومصالحهما عَدَّ ذلك ذنباً وتقصيراً، فيفزع إلى الاستغفار (اللسان ـ مادة: غين).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٠٢)، وأبو داود في سننه (١٥١٥) من حديث الأغر المزني، وقد كانت له صحبة.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر: ٢].

أي: اجعل الدين خالصاً لوجه اللَّه، وابتعد عن الرياء، لأن الذي تُرائيه لن يُعطيك شيئاً، لكن حين تُخلِص عبادتك للَّه، سَيُعطيك كل شيء.

فالرياء يُحبط العمل، ومع ذلك فالذي يتصدّق رياءً، نحن لا نرفض صدقته؛ لأنها ستنفعُ المحتاج، ولكن هو الخائب الذي خسر الأجر.

والمخلِص يصل بإخلاصه إلى عطاء اللَّه، فمن الناس مَنْ يصل بطاعة اللَّه إلى كرامة اللَّه، وآخر يصل بكرامة اللَّه إلى طاعة اللَّه، فاللَّه يأخذه من المعصية إلى الطاعة.

سئل القاضي عياض الذي كان قاطعَ طريق، فخرج ذات مَرَّة ليقطع الطريق على الناس فسمعهم يقولون: ابتعدوا عن هذا المكان، لأن فيه «عياض»، وعياض لا ينجو منه أحد.

فلما سمع خوف الناس ورعبهم منه، راجع نفسه وحاسبها، وقال: يا رب، تُبْ عليَّ حتى يهدأ هؤلاء، فاستجاب اللَّه دعوته وتاب عليه.

فلمَّا تاب اللَّه عليه وأصبح من الأتقياء، سأله مَنْ كانوا يعرفون فظاعته وقسوة قلبه، فسألوه عن هذا التحوُّل في حياته، وما سببُ هدايته؟

فقال: واللَّه إني لأعرف سببها، لقد مررتُ في سوق البطيخ في بغداد، فوجدتُ ورقةً من المصحف في الطريق يدوسها الناس، فانحنيتُ عليها وأخذتُها، فوجدتها مُتسِخة، فمسحتُها وذهبتُ إلى بائع الروائح، وكان معي درهم واحد، فاشتريت به عِطْراً، وعطَّرْتُ الورقة، ووضعتُها في شِقٍّ مرتفع في جدار.

والذي نفسي بيده، لقد سمعت منادياً ينادي:

يا عياض.. لأُطيبنَّ اسمك كما طيَّبْتَ اسمي.

ولذلك أكرمه اللَّه، وصار بعد شقاوته وَليّاً من أولياء اللَّه.

والرسول ﷺ يقول:

«إن اللَّه أَخفى ثلاثاً في ثلاث:

ـ أخفى رِضَاه في طاعته، فلا تحتقرنّ طاعة ما.

ـ وأخفى غضبه في معصيته، فلا تحتقرنّ معصية ما.

ـ وأخفى أسراره في خَلْقه».

فالمسلم يجب عليه ألّا يحتقر طاعة من الطاعات، فقد تكون فيها الخير كله[(١)]، كذلك لا تحتقرنّ معصية من المعاصي مهما صَغُرَتْ في نظرك.

فقد أخبر رسول اللَّه ﷺ أن امرأة دخلتْ النار في هِرَّة، حبستها، لا هي أطعمتْها، ولا سَقَتْها، ولا تركتْها تأكل من خشاش الأرض[(٢)].

كذلك أخفى الحق سبحانه أسراره في خلقه، فهذا الرجل احترم ورقة المصحف المُلْقاة على الأرض، ونظَّفها وعطّرها بالدرهم الذي كان معه، ووضعها في الشقِّ، فسمع منادياً يناديه:

«يا عياض.. لأطيبنَّ اسمك كما طيَّبْتَ اسمي».

فاجعل عبادتك له وحده، ولا تلتفت إلى شيء غيره، لأنك إذا التفت إلى شيء غير اللَّه فلن يُعطيك عليه أجراً، فلا تجعل له شريكاً في هذا.

ويُعقب اللَّه هذه الآية بقوله:

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

الدين الخالص شَرْع مَنْ؟

إنه شرع اللَّه، وهو مَنْ يُجازي عليه، فاحذر أن يكون عملك في منهج اللَّه مقصوداً به غير اللَّه؛ لأن هذا لن يُعطِيك أجراً، ولن ينفعك شيئاً.

فكأن اللَّه يريد أن يُحصِّن حركة الإنسان في كل شيء، فلا يصنع حركاتٍ لا تأتيه بخير، ويقول له: اعمل هذه ليأتيك الخير، فربُّنا حريص على أنْ يأتيك الخير من كل عمل.

---

(١) عن أبي ذر رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تَلْقى أخاك بوجه طَلْق». أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٢٦)، وأحمد في مسنده (٥/ ٦٣، ٦٤).

(٢) خشاش الأرض: هوام الأرض وحشراتها من فأرة ونحوها. وحكى النووي أنه روي بالحاء المهملة، والمراد: نبات الأرض. قال: وهو ضعيف أو غلط. والحديث متفق عليه عن ابن عمر رضي اللَّه عنهما. أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣١٨)، ومسلم في صحيحه (٢٢٤٢).

وقد قال تعالى عن المنافقين:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ[1] ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦].

فقد أكَّد الحق سبحانه هنا على الإخلاص، لأن تدبير النفاق كان ينبع من قلوبهم أولاً، وكل جارحة من جوارح الإنسان لها مجال معصية، ومجال معصية القلب هنا هو النفاق، وهو الأمر المستور.

إذن: فقول الحق: ﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ . . .﴾ [النساء: ١٤٦].

جاء ليؤكد ضرورة الإخلاص في التوبة عن النفاق، والإخلاص محلُّه القلب، فكأن توبة القلوب غير توبة الجوارح، فتوبة الجوارح تكون بأنْ تكفَّ الجوارح عن مجال معاصيها.

أما توبة القلب فهو أن يكفَّ عن مجال نفاقه، بأن يخلص.

وكُلّ عمل سَيُجازى صاحبه عليه بمدى إخلاصه للَّه، واللَّه سبحانه وتعالى لا يُفضِّل أحداً على أحد إلا بالعمل الصالح المخلص لوجه اللَّه، ولذلك فنحن نضع الإخلاص أولاً.

وقد يكون العمل واحداً أمام الناس، هذا يأخذ به ثواباً، وذلك يأخذ به وِزْراً وعذاباً. فالمهم هو أن يكون العمل خالصاً للَّه.

وقد يقول إنسان: إن الإخلاصَ في العمل، والعمل مكانه القلب، وما دام الإنسان لا يؤذي أحداً ولا يفعل منكراً، فليس من الضروري أنْ يُصلِّي، ما دامت النيةُ خالصةً.

نقول: إن المسألة ليست نيّات فقط، ولكنها أعمال ونيّات.

ورسول اللَّه ﷺ يقول:

«**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**»[2].

---

(١) الدرك: أقصى قعر الشيء. والجمع أدراك ودركات. وهي بعضها تحت بعض. قال ابن الأعرابي: الدرك: الطبق من أطباق جهنم. (لسان العرب ـ مادة: درك).

(٢) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (١)، وكذا مسلم في صحيحه (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه. وتمامه: «فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو =

فلا بُدَّ من عمل بعد النية؛ لأن النية تنتفع بها وحدك، والعمل يعود على الناس، فإذا كان في نيتك أنْ تتصدّق وتصدقت انتفع الفقراء بمالك، ولكن إذا لم يكُنْ في نيتك فعل الخير، وفعلته لتحصل على سمعة، أو لِتُرضي بشراً انتفع الفقراء بمالك، ولن تنتفع أنت بثواب هذا المال.

واللَّه سبحانه وتعالى يريد أنْ يقترن عملك بنية الإخلاص للَّه، والعمل حركة في الحياة، والنية هي التي تعطي الثواب لصاحبه أو تمنع عنه الثواب.

ولذلك يقول اللَّه جل جلاله:

﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١].

فاللَّه سبحانه وتعالى يريدنا أن نتصدق، والفقير سينتفع بالصدقة، سواء كانت نيتك أن يقال عنك: «رجل الخير المُتصدِّق»، أو: أن يقال عنك: «رجل البر والتقوى». أو: أن تُخفي صدقتك. فالعمل يفعل، فينتفع به الناس، سواء أردْتَ أم لم تُرِدْ.

أنت إذا قررتَ أنْ تبني عمارة، فالنية هنا هي التملُّك، ولكن انتفع ألوف الناس بهذا العمل، ابتداءً من الذي باع لك قطعة الأرض، والذي أعدَّ لك الرسم الهندسي، وعمال الحفْر، والذي وضع الأساس، ومَنْ قام بالبناء، وغيرهم وغيرهم.

هؤلاء انتفعوا من عملك برزق لهم، سواء أكان في بالك اللَّه أم لم يكُنْ في بالك اللَّه، فقد انتفعوا.

إذن: فكُلُّ عمل فيه نَفْعٌ للناس أردْتَ أم لم تُرِد، ولكن اللَّه لا يجزي على الأعمال بإطلاقها، وإنما يجزي على النيَّات بإخلاصها، فإنْ كان عملُكَ خالصاً للَّه جزاكَ اللَّه عليه، وإنْ كان عملك لهدف آخر فلا جزاءَ لك عند اللَّه، لأنه سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك[1].

= إلى امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه». قال ابن حجر في الفتح (١/ ١١): «قد تواتر النقل عن الأئمة في تعظيم قدر هذا الحديث، قال أبو عبد اللَّه ـ يقصد الإمام أحمد بن حنبل ـ: ليس في أخبار النبي ﷺ شيء أجمع وأغنى وأكثر فائدة من هذا الحديث».

(١) يقول رب العزة في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك =

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً لإخلاص الدين للَّه، حتى مِمَّنْ يشركون باللَّه، فيقول تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

وكلمة «أحيط بهم» معناها لا يوجد مَنْجى ولا مَخْرج لهم ولا مَهْرب، ولا أسباب الدنيا تنفع في هذا الموقف، فهنا لا مَلْجأ لهم إلا اللَّه، فدعوا اللَّه مخلصين.

وكلمة «مخلصين» معناها يقين اليقين في الإيمان، مع أنهم كانوا فرحين حينما كانوا في أمان واطمئنان، لماذا؟

لأن الإنسان لا يخدع نفسه حينما يداهمه[1] الخطر، فحينما يحيط به الخطر، وتعجز أسبابه عن دَفْعه يلجأ إلى اللَّه ويترك الشركاء، فتجده بفطرته يقول: يا ربّ.

فمعنى: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ . . .﴾ [يونس: ٢٢].

أي: لم يَعُدْ في بالهم إلا اللَّه، فالآلهة التي كانوا يعبدونها والأصنام وغيرها لا تأتي على بالهم، لأنهم يعلمون أنها كاذبة، فليس أمامهم إلا الإله الحق، وهو اللَّه.

إذن: قوله تعالى: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ . . .﴾ [يونس: ٢٢].

أي: دعوة دين خالص للَّه، لا تشوبه شائبةُ شركٍ ظاهر أو شركٍ خفيّ، لأن الإنسان لا يخدع نفسه، فيلجأ إلى اللَّه مباشرة، فهؤلاء لَمّا أحاط بهم الخطر ولم يجدوا مَناصاً[2] من الغرق لم يلجأوا إلا إلى اللَّه، فحين ينجيهم اللَّه من الكَرْب يعودون إلى ما كانوا عليه.

= فيه معي غيري تركته وشركه» أخرجه مسلم في صحيحه (٢٩٨٥)، وابن ماجه في سننه (٤٢٠٢).

(١) كل ما غشيك فقد دهمك يدهمك أي: يفجؤك ويدخل عليك. (راجع: لسان العرب ـ مادة: دهم).

(٢) ناص ينوص مناصاً: نجا. والمناص: المهرب والفرار والملجأ. أي لم يجد مفراً. (لسان العرب ـ مادة: نوص).

ولذلك نقول: فإن عمل القلوب لا يُسمع ولا يُرى.

فنيّة القلوب خاصة باللَّه مباشرة، ولا تدخل في اختصاص رقيب[(١)] وعتيد، وهما الملَكانِ المختصّان برقابة وكتابة سلوك وعمل الإنسان.

ولذلك نجد الحق سبحانه يصف ذاته في مواقع كثيرة من القرآن بأنه لطيف خبير، لطيفٌ بعلم ما يدخل ويتغلغل في الأشياء، وخبيرٌ بكل شيء، وقديرٌ على كل شيء.

يقول تعالى:

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

فاللَّه سبحانه لا تدركه عَيْن.

وعَيْنه ـ سبحانه وتعالى ـ لا تغفل عن أدقِّ شيء وأخفى نِيّة، فهو سبحانه خبير، عنده عِلْمٌ بخفايا الأمور.

ويقول الحق سبحانه:

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

فالحق سبحانه يُخبر رسوله ﷺ أنه سيحرسُ سِرّه، كما يحرس علانيته، فالجَهرُ عنده مثل السِّرِّ وأخْفى من السِّرِّ.

وإذا كان اللَّه يقول لرسوله المأمون على الرسالة هذا الكلام، فماذا نفعل نحن؟

فإيّاكم أنْ تقولوا كلاماً ظاهره فيه الرحمة، ونيتكم غير مُسْتقرة فيه؛ لأن اللَّه كما يعلم الجهر، يعلم السِّرِّ وأخْفى من السرِّ.

والجهر هو أن تُسمع مَنْ يريد أن يسمع، والسر أنْ تخُصّ واحداً بأن تضع في أذنه كلاماً لا تحب أن يشيع عند الناس، ولذلك تهمس في أذنه، ومعنى تهمس في أذنه أنك تأمنُه على هذا الكلام.

فالسرُّ هو ما تقوله لأذن تثق فيها لترتاح أنت نفسياً، وبعد ذلك تأمن ألَّا يذيعَ سِرّك.

---

(١) يقول تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. أي: إلا ولها من يرقبها معد لذلك يكتبها لا يترك كلمة ولا حركة. (تفسير ابن كثير ٤/ ٢٢٤).

وهناك أمور كثيرة في الحياة، تضيق النفس الإنسانية بها، ويحب الإنسان أن يُنفِّس عن نفسه، ولا بُدّ من شكوى إلى ذي مُروءةٍ يُواسِيك، أو يُسلِّيك، أو يتوجَّع.

فأنت تريد أُذناً تسمع منك لِتُريحَ نفسك وتُنفِّس عنها، ولكنها لا تفضحك بَعْد ما أسررتَ إليها، فهذا هو السر.

ولكن ما هو الأخفى من السر؟

فالأخفى من السر هو ما لم يخرج من فَمِك.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الملك: ١٣].

أي: أن اللَّه يعلمه قبل أنْ يصير كلاماً، فالحق سبحانه يسمعك دون أن تتكلم، فيعلم مَا تبقيه في نفسك ولا تخبر به أحداً، ولا تُسِرُّ به لإنسان.

والحق سبحانه يعلم ما ستفعله قبل أنْ تفعله.

فعِلْم اللَّه تعالى لا ينتظر إلى أنْ يبرز الشيء جهراً، بل هو بكمال علمه وطلاقة إحاطته يعلمه من أول ما كان سِراً، ويعلمه ويحيط به بعد أنْ برز وظهر ووُجِد.

يقول تعالى: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

فالحق سبحانه يعلم بالحبَّة التي تختفي في باطن الأرض وأحوالها، فعند اللَّه عِلْمُ جميع الغيب، ويحيط علمه بكل شيء، ولا تخفى عليه خافية.

ولذلك يقول تعالى:

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [النساء: ١٠٨].

فكلمة: ﴿ وَهُوَ مَعَهُمْ . . . ﴾ [النساء: ١٠٨].

تجعل المؤمن مُصدِّقاً أن اللَّه لا تَخْفى عليه خافية، فمن الممكن أنْ يستترَ الشخص عن الناس، ولكنه لا يستطيع أبداً أن يستترَ عن اللَّه؛

لأن اللَّه مع كل إنسان في الخلوة والجلوة، والسر والعلن.

فإن قَدَر واحد على الاستخفاء من الناس، فهو لن يقدرَ على الاستخفاء من اللَّه.

ومعنى: «يُبيِّت» أن يصنع مكيدة في البيت ليلاً، وكُلّ تدبير بخفاء اسمه «تبييت»، حتى ولو كان في وَضَح النهار، ولا يُبيِّت إنسان بخفاء إلا رغبة منه في أنْ ينفض عنه عيونَ الرائين.

فنقول له:

أنت تنفض العيون التي مثلك، لكن العيون الأزلية، وهي عيون الحق فلن تَقدِر عليها.

وحين نسمع كلمة «محيط» فلنعلم أن الإحاطة هي تطويق المحيط لِلمُحاط، بحيث لا يستطيع أنْ يُفلت منه، عِلْماً بحاله التي هو عليها، ولا قَدرة على أنْ يفلتَ منه مآلاً وعاقبة.

فهو سبحانه محيط علماً؛ لأنه هو الذي لا تَخْفى عليه خافية، ومحيط قدرةً، فلا يستطيع أنْ يُفلت أحد منه إلى الخارج.

وسبحانه محيط علماً بكل جزئيات الكون وتفاصيله، وهو القادر فوق كل شيء.

فإذا سمعنا كلمة «محيط» فمعناها أن الحق سبحانه وتعالى يحيط ما يحيط به علماً بكل جزئياته، فلا تستطيع جزئية أن تهرب من علم الحق.

ومَنْ تحقق بهذا ينطبق عليه قول الحق سبحانه:

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ(١) أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠، ٦١].

فهؤلاء يؤتون غيرهم، فهناك حقوق للَّه يُؤدِّيها الإنسان للفقراء مثل حقوق الزكاة، والحقوق المتعلقة بالكفّارة، والحقوق المتعلقة بالنذور التي فرضها الإنسان على نفسه ولم يفرضها عليه أحد.

---

(١) الوجل: الفزع والخوف. (لسان العرب ـ مادة: وجل). قال ابن كثير في تفسير هذه الآية (٣/ ٢٤٨): «أي: يعطون العطاء وهم خائفون وجلون أن لا يتقبل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصَّروا في القيام بشرط الإعطاء، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط».

وكذلك الحقوق المتعلِّقة بالعباد مثل الودائع والأمانات التي للناس عندك، ومثل العدالة في حُكْمك بين الناس.

فكيف يفعل هذا وقلبه يكون وَجِلاً؟

قالوا: نعم؛ لأنه يخاف ألَّا تكون نيَّة الإخلاص صاحبتْ العمل، وما دامتْ نيَّة الإخلاص لم تصاحب العمل فهو يخشى ألَّا يقبل اللَّه هذا العمل.

وسيد الخلق ﷺ يقول:

«**اللهم إني أستغفرك من كل عمل أريد به وجهك، فخالطني فيه ما ليس لك**»[(١)].

إذن: الإنسان حين يعمل العمل الصالح، عليه أنْ يحاول مصاحبة هذا العمل بإخلاص، أي: يكون العمل للَّه، فاللَّه لا يرضى لك أن تعمل عملاً لا تأخذ عليه جزاء.

وإنك إنْ رَاءيْتَ الناس في شيء من أعمالك، فالذي راءيته لن يعطيك شيئاً من الجزاء، فيصبح عملك هَدَراً لا فائدة لك فيه.

فاللَّه يَغَارُ عليك، ويأمرك أنْ تجعل عملك لمن يقدر على إعطائك الجزاء عليه.

فالمؤمن يخشى على عمله من الرياء وعدم الإخلاص؛ لأنه يثق أنه راجعٌ إلى ربِّه، وهو الذي سيجازيه على قَدْر إخلاصه في عمله، فإنْ شابَ العملَ شيءٌ من عدم الإخلاص يخاف العبد من الفضيحة على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، وخسران الجزاء من اللَّه.

وهناك أعمال ظاهرها أنها من الدين، لكن يكون في طَيِّها شيء من الرياء أو السُّمْعة، ولذلك تجد إنساناً تظن أنه مُتديِّن يقول لك: أنا أعمل هذا العمل للَّه، ثم لك.

هذا الإنسان نقول له: لا تعطف على اللَّه شيئاً، واجعل عملك خالصاً للَّه وحده[(٢)].

---

(١) أورده ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم (ص٢٧) من دعاء مطرف بن عبد اللَّه.

(٢) قال النووي في كتاب «الأذكار» (ص٣١٨): «روينا في سنن أبي داود بالإسناد الصحيح عن حذيفة رضي اللَّه عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تقولوا ما شاء اللَّه وشاء فلان، ولكن =

ولذلك، في يوم القيامة يتجلَّى اللَّه على الخَلْق، فالذين كانوا يؤمنون به يطمئنون على أن جَزَاءهم قد جاء، والذين لم يكونوا يؤمنون به يُفاجأون بوجوده سبحانه، وبالجزاء والحساب، فَفُوجِئوا بأمر لم يكُنْ في بالهم، ولم يعملوا له أيَّ حساب.

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ[1] يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

فالكافر يُفَاجأ بوجود اللَّه سبحانه؛ لأن هذا شيءٌ لم يكن في حسبانه.

إذن: مَا دُمْنَا سَنُفاجأ بوجود الحقِّ ولا شيءَ غيره، فعلينا أن نُخلِص أعمالنا كلها للَّه، ولا شيء لغير اللَّه.

ومعنى ﴿وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ . . .﴾ [المؤمنون: ٦٠].

الوَجَل: هو انفعال قَسْري[2] في العضو مما يطرأ عليه من خوف أو خشية، فيضطرب أو يرتعش، وهذا نتيجة الخوف.

وهناك مرتبة أَعْلَى من الخوف، وهي الخشية، فالخشية أقوى من الخوف؛ لأن الخوفَ شيء يُخيفك أنت، لكن الخشية شيء يُخيفك مِمَّنْ يُوقِع بك أذىً أشدّ من الذي أنت فيه.

وهم قلوبهم وَجِلة؛ لأنهم سيُعرضون على ربٍّ يعلم كل شيء، وسيحاسبهم على كل كبيرة وصغيرة، فلا بُدَّ أن يخشَوْهُ ويُخلِصوا أعمالهم له.

= قولوا: ما شاء اللَّه ثم ما شاء فلان». قال الخطابي وغيره: هذا إرشاد إلى الأدب، وذلك أن الواو للجمع والتشريك، وثم للعطف مع الترتيب والتراخي، فأرشدهم ﷺ إلى تقديم مشيئة اللَّه تعالى على مشيئة من سواه. وجاء عن إبراهيم النخعي أنه كان يكره أن يقول الرجل: أعوذ باللَّه وبك. ويجوز أن يقول: أعوذ باللَّه وبك. قالوا: ويقول: لولا اللَّه ثم فلان لفعلت كذا. ولا تقل: لولا اللَّه وفلان».

(١) القاع والقاعة والقيع: أرض واسعة سهلة مطمئنة مستوية حرة لا حُزونة فيها ولا ارتفاع ولا انهباط، تنفرج عنها الجبال والآكام، ولا حصى فيها ولا حجارة ولا تنبت الشجر، وفيه يكون السراب نصف النهار. (لسان العرب ـ مادة: قوع).

(٢) قَسَره على الأمر قَسْراً: أكرهه عليه. (لسان العرب ـ مادة: قسر).

ويقول تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٩].

فالمؤمنون دائماً يخشون ربهم الغيب، لأنهم لا يرون اللَّه بأبصارهم ولكن يرونه بآثاره في الكون، كما أنهم يؤمنون بالغيب، أي: بالأشياء التي لم يروها ولكن اللَّه أخبرهم بها، فأصبح غَيْبها بإخبار اللَّه مَشْهداً.

أو: أن معنى ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ . . . ﴾ [الأنبياء: ٤٩].

أي: في حين خَلْوتهم بعيداً عن الناس، فهم يُراقِبون اللَّه ويخافونه حتى في حالات بُعْدِهم عن الناس واختلائهم بأنفسهم بحيثُ لا يراهم أحد.

بينما بعض المرائين تجده أمام الناس يظهر في صورة التقيِّ الوَرِع، ومن وراء ظهورهم يفعل ما يشاء من المعاصي والفساد.

واللَّه يريدك أنْ تخشاه في خَلْواتك مثل خشيتك له أمام الناس؛ لأن هذا هو الإخلاص والتقوى التي يريدها اللَّه منك.

فاللَّه تعالى يريد قلباً سليماً قد خَلَا من الرياء والشرك الخفيّ، ومعنى القلب السليم هو الذي لا يَعْمُر إلا بما أراد اللَّه أن يَعْمُرَ به.

وقد قال تعالى في حديثه القدسي:

« **مَا وَسِعْتني أرضي ولا سمائي، ولكن وَسِعني قَلْب عَبْدي المؤمن** ».

فلا تزحم قلبك بالكلام الفارغ، واجعلْه للَّه، فهذه سلامة القلب، قلب ليس فيه شرك، ولكنه خالص لوجه اللَّه، وليس فيه نفاق.

لأن المنافق يشهد أن لا إلٰه إلا اللَّه، وأن محمداً رسول اللَّه بلسانه فقط، ولكن قلبه جاحدٌ بها، فَقلْبه لم يوافق لسانه، فقلْبه ليس سليماً في ذلك الادعاء الذي أعلنه.

والحق سبحانه يقول:

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

فالمال قد ينفع صاحبه، والبنون كذلك إذا كان قلبه سليماً وعمله خالصاً للَّه؛ لأن هذا العمل لو كان رياءً فلا فائدة منه، وإنْ كان نفاقاً فلا خَيْرَ فيه، وإنْ كان عملاً ممَّنْ لا يؤمن باللَّه فلا ثواب له في الآخرة.

قال تعالى:

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً[1] مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

لأنك في هذه الحالة فعلْتَ ليقال وقد قيل، فعلتَ لِيُقامَ لك حَفْلُ تكريم وقد حدث، فعلْتَ لتأخذ نيشاناً أو جائزة، وقد حدث.

بنيْتَ مسجداً وكتبْتَ عليه اسمك ودعوْتَ الناس الكبار والمسؤولين لِيُقال: بناه فلان، فأنت لم تقصد وجه اللَّه، ولكنك قصدتَ مدْحَ الناس، فلا ثوابَ لك عليه، فطهِّر نفسك من هذا الشرك الخفيّ.

إذن: قول اللَّه تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [الشعراء: ٨٨].

ليس نَفْياً لِنفْع المال والبنين في الآخرة، ولكن النفع مشروطٌ بأنْ يَلْقى الإنسان ربَّه بقلْبٍ سليم، فلا يعمل عملاً إلا ويقصد به وَجْه اللَّه تعالى بعيداً عن الرياء والسمعة والفَخْر.

ومعنى القلب السليم، السلامة أنْ يظلَّ الشيء بغير عَطَب في ذاته ليؤدي مُهِمّته، فكأن السلامة تُوجد أولاً، وبعد ذلك الإنسان هو الذي يُفسِدها.

ولذلك يقول سبحانه:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].

فالسلامة أنْ يبقى الشيء على صلاحه الذي خلقه اللَّه فيه.

فلو تنبَّه الناس إلى متاعبهم في الكون من فساد فيه، لحافظ كل واحد على كل شيء ولم يظلم أحداً، فلا يظلم نباتاً ولا جماداً ولا حيواناً، لأن كل حركة في الكون إذا لم يتدخَّل فيها الإنسان على هواه تمشي مُسْتقيمة.

فالفساد يأتي من تدخُّل الإنسان على غير منهج ربه، ولكنه لو تدخَّل على هُدىً من منهج ربِّه لما حدث فساد، ولَظلَّتْ الأشياء على استقامتها.

---

(١) الهباء: الشيء المنبثّ الذي تراه في البيت من ضوء الشمس شبيهاً بالغبار. وقيل: هو ما تثيره الخيل بحوافرها من دُقاق الغبار. (لسان العرب ـ مادة: هبا).

قال تعالى:

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ[1] * وَٱلنَّجْمُ[2] وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٥ ـ ٧].

فربُّنا وضع الميزان في الكون، فإذا نظرتَ إلى الشمس نجدها تشرق كل يوم بنظام دقيق لا يتغيَّر أو يتبدَّل، وكذلك القمر والنجوم والهواء والبحار والأنهار.

كلُّها تعمل بنظام دقيق، لأن الإنسانَ لا يتدخَّل فيها، لكن الأشياء التي للإنسان دَخْل فيها بمنهج اللَّه تظل سليمة، لكن إذا تدخَّل على هواه بعيداً عن منهج اللَّه يحدث الفساد.

ويقول تعالى عن إبراهيم عليه السلام:

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ[3] لَإِبْرَٰهِيمَ * إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٤].

فأساس العملية كلها أنْ يكونَ القلْبُ سليماً؛ لأن فطرة اللَّه التي فطر الناس عليها ابتداء كلها مَبْنيّة على الصَّلاح والسلامة، فإنْ طرأَ فساد فهو من الإنسان، فكُلُّ شيء في الكون مخلوق على هيئة الصَّلاح والسلام.

فقوله سبحانه: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤].

أي: أن القلبَ الذي فُطِر عليه أولاً لم يتغيَّر، فجاء ربّه بهذا القَلْب السَّليم وعاش بهذا القَلْب السليم، وبعد ذلك يظهر به في الآخرة فلا ينفع لا مالٌ ولا بنون إلا مَنْ أتَى اللَّه بقلبٍ سليم.

---

(١) الحُسْبان: الحساب. قال الزجاج: بحُسْبان يدل على عدد الشهور والسنين وجميع الأوقات. (لسان العرب ـ مادة: حسب).

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٧٠): «قال ابن جرير: اختلف المفسرون في معنى قوله: (والنجم) بعد إجماعهم على أن الشجر ما قام على ساق. فقال ابن عباس: النجم ما انبسط على وجه الأرض يعني من النبات. وكذا قال سعيد بن جبير والسدي وسفيان الثوري. وقد اختاره ابن جرير. وقال مجاهد: النجم الذي في السماء. وكذا قال الحسن وقتادة وهذا القول هو الأظهر».

(٣) الشيعة: الفرقة من الناس يتابع بعضهم بعضاً. وشيعة الرجل: أتباعه وأنصاره، ومَنْ على مذهبه ورأيه. والجمع شيع وأشياع.

قال تعالى:

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

فالسلامة الأولى استصحبها باستصحاب منهج اللَّه، فسَلِم في الدنيا، وبعد ذلك وصل إلى اللَّه بقلب سليم.

وهناك «مُخلِصين»، و«مُخلَصين».

والمخلِص هو مَنْ جاهد، فكسبَ طاعة اللَّه.

والمخلَص هو مَنْ كسب، فجاهد وأخلَصه اللَّه لنفسه.

وهناك أُناسٌ يَصِلُون بطاعة اللَّه إلى كرامة اللَّه، وهناك أُناس يُكرِمهم اللَّه فيُطِيعون اللَّه.

فأنت قد يطرقُ بابك واحدٌ يسألك من فضل اللَّه عليه، فتستضيفه وتُكرمه، ومرة أخرى قد تمشي في الشارع وتدعو واحداً لتعطيه من فضل اللَّه عليك.

أي: هناك مَنْ يطلب فتأذن له، وهناك مَنْ تطلبه أنت لتعطيه.

وقد قال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤].

فالحق سبحانه صرفَ عن يوسف عليه السلام غواية الشيطان، والشيطان لا يدخلُ أبداً في معركة مع اللَّه، ولكنه يدخل مع خَلْق اللَّه.

والحق سبحانه يُورِد على لسان الشيطان قوله: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

فالشيطان نفسه يُقِرُّ أن مَنْ يستخلصه اللَّه لنفسه من العباد إنما يعجز ـ هو كشيطان ـ عن غوايته، ولا يجرؤ على الاقتراب منه.

فالذي يريده اللَّه مَهْدِياً لا يستطيع الشيطان أن يُغويه، لأن الشيطان لا يُنَاهِض ربنا ولا يُقاوِمه، إنما يُناهض خَلْق اللَّه، ولا يدخل مع ربنا في معركة، إنما يدخل مع خَلْقه في معركة ليس له فيها حُجَّة ولا قوة.

فإبليسُ لا يستطيع أنْ يقربَ من عبدٍ مؤمن مخلص في إيمانه.

وهذا لأن إبليس يعلم حجمه وقَدْره، ويعلم أنه إذا أراد استخلاص عَبْد لنفسه لا يستطيع، ولذلك قال:

﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۞ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ(١) ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦١، ٦٢].

وهذا القليل هم الذين أخلصهم اللَّه لعبادته وطاعته، فلا يستطيع الشيطان أن يقربهم.

وربُّ العزّة سبحانه يقول هنا في الحديث القدسي:

« **الإخلاص سِرٌّ من سِرِّي، استودعتُه قلبَ مَنْ أحببتُ من عبادي** ».

فما هو الحبُّ؟

إنه وَدَادة القلب، ونعرف أن هناك لَوْناً من الحبِّ يتحكم فيه العقل، ولَوْناً آخر من الحب لا يتحكَّم فيه العقل، ولكن تتحكم فيه العاطفة.

والحبُّ العقلي هو إيثارُ النافع.

ومثال ذلك: نجد الوالد لابن غبي يحبُّ ابناً ذكياً لإنسان غيره.

فالوالد هنا يحبُّ ابنه الغبي بعاطفته، ولكنه يحب ابنَ جاره، لأنه يمتلكُ رصيداً من الذكاء.

إذن: هناك حُبُّ عقليّ، وحُبٌّ عاطفيّ، وهذا ما يحدث في المجال البشريّ، لكن بالنسبة للَّه فلا.

فحبُّ اللَّه تعالى لا تَقُلْ فيه أيها المؤمن: هل هو حُبٌّ عقليّ، أو حُبٌّ عاطفيّ؟

لأن المراد بحبِّ الإله هو دوام فيُوضاته على مَنْ يحب، هذا في الدنيا، أما في الآخرة فالحقُّ يَلْقاه في أحضان نِعَمه، ويتجلّى عليه برؤيته.

والحب بين اللَّه وعباده المؤمنين حبٌّ مُتبادَل، ويقول سبحانه في هذا:

﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ . . . ﴾ [المائدة: ٥٤].

فحين يحبون اللَّه يَردُّ سبحانه على تحية الحبِّ بحبٍّ زائد، وهُمْ يردُّون

---

(١) احتنك فلاناً: استولى عليه واستماله إليه، فلا يخرج عن طوعه على المجاز، كأنه وضعه في حنكه فلا يُفلت منه. قال تعالى: ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٢]، أي: لأملكن أمرهم وأستولي عليهم فلا يعصون أمري.

على تحية الحب منه سبحانه بحبٍّ زائد، وهكذا تتوالى زيادات وزيادات، حتى نصل إلى قمة الحب.

وقد يحبون اللَّه بعقولهم، ثم يتسامى الحب إلى أن يصير بعاطفتهم، وقد يُجرب ذلك حين يُجرِي اللَّه على أناس أشياء هي شرٌّ في ظاهرها، ولكنهم يظلُّون على عِشْق للَّه.

ومعنى ذلك أن حُبهم للَّه انتقل من عقولهم إلى عاطفتهم.

والحب عند اللَّه لا نهايةَ له، وسبحانه يرسل إمداداته في كل لحظة، ولا تنتهي إمداداته على الخَلْق أبداً، وسبحانه يَصِف نفسه بأنه القيوم فاطمئِنُوا أنتم، فإنْ كنتم تريدون أنْ تناموا فناموا، فربكُم لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم.

والحق سبحانه يصِف نفسه:

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ . . .﴾ [المائدة: ٦٤].

أي: أنه سبحانه يُطمئِنُ الخلْقَ أنهم بمجرد إيمانهم ستأتيهم إمداداتُ اللَّه وفُيوضاته المعنوية والمادية، فصحِّح جهاز استقبالك، بألَّا توجدَ فيه نجاسة حِسِّية أو نجاسة معنوية.

ولذلك إذا رأيتَ إنساناً عنده فُيوضاتٌ من الحق فاعلم أن ذرّاتِ جسمه مبنيَّة من حلال، ولا توجد به قذارة معنوية، ولا قذارة حِسِّية.

ويتضح ذلك كُلُّه على ملامح وجهه، وفي كلماته، وحُسْن استقباله، وإنْ كان أسمر اللون فتجده يأسِرُك ويخطف قلبك بِنُورانيته، وقد تجد إنساناً أبيضَ اللون، لكن ليس في وجهه نُور، لأن فيوضاتِ ربنا غير مُتجلِّية عليه.

وكيف تأتي الفُيوضَاتُ؟

إنها تأتي بتنقية النفس؛ لأن الإنسان إنِ افتقر إلى الفُيوضات الربَّانية فعليه أنْ يبحثَ في جهازه الاستقبالي.

وأضرب هنا مثلاً ـ وللَّه المثل الأعلى ـ بالإرسال الإذاعي، فمحطات الإذاعة تُرسِل، ومَنْ يملك جهازَ استقبالٍ سليمٍ فهو يلتقط البثَّ الإذاعيَّ، أما

إن كان جهازُ الاستقبال فاسداً فهذا لا يعني أن محطات الإذاعة لا تبثُّ برامجها.

ولذلك قال سبحانه:

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ . . .﴾ [المائدة: ٦٤].

فاحرص دائماً على أن تتناول من يَدِ ربِّك المددَ الذي لا ينتهي.

فرس المحتويات

مقدمة المعدّ ٥
صلة الرحم ٩
حسن الظن باللَّه ١٤
ولكن ما هو الذكر المقصود في هذا الحديث القدسي؟ ١٨
فهل الذكر أن تقول باللسان؟ أو الذكر أن يمر الشيء بالخاطر؟ ١٨
أغنى الشركاء ٢٢
الصلاة المقسومة ٣٢
«حمدني عبدي» ٣٦
«أثنى عليَّ عبدي» ٣٩
ما هي الرحمة؟ ٣٩
«مجَّدني عبدي» ٤٢
«هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل» ٤٤
اللَّه ينتظرك عند المريض ٤٨
نعيم الجنة لا حدود له ٥٦
«أعددت» ٦٦
أولياء اللَّه ٧٠
أهل التقوى وأهل المغفرة ٨٤
هل أنتم زدتم له صفة؟ ٩٣
الجنة حرام على قاتل نفسه ٩٧
الرياء محبط للعمل ١٠٧
الحسنة والسيئة ١٢٠
خمس صلوات ١٣١

من هم الخاشعون؟ ١٣٢
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٣٩
الصبر عند الصدمة الأولى ١٤٨
غفرتُ لَهُ ولَا أُبَالي ١٥٩
اليوم أنساك كما نسيتني ١٧٤
هو سبحانه واهب الولد ١٨٨
نعمة التسخير: ١٩٥
«وسخرت لك الأنعام والحرث» ١٩٩
الظَّلُومُ الجَهُول ٢٠٨
فضل التجاوز عن المدين المعْسِر ٢٤٦
أين ملوك الأرض؟ ٢٦٠
النظر إلى وجه اللَّه الكريم ٢٧٦
أصحاب الأعراف ٢٨٨
كذَّبَني ابنُ آدمَ ٢٩٧
شتمني ابن آدم ٣٢٣
رزق الشيطان ٣٤٦
عَطاءُ الذَّاكِرينَ ٣٦٣
أمَّتي. أمَّتي ٣٨١
إخْلَاص الدِّينِ لِلَّه ٣٩٤